

دراسات وبحوث في

# تاريخ المغرب والأندلس

الدكتور أمين توفيق الطيبي

الطبعة الأولى: ١٩٨٠





دراسات وبحوث في  
تاريخ المغرب والأندلس

الدكتور أمين توفيق الطيبي

دار العربية للكتاب



---

جميع الحقوق محفوظة دار العربية للكتاب  
ليبيا - تونس

١٩٨٤



الإهداء

إلى والديَّ

عرفانا بالفضل والجميل

## تقديم المؤلف

يُسعدنا ان نقدم للقارئ العربي هذه المجموعة من البحوث والدراسات التي أعدناها في السنوات الأربع الأخيرة في تاريخ المغرب العربي والأندلس ، بما في ذلك جزر كريت (إقريطش) وصقلية وقوصرة (بنطلارية) لصلاتها الوثيقة بالأندلس والمغرب. وتتناول هذه البحوث الثمانية عشر مواضيع في الفترة الزمنية من الفتح العربي إلى نهاية القرون الوسطى، أي إلى القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد .

وقد اعتبرنا فترة الحكم العربي لجزيرة كريت (٨٢٨ — ٩٦١ م) ضمن إطار هذه البحوث نظراً إلى أن فاتحي الجزيرة قَدِموا من الأندلس وظلُّوا على علاقات وثيقة بالوطن الأم وبالمغرب .

وتتناول ثلاثة من البحوث حَقَباً من تاريخ المسلمين في جزيرة صقلية على عهد النورمان (القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد) ، وعلى عهد الإمبراطور فردريك الثاني (النصف الأول من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر للميلاد) . وقد خصَّصنا بحثاً لمسلمي جزيرة قوصرة (بنطلارية) الصغيرة ، التي تحتلُّ موقعاً استراتيجياً بين جزيرة صقلية وساحل إفريقية .

أما بقية البحوث فتتناول جوانباً من تاريخ الأندلس والمغرب ، وهي متداخلة في معظمها ، بالنظر إلى تداخل تاريخ العُدوتين طيلة فترة العصر الوسيط . وقد أفرَدنا بحثاً عن الحصار العربية الإسلامية وأثرها في السودان الغربي ، وآخر لانتشار النقود العربية وأثرها في أوروبا ، وبخاصة في جنوبي أوروبا من منطقة بحرايجة إلى شبه جزيرة إيبيريا في القرون الوسطى . ويتناول البحثُ الخاصُّ بحمام الزاجل استعمال الحمام كوسيلة من وسائل الاتصال السريع ، في كلٍّ من المشرق والمغرب العربيين .

وقد اعتمدنا في كلِّ هذه البحوث على المصادر العربية الأصلية في المقام الأول ، كما

رجعنا إلى البحوث الحديثة التي كتبها المتخصصون بلغات أجنبية حول مختلف جوانب هذه الدراسات ، وأشرنا إلى كل ذلك في موضعه في الحواشي .

إن خمسةً من هذه البحوث قُدمت في ندواتٍ علمية . فالبحثُ الخاصُّ بالحضارة العربية الإسلامية وأثرها في السودان الغربي وكذلك البحثُ الخاصُّ بانتشار النقود العربية وأثرها في أوروبا في القرون الوسطى قُدمَا في الندوة العالمية التي عُقدت في إشبيلية في شهر مارس عام ١٩٨٠ ، عن الحضارة العربية الإسلامية ودورها في تقدم الإنسانية . وقُدمَ البحثُ الخاصُّ بالصوفي الأندلسي أبي مروان عبد الملك الجحاني في (مهرجان زروق) الذي عُقد في مدينة مصراتة في شهر يونيو عام ١٩٨٠ ، بمناسبة مرور خمسمائة سنة على وفاة الشيخ أحمد زروق . أما البحثُ الخاصُّ بقيام عمر بن حفصون وبنه على الإمارة الأموية بقرطبة فقد قُدمَ في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ المغرب وحضارته الذي نظَّمته في مدينة تونس الجمعية التونسية للمؤرخين الجامعيين ، في شهر نوفمبر عام ١٩٨٠ . وقُدمَ البحثُ الخاصُّ بالسياسة العربية للإمبراطور فردريك الثاني صاحب صقلية في الأسبوع الثقافي العربي الذي نظَّمه مركزُ جهادِ الليبيين للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المعهد الإيطالي الإفريقي في رومة ، في شهر يناير عام ١٩٨١ .

وقد نُشر البعضُ من هذه البحوث والدراسات في (مجلة كلية التربية) بجامعة الفاتح بطرابلس الغرب ، ونُشر البعضُ الآخر في (مجلة البحوث التاريخية) التي تصدرُ عن مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، وفي مجلة (الفصول الأربعة) التي تصدرُ عن مؤتمر الأدباء والكتاب بليبيا . أما الدراسةُ الخاصةُ بكتاب (المُعْتَبَس) للمؤرخ الأندلسي أبي مروان بن حيّان فقد نُشرت في مجلة (الثقافة العربية) التي تصدرُ عن اللجنة الشعبية للإعلام الليبية . وقد رأينا الآن أن ننشرَ هذه البحوث مجتمعةً لتيسير تناولها والرجوع إليها من قِبَل المهتمين بالدراسات الأندلسية والمغربية .

ونأمل في أن يجدَ أساتذَةُ وطلبةُ التاريخ في هذه البحوث والدراسات عوناً لهم في دراساتهم ، كما نأمل في أن تعودَ بالفائدة على المثقفين عامة ، وبخاصة أولئك الذين لا يُلمُّون بلغاتٍ أجنبية . ونرجو في الوقت نفسه أن تساهمَ هذه البحوثُ في دفع الاهتمام لدى الباحثين بدراسة الجوانب العديدة من تاريخ الأندلس والمغرب ، التي ما تزال في حاجة إلى البحث والتقصي .

وَنُوذُ فِي الْخَتَامِ أَنْ نَعْبِرَ عَنْ تَقْدِيرِنَا وَشُكْرِنَا لِلدَّارِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْكِتَابِ ، لِمَا تُسَدِّدُهُ مِنْ خِدْمَةٍ  
لِلْبَاحِثِينَ وَطُلَّابِ الْعِلْمِ ، بِمَا تُؤَلِّيهِ مِنْ عَنَاءٍ وَاهْتِمَامٍ لِإِحْيَاءِ التَّرَاثِ وَتَشْجِيعِ الْبَاحِثِينَ ، وَاللَّهُ  
وَلِيُّ التَّوْفِيقِ .

طرابلس الغرب : ١ ربيع أول ١٤٠٠ هـ الموافق ١٨ يناير ١٩٨١ م .

أمين توفيق الطيبي



## محتويات الكتاب

الموضوع .	الصفحة
الاهداء .....	٥
تقديم المؤلف .....	٦
محتويات الكتاب .....	٩
إمارة عربية أندلسية في جزيرة اقريطش « كريت » .	١١
ثبت بالمصادر والمراجع .....	٤٠
أحوال المسلمين في صقلية النورمانية .....	٤٢
المصادر والمراجع .....	٦٣
السياسة العربية للامبراطور فردريك الثاني .....	٦٤
صورة مشرفة في تاريخ المرأة العربية : مقاومة بطولية لفتاة من بني عبس في جزيرة صقلية .....	٨٤
جزيرة قوصرة ( بنطلارية ) العربية .....	٩٣
حمام الزاجل - عرض تاريخي حول استعماله في المراسلات السريعة في العالم الاسلامي في القرون الوسطى .....	١٠٦
المصادر والمراجع .....	١١٩
قيام عمر بن حفصون وبنيه في حصن بُبَشْتُر على الامارة الاموية بقرطبة	١٢٠

## الموضوع

## الصفحة

١٤٩	ثبت بالمصادر والمراجع .....
١٥١	كتاب ( المقتبس ) لأبي مروان بن حيّان القرطبي .....
١٥٦	وقعة الزلاقة المجيدة .....
١٧٣	المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية ( ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ) .....
١٩٩	مصادر البحث ومراجعته .....
٢٠٠	الأمير عبد الله بن بلقين (حكم ٤٦٥-٤٨٣ هـ / ١٠٧٣-١٠٩٠ م) ..
٢١٨	المراجع .....
	مدينة الأشبونة « لشبونة » الاسلامية من الفتح العربي
٢١٩	حتى سقوطها في أيدي الصليبيين .....
٢٤٤	ثبت بالمصادر والمراجع .....
	الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، لأبي الحسن علي بن بسّام الشنتريني
٢٤٨	(ت٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) .....
٢٥٨	ثبت بالمصادر والمراجع .....
٢٦٠	الشيخ أبو مروان عبد الملك اليحانسي (ت٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م) ...
٢٧٦	المصادر والمراجع العربية .....
٢٧٧	جبل طارق (جبل الفتح) معقل اسلامي عبر القرون الوسطى ...
٢٩٩	ثبت بمصادر البحث ومراجعته .....
	الحضارة العربية الاسلامية واثرها الايجابي في السودان الغربي في
٣٠١	القرون الوسطى ( ممالك غانة ومالي وسنغاي ) .....
٣٢٠	النقود العربية : انتشارها وأثرها في أوروبا في القرون الوسطى .....
٣٣٦	ثبت بالمصادر والمراجع .....
٣٣٨	أغنام المرينوذات أصل مغربي .....
٣٤٣	مراجع البحث .....

## إمارة عربية أندلسية في جزيرة إقريطش «كريت»

(٢١٢-٨٣٥٠/٨٢٨-٩٦١ م)

تمهيد :

كانت للعرب السيادة البحرية في البحر المتوسط (بحر الروم/ البحر الشامي) في القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد. وبفضل هذه السيادة استطاعوا أن يبتزوا من أيدي الروم البيزنطيين أكبر جزر البحر المتوسط كصقلية وإقريطش (كريت) وقبرص<sup>(١)</sup>. وفي زمن كانت فيه حروب الصوائف والشواني لا تنقطع في مناطق الثغور بين العرب والروم، اتخذ العرب هذه الجزر قواعد هامة للتجارة وللإغارة على أراضي الروم. وقد تم فتح جزيرة صقلية البيزنطية على يد عرب افريقية في عهد الأغالبة، وأما جزيرة إقريطش فقد فتحها واستقرت فيها جماعة عربية قدمت من الأندلس، بعد أن اضطرت إلى التروح عن موطنها في أعقاب ثورة الربض الشهيرة بقرطبة.

وقد قدر لبعض هؤلاء النازحين الأندلسيين أن ينزلوا على ساحل مصر، وأن يسيطروا على الإسكندرية وقيموا فيها إمارة مستقلة لمدة عشر سنوات، إلى أن اضطروا من جديد، وعلى أيدي العباسيين هذه المرة، إلى الرحيل عن البلاد. وهكذا قدر هؤلاء

---

(١) يتحدث ابن خلدون عن سيادة المسلمين البحرية آنذاك فيقول : «ولمكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة وإقريطش وقبرص... والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وصارت أساطيلهم فيه جائية ذاهبة، والمساكر الإسلامية تجيز البحر في الأساطيل». أنظر (المقدمة) ص ٢٥٤.

الأندلسيين المغامرين أن يفتتحوا جزيرة إقريطش البيزنطية وأن يستوطنوها نحو قرن ونصف القرن من الزمن . وقد اتخذوا الجزيرة مركزاً للتجارة ، وقاعدة لمواصلة الغزو البحري على مراكب الروم وأراضيهم في منطقة بحر إيجه ؛ لا بل إنهم أغاروا على البر اليوناني ذاته واستقروا في بلاد اليونان فترة من الزمن . وقد عُرف هؤلاء العرب الأندلسيون بالجرأة والإقدام ، ويصفهم الاصطخري بأنهم «أهلُ غزو»<sup>(٢)</sup> . ويتحدث ابنُ حوقل عن الجزيرة فيقول إنه «لم يكن للنصرانية فيها مدخل ولا مخرج ، وأهلها في غاية الجهاد»<sup>(٣)</sup> . وقد تعاقب على حكم الجزيرة عشرة من الأمراء من ذرية فاتح الجزيرة أبي حفص عمر ابن عيسى بن شعيب البلوطي المعروف بالإقريطشي والأندلسي ، إلى أن استرد الروم البيزنطيون الجزيرة عام ٩٦١/٣٥٠ م بعد حرب ضروس وحصار طويل لعاصمة الجزيرة (الخنديق) دام تسعة شهور ، لم يجد أثناءه عربُ إقريطش مُغيثاً أو نصيراً في المشرق أو المغرب . ففي مصر ، كانت دولة الإخشيديين تحتضر ، وفي الشام لم يكن للحمدانيين أسطول ، وكانوا في هذه الآونة يكابدون حرباً ضروساً مع الروم . وكان بوسع العبيديين الفاطميين في إفريقية مدُّ يد المساعدة لولا انشغالهم في الصراع الدائر في المغرب مع خلافة قرطبة الأموية ، وانشغالهم كذلك في التصدي للروم في مياه صقلية ، كما أن الفاطميين آنذاك كانوا يخططون لغزو المشرق وللقضاء على الخلافة العباسية ، وكانت إقريطش ولايةً عباسية .

وما أن استرد الروم البيزنطيون جزيرة إقريطش حتى عملوا على تنصير مسلميها بالإكراه ، ورحل بعضهم عن الجزيرة إلى الأندلس وصقلية والإسكندرية<sup>(٤)</sup> .

## ثورة أهل الرض ونزوح جَمْعٍ منهم إلى المشرق :

على أثر ثورة أهل الرض الجنوبي بقرطبة على الأمير الحكم بن هشام سنة ٨٢٠٢/١١٨ م وقعها بعنف ، أنذر الثائرون بوجوب مغادرة الأندلس على الفور . فتوجّه بعضهم إلى المغرب واستقروا في فاس (عدوة الأندلس) ، وأما الباقون ويُقدَّر عددهم بنحو

(٢) الاصطخري : المسالك والممالك ٧٠ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ١٨٤ .

(٤) المراكشي : المعجب ٢١ . ابن جبير : الرحلة ٢٨٠ .



خمسَ عشرَ ألفاً دون النساء والأطفال<sup>(٥)</sup>، فقد نزحوا إلى المشرق في ٢٠ رمضان سنة ٨٢٠/١١ أبريل ٨١٨م بطريق البحر حتى انتهوا إلى الإسكندرية، وذلك في أول ولاية المأمون، فعازهم أهلها وذهبوا إلى إذلالهم، فأبوا الضيم وثاروا بهم فغلبهم... وملكوا الإسكندرية مُدبدة إلى أن ورد عبد الله بن طاهر أميراً على مصر من قِبَل المأمون، فصالحهم على التخلي عنها على مال بذله لهم، وخيرهم في النزول بحيث شاءوا من جزائر البحر، فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومي<sup>(٦)</sup>.

ويرى المستشرق أماري أن هؤلاء الأندلسيين أقاموا بعضَ الوقت في الأندلس والمغرب ولم يصلوا إلى مصر إلا بعد ثماني سنوات من وقعة الرض، وبعد أن زوَّدهم أمير قرطبة بالمرائب اللازمة لتكبيهم من التوجه إلى المشرق، كما أنهم قبل التوجه إلى مصر زاولوا الغزو البحري ضدَّ مراكب النصارى في غربي البحر المتوسط<sup>(٧)</sup>.

وكانت الظروفُ في مصرَ مواتية، إذ كان قد انتزى في الفسطاط على الخليفة المأمون الوالي عبد الله بن السري، فانتز الأندلسيون الفرصة ونزلوا إلى البر قرب الإسكندرية وتحالفوا بادي الأمر مع إحدى القبائل العربية المجاورة للمدينة، ثم تمكَّنوا من السيطرة على الإسكندرية حيث أقاموا إمارةً مستقلةً ظلَّت قائمةً نحواً من عشر سنوات. وكما يقول ابنُ الأَبار فإن هؤلاء الأندلسيين كانوا ذوي أنفة يأتون الضيم ويقال «إنه لم يخرج منهم طائفة بناحية من نواحي الدنيا إلا تغلبوا عليها واستوطنوها»<sup>(٨)</sup>. وكان زعيمهم أبو حفص عمر ابن شعيب البلوطي المعروف بابن الغليظ من أهل قرية بطروش من فحوص البلوط المجاور لقرطبة «ولأهله جلادة وحزم على مكافحة أعدائهم»<sup>(٩)</sup>.

ولما وصل عبدُ الله بن طاهر بن الحسين الوالي الجديد على مصر من قِبَل المأمون وقضى على ثورة ابن السري في الفسطاط، توجهَ إلى الإسكندرية وحاصرها بضعة أيام، أو تسعة شهور حسب رواية ميخائيل السرياني<sup>(١٠)</sup>، فسأله الأندلسيون الأمان على أن يرتحلوا إلى

(٥) ابن الأَبار: الحلة ٤٥/١. ابن سعيد: المغرب ٤٢/٩.

(٦) ابن الأَبار: الحلة ٤٠/١.

(٧) إمام الدين: حكم مسلمي قرطبة في إقريطش (بالإنجليزية) ص ٣٠٠.

(٨) ابن عذاري: البيان المغرب ١١٥/٢.

(٩) الحميري الروض المطار ٩٣.

(١٠) بروكس (Brooks): احتلال العرب لجزيرة كريت (بالإنجليزية) ص ٤٣٢.

بعض أرض الروم فأعطاهم الأمان<sup>(١١)</sup>. إلا أنه يبدو من عبارة ابن الأبار «فصالحهم على التخلي عنها [ الإسكندرية ] على مال بذله لهم» وعبارة ابن خلدون «وبعثهم إلى إقريطش» وعبارة المقرئ «أجازهم إلى إقريطش»<sup>(١٢)</sup> أن هؤلاء الأندلسيين استسلموا بشروط منها تأمينهم ، وتقديم العون المالي لهم ، وكذلك تزويدهم بالمراكب لغزو جزيرة إقريطش البيزنطية . وبذلك تسنى للوالي العباسي التخلص منهم ، ودفعهم إلى مناهضة الروم أعداء الدولة العباسية ، ولعله أخذ عهداً عليهم بإعلان ولائهم للخليفة العباسي في الجزيرة إذ ما أن افتتحوا جزيرة إقريطش حتى أعلنوا ولاءهم للخليفة العباسي ، كما تدل على ذلك المصادر الكنايئة والعملة . فقد عُثر على قلنس في جزيرة كريت نقش على وجهه اسمُ الفاتح أبي حفص وعلى ظهره اسمُ الخليفة العباسي المتوكل على الله<sup>(١٣)</sup> .

وثمة تباين في الآراء بشأن السنة التي خرج فيها الأندلسيون من الإسكندرية وافتتحوا جزيرة إقريطش ، وقد تناول هذا الموضوع ياسهاب ي. بروكس (E. Brooks) في بحث نشره بعنوان : احتلال العرب لجزيرة كريت (The Arab Occupation of Crete) معتمداً على المصادر العربية والبيزنطية المتوفرة . فحسباً يذكره يعقوبي والكندي ، كان سقوط الإسكندرية في يد الوالي العباسي في ربيع أول سنة ٨٢١٢هـ / مايو — يونيو ٨٢٧م ، ويضيف المؤرخ ميخائيل السرياني أن الأندلسيين في الإسكندرية صمدوا للحصار تسعة شهور ، وعليه فإن سقوط المدينة كان في شهر ديسمبر سنة ٨٢٧م . ويخلص بروكس إلى القول بأن العرب الأندلسيين خرجوا من الإسكندرية بعد سقوطها وافتتحوا جزيرة كريت في أواخر سنة ٨٢١٢هـ / أوائل سنة ٨٢٨م<sup>(١٤)</sup> .

وجدير بالذكر أنه فيما يتعلق بأخبار فتح العرب للجزيرة ، فإننا نعتمد كليةً على المصادر البيزنطية ، إذ لا تذكر المصادر العربية شيئاً عن أخبار الفتح باستثناء البلاذري الذي أورد ثلاث عبارات مقتضبة عن الفتح اقتبسها عنه ياقوت وهي : «غزاها [إقريطش] في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالإقريطشي ، فافتتح منها حصناً

(١١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٠٩٢/٣ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ٥/٢١٢ .

(١٢) ابن الأبار : الحلة ٤٥/١ . ابن خلدون : ٢٧٤/٤ . المقرئ : فتح الطيب ١/٣١٨ .

(١٣) مايلز (Miles) : عملة أمراء كريت العرب (بالإنجليزية) ص ٢١ .

(١٤) بروكس (Brooks) : احتلال العرب لجزيرة كريت (بالإنجليزية) ص ٤٣٢ .

واحداً ونزله ، ثم لم يزل يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يُبقَ فيها من الروم أحداً ، وخرب حصونهم<sup>(١٥)</sup> . ومما هو جدير بالذكر كذلك أن قصة أهل الرض ووصولهم إلى الإسكندرية ثم افتتاحهم لجزيرة كريت لا يذكرها إلا المؤرخون العرب . وأما المؤرخون البيزنطيون فلا يذكرون مصر ، ويبدو أنهم حسبوا أن الفاتحين العرب جاءوا من الأندلس<sup>(١٦)</sup> .

## إقريطش في مصنفات الجغرافيين العرب :

عُرفت جزيرة كريت عند الجغرافيين العرب باسم إقريطش (بفتح الهمة أو كسرها)<sup>(١٧)</sup> . وقد تحدث الجغرافيون العرب عن موقع الجزيرة ومساحتها وخيراتها وكثرة مراسيها . فالاصطخري يقول إن إقريطش دون قبرص مساحةً وعارة<sup>(١٨)</sup> . وعن موقعها يقول المراكشي إنها مقابلة «لبر برقة أول المغرب»<sup>(١٩)</sup> . أما ياقوت فيقول إنه «يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى»<sup>(٢٠)</sup> . ويقول ابن خلدون إن إقريطش «من جزر البحر الرومي ما بين صقلية وقبرص في مقابلة الإسكندرية»<sup>(٢١)</sup> . ويذكر الحميري أن الجزيرة تسمى أيضاً إقريطش البتريلش «وترجمته مائة مدينة ، وكذلك كان بها مائة مدينة»<sup>(٢٢)</sup> . ويعلق كنار على التسمية بتريلش بأنها تحريف لاسم الجزيرة اليوناني القديم Hekatompolis<sup>(٢٣)</sup> .

(١٥) المصدر السابق ص ٤٣١ . ياقوت : معجم البلدان ١/ ٣٢٦ .

(١٦) بروكس (Brooks) : احتلال العرب لجزيرة كريت (بالإنجليزية) ص ٤٣١ .

(١٧) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦ . وثمة غدر يُنعت بالاقريطشي (بفتح الهمة أو كسرها) ، وقد تستعمل الكلمة اسماً مرادفاً للنج (أنظر دوزي : ملحقات القواميس العربية ١/ ٣٠) .

(١٨) الاصطخري : المسالك والممالك ٨٠ .

(١٩) المراكشي : المعجب ٢١ .

(٢٠) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦ .

(٢١) ابن خلدون : المعبر ٤/ ٤٥١ .

(٢٢) الحميري : الروض المطار ٥١ .

(٢٣) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٢ .

والجزيرة كثيرة الكروم والأشجار ، وفيها معدن [منجم] ذهب ، وفي جبالها وعول كثيرة ، وهي كثيرة المعز<sup>(٢٤)</sup> . وتستورد الجزيرة زيت الزيتون من افريقية والأندلس . ويصاد سمك التونة في مياهها ويُصدّر بعد تحفيفه . ويضيف الزهري أن إقريطش تصدر الأنثيمون والمصطكى والمكسرات والرمان والجبن<sup>(٢٥)</sup> . وتصدر الجزيرة إلى مصر العسل والجبن<sup>(٢٦)</sup> .

ويتحدث الجغرافيون العرب عن أعشابها الطبية ، فيذكر الزهري عشباً طيباً لا يوجد إلا في إقريطش وفي الهند ، وهو ينمو كطفيليات على نبات الزعتر ، ولعله الأنثيمون الذي يذكره الحميري ويصفه بأنه لا مثيل له ، والذي يقول عنه القلقشندي إنه يُستعمل في الأدوية<sup>(٢٧)</sup> .

ويزعم صاحب (الصلة لتاريخ ليوفانييس) أن فاتح الجزيرة أبا حفص أشاد بوفرة اللبن والشهد في الجزيرة ، لكي يثني أتباعه عن التفكير في مبارحة الجزيرة بعد نزولهم إلى البر فيها<sup>(٢٨)</sup> .

وفضلاً عن خصب الجزيرة ووفرة غلاتها ، فإنها كانت مركزاً تجارياً هاماً «كثيرة الخير والمير والتجارة ، والوارد منها والصادر إليها رائج»<sup>(٢٩)</sup> .

### إلتاح إقريطش وإمارة أبي حفص عمر بن شعيب :

في خلافة معاوية بن أبي سفيان ، وله الفضل في إنشاء أول أسطول عربي ، غزا العرب جزيرة إقريطش لأول مرة سنة ١٥٤هـ / ٣-٦٧٤ م ، ثم غزوا الجزيرة في خلافة الوليد ابن

(٢٤) الحميري : الروض المطار ص ٥١ .

(٢٥) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثالث ص ١٠٨٢ .

(٢٦) القلقشندي : صبح الأعشى ٣٧١/٥ .

(٢٧) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثالث ص ١٠٨٢ ، الحميري : الروض المطار ص ٥١ .

القلقشندي : صبح الأعشى ٣٧٢/٥ .

(٢٨) دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الثالث ص ١٠٨٢ .

(٢٩) ابن حوقل : صورة الأرض ١٨٤ .

عبد الملك وفي خلافة هارون الرشيد (٣٠)، إلا أن هذه الغزوات كانت بمثابة غاراتٍ على قواعِد الروم وللظفر بالفنائم .

أما افتتاحُ الجزيرة وبغرض الاستيطان ، فقد كان في أواخر سنة ٨٢١٢/أوائل ٨٢٨م على يد العرب الأندلسيين القادمين من الإسكندرية بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب الذي تسميهِ المصادرُ البيزنطيةُ (Apochapsa) ، (Apocapso) . وتقول المصادر البيزنطية إن هؤلاء الأندلسيين سبق أن أغاروا على الجزيرة قبل افتتاحها (٣١) ، ويبدو أن غارتهم الأولى كانت غارةً إستطلاعيةً تمهيدية .

كانت إقريطش آنذاك تابعةً للامبراطورية البيزنطية التي كانت في تلك الفترة تعاني من متاعبٍ داخليةٍ وخارجيةٍ أوهنتها وقتت في عضدها . فقد أنهكتها الحربُ الأهليةُ التي ترعّمها الثائر المطالب بالعرش توماس ، كما كانت الامبراطورية تعاني من منازعات مذهبية حادة نتيجةً لقيام حركة مناهضة الإيقونات أو الصور ، وهي الحركة التي كان يناصرها أباطرة الأسرة الفرنجية الحاكمة آنذاك. أضف إلى ذلك أن الامبراطورية كانت تواجه حملةً عرب أفريقية على صقلية وغاراتهم على ممتلكات البيزنطيين في جنوب إيطاليا. ثم إنه يبدو أن عناية البيزنطيين بالأسطول قد قلت منذ سقوط الدولة الأموية في المشرق ، وأدى ذلك إلى عواقب وخيمة منها فقدانُ البيزنطيين لجزيرتي إقريطش وصقلية في آن واحد تقريباً (٣٢) . وعلى ذلك فيبدو أن إقريطش كانت خالية من الحاميات العسكرية ، يؤيد ذلك قولُ ابن الأبار إن الجزيرة «كانت يومئذ خاليةً من الروم» (٣٣) . كما أن الأهالي كانوا على غير المذهب الديني الرسمي المناهض للإيقونات ، وكانوا يعانون من سوء الإدارة البيزنطية ، ولذلك فإنهم لم يبدوا مقاومةً للفاتحين العرب . هذا وقد جاء الأندلسيون وقد وطّأوا أنفسهم على افتتاح الجزيرة والاستقرار فيها بعد نزوحهم عن قرطبة أولاً ثم عن الإسكندرية بعد ذلك .

وكما ذكرنا من قبل ، فإن تفاصيل أخبار الفتح وصلّتنا في معظمها عن طريق المؤرخين البيزنطيين ، والبلاذري هو الوحيد بين المؤرخين العرب الذي أشار إلى افتتاح الجزيرة وفي

(٣٠) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦ .

(٣١) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٢ .

(٣٢) أوستروجورسكي Ostrogorsky : تاريخ الدولة البيزنطية (بالإنجليزية) ص ٢٠٦ .

(٣٣) ابن الأبار : الحلة ١/ ٤٥ . ابن سعيد : المغرب ١/ ٤٢ .

غاية الإيجاز . وتقول المصادر البيزنطية إن العرب الأندلسيين وصلوا إلى إقریطش في عهد الامبراطور ميخائيل الثاني (حكم ٨٢٠ — ٨٢٩ م) على ظهر أربعين مركباً ، وإنهم تزلوا إلى البر عند رأس (Charax) وعلى رأسهم أبو حفص (Apocapso) وشيدوا في مكان نزولهم على ساحل الجزيرة الشمالي حصناً حفره حوله خندقاً عميقاً ، ومنه اشتق اسمُ المدينة التي قامت حول الحصن فيما بعد وهي مدينة (الخندق) ، ومن الاسم العربي للمدينة اشتق اسمُها اليوناني (Chandax) وكذلك الاسم كانديا (Candia) الذي عُرفت به المدينة أيام حكم البنادقة ثم الأتراك العثمانيين للجزيرة ، وهو الاسم الذي ظلَّ مستعملاً حتى مطلع القرن العشرين ، حينما استُبدل باسم المدينة الحالي هراقليون (Herakleion) . ومن الخندق أخذ العربُ يغيرون على أطراف الجزيرة ودواخلها ، وعلى حد قول البلاذري لم يزل أبو حفص «يفتح شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحداً وخرَّبُ حصونهم»<sup>(٣٤)</sup> . وتذكر المصادر البيزنطية أن أبا حفص أحرق المراكبَ وأطرى ثروة الجزيرة حاثاً أتباعه على البقاء فيها . ويروى أنه خاطبهم قائلاً : «فيم شكواكم ؟ لقد حملتكم إلى أرضٍ تفيضُ باللبن والشهد . هذه أرضكم الحقّة ، فاستريحوا وأنسوا أوطانكم المجدبة» قالوا : «وأولادنا ؟» فأجابهم : «سوف تؤدي الأسيراتُ الحسانَ لكم وظائفَ الزوجات ، ومن ثم تصبحون آباءَ جيلٍ جديد»<sup>(٣٥)</sup> . وكما يعلّقُ كنار ، فإن الرواية تبدو مستعدةً وأسطورةً من نسج خيال الكتاب البيزنطيين ، إذ إن الأندلسيين كانوا قد اصطحبوا عائلاتهم معهم . ويفترض «أماري» أن العربَ أحرقوا بعضَ مراكبهم المعطوبة ، ولعلَّ ذلك كان مصدرَ الرواية البيزنطية<sup>(٣٦)</sup> .

ويذكر ابنُ حزم القرطبي أن أكثرَ المفتحين لجزيرة القريطش كانوا من أهل الأندلس<sup>(٣٧)</sup> الذين ما إن فرغوا من افتتاح الجزيرة حتى دَعَوْا المسلمين من الشام وإفريقية والأندلس للاستيطان فيها . ويقول ابن الأبار إن الجزيرة كانت «يومئذ خاليةً من الروم» فاحتمل الأندلسيون «اليها بفتنتهم ونزلوها فاعتمروها ، وجاءهم الناس من كل مكان ،

(٣٤) ياقوت : معجم البلدان ١/ ٢٣٦ .

(٣٥) عنان : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ٨٦ .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) المجلد الثالث ، ص ١٠٨٣ .

(٣٧) المقرئ : فتح الطيب ٤/ ١٥٧ .

وقد عمل أول ولائها أبو حفص على النهوض باقتصاد الجزيرة ، وقسمها إدارياً إلى أربعين كورةً أو إقليماً . ولم يسمح للأجانب بالإبحار أو الاتجار في منطقة بحر إيجة ، ما لم يؤدوا له ضريبةً مسبقة (٣٩) .

وما إن استقرَّ أبو حفص وقومه في الجزيرة حتى أقام إمارةً مستقلةً مع الاعتراف بسيادة الخليفة العباسي في بغداد ، كما كان أمراء الأغلبة قد فعلوا في إفريقية قبيل ذلك . ولعلَّ ذلك كان بموجب اتفاق مسبق مع والي مصر عبد الله بن طاهر بن الحسين . ومن ذرية أبي حفص تعاقب على حكم إقريطش عشرة أمراء نحواً من قرن ونصف قرن من الزمن .

وقد اتخذ العربُ من الجزيرة مركزاً للتجارة ، وللغزو البحري ضد مراكب الروم وأراضيهم وجزرهم في منطقة بحر إيجة (٤٠) . وأصبحت إقريطش شوكةً مؤلِّمةً في جنب الروم ، وأصبحت عاصمتها الخندق مأوىً لغزاة البحر المسلمين ، اذ منها ومن طرسوس وطرابلس الشام كان غزاةُ البحر يتشرون في مياه بحر إيجة فيغنمون المراكب وينقضون على الجزر ، وفرسكانها وسكانُ سواحل بحر إيجة إلى الداخل (٤١) . وتُعتبر إقريطش من أهم القواعد الاستراتيجية في شرقي البحر المتوسط ، وعبثاً حاول الامبراطور ميخائيل الثاني ومن جاء بعده استردادها . ويقول أومان إن موانئ الجزيرة المائة «أصبحت أوكاراً لقراصنة لا عدَّ لهم ، باتوا وبالأعلى التجارة في الشرق ، كما شكلوا خطراً كبيراً على الإمبراطورية» (٤٢) . وفي السنة نفسها التي افتتحوا فيها الجزيرة ، أغار عربُ إقريطش على

(٣٨) ابن الأبار : الحلة ٤٥/١ .

(٣٩) إمام الدين : حكم مسلمي قرطبة في إقريطش (بالإنجليزية) ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٤٠) يدعوهم الكتاب الغربيون باسم (القرصان) ونؤثر أن نسميهم (غزاة البحر) إذ إنهم مارسوا الغزو البحري ضد مراكب وأراضي أعدائهم الروم ، وهو ضرب من الجهاد المشروع في وقت كانت فيه الحروب قائمة بين المسلمين والروم . ولا نسمع عن غارات على مراكب أراضي المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كلمة (قرصان) مأخوذة عن الإيطالية (Corsale) وترد الكلمة أحياناً بلفظها الإيطالي : قرصال وكرسال . أنظر تحت (قرصان) دوزي : ملحق القواميس العربية ٣٣٧/٢ ، وكذلك كلمة (كرسالي) ٤٦٤/٢ .

(٤١) رسم : الروم ١٩/٢ .

(٤٢) أومان (Oman) : الامبراطورية البيزنطية (بالإنجليزية) ص ٢٠٨ .

جزيرة أيجينا ، فهجروا أهلها لكثرة الغارات عليها<sup>(٤٣)</sup> . وفي سنة ٨٢٩/٨٢١٤ م دمر العرب أسطولاً بيزنطياً قرب جزيرة ثاسوس (Thasos) وعاثوا بمنطقة جبل أثوس (Athos) شرقي سلانيك ، وأغاروا على سواحل آسيا الصغرى الغربية<sup>(٤٤)</sup> . ولعلَّ عرب إقريطش ساهموا كذلك في افتتاح جزيرة صقلية إذا ما أخذنا بوجهة نظر أماري الذي يرى أن الأندلسيين الذين قدموا لنجدة أسد بن الفرات جاءوا من جزيرة إقريطش ، وهو في رأيه هذا يستند إلى عبارة ابن عذاري الذي يقول ضمن أحداث سنة ٢١٢ هـ عند الحديث عن محاصرة أسد بن الفرات لمدينة سرقوسة براً وبحراً «وجاءته الأمداد من إفريقية والأندلس وغيرهما»<sup>(٤٥)</sup> .

وفي هذه الظروف السيئة التي أحاطت بالامبراطورية البيزنطية ، بعث الامبراطور ثيوفيل في سنة ٨٢٥/٣٩ — ٨٤٠ م بسفارة إلى أمير قرطبة الأموي عبد الرحمن الثاني (الأوسط) للاستعانة به ضد أمراء الأغالبة في القيروان لغزوهم صقلية ، وضد العرب الأندلسيين لغزوهم جزيرة إقريطش ، وهم من أتباع العباسيين أعداء بني أمية . كما ذكر الامبراطور أمير قرطبة بأن العباسيين كانوا قد اغتصبوا الخلافة من أيدي بني أمية الخلفاء الشرعيين . ومن الجدير بالذكر ، أن الدولة البزنطية كانت في تلك الآونة تواجه أخطاراً كبيرة ، فالخليفة العباسي المعتصم ، وقد تحلَّص من بابك الخرمي وفتنته ، توغَّل غازياً في آسيا الصغرى على رأس جيش لجِبِّ وفتح مدينة عمورية (٨٣٨ م) ، كما أن إقريطش وصقلية البيزنطيتين افتحتا على أيدي العرب المواليين للعباسيين . وقد احتفظ لنا المؤرخ القرطبي أبو مروان بن حيان بنص رد الأمير عبد الرحمن الثاني على كتاب ثيوفيل ، ومنه يتبيَّن أن أمير قرطبة كان شديد التحفظ ، ولم يلتزم بشيء تجاه الامبراطور البيزنطي . وقد تضمن ردُّ الأمير الفقرة التالية بشأن الأندلسيين الذين استولوا على جزيرة إقريطش : «وأما ما ذكرت من أمر أبي حفص الأندلسي ومن صار معه من أهل بلندا في خضوعهم لابن ماردة [ المأمون ] ودخولهم في طاعته ، وما سألت من النظر في أمورهم والإنكار لفعالهم ، فإنه لم يترع اليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقتهم ، وليسوا في بلندا ولا برتبنا فنغير عليهم ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة للمأمون من

(٤٣) إمام الدين : حكم مسلمي قرطبة في إقريطش (بالإنجليزية) ص ٣٠٦ .

(٤٤) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) المجلد الثالث ص ١٠٨٣ .

(٤٥) ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ١٣٢ . دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية)

المجلد الثالث ص ١٠٨٣ . عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ٧ — ٨ .



بلاده ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكنْ نحسبُك تعجزُ عنهم . . . وإن الله بحوله وقوته  
وفضله ومُنته ردُّ الينا سلطاننا بالشرق وما كان تحت أيدي آبائنا منه نظرنا في ذلك بما فيه  
صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ما  
دعوت اليه ، وحضضتَ عليه بما يعرفه الصديقُ لصديقه .<sup>(٤٦)</sup>

### نفر من علماء إقريطش وصلات الجزيرة بالخارج :

إن المعلومات التي وصلتنا عن التاريخ الداخلي لجزيرة إقريطش في فترة الحكم العربي  
للجزيرة ضئيلة جداً ، ولعل ذلك يرجعُ إلى انقطاع الجزيرة وعزْلِها ، ثم إلى كون الروم  
بعد استردادهم للجزيرة بادروا إلى تنصير أهلها قسراً وإلى تدمير مساجدها أو تحويلها إلى  
كنائس ، وحرَق المصاحف والكتب<sup>(٤٧)</sup> . إذ إن نيقفور فوقاس الذي قاد الحملة التي  
استرد بها الرومُ الجزيرة عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١م كان صليبي النزعة شديد التعصب ضد  
الإسلام والمسلمين وكان — كما تصفه المصادر البيزنطية المعاصرة — جندياً وراهباً في آن  
واحد ، وقد آلى على نفسه أن يكرِّسَ حياته لمحاربة المسلمين واستردادِ جميع ما سبق أن  
استولوا عليه من أراضي الدولة البيزنطية .

ومع ذلك ، فإن التَّفَـ الواردة عن أعلام المسلمين في إقريطش في كتب التراجم  
ومعاجم البلدان تبين أن الجزيرة احتفظتُ دوماً بصلات اقتصادية وثقافية وثيقة مع  
الأندلس الوطن الأم طوال فترة الحكم الإسلامي فيها ، وكانت عاصمتُها الخندق مركزاً  
فكرياً ساطعاً<sup>(٤٨)</sup> . كما أقام مسلمو إقريطش علاقاتٍ وديةً مع الشام ومصر وأفريقية ،  
ودَعوا المسلمين إلى الاستيْطان في الجزيرة<sup>(٤٩)</sup> .

ويذكر كلُّ من ياقوت الحميري وأسماء علماء من إقريطش من أصل أندلسي يحملون  
النسبة «الإقريطشي» . ويقول الحميري إنه كان بإقريطش «علماء جلَّة من

(٣٦) ليثي — بروقتسال : الإسلام في المغرب والأندلس ١١٨ ، ١٠٣ — ١٠٤ .

(٤٧) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٤ .

(٤٨) ليثي — بروقتسال : المادة عن أي خُص في دائرة المعارف الإسلامية ١٢١/١ .

(٤٩) إمام الدين : حكم مسلمي قرطبة في إقريطش ص ٣٠٨ .

الأندلسيين»<sup>(٥٠)</sup>. وجدير بالذكر أن الفقهاء كانوا قد لعبوا دوراً هاماً في قيام أهل ريف قرطبة على الأمير الحكم بن هشام لاستتاره بأمور الدين ، وقد خرج العديد منهم في جملة من خرج من قُل الرضيين من قرطبة ونزحوا إلى المغرب والمشرق . وزعم الأندلسيون الذين افتتحو جزيرة إقريطش — أبو حفص عمر بن شُعيب — كان أحد هؤلاء الفقهاء ، فضلاً عن كونه قائداً وأميراً . وهو في ذلك يشبه معاصره القاضي أسد بن الفرات الذي وُلّاه ثالثُ أمراء الأغالبة زيادة الله الأول قيادة الحملة التي أرسلت من سوسة بأفريقية لفتح جزيرة صقلية في صيف عام ٢١٢هـ/٨٢٧ م ، مع احتفاظه بولاية القضاء في القيروان . ويذكر الحميدي والضبي ، استناداً إلى ابن حزم القرطبي ، أن أبا حفص عمر بن شُعيب المعروف بالغليظ البلوطي هو الذي غزا إقريطش وافتتحها وتداولها بنوه بعده ، ويضيفان أن أبا حفص كان قد كتب بالعراق وبمصر أيضاً.<sup>(٥١)</sup> ويقول ياقوت إن فاتح إقريطش كان سمع عن يونس بن الأعلى وغيره بمصر ، ثم نُدب لفتح الجزيرة حتى افتتحها<sup>(٥٢)</sup> . كما يذكر ياقوت من علماء إقريطش أحد الرواة وهو محمد بن عيسى أبو بكر الإقريطشي الذي حدث بدمشق عن محمد بن القاسم المالكي ، وروى عنه عبد الله بن محمد النسائي المؤدّب<sup>(٥٣)</sup> .

ويترجم ابنُ الفرضي للفقيه مروان بن عبد الملك من أهل قرطبة المعروف بابن الفخّار ، وكان قد درس على بني بن مخلد بقرطبة ، ثم بارح الأندلس في أوائل القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد فيقول : «رحل إلى المشرق . . . ثم صار إلى إقريطش فاستوطنها ، وجمع تاريخاً على الأمصار ، لقيه أحمد بن خالد من قرطبة وسمع منه التاريخ» . وكان متضلّعاً بالحديث ، وكان زاهداً متقشفاً في حياته مع أنه كان ميسوراً ، وقد اجتمع به أحمد بن خالد في إقريطش — وقد تجاوز ابنُ الفخّار الستين من العمر — وذكر أنه كانت على «مروان تدور قُتيا أهل إقريطش»<sup>(٥٤)</sup> . كما يترجم ابن الفرضي لعالم

(٥٠) الحميري : الروض المظمار ٥١ .

(٥١) الحميدي : جلوة المقتبس ٢٨٢ (ترجمة رقم ٦٨٨) . الضبي : بغية للمتمس ٣٩٤ (ترجمة رقم ١١٦٤) .

(٥٢) ياقوت : معجم البلدان ١/٢٣٦ .

(٥٣) نفس المصدر والصفحة .

(٥٤) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١٢٣/٢ (ترجمة ١٤١٥) . أنظر كذلك لثني — بروقتال : تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ١٤٥/٢ الحاشية رقم ٢ .

أندلسي آخر سكن جزيرة إقريطش هو يحيى بن عثمان<sup>(٥٥)</sup>. وكان كثير من علماء الأندلس يعرفون على جزيرة إقريطش أثناء رحلاتهم إلى المشرق في طلب العلم أو لتأدية فريضة الحج ، ويجمعون بعلمائها وينقلون أخبارهم لمواطنيهم لدى عودتهم إلى الأندلس ، وكان يطيب لبعضهم المقام في الجزيرة فيستقرون فيها ، ولا غرابة في ذلك ، فقد كانت الجزيرة بمثابة ابنة الأندلس .

ويذكر الحميري عالماً من ذرية أبي حفص ، اسمه عمر بن عيسى بن محمد بن يوسف ابن أبي حفص ، ويقول إن له كتاباً في معاني القرآن وغرائب ألفه في حبس القسطنطينية يدل على علمه باللسان واتساع باعه في العلم<sup>(٥٦)</sup>. ولما كانت إقريطش قد سقطت في أيدي الروم عام ٩٣٥/٩٦١ م ونُقل أفراد الأسرة الحاكمة إلى القسطنطينية ، وزج ببعضهم في السجون ، فإن عمر هذا كان حياً بعد تلك السنة ، ويبدو أنه كان ممن سُجن هناك من أفراد أسرة أبي حفص ، ولعل ذلك يرجع إلى رفضه اعتناق النصرانية .

ويقول الحميري إنه كان باقريطش علماء جلّة من الأندلسيين ، منهم الفتح بن العلاء قاضيا ، واسحاق بن سالم ، وموسى بن عبد الملك ، ومحمد بن عمر أخو يحيى المعروف بابن أبي الدوائق ، ثم خرج إلى مصر وبها توفي ، وإسماعيل بن بدر ، وابنه محمد ، وابن ابنه إسماعيل بن محمد ، وهلك إسماعيل هذا في الحصار [حصار الروم لمدينة الخندق] وأصاب العدو أهله وماله<sup>(٥٧)</sup> .

ومما يدل على أن إقريطش كانت على اتصال بالخليفة العباسي في بغداد أنه تم في سنة ٨٢٤٩/٨٦٢ م نفي الوزير السابق أحمد بن الخنصيص إلى جزيرة إقريطش من قبل الخليفة المستعين<sup>(٥٨)</sup> .

ومع أن إمارة إقريطش العربية كانت في حرب تكاد تكون مستمرة مع الروم البيزنطيين ، إلا أنه يبدو أنه كانت ثمة علاقات دبلوماسية بين الجانبين . وقد نشر فاسيلييف

(٥٥) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ١٨٩/٢ (ترجمة رقم ١٥٨٨) .

(٥٦) الحميري : الروي المطار ٥١ .

(٥٧) نفس المصدر والصفحة .

(٥٨) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، القسم الثالث ، ص ١٥٠٨ ابن خلدون : العبر ٦٣٤/٣ .

نصّ كتاب موجّه في نهاية عام ٥٢٩١/٩٠٤ م أو أوائل عام ٥٢٩٢/٩٠٥ م إلى أمير إقريطش محمد بن شعيب حول الإفراج عن بعض الأسرى من الروم (٥٩).

وفي طليعة العلماء البيزنطيين في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي البطريق نيقولاووس مستيكوس الذي خلّف مجموعة من الرسائل كان قد وجّهها إلى عدد من الرؤساء ورجال الدين ، ومما جاء في رسالته إلى أمير إقريطش قوله : « الروم والعرب أعظم قوتين في العالم يعلوان ويتألقان كالشمس والقمر في السماء . ولذا يجب أن نعيش إخوة على الرغم من اختلافنا في الطبائع والعادات والدين » (٦٠) .

### نشاطُ عرب إقريطش في ميدان الغزو البحري :

نشط عربُ جزيرة إقريطش في ميدان الغزو البحري في شرقي البحر المتوسط ، وكانوا مصدرَ رعب للروم بأسرون مراكبهم التجارية ويشنون الغارات الجريئة على جزر بحر إيجه وسواحل من أراضي الروم البيزنطيين (٦١) . ويحدّثنا الاصطخري الذي عاصر فترة الحكم العربي للجزيرة فيقول ان سكان إقريطش « جميعاً مسلمون أهلُ غزو » (٦٢) . ويصف ابن حوقل أهل الجزيرة بأنهم في غاية الجهاد « ولم يكنْ للنصرانية فيها [إقريطش] مدخل ولا مخرج » (٦٣) . ويضيف بأن أخذَ المسلمون لجزيرتي إقريطش وقبرص بخيراتهما وتجارتهما الزاهرة « أحدُ الأسباب الزائدة في أطماع الروم ، لأنها بما كان فيها من الرجال والعدّة والعتاد كالنار لهيبها لا يفتروا وأوارها لا يقصر ، يُنكون في بلد النصرانية صباح مساء نكاية بينة ظاهرة يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ومجاورتهم للروم في مساكنهم » (٦٤) .

لذلك حاول الروم مراراً مهاجمة الجزيرة منذ أول افتتاح المسلمين لها ، للقضاء

(٥٩) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) المجلد الثالث ص ١٠٨٥ .

(٦٠) رسم : الروم ١٠٠/٢ .

(٦١) لثي — بروثسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ١٧٣/١ .

(٦٢) الاصطخري : المسالك والممالك ٧٠ .

(٦٣) ابن حوقل : صورة الأرض ١٨٤ .

(٦٤) نفس المصدر والصفحة .

على هذا الخطر الذي طالما هدد تجارتهم وأراضيهم . ففي سنة ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م تمكن الروم من النزول بعض الوقت في الجزيرة إلا أن قائد الحملة ثيوكتيستس (Theoctistes) اضطر إلى العودة على عجل إلى القسطنطينية ، بسبب الدلائس التي حيكت ضده ، ففتك العرب بجنده الذين خلفهم في الجزيرة (٦٥) .

ولما كانت جزيرة إقريطش تلقى أسلحتها من مصر ، فإن أسطولاً بيزنطياً أغار على دمياط في صيف سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٣ م وظفر بكية وافرة من الأسلحة المعدة لإقريطش ، في حين قامت قطع بحرية أخرى بمهاجمة سواحل الجزيرة ذاتها (٦٦) . وعن الغارة على دمياط يقول الطبري إنه في صيف سنة ٢٣٨هـ / ٨٥٣ م جاءت للروم ثلاثمائة مركب ورسّت عند دمياط « واحتملوا سلاحاً كان فيها أرادوا حمله إلى أبي حفص صاحب إقريطش نحو من ألف قناة وآلتها . . . ويقال إن الروم الذين كانوا في الشلنديات التي أناحت بدمياط كانوا نحواً من خمسة آلاف رجل ، فأوقروا سفنهم من المتاع والأموال والنساء ، وأحرقوا خزانة القلوع ، وهي شرع السفن ، وأحرقوا مسجد الجامع بدمياط . . . ثم صاروا إلى أشتوم تنيس . . . وأحرقوا ما فيها من المجانيق والعرادات » (٦٧) . ويقول المقرئ إن نزول الروم بدمياط كان يوم عيد الأضحى من سنة ٢٣٨هـ ، وقتلوا جمعاً كثيراً من المسلمين ، فأمر الخليفة المتوكل العباسي ببناء حصن دمياط على الأثر ، وأنشي الأسطول بمصر (٦٨) .

وفي مطلع القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي كان العرب يسيطرون على مياه البحر المتوسط والأرخبيل اليوناني ، وكثيراً ما تعرضت لغاراتهم جزر الأرخبيل وساحل البلوبونيس بجنوب اليونان وثناليا في شمالها (٦٩) . وفي سنة ٢٨٩هـ / ٩٠٢ م دمر غزاة البحر العرب مدينة دمترياس (Demetrias) الغنية على ساحل ثناليا (٧٠) . وأخطر من ذلك كله الحملة البحرية الكبرى التي قادها سنة ٢٩١هـ / ٩٠٤ م ليو لاوون

(٦٥) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية المجلد الثالث ص ١٠٨٣ .

(٦٦) نفس المصدر والصفحة .

(٦٧) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، القسم الثالث ، ص ١٤١٧ .

(٦٨) المقرئ : الخطوط ١/٧ - ٣٧٨ .

(٦٩) استروجورسكي Ostrogorsky : تاريخ الدولة البيزنطية (بالانجليزية) . ص ٢٥٧ .

(٧٠) نفس المصدر والصفحة .

الطرابلسي، وهو يوناني كان قد اعتنق الإسلام، وكانت وجهته باديء الأمر القسطنطينية، ثم غير خطته فجأة وهبط على سلاطيك، وكانت آنذاك مركزاً تجارياً وثقافياً تلي القسطنطينية أهمية وثروة، ودخل المدينة عنوة بعد حصار دام ثلاثة أيام، وانسحب المغيرون بغنائم وفيرة وبالألوف من الأسرى<sup>(٧١)</sup>. وذكر أن ليو سبي اثنين وعشرين ألفاً من أهل سلاطيك، باعهم في أسواق الرقيق في الخندق وطرابلس الشام<sup>(٧٢)</sup>. وفي طريق العودة رست مراكب الحملة في مياه إقريطش حيث بيع بعض الأسرى. ولا شك في أن امتلاك العرب لإقريطش مكّن من نجاح هذه الغارة على سلاطيك<sup>(٧٣)</sup>.

لقد شقّ هذا المصائب على الروم، فأعدّوا حملة كبرى سنة ٩١١ م قادها هيميريوس (Himerius)، ولكنه مني بكارثة واضطراً أسطوله إلى الانسحاب. وفي طريق عودته إلى القسطنطينية هوجم في ربيع سنة ٩١٢/٣٠٠ م قرب جزيرة كيوس (Chios) من قبل أسطول بحري بقيادة ليو الطرابلسي. ومنى بهزيمة ساحقة. وتذكر المصادر اليونانية أن القوات البيزنطية في هذه الحملة كانت تضم ٧٠٠ مرتزق روسي<sup>(٧٤)</sup>. كان ذلك بعد أن توطدت العلاقات بين الامبراطور البيزنطي قبل ذلك بوضع سنوات وبين أمير كييف (Kiev) وسمح الاتفاق المعقود بينهما بمشاركة الروس في حملات الامبراطور<sup>(٧٥)</sup>.

وكان العرب في مطلع القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي قد أتموا فتح جزيرة صقلية وسيطروا على مجاز مسينة وواصلوا غاراتهم على البر الإيطالي وسواحل البحر الأدرياتيكي. إن نشاط العرب البحري من هذين الثغرين — إقريطش وصقلية — ينبغي أن يُنظر إليه ضمن إطار حرب الثغور بين العباسيين والبيزنطيين، ولا شك في أن هذه الغزوات البحرية في البحر المتوسط قد شغلت البيزنطيين عن تركيز جهودهم الحربية ضد المسلمين في منطقة الثغور الشامية والجزيرية.

وعاود البيزنطيون مهاجمة دمياط في سنة ٩١٩/٣٠٧ — ٩٢٠ م، إذ طرّقوا

(٧١) نفس المصدر، ص ٢٥٨.

(٧٢) رسم: الروم ١٩/٢.

(٧٣) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية)، المجلد الثالث، ص ١٠٨٤.

(٧٤) أوستروجورسكي (Ostrogorsky): تاريخ الدولة البيزنطية (بالإنجليزية) ص ٢٥٨.

(٧٥) نفس المصدر، ص ٢٥٩.

دمياط في نحو مائتي مركب فأقاموا يعيشون في السواحل شهراً ، وهم يقتلون ويأسرون ، وكانت للمسلمين معهم معارك» (٧٦).

وقيل منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، هاجم عرب إقريطش سواحل آسيا الصغرى والبلوبونيس ووسط بلاد اليونان ، ولعلهم وصلوا إلى أثينا مما استدعى إقامة تحصينات دفاعية فيها (٧٧). فأعدَّ الامبراطور أسطولاً ضخماً لمهاجمة إقريطش سنة ٩٤٩ م بقصد القضاء النهائي على نشاط غزاة البحر منها ، إلا أن الحملة باءت بالإخفاق التام ، وهُزم الجنود بعد نزولهم إلى البر إثر هجوم مباغت من جانب العرب ، وفقد الروم عدداً كبيراً من مراكبهم (٧٨).

لقد تمَّ في السنوات الأخيرة العثور على إحدى عشرة قطعة نقدية عربية من عملة إقريطش في مكان السوق (agora) في مدينة أثينا وفي مدينة كورنث . ولعلَّ لوجودها في أثينا صلة بالنقش الكتاني المهم من المسجد العربي بأثينا ، وهو النقش الذي عُثِرَ على قطع منه في مكان السوق وعلى مقربة منه . ومع أن تاريخ النقش غير معروف بالضبط — قد يعود إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أو القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي — إلا أن معظم العملات الإقريطشية التي عُثِرَ عليها في أثينا تعود إلى القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ويُحتمل أن تعود قطعتان منها إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وفي هذا دليل على احتمال وجود العرب في أثينا في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي أو القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وقد يكون العرب جاءوا من جزيرة إقريطش مُغيّرين أو أسرى حرب أو تجاراً ، أو قد يكونون عبروا عبوراً ، كما أن القطع يمكن أن يكون قد جلبها من جزيرة إقريطش تجار يونان أو أسرى حرب يونان بعد الإفراج عنهم (٧٩).

أما بالنسبة لمدينة كورنث ، فإنه يكاد يكون من المؤكد أن بعض القطع النقدية التي عُثِرَ

(٧٦) المقرئزي : الخطط ١ / ٣٧٨ .

(٧٧) شرف (Sharf) : اليهود في الامبراطورية البيزنطية (بالإنجليزية) ص ١٠٠ .

(٧٨) أسترورجورسكي (Ostrogorsky) : تاريخ الدولة البيزنطية (بالإنجليزية) ص ٢٨٢ فاسيليف

Vasiliev : تاريخ الامبراطورية البيزنطية (بالإنجليزية) ١ / ٣٠٧ .

(٧٩) مايلز (Miles) : عملة أمراء كريت العرب (بالإنجليزية) ص ١١ ، ١٢ .

عليها فيها تعود إلى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي. وتشير المصادر الكتابية إلى قيام العرب بشن غارات على منطقة كورث في سنة ٢٦٥ — ٨٢٦٦/٨٧٩ م، ولعلهم احتلوا المدينة فترة من الزمن. ويخلص عالم النميات مايلز (Miles) إلى القول بأنه يعتقد أن «عُملات أمراء كورث هي من المرجح دليل على وجود صلة تجارية بين المدينة وبين جزيرة إقريطش العربية أكثر من كونها آثاراً لنشاط حربي في المكان، وعلى ذلك فإننا نرى أن علينا أن نعيد النظر في الرأي التقليدي بشأن عرب جزيرة إقريطش، وهو أنهم لم يكونوا سوى قراصنة برابرة ليس إلا، وأن علينا أن نسلّم بأنه حتى في أثناء غاراتهم على جزر بحر إيجه والبر اليوناني، فانهم قد يكونون على الأقل قاموا بدورٍ وسطاء لتبادل السلع والثقافة»<sup>(٨٠)</sup>.

### إسترداد الروم البيزنطيين لجزيرة إقريطش (٣٥٠ هـ / ٩٦١ م) :

منذ منتصف القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أخذت الأمبراطورية البيزنطية يزمام المبادرة في صراعها مع المسلمين، ورجحت كفتها لفترة قرن من الزمن، بفضل ثلاثة من الأباطرة، أولهم نيقفور فوقاس، قائد الحملة الضخمة التي استرد بها الروم الجزيرة من أيدي المسلمين، بعد صعود هؤلاء دون نصير نحواً من تسعة شهور. كانت الدولة العباسية التي تتبعها الجزيرة ضعيفة ممزقة الأوصال آنذاك. أما الدولتان الأموية في الأندلس والعبيدية في أفريقية فكانتا في ذروة قوتها، إلا أنهما كانتا في صراع مرير للسيطرة على المغرب. وانتهر الروم هذه الفرصة السانحة، لتجديد صلاتهم بالخليفة الأموي الناصر في قرطبة، وتبادل الأباطرة قسطنطين السابع السفارات مع الخليفة الناصر، وكلاهما معادٍ للعبيديين<sup>(٨١)</sup>. وتؤكد المصادر الإسماعيلية وجود اتفاق بين الأمويين والبيزنطيين ضد الفاطميين، وفي ذلك يقول القاضي النعمان: «وكتب [الناصر] إلى طاغية الروم يسأله النصر... فأجابه إلى ذلك»<sup>(٨٢)</sup>. ويذكر القاضي النعمان أيضاً أن مسلمي جزيرة

(٨٠) نفس المصدر، ص ١٣.

(٨١) المقرئ: نفع الطيب ٣٤١/١. ابن عذاري: البيان المغرب ٣٢٢/٢.

ليثي — بروفسال: تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ١٥٠/٢ — ١٥١.

(٨٢) العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي ٤٠٢.



إقريطش استنجدوا بالمعز لدين الله الفاطمي لحرب الروم (٨٣).

في هذه الظروف المواتية ، جهز البيزنطيون حملةً كبرى لاسترداد إقريطش ، والتخلص نهائياً من الغارات التي طالما تعرّضت لها أراضيهم ، بقيادة نيقفور فوقاس الذي يُعتبر من أكفأ قادتهم وأشدّهم عداءً للإسلام والمسلمين . والمصادر العربية ، دون البيزنطية ، تُمدّنا بتاريخ بدء الحملة ونهايتها ، كما تُمدّنا ببعض المعلومات القيّمة عن تفاصيلها . يقول ياقوت : « أناخ عليها [إقريطش] نقفور بن الفقاس الدمستق في خلافة المطيع [حكم ٣٣٤ — ٣٦٣ هـ / ٩٤٦ — ٩٧٤ م] . . . في آخر جمادى الأولى سنة ٣٤٩ [أواخر يوليو ٩٦٠ م] في ٧٢,٠٠٠ ، منهم خمسة الاف فارس » (٨٤) . ويذكر ابنُ خلدون ان النصارى نازلوا الجزيرة في سبعمائة مركب (٨٥).

ويروي النويري حكايةً عن الطريقة التي تمّ بها للروم الإستيلاء على إقريطش ، يقول فيها إن الامبراطور لجأ إلى الحيلة لما أعباه أخذ الجزيرة ، فبدأ بإبرام معاهدة صداقة مع أميرها ، وتعهد بأن يدفعَ له ضريبة سنويةً على أن يكفَّ عن الإغارة على جزر بحر إيجه ليعود إليها أهلها . فوافق الأمير عبد العزيز على ذلك ، واخذ التجار اليونان يمارسون أعمالهم بين إقريطش والقسطنطينية وجزر بحر إيجه ، وازداد بالتالي رخاء الجزيرة وقلّت العناية بالأسطول . ثم كتب الامبراطور إلى الأمير يقترح إرسال خمسمائة فرس إلى الجزيرة ، بسبب قحط أصاب الامبراطورية على أن يتقاسما نسلها ، ثم لم يلبث أن أرسل الأمبراطور حملةً إلى الجزيرة ، ورسّت مراكبه قرب المكان الذي كانت ترعى فيه الخيول ، فنزل الجنود وامتطّوها ، وأغاروا على المسلمين بغتةً وتم لهم بذلك الاستيلاء على الجزيرة (٨٦) . ورواية النويري هذه ، وإن لم يتقبّلها العقل ، إنما يستدلُّ منها على اعتماد الروم في استيلائهم على الجزيرة على عنصرَي الخداع والمباغته ، وكما يقال الحربُ خُدعة .

(٨٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ٤٧٩ .

(٨٤) ياقوت : معجم البلدان ١ / ٢٣٦ .

(٨٥) ابن خلدون : العبر ٤ / ٩٨ .

(٨٦) النويري : نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ ، وهو يتناول تاريخ المغرب والأندلس ، نشره ماريانو جيسار ريميو ، مدريد ١٩١٧ . وقد اعتمدنا رواية النويري كما نقلها كثار (دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الثانية بالإنجليزية ، المجلد الثالث ص ١٠٨٤) .

ولدى وصول الحملة إلى الجزيرة ، بادر فوقاس بضرب حصار شديد على عاصمتها (الخنديق) ، لقطع وصول الإمدادات إليها . وكما يقول ياقوت « لم يزل محاصراً لها حتى فتحها عتوة بالحرب والجوع ، في نصف المحرم سنة ٣٥٠ [٧ مارس ٩٦١ م] فقتل ونهب وسبى . وأخذ صاحبها عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر بن عيسى الأندلسي وأمواله وبني عمه [أي أقاربه] وحمل ذلك كله إلى القسطنطينية . وقيل انه حمل إلى القسطنطينية من أموالها وسبى أهلها نحواً من ٣٠٠ مركب . وهدموا حجارة المدينة والقوها في الميناء الذي دخلت مراكبهم فيه لثلا يدخل فيه بعدهم عدوه<sup>(٨٧)</sup> .

أما المصادر البيزنطية فتقول إن نيقفور حفر خندقاً على طول الجزيرة ، ليعزل المدينة عزلاً تاماً ، ثم ضربها بالمجانيق إلى أن سقطت في يده بعد مقاومة طويلة وعنيفة . وبعد سقوطها ، تعرضت المدينة للنهب والسلب ، وأسر آخر أمرائها الذي تسميه هذه المصادر (Kouroupas) ، ولعله تحريف عن (القرطبي) ، كما أسر ابنه (Anemas) (النعمان) وأفراد أسرتهما . وبعد ان دك فوقاس أسوار المدينة شيد في ظاهرها حصناً استقرت فيه حامية بيزنطية . ودُمّرت مساجد المدينة وأحرقت المصاحف<sup>(٨٨)</sup> .

ويقول كل من ابن الأثير وابن خلدون إن أهل إقريطش استصرخوا صاحب أفريقية المعز لدين الله سنة ٩٦٢/٣٥١ م ، فأرسل إليهم نجدة أوقعت بالروم<sup>(٨٩)</sup> . وهذا أمر مستبعد ، إذ إن الجزيرة كانت قد سقطت في أيدي الروم قبل ذلك بعام ، وإن هي وصلت فإن وصولها جاء بعد فوات الأوان .

وتقول المصادر البيزنطية إن أمير إقريطش استغاث بعرب الأندلس وأفريقية ، وإن عدداً من المراكب وصل وأنزل جنوداً في الجزيرة تمكّنوا من تسلق أسوار مدينة الخندق ، ولكنهم عادوا إلى مراكبهم لما أدركوا عدم جدوى أية مساعدة<sup>(٩٠)</sup> . وتذكر إحدى الروايات اليونانية أن نجدة وصلت من إفريقية لمهاجمة المحاصرين للمدينة من الخلف ، إلا

(٨٧) ياقوت : معجم البلدان ١/٢٣٦ . أنظر كذلك الحميري : الروض المطّار ٥١ وابن خلدون : العبر ٩٨/٤ .

(٨٨) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٤ .

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ٧/٥ . ابن خلدون : العبر ٤/٢ — ٥١٣ .

(٩٠) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٤ .

أن فوقاس علم بوصولها وأرسل قوة من الأرمن اعترضت سبيلها وأوقعت بها ، وأعلن فوقاس نبأ انتصاره بأن أطلق رؤوس القتلى من الجنود العرب بالمجانيق إلى داخل المدينة المحاصرة<sup>(٩١)</sup>.

لقد استنجد الأمير عبد العزيز بالمسلمين شرقاً وغرباً دون جدوى. فإن القليل الذي جاءه من طرسوس ومن أفريقية قضى عليه الروم قبل وصوله إليه<sup>(٩٢)</sup>. والحقيقة أن مسلمي إقريطش لم يظفروا بأية مساعدة تذكر لمواجهة الجموع التي داهمتهم. فأمير حلب آنذاك، سيف الدولة الحمداني ، لم يكن لديه أسطول ، كما أنه كان في صراع مرير مع الروم ، وقد رجحت كفتهم ضده منذ سنة ٩٥٨م. وأما أمير مصر الإخشيدى، أبو الحسن على ابن إخشيد ، فكان عاجزاً عن المساعدة. وفي أفريقية قام المعز لدين الله بإنهاء الهدنة مع البيزنطيين ، وطلب إلى الامبراطور رفع الحصار المضروب على الجزيرة ، كما وعد بإرسال مساعدة إلى أهل إقريطش. وذكر أن المعز لدين الله اقترح على أمير مصر الإخشيدى أن تجتمع مراكبهما في برقة في اليوم الأول من ربيع ثاني عام ٣٥٠هـ / ٢٠ مايو ٩٦١ م. ويلاحظ أن هذا التاريخ يأتي بعد سقوط الجزيرة في أيدي الروم بأكثر من شهرين. وقد نُشرت الوثائق المتعلقة بذلك في كتاب (المجالس والمسائرات) للفاضل أبي حنيفة النعمان ، صديق المعز لدين الله وكبير دعاة الإسماعيلية<sup>(٩٣)</sup>.

إن البيزنطيين باستيلائهم على جزيرة كريت استعادوا نقطة استراتيجية وتجارية هامة في البحر المتوسط ، وتخلصوا من «وكر للقراصنة» طالما أقصّ مضجعهم<sup>(٩٤)</sup>. ويرى أحد مؤرخي الدولة البيزنطية أن بيزنطية لم تسجل انتصاراً أعظم من هذا الانتصار، لقرون عديدة خلت<sup>(٩٥)</sup>. وبرزت الآن الدولة البيزنطية من جديد كقوة بحرية حاسمة في شرقي

(٩٠) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٤ .

(٩١) كلتون (Clutton) : جزيرة كريت ص ٩٥ .

(٩٢) رسم : الروم ٣٤/٢ .

(٩٣) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) ، المجلد الثالث ص ١٠٨٣ — ١٠٨٤ .

(٩٤) فاسيليف (Vasiliev) : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (بالإنجليزية) ٣٠٨/١ .

(٩٥) أوستروجورسكي (Ostrogorsky) : تاريخ الدولة البيزنطية (بالإنجليزية) ص ٢٨٤ .

البحر المتوسط<sup>(٩٦)</sup>، وتمكن نيقفور من القول «إن القوة في البحر هي لي وحدي»<sup>(٩٧)</sup>.  
ورحب اليهود بسقوط الجزيرة في أيدي البيزنطيين، للتخلص من غارات أهلها، وما كانوا  
يفرضونه من إتاوات على التجار، وكان التجار اليهود، وبخاصة الرادانية منهم، يحتكرون  
التجارة عبر البحر المتوسط آنذاك<sup>(٩٨)</sup>.

## تنصير مسلمي إقريطش

يقول الإصطخري الذي ألف كتاب (المسالك والممالك) قبيل استرداد الروم لجزيرة  
إقريطش إن سكان الجزيرة «جميعاً مسلمون أهل غزو، وبين أظهرهم تبدد [أي قليل] من  
النصارى، كما يكون بلدان المسلمين»<sup>(٩٩)</sup>. تبدد أنه ما إن سقطت الجزيرة في أيدي الروم،  
حتى بادر هؤلاء إلى تنصير مسلميها بالضغط والإكراه. وتحت رعاية أباطرة القسطنطينية  
قام عدد من المبشرين المتحمسين بنشاط كبير لتنصير المسلمين في إقريطش. ويُفهم من  
عبارة للرحالة الأندلسي ابن جبير أن اعتناق مسلمي إقريطش للنصرانية تمّ تدريجياً،  
ومزيج من الضغط والترغيب، فهو يقول: «لم تزل بهم [بمسلمي إقريطش] الملكة  
الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالاً بعد حال حتى اضطروا إلى  
التنصير عن آخرهم»<sup>(١٠٠)</sup>. ويُضيف صاحب (المعجب) أن مسلمي إقريطش بقوا في  
الجزيرة بعد سقوطها في أيدي الروم «سنين إلى أن تفرقوا، فرحل بعضهم إلى الأندلس،  
واختار بعضهم سكنى صقلية، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية»<sup>(١٠١)</sup>.

وكما فعل بالنسبة لإستيلاء الروم على إقريطش، فإن النويري يروي قصةً طريفةً عن  
الكيفية التي تمّ بها تنصير المسلمين في جزيرة إقريطش، خلاصتها أن عدداً من وجهاء  
الجزيرة المسلمين زاروا القسطنطينية للتعبير عن ولائهم للامبراطور فقبلوا بكل حفاوة

(٩٦) فرونييس . (Vryonis) : بيزنطية وأوروبا (بالإنجليزية) ٨٧ .

(٩٧) رسم : الروم ٣٥/٢ .

(٩٨) أنظر شرف (Sharf) : اليهود في الامبراطورية البيزنطية (بالإنجليزية) ص ١٠٨ .

(٩٩) الإصطخري : المسالك والممالك ٧٠ .

(١٠٠) ابن جبير : الرحلة ٢٨٠ .

(١٠١) المراكشي : المعجب ٢١ .

وتكرمهم وأغدقت عليهم الهدايا ، وكان ذلك . بمناسبة عيد الميلاد المسيحي . ولما عادوا إلى القسطنطينية ثانية بعد شهور ، لتقديم ولائهم للامبراطور بمناسبة عيد الفصح المسيحي ، أسيتت معاملتهم وزُجَّ بهم في السجون ، وحيل بينهم وبين الطعام والشراب إلى أن اضطروا إلى اعتناق المسيحية ، وعندئذ فقط أُفْرَج عنهم وسُحِّح لهم بالعودة إلى وطنهم . ولدى وصولهم إلى الجزيرة ، مُنعوا من الالتحاق بعائلاتهم حتى تنتصر ، وهكذا تمَّ للروم ما ابتغوه من تنصير المسلمين في جزيرة إقريطش<sup>(١٠٢)</sup> . ويُفهم من هذه الحكاية ، أن عملية التنصير تمت بصورة رسمية وبالإكراه .

ويقتبس كنار عبارة لصاحب (كتاب العيون ، الورقة ٢٧٦) مفادها أنه عند استيلاء الروم على مدينة الخندق ، عاصمة الجزيرة ، قاموا بتدمير مساجدها وإحراق المصاحف الشريفة فيها<sup>(١٠٣)</sup> .

وعند مرور الرحالة الأندلسي ابن جبير بجزيرة صقلية (٥٨٠ هـ / ٨٤ - ١١٨٥ م) في طريق عودته إلى بلاده من تأدية فريضة الحج ، لاحظ عن كتب أحوال المسلمين في صقلية النورمانية آنذاك ، وكانت سيئة وتُنذر بأوخم العواقب ، فعلق على ذلك بقوله : «وأهلُ النظر في العواقب منهم [من مسلمي صقلية] يخافون أن يتفق على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة إقريطش من المسلمين في المدة السالفة [أي قبل ذلك بقرنين من الزمن] فانه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالاً بعد حال ، حتى اضطروا إلى التنصر عن آخرهم ، وفرَّ منهم من قضى الله بنجائه»<sup>(١٠٤)</sup> .

ويبدو ان ما حلَّ بمسلمي إقريطش كان له صدهاء في العالم الإسلامي ، اذ وقعت حوادثُ شغبٍ في مدينة القسطنطية بمصر استهدفت النصارى فيها<sup>(١٠٥)</sup> .

إن عاشراً أمراء إقريطش العرب وآخرهم وهو عبد العزيز بن شُعَيْب (Kouroupas) من ولد أبي حفص ، أسره نيقوفور فوقاس ونقله وأمواله وأقاربه إلى

(١٠٢) النويري : نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ . وقد اعتمدنا رواية النويري كما نقلها إمام الدين في مقاله

بعنوان «حكم مسلمي قرطبة لأقريطش» ص ٣١٢ .

(١٠٣) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) المجلد الثالث ، ١٠٨٤ .

(١٠٤) ابن جبير : الرحلة ٢٨٠ .

(١٠٥) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالإنجليزية) المجلد الثالث ، ص ١٠٨٤ .

القسطنطينية<sup>(١٠٦)</sup>. ويبدو أنه كان متقدماً في السن، ولعلهُ ولي الإمارة في شيخوخته. وقد ظلَّ على إسلامه وعومل معاملةً كريمةً. أما ابنُه النعمان (Anemas)، فقد تنصَّرَ والتحقَ بخدمة الحرس الإمبراطوري في القسطنطينية، وتذكر المصادر اليونانية أنه قُتل في معركة سِلِستريا على نهر الدانوب بين البيزنطيين والروس سنة ٩٧١ م<sup>(١٠٧)</sup>.

وتذكر المصادر البيزنطية أنه بعد استرداد الروم لإقريطش، جرى نشاط تبشيري على يد راهبٍ من آسيا الصغرى هو القديس نيقون (St. Nicon) الذي تولَّى بحاسةٍ شديدةٍ تصيرَ مسلمي جزيرة كريت، ثم توجَّه إلى اسبارطة ببلاد اليونان للتبشير بين الصقالبة الذين استقروا على مقربة من المدينة<sup>(١٠٨)</sup>. وقد نقلَ نيقفور فوقاس جاليات يونانية وأرمينية وأسكنها جزيرة إقريطش، وهو الذي استدعى الراهبَ نيقون من آسيا الصغرى ليشتر فيها بين المسلمين<sup>(١٠٩)</sup>، إذ كانت سياسة أباطرة البيزنطيين تقوم على إيجاد مجتمع متجانسٍ وموحدٍ مذهبياً في مختلف ولايات الامبراطورية. وكذلك فعل النورمان في صقلية عند استيلائهم عليها من أيدي المسلمين في أو آخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد، فقد شجَّعوا، وبتأييد من الكنيسة الكاثوليكية، هجرة النصارى من اللبارد والنورمان إليها.

وقد أصبحت مدينة الخندق بعد استيلاء الروم على الجزيرة عاصمةً مدنيةً ودينيةً لها. وكما حدث في صقلية بعد استيلاء النورمان عليها من أيدي المسلمين، فإن نظاماً إقطاعياً ساد ريفَ جزيرة إقريطش بعد استيلاء الروم عليها، واستغل السادة الجدد في فلاحه الأراضي التي استحوذوا عليها طبقاً من الكادحين العرب المنتصرين تعرف باسم (Parici). ومع أنه لا تتوفر لدينا المعلومات الكافية عن هذه الطبقة، فإن من المحتمل أن وضعها كان شبيهاً بوضع فلاحي الأرض المسلمين (Villeins) في صقلية النورمانية، الذين يرد ذكرهم في الوثائق العربية باسم (رجال الجرائد) أو (أهل الجرائد) ويُعرفون في اللاتينية باسم (servi glebae)، وهو وضعٌ يشبه وضع الأرقاء. فلم تكن لأفراد هذه الطبقة حرية شخصية، وكان عليهم القيام بالخدمة العسكرية عند الطلب، وهم

(١٠٦) ياقوت: معجم البلدان ١/٢٣٦.

(١٠٧) مايلز (Miles): عملة أمراء كريت العرب (بالإنجليزية) ص ٨٣.

(١٠٨) قريونيس (Vryonis): بيزنطية وأوروبا (بالإنجليزية) ص ٨٧.

(١٠٩) رسم: الروم ٣٥/٢.

يخضعون لنظام السخرة في العمل ، وكانوا في صقلية يدفعون جزية سنوية للملك النورماني (١١٠).

هذا ولم يبقَ شيء يُذكر من آثار الحصن العربي في مدينة الخندق ، والتي أصبحت تُعرف منذ مطلع القرن العشرين باسم هيراقليون (Herakleion) ويذكر مصدرٌ حديثٌ أنه في القرن التاسع عشر ، وعلى مسافة قليلة من شرقي مدينة الخندق ، كانت ما تزال توجد قرية عربية يتراوح سكانها بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ نسمة (١١١). فهل استوطن أهل هذه القرية الجزيرة في فترة الحكم العثماني لها ، وهي الفترة التي بدأت سنة ١٦٤٥ م واستمرت ثلاثة قرون ونصف القرن ، أم هل هم من عقبِ عرب إقريطش الأوائل ؟

## أهمية النُمِيَّات (NUMISMATICS) للباحث في تاريخ إمارة كريت العربية (١١٢):

إن دراسة العملة أو النُمِيَّات (numismatics) أمرٌ على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية للمؤرخ ، إذ إن ما في العملات من أسماء للأشخاص ، ومكان الضرب ، ووزن العملة كل ذلك يضيف إلى ما ورد في المصادر الكتابية والأثرية أو هو يصححها .

حتى عام ١٩٥٣ م ، لم تتوفر سوى خمسَ عشرةَ قطعةً من الدنانير الذهبية والفلوس النحاسية ، ترجع إلى إمارة كريت العربية . إلا أنه بعد تلك السنة ، وحتى عام ١٩٧٠ ، تمَّ العثورُ على المزيد من هذه النقود في الجزيرة نفسها وفي بلاد اليونان ، بحيث بلغ مجموع هذه القطع الآن مائتين وثمانياً وستين قطعة ، ومعظمها فلوس نحاسية .

---

(١١٠) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية (بالإنجليزية) ص ٧٠ . إحسان عباس : العرب في صقلية ٢ — ١٤٣ . كلتون (Clutton) : جزيرة كريت ٩٦ .

(١١١) كلتون (Clutton) : جزيرة كريت ١٨٠ .

(١١٢) اعتمدنا في هذه الفقرة عن النُمِيَّات على عالم النُمِيَّات البارز جورج . سي . مايلز في كتابه : عملة أمراء كريت العرب ، نيويورك ١٩٧٠ .

(The Coinage of the Arab Amirs of Crete)

ويرى عالمُ النُميات مايلز أن التاريخَ الوافي لفترة حكم العرب لجزيرة كريت على أساس جميع المصادر العربية واليونانية الكتابية ، وعلى أساس الأدلة الأثرية لم يُكتَبْ بعد ، وهذه القطعُ النقديةُ التي تمَّ العثورُ عليها تُعتبر مساهمةً لكتابة مثل هذا التاريخ<sup>(١١٣)</sup>.

إن الدنانيرَ والدراهمَ التي تمَّ العثورُ عليها تزوّدنا ببعض السنوات التاريخية الثابتة . ولا تردُّ في المصادر التاريخية الأسماء الجديدة في القطع التي عُثِرَ عليها . وليس بالأمر الهين أو اليسير إعدادُ شجرةٍ كاملةٍ بأسماء الأمراء العرب الذين حكموا جزيرة كريت ، إذ إن إمكانيات الخطأ تكمنُ في أمور عديدة منها : عدمُ ورود كلمة (ابن) في القطعة النقدية ، وقد لا تكون ثمة صلة أبوية بين اسمين واردين فيها ، وعدم معرفة ما إذا كان كل الأشخاص المذكورة أَسْمَاؤُهُم من ذرية الفاتح أبي حفص ، وما إذا كان قد ولي الأمانة فعلاً الشخصُ الذي يردُّ اسمه في العملة ولياً للعهد<sup>(١١٤)</sup>. ومع هذه التحفظات ، فقد أمكن إعدادُ شجرة نسبٍ مبدئيةٍ للأمراء العشرة الذين تعاقبوا على حكم جزيرة إقريطش اعتماداً على الأسماء الواردة في المصادر الكتابية ، وفي قطع النقود التي تمَّ العثورُ عليها ، وهي كالآتي<sup>(١١٥)</sup>:

---

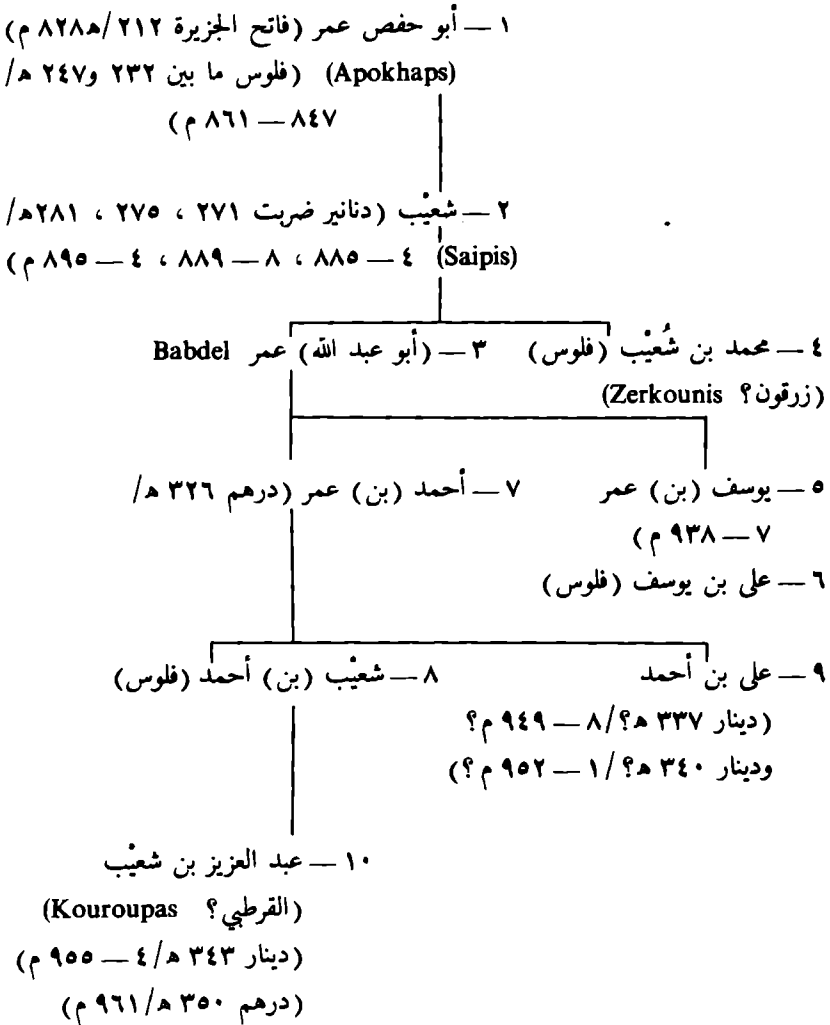
(١١٣) مايلز : عملة أمراء كريت العرب (بالإنجليزية) ص ١ ، حاشية رقم ٢ .

(١١٤) نفس المصدر ص ٥ .

(١١٥) نفس المصدر ص ٣ ، ٤ .



شجرة نسب مبدئية  
للأمراء العشرة من أسرة أبي حفص  
الذين حكموا جزيرة إقريطش (كريت)



وهذه بعض الملاحظات التاريخية عن ثلاثة نماذج من هذه العُمَلات .

يحمل فلس عُزْ عليه في جزيرة كريت على الوجه عبارة (لا اله إلا الله وحده لا شريك له) واسم فاتح الجزيرة وقد رُسم هكذا (عمر بن عسى) وعلى ظهر الفلس نُقِشتُ عبارة (محمد رسول الله) وتحتها اسم الخليفة العباسي، وقد رُسم هكذا (التوكل على الله). ولما كان المتوكل ولي الخلافة من سنة ٢٣٢ إلى سنة ٨٤٧/٨٤٧-٨٦١ م، فإن تاريخ ضرب هذا الفلس لا يمكن أن يكون قبل سنة ٨٤٧/٨٢٣٢ م، أي بعد نحو عشرين سنة من افتتاح الجزيرة، أو أن يكون بعد سنة ٨٦١/٨٢٤٧ م<sup>(١١٦)</sup>، ويؤكد هذا الفلس ما ورد في المصادر الكتابية من أن إمارة إقريطش أعلنت ولائها للعباسيين منذ افتتاح الجزيرة على يد أبي حفص .

فينار ، يحمل التاريخ الهجري ٣٤٣ وعلى وجهه عبارة (لا اله إلا الله وحده لا شريك له. بن شعيب) وعلى ظهره عبارة (محمد رسول الله. المطيع لله. عبد العزيز). ونُقِشتُ على الحاشية الداخلية للدينار عبارة: بسم الله ضرب هذا الدينار بإقريطش سنة ثلث وأربع . . . .

يقول مايلز أن هذا الدينار فريدٌ ومهمٌ لعدة أسباب. ففي حين أن المصادر الكتابية تفيدنا فقط أن حكم الأمير عبد العزيز (Kouroupas) انتهى سنة ٩٣٥٠/٩٦١ م ، لدينا الآن بفضل هذا الدينار تاريخ محدد ، وهو أن عبد العزيز كان أميراً قبل سبع سنوات على الأقل من أسرنيقفور فوقاس له سنة ٩٣٥٠/٩٦١ م. كذلك فإن هذا الدينار دليل أكيد على أن أمراء كريت كانوا ما يزالون يضربون عملة ذهبية في السنوات الأخيرة من حكمهم للجزيرة<sup>(١١٧)</sup>.

إن الاسم العربي للجزيرة كريت وهو إقريطش يرد كثيراً في المصادر التاريخية والأدبية والجغرافية الكتابية ، إلا أن هذه أول مرة يرد فيها الاسم في كتابة منقوشة (epigraphy) سواء أكان ذلك في السكة أو على الحجر. أما ورود الاسم (إقريطش) لمكان الضرب بدلاً من العاصمة (الحندق)، فليس فيه ما يدعو إلى الدهشة،

(١١٦) مايلز : عملة أمراء كريت العرب (بالإنجليزية) ص ٢١ - ٢٢ .

(١١٧) نفس المصدر ص ٨٠ - ٨١ .

إذ ثمة أمثلة عديدة في النُميات الإسلامية يردُ فيها اسمُ الولاية بدلاً من اسم الحاضرة أو المدينة الرئيسية بالولاية . مثال ذلك : فلسطين ، إفريقية ، الأندلس ، أذربيجان<sup>(١١٨)</sup>.

درهمٌ يحمل السنة ٣٥٠ هـ ، وعلى وجهه عبارة (لا اله إلا الله وحده لا شريك له . بن شعيب) وعلى الظهر عبارة (محمد رسول الله . المطيع لله . عبد العزيز) . ومع أن مكان الضرب في الحاشية غير واضح ، إلا أن السنة المذكورة هي «سنة خمسين وثلاثمائة» .

وهذا الدرهم محفوظ في خزانة العملة الملكية بمدينة ستوكهلم ، وكان قد عثر عليه في السويد ، ويُحتمل أن يكون ذلك في جُتْلاند بجنوب السويد .

من الغريب أنه لم يُعثر إلا على هذا الدرهم الفريد من عهد إمارة آخر أمير عربي في جزيرة كريت . فكيف وصل إلى السويد ؟ إن من غير المحتمل أن يكون الدرهم قد جاء عن طريق إحدى الطرق المعروفة التي وصلت فيها العملاتُ العربية من الشرق إلى منطقة بحر البلطيق . أما الأكثرُ احتمالاً فهو إمكانية وجود صلة ما بالنعمان (Anemas) بن عبد العزيز الذي حارب في صفوف البيزنطيين ضد الأمير الروسي سفياتوسلاف (Sviatoslav) وقُتل في معركة سلسْتيريا سنة ٩٧١ م . ولعلَّ النُعمان ، أو أحد رفاقه العرب الكريتين ، كان يحمل القطعة التي صدرت عن آخر أمراءهم ، ففقدوها في ساحة القتال وعثر عليها أحد الجنود الروس أو الفارانجيين (أهل الشمال من اسكندناوه) وهذا حملها بدوره إلى جُتْلاند أو إلى بلاد السويد<sup>(١١٩)</sup>.

(١١٨) نفس المصدر ص ٨١ .

(١١٩) نفس المصدر ص ٨١ — ٨٤ .

## ثبت بالمصادر والمراجع

### (أ) مصادر ومراجع عربية :

- ابن الأبار : الحلة السراء ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .  
ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزءان الخامس والسابع ، بيروت ١٩٧٨ .  
ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ .  
ابن حوقل : صورة الأرض ، بيروت ، بدون تاريخ .  
ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، القاهرة ، بدون تاريخ .  
كتاب العبر ، المجلدان الثالث والرابع ، بيروت ١٩٥٨ ، ١٩٦٦ .  
ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، الجزء الأول ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ، ١٩٥٣ .  
ابن عذاري ، أبو العباس : البيان المغرب ، الجزءان الأول والثاني ، بيروت ٤٨ — ١٩٥٠ .  
ابن الفرسي : تاريخ علماء الأندلس ، قسبان في مجلد واحد ، القاهرة ١٩٦٦ .  
الاصطخري : كتاب المسالك والممالك ، لندن ، ١٩٢٧ .  
حسن ، حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٦٤ .  
الحميدي : جلوة القميس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٥٢ .  
الحميري ، ابن عبد المنعم : الروض المظفر في غير الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ .  
رستم ، أسد : الروم وصلاتهم بالعرب ، الجزء الثاني ، بيروت ، ١٩٥٦ .  
الضبي : بغية الملتبس ، تحقيق ف. كوديرا ، مدريد ، ١٨٨٥ .  
الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، القسم الثالث ، بيروت ، بدون تاريخ .  
العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والأندلسي ، بيروت ١٩٧٢ .  
عباس ، إحسان : العرب في صقلية ، القاهرة ، ١٩٥٩ .  
عنان ، محمد عبد الله : مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام ، القاهرة ، ١٩٦٢ .  
القلقشندي ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .  
لتي — بروفنسال ، أ : الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٦ .  
المراكشي ، عبد الواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

المقرئ، تقي الدين أحمد : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول ، بيروت ، بدون تاريخ .  
المقرئ ، أبو العباس أحمد : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء الأول والرابع ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٤٩ .  
ياقوت (الحموي) : معجم البلدان ، الجزء الأول ، بيروت ، ١٩٧٧ .

## (ب) مراجع أجنبية :

- Ahmad, A., **A History of Islamic Sicily**, Edinburgh 1975.  
Brooks, E., "The Arab Occupation of Crete" in **English Historical Review**, XXVIII (1913), pp. 431-443.  
Clutton, E. & Kenny, A., **Crete**, U.S.A. 1976.  
Dozy, R., **Supplement aux dictionnaires arabes**, 2 vols. Leiden 1881.  
**Encyclopaedia of Islam** (New Edition), Leiden-London: Vol. I (1960), s.v. **Abū Hafs 'Umar**, p. 121 (by E. Lévi-Provençal); Vol. III (1971) s.v. **Ikritish**, pp. 1082-6 (by M. Canard).  
Immamuddin, S.M., "Cordovan Muslim Rule in Iqritish (Crete), "in **Journal of Pakistan Historical Society**, vol. VIII (1960), pp. 297-312.  
Lévi-provençal, E., **Histoire de l'Espagne Musulmane**, vols I & II, Paris-Leiden, 1950.  
Miles, George, C., **The Coinage of the Arab Amirs of Crete**, New York 1970.  
Oman, C.W.C., **The Byzantine Empire**, London 1892.  
Ostrogorsky, G., **The History of the Byzantine State**, Oxford 1968.  
Sharf, A., **Byzantine Jewry**, London 1971.  
Vasiliev, A.A., **History of the Byzantine Empire**, 2 vols., University of Wisconsin Press, U.S.A. 1971-3.  
Vryonis, Speros, **Byzantium and Europe**, London 1967.

# أحوال المسلمين في صقلية النورمانية

في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي

صقْلِيَّةُ كَادَ الزَّمانَ بأهلها	وكانت على أهل الزمان محارسة
فكم أعين بالخوف أمست سواها	وكانت بطيب الأمن منهم نواعسا
أرى بلدي قد سامه الرومُ ذلةً	وكان بقومي عزه متقاعساً
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه	فأضحى لذاك الخوف منهم لابسا

(ابن حمديس<sup>(١)</sup>)

## العربُ في صقلية :

بدأ فتح العرب لجزيرة صقلية في عهد الأمير الأغلبي زيادة الله الأول بحملة قامت من سوسة في صيف عام ٢١٢هـ / ٨٢٧م بقيادة القاضي الشهير أسد بن الفرات ، وسُرْعان ما استولى العرب على معظم الجزيرة من أيدي الروم البيزنطيين واتخذوا بلرم (Palermo) عاصمةً لهم ، ولو أن بعض معاقل الروم في شرق الجزيرة لم تسقط في أيدي المسلمين إلا

---

(١) ابن حمديس : ديوان ابن حمديس ٢٧٥ .

بعد فترة طويلة . وقد ظلت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن (٢١٢ - ٨٤٨٤/٨٢٧ - ١٠٩١ م) .

ومما يُذكر أن سكان صقلية بعد الفتح العربي تحسّنت أحوالهم وأصبحت خيراً من أحوال اخوانهم في جنوب إيطاليا ، ولم يُفرض عليهم كذَميين سوى دفع الجزية . وقد ازداد عدد المسلمين في الجزيرة بعد الفتح نتيجةً لتدفق المستوطنين من إفريقية<sup>(٢)</sup> وكذلك نتيجةً لاعتناق الكثيرين من سكان الجزيرة الدين الإسلامي . ولما زار الجزيرة الرحالة المشرقيّ ابن حوقل في منتصف القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي — أي بعد قرن ونصف القرن من بدء الفتح — ذكر بأن بلرم وحدها كانت تضم نيفاً وثلاثمائة مسجد ، مما يدل على مدى التغلغل الإسلامي في الجزيرة<sup>(٣)</sup> .

كانت صقلية باديء الأمر ولايةً تابعةً للأغالبة في القيروان ، وبعد زوال تلك الإمارة أصبحت الجزيرة تابعةً للعبّاسيين الفاطميين في إفريقية أولاً ثم في مصر . ومن أشهر ولاة الجزيرة على عهد الفاطميين بنو أبي الحسين الكلبيون (يدعوهم ابن خلدون بالملوك<sup>(٤)</sup>) وابن حوقل بالسلطين<sup>(٥)</sup> . وكانوا من أخلص أعوان الفاطميين ، فولّوا أمر الجزيرة بالتوارث قرناً من الزمن (٣٣٦ - ٤٣١/٩٤٧ - ١٠٤٠ م) ، وفي عهدهم بلغت الجزيرة أوجها الحضاري . وإجمالاً فإن فترة سيادة المسلمين على جزيرة صقلية تميّزت بالتسامح الديني والارتفاع الحضاري كما تميّزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري وبخاصة مع إفريقية ومصر . وطالما اعتُبرت صقلية ، شأنها في ذلك شأن الأندلس ، ثغراً من ثغور المسلمين على حدود الروم والفرنجة ، وكثيراً ما يُشير أكبر شعراء صقلية ابن حمديس (ت ١١٣٣/١٠٢٧ م) في قصائده إلى مواطنيه ببني الثغر<sup>(٦)</sup> .

## قدوم النورمان

مرّت صقلية الإسلامية في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي

(٢) Lombard: *The Golden Age of Islam*, p. 144.

(٣) ابن حوقل : *صورة الأرض* ١١٥ . Lewis: *The Arabs in History*, p. 118.

(٤) ابن خلدون : *المقدمة* ٢٥٤ .

(٥) ابن حوقل ١١٤ .

(٦) ابن حمديس ٤١٣ ، ٤١٦ .

بفترة من الفتن والمنازعات الداخلية أشبه ما تكون بفترة ملوك الطوائف المعاصرة لها في الاندلس . يَدَّ أنه في حين قِيضَ الله للاندلسيين قيامَ دولة المرابطين الفتيحة المجاهدة في المغرب فهَبَتْ لإِنقاذهم من السقوط في أيدي النصارى ، فإن صقلية لم تجدْ لنفسها نصيراً . فقد كانت الدولة الفاطمية التي تتبعها الجزيرة تمر في مرحلة ضعف شديد ، كما أن امراء بني زيري في افريقية شُغلوا بحروبهم ضد أبناء عمومهم بني حماد في القلعة وبجاية ، وضد قبائل بني هلال وبني سُليم . لذلك ، ونتيجة للانقسامات الداخلية ، فإن صقلية وقعت فريسةً في أيدي المغيرين النورمان من جنوب ايطاليا .

والنورمان هؤلاء ، كما يُستدلُّ من اسمهم (Norsemen, Vikings) هم أصلاً من أهل شمال أوروبا أي اسكندناوة ، وكانوا منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي قد دأبوا على شن غارات بحرية سريعة ومفاجئة على سواحل أوروبا الغربية بما فيها الأندلس (حيث عُرفوا باسم الموحوس) واستقر بعضهم في شمال فرنسا حيث استقلوا بإمارة عُرفتْ إلى الآن باسمهم وهي نورماندي التي غزا منها أميرها وليام الفاتح إنجلترا واستأثر بملكها بعد انتصاره على ملكها هارولد السكسوني في معركة هاستنجز (Hastings) سنة ١٠٦٦ م ، وذلك في نفس الوقت الذي بدأ فيه إخوانهم في جنوب إيطاليا بالغارة على صقلية الاسلامية . ونورمان جنوب إيطاليا قدموا من نورماندي بشمال فرنسا ، وعملوا باديء الأمر فرسانا مرتزقة في صفوف الجماعات المتحاربة في جنوب ايطاليا ، وقد برزوا في ميدان التنظيم العسكري كما اشتهر فرسانهم بالجرأة والإقدام ، وان لم يكونوا على حظٍّ من الحضارة . وفي جنوب ايطاليا كانت مقاطعتا بوليا (Apulia) وقلُوريَّة (Calabria) تابعتين للبيزنطيين ، وكانت نابولي وملف (Amalfi) جمهوريتين ، وكانت بنفنت (Benevento) وسالرنه (Salerno) إمارتين لمباردتين . وقد عمل الوافدون المغامرون النورمان أولاً كجنود مرتزقة في خدمة أمير سالرنه ضد البيزنطيين ونجحوا في توطيد أقدامهم في جنوب ايطاليا على حساب هؤلاء في بوليا وقلُوريَّة ، وانتزع زعيمهم روبرت جيسكارد عام ١٠٦٠ م من أيدي البيزنطيين طارنت (Taranto) وريو (Reggio) بوابة صقلية<sup>(٧)</sup> . وفي الوقت الذي شُغل فيه روبرت بمحاربة البيزنطيين ، وجَّه اخوه رجار ، الذي التحق به فيما

(٧) انظر الخريطة ص ٦٠ .



بعد ، كل اهتمامه إلى صقلية التي اجتذبت ثرائها وخصب أراضيها ، ثم لأن أحد القادة المسلمين — ابن الثمّنة صاحب سرقوسة — استنجد به على خصومه مؤملاً ، في وهمه ، في أن يعزّز بذلك مركزه ، ولكنّ قدوم النورمان منذ استيلائهم على مسينة عام ١٠٦١ م كان بغرض الفتح والاستقرار وانتزاع السيادة على الجزيرة من أيدي المسلمين . وقد كان النورمان طوال تاريخهم انتهازيين جشعين يتطلعون دائماً إلى الاستيلاء على أراض يتخذونها إمارات لهم على النمط الاقطاعي السائد آنذاك في غرب أوروبا . على أن استيلاء النورمان على صقلية لم يكن مع ذلك بالأمر الهين ، فقد صمد العديد من المعقل والمدن الإسلامية في وجههم نحو ثلاثين عاماً إلى أن تمّ للنورمان آخر الأمر فرض سيادتهم على الجزيرة عام ١٠٩١/٨٤٨٤ م .

حكم النورمان صقلية قرناً من الزمن (١٠٩١—١١٩٤م) ونظراً لقلّة أعدادهم وكثرة الأعداء من حولهم ، وبخاصّة في جنوب إيطاليا ، فإنهم إجمالاً انتهجوا سياسة تسامح عنصري وديني ، في فترة كانت فيها الحروب الصليبية ، تحت شعار الدين ، على أشدها ، ومع ذلك فإن ملوك النورمان احسنوا معاملة المسلمين في الجزيرة لاستئثارهم إليهم ، كما اعتمدوا عليهم في جيوشهم ، وأفادوا من مهارة المسلمين في الجزيرة في فنون الحرب ، كبناء الجانيق وأبراج الحصار المتحركة ، في حروبهم المستمرة في جنوب إيطاليا ضد البيزنطيين تارة ، وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة تارة ، وضد قوات الباباوات وحلفائهم تارة أخرى . لذلك فإن ملوك النورمان ، في بادئ الأمر على الأقل ، قاوموا المحاولات التي بذلتها الكنيسة لتنصير المسلمين وحثّوهم ما استطاعوا من اضطهاد الاقطاعيين من الفرسان وضد المستوطنين الجدد من اللمبارد . ولما كان النورمان حداثي عهد بالحضارة ، فإنهم اعتمدوا على المسلمين في الادارة وفي الدواوين والبلاط الملكي ، وفي أعمال البناء والتشييد . والزائر لصقلية اليوم يلاحظ أن الكاتدرائيات والقصور من عهد النورمان في الجزيرة هي ذات طابع معماري وزخرفي إسلامي ، تماماً كما هو الحال في إسبانيا المسيحية التي اعتمدت على مهرة الصنّاع من مدجّي المسلمين في كثير من أعمال بناء الكنائس والقصور . وكان لرجار الثاني عباءة ملكية صُنعت بدار الطراز على حاشيتها كتابة عربية بالخط الكوفي والتاريخ الهجري ٥٢٨ هـ . كما احاط رجار هذا نفسه ، على غرار ما درج عليه ملوك المسلمين ، بالمدّاح من الشعراء . وله ونحت رعايته صنف الشريف الأديسي كتاب (نزّهة المشتاق) المعروف بكتاب رجار/لجار في الجغرافيا ، وظلت العملة

العربية وهي المعروفة بالرُّباعي/ الطَّرِي هي العملة المتداولة في صقلية وجنوب إيطاليا ، تماماً كما كانت الدنانير/ الماشايل الرابطة والموحدة هي المتداولة في ممالك أسبانيا المسيحية حتى بعد تقلص نفوذ المسلمين وأراضيهم في الأندلس وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية ظَلَّتْ عملاتهم تُضرب عليها كتابة عربية بالخط الكوفي ، وبعضها يحمل التاريخ الهجري وعبرة (محمد رسول الله) <sup>(٨)</sup> .

## رجار الأول (١٠٩١ - ١١٠١ م) :

اقتسم الأخوان روبرت جيسكارد ورجار صقلية بينهما، وسَمَّى روبرت أخاه رجار كونت (قوس) صقلية ، ثم لم يلبث أن تعزَّز مركزُ رجار في الجزيرة بعد وفاة أخيه (١٠٨٥ م) ، وَكَوَّن جيشاً جُلُّه من المسلمين أعانه على توطيد الأمن والاستقرار في الجزيرة . ويقول الإدريسي عن الكونت رجار : « ولما صار أمرها إليه . . . نشر سيرة العدل في أهلها ، وأقرَّمهم على أديانهم وشرائعهم ، وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهلهم وذرائعهم ، ثم أقام على ذلك مدةَ حياته . . . » <sup>(٩)</sup> . ويؤيد ذلك من الجانب المسيحي ما ذكره وليام/ غليام الأبولي ومالاترا (Malaterra) من أن رجار لما فتح بلرم (بنابر ١٠٧٢ م) وعد المسلمين بأن لا يؤذِيهم بشيء ، وأن لا يُكرِه أحداً على تبديل دينه <sup>(١٠)</sup> . وكان من مصلحة رجار أن يستميلَ المسلمين ليساندوه ضد الأشراف النورمان إذا هم حاولوا الخروج على طاعته ، كما كان يحدث كثيراً للملوك في بعض ممالك أوروبا التي تفسَّى فيها نظامُ الأقطاع آنذاك . وكان أفراد البيت النورماني الحاكم انتهازيين إلى أبعد حد ، فقد أحسنوا معاملةَ المسلمين طالما كان ذلك في مصلحتهم الشخصية <sup>(١١)</sup> .

إن سنوات حكم الكونت رجار الأول تميَّزت بالتسامح الديني ، ولم تحدث ثورات داخلية ضده . وقد رفض ضغوطُ الكنيسة الكاثوليكية عليه لتنصير المسلمين لأسباب تتعلق بكيان دولته الفتية وأمنها . فقد كان المسلمون يشكّلون أكتريّة السكان ، كما كان العنصرُ الإسلاميُّ بارزاً في جيشه . ومحدثنا صاحب سيرة القديس أنسيلم (St. Anselm)

(٨) Smith, *Medieval Sicily*, p. 17.

(٩) إماري : *المكبة العربية الصقلية* ٢٦ .

(١٠) مورينو : *المسلمون في صقلية* ١٩ .

(١١) Daniel, *The Arabs and Mediaval Europe*, p. 153.

بأن رجار منع رجال الدين الكاثوليك من تحويل جنوده المسلمين إلى المسيحية<sup>(١٢)</sup> . ومع ذلك ، فإن الكونت رجار بادر إنتر دخول بلرم إلى تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وكذلك فعل ببعض مساجد المدينة مما حدا بمؤرخ أوروبي إلى التعليق على ذلك بقوله : « وهذا موجز للرحمة التي كانت أوروبا تقدمها دائماً للعرب ، فهي مشروطة بالقضاء على دينهم ، وفي عزهم ليكونوا جماعة ذات كيان منفصل »<sup>(١٣)</sup> .

ومن الناحية الاقتصادية ، كان الفتح النورماني ذا أثر سيء على أوضاع المسلمين الاقتصادية والمعيشية في صقلية . ففي أثناء القتال دُمرت القرى على نطاق واسع ، وكان على المسلمين — كاليهود — دفع إتاوة أو جزية مرتين في العام ، مما أدى إلى هجرة أعداد منهم إلى إفريقية . وبدخول النورمان إلى الجزيرة دخلها النظام الاقتصادي (Feudal System) ، إذ أقطع رجار أقباءه وأصحابه أراضي واسعة كانت للمسلمين ، واتخذ هؤلاء المقطعون المسلمين في الأرياف عبيداً أو أقتاناً في أراضيهم (Serfs) — وهم المشار إليهم في السجلات النورمانية ، التي احتفظت باسمها العربي الدفاتر (defetari/deptari) ، باسم رجال الجرائد (Villeins) . أما أهل المدن ، فقد كانوا أحسن حالاً نسبياً إذ كان تسليم مدنها ، كما حدث في بلرم ، بموجب اتفاقيات حفظت لهم ، ولو إلى حين ، حقوقهم المدنية والدينية ، في حين أن أهل الضياع والقرى فقدوا معظم أراضيهم للفرسان النورمان والكنيسة ، وأصبح الكثيرون منهم عبيد أرض للسادة الجدد . ولعل ذلك يفسر قول ابن الأثير « وملك رجار جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنجة مع المسلمين ، ولم يترك لأحد من أهلها حماً ولا دكاناً ولا طاحوناً ولا قرناً »<sup>(١٤)</sup> .

كان المسلمون عند استيلاء النورمان على صقلية يشكلون أكثرية السكان في غرب الجزيرة إقليم مازر (Val di Mazara) ، وكانوا يكونون نسبة كبيرة من السكان في جنوبها الشرقي إقليم نوطس (Val di Noto) أما في الركن الشمالي الشرقي من الجزيرة فقد كان المسلمون أقلية متناثرة في إقليم دمنش (Val Demone) . إلا أن خريطة الجزيرة السكانية لم تلبث أن أخذت في

(١٢) Ahmad, A. A History of Islamic Sicily, p. 68.

(١٣) Daniel, p. 148.

(١٤) اماري : المكتبة ٢٧٨ .

التبدل على حساب المسلمين، لتوالي هجرة المسلمين من الجزيرة إلى إفريقية والأندلس والشرق، ولوفود جماعات من النورمان من شمال فرنسا، ثم لتوالي هجرة اللبارد من جنوب إيطاليا. وكان هؤلاء اللبارد شديدي التعصب ضد المسلمين، وفد ارتكبوا ضدهم الوائاً من الاضطهاد طوال العهد النورماني، وهم في ذلك شبيهون بالوافدين الجدد من الصليبيين إلى الأراضي المقدسة في فلسطين الذين يتحدث أسامة بن منقذ عن شدة تعصبهم الديني نحو المسلمين كما لمس ذلك بنفسه في بيت المقدس (١٥).

ويمثل شعور المثقفين العرب واستياءهم لما آل اليه وضع مسلمي صقلية بعد وصول النورمان قول الشاعر عبد الحليم بن عبد الواحد (١٦) (وهو إفريقي المنشأ صقلي الدار):

عشقتُ صقليةً يافعا      وكانت كبعض جنان الخلود

فما قدّر الوصلُ حتى اكتهتُ      وصارت جهنمَ ذاتِ الوقود

رجار الثاني (١١١١ — ١١٥٤ م)

بعد فترة من الوصاية لأمه أدلايد، تولى رجار أمر صقلية. ورجار الثاني أشهر ملوك النورمان، وهو الذي وحد ممتلكات النورمان في جنوب إيطاليا وصقلية، وانتزع لنفسه من البابا — لقاء تأييده له ضد خصومه — لقب «ملك صقلية» علم ١١٣٠ م، بعد أن كان أبوه يحمل لقب «كونت» (قومس). يقول الإدريسي: «أقام الدولة، وزين المملكة، وشرف السلطنة، وأعطى الأمور أقساطها من النظر الجلي والعقل المرضي، مع نشور العدل وإقامة الأمان» (١٧).

ونظراً لما لقيه من معاداة البيزنطيين وأباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة الطامعين في مملكته، فإن رجار سار على سياسة أبيه في تجنيد المسلمين والاعتماد عليهم في مواجهة أعدائه. يقول ابن الأثير إن رجار «اكرم المسلمين وقربهم، ومنع عنهم الفرنج

(١٥) أسامة بن منقذ: كتاب الاغبار (الترجمة الانجليزية) ١٦٣.

(١٦) اماري: المكبة ٥٨٢.

(١٧) اماري: المكبة ٢٧.

فأجبهه<sup>(١٨)</sup> . والحق أن رجار وجد من مصلحته إزاء الأخطار المحدقة به أن ينتهج سياسة توازن الطوائف والملل والعناصر بين رعاياه .

ومما يُذكر أن الملك رجار الثاني حقق فتوحات في شمال إفريقية (استولى على جزيرة جربة سنة ٥٢٩/١١٣٥ م ، وعلى طرابلس الغرب سنة ٥٤١/١١٤٦ م ، وعلى المهديّة سنة ٥٤٣/١١٤٧ م . وعلى معظم مدن الساحل التونسي سنة ٥٤٣/١١٤٨ م ، وعلى بونه/عنابة سنة ٥٤٨/١١٥٤ م) وأضاف إلى القابة لقب «ملك إفريقية» . وقد سهّل عليه أمر الاستيلاء على موانيء إفريقية حالة الضعف والتفكك السائدة هناك بسبب الفرقة والمنازعات ، وسوء الأحوال الاقتصادية بسبب توالي أعوام الجفاف والقحط . ومما حفزه على الاستيلاء على موانيء الساحل الإفريقي أن المسلمين ما فتئوا يغيرون منها على مراكز النصارى وعلى سواحل صقلية ، إذ لم ينسوا ضياع صقلية من أيدي المسلمين ، تماماً كما حدث بعد ذلك بأربعة قرون بالنسبة لمراكب الإسبان وسواحل الاندلس على أيدي النازحين من الاندلسيين ، فكما أن الإسبان سعوا في أوائل القرن السادس عشر إلى الاستيلاء على عدد من موانيء الشمال الإفريقي أملا في وقف غارات النازحين الأندلسيين ، كذلك فعل النورمان في منتصف القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي بالنسبة لموانيء إفريقية . ولا شك في أن مما يسر الأمر بالنسبة للنورمان إنشغال المرابطين في تلك الفترة بقيام الموحدين الذين قضوا نهائياً على دولة المرابطين (٥٤١/١١٤٦ م) ولم يتفرغ الموحدون للنورمان إلا بعد ذلك ببضع عشرة سنة .

لقد عرف رجار الثاني قيمة الحضارة العربية واستفاد منها ، وقّلد العرب مناصب سامية في دولته . وله تحت رعايته ألف الإدريسي كتابه (نزهة المشتاق) ، وسماه كتاب رجار ، وفي مقدمة الكتاب وصف الملك «بالمملك المعظم المعترف بالله المقتدر بقدرته» . ولا شك في أن جود الإدريسي ، العالم الجغرافي الكبير والشرقي المحدث ، رفع من مكانة رجار في أعين رعاياه من المسلمين . وليس من الغريب أن يتناقل الناس إسلامه . لقد وصفه أماري بأنه «سلطان عربي يحمل تاجاً كملوك الفرنج» ، واتهمه النصارى بأنه كافر (pagan)<sup>(١٩)</sup> . ودفعاً للظن عن نفسه ، فإن رجار أقبل على تشييد الكنائس ،

(١٨) نفس المصدر ٢٧٨ .

(١٩) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الاندلس ١٨٢ .

مورينو : المسلمون في صقلية ٢٢ . Lewis, p. 119 .

كما أنه شجّع في أواخر أيامه حركة التنصير بين المسلمين واليهود . وقُيِّل وفاته ، غضب رجار على قائد اسطوله فليب المهدوي ، لأنه أغضى عن جماعة من صلحاء المسلمين وعلمائهم عند استيلائه على بونة (عنابة) سنة ١١٥٤/١١٥٤ م حتى خرجوا بأهليهم واموالهم إلى القرى المجاورة . فلما عاد إلى صقلية أمر رجار بالقبض عليه . وعن ذلك يقول ابن الأثير : « وكان فليب يقال إنه وجميع فتيانته مسلمون ويكتمونه ، وشهدوا عليه أنه لا يصوم مع الملك وأنه مسلم . فجمع رجار الاساقفة والقسوس والفرسان ، فحكوا بأن يُحرق فأُحرق في رمضان . وهذا أول وهن دخل على المسلمين بصقلية »<sup>(٢٠)</sup> وقد يكون من أسباب تغير سياسة رجار في أواخر أيامه ظهور دولة الموحدين كقوة كبيرة في المغرب . مما هدّد مواقع النورمان على الساحل الافريقي . لا بل ووجودهم في صقلية ذاتها .

### وليام / غليام الأول (١١٥٤ — ١١٦٦ م)

في السنوات الأولى من حكمه زاد نفوذ كبير وزرائه مايو/مايون (Maio/Majone) زعيم حزب القصر الذي ناصره كثير من المسلمين لاعتمادهم ، وبخاصة تيان البلاط وحجّابه ، على الملك لحمايتهم من بطش حزب النبلاء المعادي والذي كان يمثل المؤرخ النورماني فلقدنو (Falcandus) . وهو الذي أضفى على الملك وليام / غليام الأول صفة السيء (The Bad) . وهي صفة لم يكن الملك في الحقيقة جديراً بها . وانما نعته فلقدنو بذلك لا لشيء الا لأنه أبدى تسامحاً نحو المسلمين .

ومع أن المسلمين ظلوا مخلصين للملك الذي كان حاميتهم الوحيد في جو مشحون بالعداء نحوهم من جانب النبلاء واللمبارد ورجال الدين النصارى ، إلا أنهم دفعوا ثمن انتصار الموحدين على النورمان في المهديّة (١١٥٥/١١٦٠ م) إذ انتعشت آمالهم بظهور قوة الموحدين ، وبعد إخراج النورمان من مدن الساحل الافريقي ما بين عامي ١١٥٦ و ١١٦٠ م . لذلك ، وتحوطاً ، فقد جرّد المسلمون في بلرم من السلاح ، مما جعلهم لقمة سائغة للبارونات والوافدين من اللمبارد في الثورة التي قام بها هؤلاء ضد الملك ووزيره

وفتيانه (١١٦٠ - ١١٦١ م). وفي تلك الثورة الدامية اغتيل الوزير مايو/مايون ، وقُتل العديدُ من فتيان القصر وموظفيه المسلمين ، كما قُتل كثيرٌ من المسلمين في أحياء بلرم وسُلبت أموالهم «وقُتل الفرسانُ كثيرون في متاجرهم وفي الدواوين ، ومن وجدوه يتجول خارج منزله في شوارع المدينة»<sup>(٢١)</sup>. وعلى أثر هذه الثورة الدامية ، بل المذابح ، لم يُعدَّ العربُ يستشعرون الأمنَ في وسط مدينة بلرم ، فتجمَّعوا في حي من المدينة يسهل عليهم منه الدفاع عن أنفسهم<sup>(٢٢)</sup>. وكان من بين ضحايا هذه الثورة الدموية — وهي الأولى من نوعها في العهد النورماني — الشاعرُ القفصيُّ يحيى بن التيفاشي ، ولعل الإدريسي كان من بين ضحاياها أيضاً<sup>(٢٣)</sup>.

وكانت أحوالُ المسلمين في الأرياف أسوأ من ذلك ، اذ تعرَّضوا لفنك نبلاء النورمان وأتباعهم، ونجا بعضهم متزيباً بزى النصارى، وقد انتابهم رعبٌ شديدٌ في المناطق التي كان يسكنها اللُمبارد ، حتى إنهم لأجيال ظلوا يتحاشون المرورَ بتلك المناطق ما أمكنهم ذلك<sup>(٢٤)</sup>. ولما استردَّ الملك زمامَ الموقف وقمَّعَ الثورة ، بادر الى إتخاذ إجراءات صارمة ضد الثائرين مستعيناً بجيشه الذي كان يضم عدداً وافراً من الجنود المسلمين .

ان العداء ضد المسلمين من جانب الإقطاعيين من البارونات ومن جانب الأعداد المتزايدة من اللُمبارد الذين وفدوا من إيطاليا للاستقرار في الجزيرة كان مبعثه التعصبُ الديني ، ثم الفُرة لما كان للمسلمين من مناصبٍ ونفوذٍ في القصر ونشاطٍ في مجال التجارة . كذلك فإن الإقطاعيين ما فتئوا يحاولون توسيع ممتلكاتهم بانتزاع المزيد من الأراضي من أيدي المسلمين بحجة أنها كانت في الأصل للنصارى<sup>(٢٥)</sup>. أضف إلى ذلك ظهور قوة الموحدين وخشية النصارى من تواطؤ مسلمي صقلية معهم لإعادة السيادة الإسلامية على الجزيرة . ولم يكن شعور مسلمي صقلية هذا بالأمر المستغرب ، فقد كانوا دائماً يتلقطون ، عن طريق الحجاج والتجار المسلمين المارين بالجزيرة ، أخبارَ المسلمين في المشرق

(٢١) Daniel, p. 149.

(٢٢) Ibid, pp. 149-150.

(٢٣) أماري : المكتبة ص ٥٩٩ . إحسان عباس : العرب في صقلية ص ١٤٩ .

(٢٤) Daniel, p. 151.

(٢٥) مورينو : المسلمون في صقلية ٢٢ .

والمغرب ، كما يتبين مما ذكره الرحالة الأندلسي ابن جبير في رحلته . ويقول الهروي إنه اجتمع في صقلية بالقائد ابي القاسم بن حمود زعيم مسلميها فسلمه كتاباً إلى السلطان الموحيدي يبحث فيه على الاستيلاء على الجزيرة<sup>(٢٦)</sup> . وعند مرور ابن جبير بصقلية ( ٥٨٠هـ / ٨٤ — ١١٨٥ م ) ، كان أبو القاسم ابن حمود مغضوباً عليه من الملك النورماني إذ ، كما يقول ابن جبير ، «ألزمه داره بمطالبة توجهت عليه من أعدائه اقترأوا عليه فيها احاديث مزورة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحيدين ، أبدهم الله ، فكادت تقضي عليه لولا حارس المدة ، وتوالت عليه مصادرات أغرمته ثيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية ، ولم يزل ينخلى عن جميع دياره وأملاكه الموروثة عن سلفه حتى بقي دون مال»<sup>(٢٧)</sup> . ومما يذكر أن الشاعر المصري ابن قلاقس كان قد حلّ ضيفاً على ابن حمود ( ٥٦٣هـ / ١١٦٨ ) ، قبل أن يتكبه الملك النورماني ، ومدحه بعدة قصائد وألف له كتاب ( الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم )<sup>(٢٨)</sup> .

لقد كان القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي فترة اندلاع الحروب الصليبية في المشرق ، وكذلك فترة بزوغ الدولة الموحدية في المغرب والأندلس ، فليس من الغريب أن نجد العامل الديني ذا أثر كبير في أوضاع المسلمين في صقلية الذين شعروا بالانقطاع عن دار الإسلام ، وبأنهم رهائن تحت رحمة النصارى . فهذا ابن الأثير ينقل لنا ما قاله صاحب صقلية وليم/غليام الأول وقت استيلاء السلطان الموحيدي عبد المؤمن بن علي على المهديّة ( ٥٥٥هـ / ١١٦٠ م ) : «إن قتل عبد المؤمن اصحابنا بالمهديّة ، قتلنا المسلمين الذين يجزيرة صقلية وأخذنا حرمهم وأموالهم»<sup>(٢٩)</sup> . مما يبين بأن مسلمي صقلية أصبحوا كالرهائن في يد الملك النصراني يتصرف بهم حسبما تليه عليه الظروف وعلاقته بالدول الإسلامية خارج الجزيرة .

ومما يبين اشتداد روح الاضطهاد الديني في الفترة التي أعقبت إخراج النورمان من شمال افريقيا ما حدث لروبرت كالانايبانو (Robert Calatabiano) الذي

(٢٦) احسان عباس : العرب في صقلية ٢٩٠ .

(٢٧) ابن جبير : رحلة ابن جبير ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٢٨) احسان عباس : العرب في صقلية ٢٩٠ .

(٢٩) اماري : المكتبة ٣٠٧ .



أنهم — كما حدث من قبل لقلب المهدي في نهاية حكم رجار الثاني (١١٥٤/٨٥٤٨ م) — بإظهار النصرانية وحسن معاملة المسلمين ، فاضطهد وُجَّ به في السجن حيث مات مسجوناً<sup>(٣٠)</sup> . «وبالتأكيد فقد كان امراً خطراً بالنسبة لمسيحي — حتى أو بالأخص إذا كان ثرياً — أن يكون له اصدقاء من العرب ، حتى أو بالأخص إذا كان هؤلاء من رجال البلاط»<sup>(٣١)</sup> .

ومع ذلك فإن المسلمين في صقلية رأوا في الملك حاميه الوحيد ضد الفرسان واللمبارد وغلاة النصارى المتربصين بهم ، فأزروه عليهم لردعهم وخضد شوكتهم ويقول فلقدنوا : إن نساء بلرم المسلمات شيعنَ نَعشَه (وليام/غليام الأول) يوم مات بدموعٍ صادقةٍ لا تشبه الدموعَ الرسمية التي كانت تسيل من عيون سائر النُذَّاب<sup>(٣٢)</sup> .

### وليام/غليام الثاني (١١٦٦ — ١١٨٩ م)

وبعد وفاة وليام/غليام الأول وتولي أرملته الوصاية على ابنها ، قُدمتْ عام ١١٦٧ م شكاو من النصارى — وبخاصة للمبارد — في بلرم ضد مسلمين يشغلون مناصباً هامة كانوا قد تنصروا ولكن خصومهم اتهموهم بكتان إسلامهم . لذلك فقد رأى بعض المسلمين ، بما فيهم رئيسُ حُجَّاب القصر ، ان الوقت قد حان للتزوج إلى ديار الأسلام في المغرب ببعض ما لهم<sup>(٣٣)</sup> .

كان وليام/غليام الثاني في الثالثة عشرة من عمره عند وفاة أبيه ، ولم يباشر الحكم بنفسه الا في عام ١١٧١ م . وبخلاف أبيه ، فقد كان محبوباً من رعاياه النصارى ، ولذلك اطلقوا عليه لقب ، «الطيب» (The Good) ، ولعل رضاهم يرجع الى موقف هذا الملك من رعاياه المسلمين ، والى نشاطه في محاربة المسلمين في المغرب والمشرق . فقد جهَّز حملاتٍ عبر البحر المتوسط بدافع ديني في المقام الأول ، وكذلك لحاية تجارة صقلية

(٣٠) Daniel, pp. 150–151.

(٣١) Ibid, p. 151.

(٣٢) مورينو : المسلمون في صقلية ٢٢ .

(٣٣) Daniel, p. 152.

الخارجية ، ولتأمين المواصلات البحرية بين أوروبا والأراضي المقدسة أثناء الحملات الصليبية . وفي الفترة ما بين ١١٧٤ م ١١٧٨ م شنَّ أسطولُه عدَّة غارات على سواحل مصرَ دون جدوى ، بفضل ما كان السلطانُ صلاحُ الدين الأيوبي قد أعدَّه من قوة عسكرية مصرية . وفي عام ١١٨٠ — ١١٨١ م أرسل وليام الثاني أسطولاً لمهاجمة الجزائر الشرقية (جزر البليار) التي كانت آنذاك تحت سيطرة بني غانية المرابطين ، ولكن الحملة باءت بالفشل ، إذ إن الجنويين حلفاء وليام الثاني عقدوا صلحاً منفرداً مع بني غانية . وأبرم وليام الثاني في هذه الفترة اتفاقيةً مع السلطان الموحيدي أبي يوسف يعقوب المنصور لأسباب تجارية ، فضلاً عن عداوة الجانبين لبني غانية .

وكان وليام الثاني من بين أول من حملَ الصليبَ من ملوك أوروبا في بداية الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ — ١١٩١ م) التي قامت إثر انتصار السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة حطين (١١٨٧/٥٥٨٣م) واسترداده لبيت المقدس من أيدي الصليبيين . ومع أن وليام الثاني لم يشارك شخصياً في الحملة الصليبية الثالثة ، إلا أن أسطولَه لعب دوراً هاماً في العمليات الحربية قرب ميناء اللاذقية . ويعلِّق على ذلك مؤرخ حديث بقوله : «لم يكن البلاط النورماني شديد الحماس للفكرة الصليبية ، إلا أنه كان دائماً على استعداد لاستغلال ولاء النصارى لهذا الغرض» (٣٤) .

كان وليام كآبيه وجدَّه من قبله مُلماً بالعربية ، كما كان يولي اهتماماً كبيراً للعلوم والمعارف العربية ، وبخاصة في مجال الطب والفلك . وقد كانت فترةُ حكمه فترةً هدوء وسلام في الداخل . إن أوضاعَ المسلمين في صقلية في عهد وليام الثاني واضحة بفضل ما تركه لنا الرحالة الأندلسيُّ ابنُ جبير في رحلته الشهيرة .

### ابن جُبَيْر في صقلية (٥٨٠/٨٤ — ١١٨٥ هـ)

مرَّ الرحالةُ الأندلسيُّ ابنُ جبير بصقلية في طريق عودته إلى بلاده بجزراً بعد تأدية فريضة الحج ، وكان ملكها آنذاك وليام/غليام الثاني . أمضى ابن جبير في الجزيرة قرابة أربعة شهور ، وترك لنا في رحلته انطباعات تُلقي ضوءاً ساطعاً على وضع المسلمين في الجزيرة بعد

قرن من انتهاء السيادة الإسلامية عليها . وما ذكره هذا الفقيه والأديب الأندلسي يُعدُّ بحق وثيقة تاريخية صادقة وبالغة الأهمية عن أوضاع المسلمين في الجزيرة لذلك العهد . وقد دَوَّن ابن جبير انطباعاته على شكل يوميات أورد فيها ما رآه بنفسه وما سمعه من المسلمين الذين اجتمع بهم .

وصل ابن جبير إلى ميناء مَسِينَة قادماً على ظهر مركب جنوي أقله ورفاقه الحجاج من عكا بفلسطين . وعن المسلمين في مَسِينَة يقول ابن جبير إنه ليس فيها من المسلمين الا نفر يسير من ذوي المهن ، ولذلك يستوحش بها المسلم الغريب<sup>(٣٥)</sup> . وهو بذلك يؤكد ما هو معروف من أن أعداد المسلمين في الركن الشمال الشرقي من الجزيرة كانت قليلة ، بخلاف الحال في الأجزاء الجنوبية والغربية منها .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك النورماني وليام / غليام الثاني فيقول : « وشأن هذا الملك عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجاييب ، وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه متمسك بشريعة الاسلام . . . وله جملة من العبيد السود المسلمين وعليهم قائد منهم . ووزراؤه وحجابه الفتيان ، وله منهم جملة كبيرة ، هم أهل الدولة . . . ومن عجيب شأنه المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وعلامته ، على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به : الحمد لله حقَّ حمده . وكانت علامة أبيه : الحمد لله شكراً لأنعمه »<sup>(٣٦)</sup> .

ويُثني ابن جبير على أولئك الفتيان المسلمين في خدمة الملك لصيامهم وتصدقهم واقتكاكهم الأسرى من المسلمين . ومع ذلك فانهم كانوا يكمون إيمانهم ، ويُبدون التحفظ والحذر ، من ذلك أن ابن جبير لقي منهم بمَسِينَة « فتى اسمه عبد المسيح من وجوههم وكبرائهم . . . فاحتفل في كرامتنا وبرنا ، وباح لنا بسرهِ المكنون بعد مراقبة منه مجلسه أزال لها كل من كان حوله ممن يتهمه من خدامه محافظة على نفسه . . . وقال لنا : انتم مُدُلُون باظهار الإسلام . . . ونحن كاتمون إيماننا ، خائفون على أنفسنا ، متمسكون بعبادة الله وأداء فرائضه سرّاً مُعتقلون في مملكة كافر بالله ، قد وضع في أعناقنا ربة الرق ،

(٣٥) رحلة ابن جبير ٢٦٦ .

(٣٦) نفس المصدر ٢٦٧ — ٢٦٨ .

فغائتنا التبرك بقاء أمثالكم من الحجاج . . . (٣٧) . ويضيف ابنُ جبير أن « من عجيب شأن هؤلاء الفتيان أنهم يحضرون عند مولاهم فيحين وقت الصلاة فيخرجون أفذاذا من مجلسه فيقصون صلاتهم . . . (٣٨) . وعلم ابنُ جبير أنه كانت قد وقعت في صقلية زلازل فكان « هذا المُشرك [ وليام الثاني ] يتطَلَّع في قصره فلا يسمع إلا ذاكرةً لله ولرسوله من نسائه وفتياته ، وربما لحقتهم دهشة عند رؤيته ، فكان يقول لهم : ليدكر كلُّ أحدٍ منكم معبوده ومن يدين به ، تسكيناً لهم » (٣٩) .

وبعد أن أمضى ابنُ جبير تسعةَ أيام في مَسِينَة ، توجهَ بحراً قاصداً العاصمة بلرم التي يقول إن المسلمين يعرفونها بالمدينة أو بمدينة صقلية ، بينما يعرفها النصارى باسم « بلارمة » ، قرَّ بمدينة شفلوذي (Cefalu) على ساحل صقلية الشمالي ، ولاحظ أن المدينة تسكنها طائفةٌ من المسلمين ، ثم مر ببلدة تِرْمَة (Termini) « وللمسلمين فيها ريشٌ كبير لهم فيه المساجد » . ومن تِرْمَة توجهَ ورفاقه براً إلى بلرم .

أقام ابنُ جبير في العاصمة بلرم أسبوعاً وترك لنا وصفاً حياً شيقاً لأحوال المسلمين فيها : « وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان ، يعمرن أكثر مساجدهم وقيمون الصلاة بأذان مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم . ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي . ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . . . وأما المساجد فكثيرة لا تُحصى ، وأكثرها محاضرٌ لمعلمي القرآن . وبالجملة فهم غرباء عن اخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار ، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا ابنائهم » (٤٠) .

من هذا يتبين أن مسلمي بلرم كانوا يعيشون في حالة فزع مستمر من الاضطهاد والبطش . كما يلاحظُ بأن الخطبة في العيدين تكون الدعوة فيها للخليفة العباسي ، وكان

(٣٧) رحلة ابن جبير ٢٦٨ .

(٣٨) نفس المصدر ٢٦٩ .

(٣٩) نفس المصدر ٢٦٨ .

(٤٠) رحلة ابن جبير ٢٧٣ .

ضعيفاً ثانياً في بغداد، وليس للخليفة الموحي القوي الأقرب إليهم في المغرب، وذلك للعداء المستمر بين الموحيين والروم سواء في الأندلس أو في صقلية النورمانية .

ويتحدث ابن جبير عن الجزية التي فرضها النورمان على مسلمي الجزيرة ، فضلاً عن القيود الأخرى ، فيقول إنهم «ضربوا عليهم إتاوةً في فصلين من العام يؤدونها ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجلدونها» (٤١) .

ومن بلرم قصد ابن جبير ميناء اطرابنش (Trapani) في غرب الجزيرة ، وهو الميناء الذي كان يُحرمنه الحجاج والتجار المسلمون المتوجهون إلى الأندلس والمغرب ، ومَرَّ في الطريق ببلدة علقمة (Alcamo) ، ولاحظ أن سكانها وسكان الضياع في الطريق كلهم مسلمون ، مما يدلُّ على أنه حتى بعد قرن من زوال السيادة الإسلامية على الجزيرة ، بقيت الأجزاء الغربية منها ، وبخاصة الأرياف ، مأهولةً بالمسلمين .

طال مقام ابن جبير في اطرابنش مضطراً ، وذلك لتعذر الإبحار منها بسبب الأنواء والأحوال الجوية ، وقد مكَّنه ذلك لحسن الحظ من المزيد من التعرف على أحوال مسلمي البلدة ومسلمي صقلية عامة ، فترك لنا معلومات بالغة الأهمية عن حالة القلق التي كان يشعر بها مسلمو الجزيرة وخوفهم مما يجتبه لهم المستقبل : فهو يقول : «وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرّفنا ما يؤلم النفوس تعرّف من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عبّاد الصليب بها ، دمرهم الله ، وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة والمقام تحت عهد الذمة وغلظة الملك . . . فنها قصة اتفقت في هذه السنين القريبة لبعض فقهاء مدينتهم [يعني بلرم] . . . ويُعرف بابن زرعة ، ضغطته العمال بالمطالبة حتى أظهر فراق دين الإسلام . . .» (٤٢) . ثم يحدثنا ابن جبير عن اجتماعه بزعيم مسلمي صقلية القائد أبي القاسم بن حمود ، المعروف بابن الحجر ، وقد قدم اطرابنش أثناء مقام ابن جبير فيها ، فيقول : «وكان هذه المدة تحت هجران من هذا الطاغية [وليام الثاني] ألزمه داره بمطالبة توجّهت عليه من أعدائه افتروا عليه فيها أحاديث مزوّرة نسبوه فيها إلى مخاطبة الموحيين . . . وتوالت عليه مصادرات أغرمته نيفاً على الثلاثين ألف دينار مؤمنية [نسبة لعبد المؤمن بن علي أول سلاطين الموحيين] . . . فاتفق في هذه الأيام رضى الطاغية عنه ، وأمره بالنفوذ لهم أشغاله السلطانية ، فنفذ لها

(٤١) نفس المصدر ٢٦٦ .

(٤٢) رحلة ابن جبير ٢٧٩ .

نفوذُ الملوك المغلوب على نفسه وماله . وصدرت عنه عند وصوله الى هذه البلدة [يعني أطرابنش] رغبة في الاجتماع بنا ، فاجتمعنا به ، فأظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع اعدائهم ما يُكي العيون دما ، ويذيب القلوب ألما ، فن ذلك أنه قال : كنتُ أوْدُ لو أباع انا وأهلُ بيتي ، فلعلَّ البيعَ يخلصنا مما نحن فيه ، ويؤدي بنا إلى الحصول في بلاد المسلمين . . . ومن عَظَمَ هذا الرجل الحمودي في نفوس النصارى ، أبادهم الله ، أنهم يزعمون أنه لو تنصّر لما بقي في الجزيرة مسلمٌ إلا وفعل فعله اتباعاً له واقتداءً به . . . (٤٣) .

ونتيجةً للضغوط التي كان يتعرض لها المسلمون في صقلية ، فان روابط الأسر قد تفككت ، ولم يعد للأب سلطةً على ابنائه ، وعن ذلك يحدثنا ابن جبير فيقول : « ومن أعظم ما مُني به أهلُ هذه الجزيرة أن الرجلَ ربما غضب على ابنه أو على زوجته ، أو تغضبُ المرأةُ على ابنها فتلحق المغضوبُ عليه أنفةٌ تؤديه إلى التطارح في الكنيسة فيتنصّر ويتعمّد ، فلا يجد الأبُ للابن سيلاً ، ولا الأم للبت سبيلاً . فتخيّل حالَ من يُمنَى بمثل هذا في أهله وولده ، ويقطعُ عمره متوقفاً لوقوع هذه الفتنة فيهم . فهم الدهر في مداراة الأهل والولد خوف هذه الحال » (٤٤) . كل ذلك جعل بعيدي النظر من المسلمين في الجزيرة يخشون أن يحلّ بهم ما حلّ بمسلمي جزيرة إقريطش (كريت) بعد استيلاء البيزنطيين عليها من أيدي المسلمين عام ٩٦١م «فأنه لم تزلْ بهم الملكة الطاغيةُ من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء حالاً بعد حال حتى اضطروا إلى التنصّر عن آخرهم ، وفرّ منهم من قفى الله بنجاته » (٤٥) .

مما ذكره ابن جبير يستخلصُ القاريُّ أن المسلمين في جزيرة صقلية بعد قرنٍ من زوال السيادة الاسلامية على الجزيرة ، كانوا معرّضين للقيود والاضطهاد : فبعضهم تنصّر مكرهاً ولكنه كان يكتُم ايمانه ، وصلاة الجمعة كانت محظورةً عليهم ، وكان عليهم دفعُ إتاوة تقابل الجزية التي كان أهل الذمة يدفعونها للمسلمين ، وكانت عملية التنصير قائمة وتلقى التشجيع من جانب الكنيسة ، وأخيراً فإن زعماء المسلمين ، كأبي القاسم بن حمود ، كانوا

(٤٣) نفس المصدر ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٤٤) رحلة ابن جبير ٢٨٠ .

(٤٥) نفس المصدر ٢٨٠ .

دائماً عرضةً للاتهام بالتواطؤ مع الموحدين . كان الموحدون آنذاك في أوج قوتهم في المغرب والأندلس ، فليس من الغريب أن يتطّلع مسلمو صقلية إلى عَوْنهم ونجدهم — كما تطّلع مسلمو الأندلس إلى نجدة المرابطين قبل ذلك بقرن من الزمن — وان ينظرُ النورمان بالتالي بعين الريبة الى رعاياهم المسلمين . كل ذلك كان يشجع على الهجرة إلى أرض الاسلام ، وهذه الرغبة كثيراً ما عبّر عنها لابن جبير زعماء المسلمين في الجزيرة في احاديثهم الخاصة معه . وكما يقول مورينو «الحاصل كان التوازن بين اتباع الديانتين عادماً القرار ، رغما عن مجهودات الحكّام ، فما كان للمسلمين أن يرضَوْا بالخضوع بعد أن كانوا اسياداً وان لا يرنوا إلى إعادة الأمور الى نصابها ، خصوصاً وان رايات الموحدين الخفاقة في سماء المغرب كانت تُنْعِشُ عزائمهم» (٤٦) .

### تانكريد (١١٩٠ — ١١٩٤ م)

لم يخلف وليام/غليام الثاني عَقِباً ، فأوصى بان تخلفه على عرش صقلية عمته كونستانس ابنة رجار الثاني التي كانت متزوجة من الامبراطور الألماني هنري السادس . إلا أن النبلاء الإقطاعيين في صقلية اختلفوا فيما بينهم ، وأتى فريق مناهض للامان منهم في عام ١١٩٠ م بتانكريد (Tancred) الى العرش ، وكان تانكريد هذا حفيداً غير شرعي لرجار الثاني . وحتى قبل أن يتولى تانكريد المُلك ، حدثت مذبحة للمسلمين في بلرم عام ١١٨٩ م . وكان تانكريد شديد التعصب ضد المسلمين ، وكان قد قاد عام ١١٦٠ م غارات استتصاليّ ضدّهم في بشيرة (Butera) في جنوب شرقي الجزيرة ، فليس من الغريب لذلك أن يتشاءموا عند تولّيه المُلك ، بتأييد من اعدائهم ، وأن يقوموا بثورة عارمة اشغلته طوال السنة الأولى من حكمه (استمرت هذه الثورة من نهاية عام ١١٨٩ الى اكتوبر عام ١١٩٠ م) . واذ تعرّض مسلمو بلرم للمذابح — كما حدث لهم من قبل في عام ١١٦٠ — ١١٦١ م — فرَّ معظمهم معتصماً بالمناطق الجبلية في وسط الجزيرة وغربها ، حيث احتلوا عدداً من المعاقل المنيعه . وانضم اليهم فيها عبيد الأرض المسلمون الكادحون في إقطاعيات نبلاء النورمان . وقُدِّر عدد هؤلاء المسلمين الثائرين في غرب الجزيرة بنحو مائة ألف ، بما فيهم النساء . «وقد كانت هذه الثورة وقعتها بداية النهاية للوجود الاسلامي

(٤٦) مورينو : المسلمون في صقلية ٢٤ .

في جزيرة صقلية،<sup>(٤٧)</sup> . وانتهت الآن فترة التعايش جنباً إلى جنب بين الطائفتين. ولعلَّ الأخطارَ الخارجيةَ المحدقةَ بتانكريد من ناحية الألمان من جهة ، ومن ناحية الموحدين من جهة أخرى، زادت من تعسُّفه وغلَّوه في سياسته نحو المسلمين تحوُّطاً وكسباً للرأي العام النصراني في الجزيرة وخارجها .

ان وضعَ المسلمين في صقلية أصبح حرجاً للغاية في فترة الفوضى التي سادت الجزيرة بعد وفاة وليام الثاني (أي بعد خمس سنوات فقط من مرور ابن جبير بالجزيرة) إذ إنَّ منهم كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود سلطة مركزية قوية ، أما الآن وقد ضعفت سلطة الملك في أواخر الفترة النورمانية ، فقد أصبح وضع المسلمين صعباً ، لأن طيقة النبلاء الاقطاعيين تحالفت مع الكنيسة الكاثوليكية التي رأت في تنصير المسلمين عملاً دينياً صالحاً<sup>(٤٨)</sup> . أما أولئك المسلمون الذين رفضوا التنصُّر ، فقد لجأوا إلى الهجرة . وكانت هجرة المسلمين من صقلية إلى شمال أفريقية والأندلس والمشرق قد بدأت في الحقيقة منذ أن وطئت أقدامُ النورمان أرض الجزيرة (نرح أشهرُ شعراء صقلية ابن حمديس عن مسقط رأسه سرقوسة بعد كفاح ضد المغيرين النورمان سنة ١٠٧٨/٤٧١ م) واستمرت الهجرة طوال فترة حكم النورمان للجزيرة . ومن الطبيعي ان هذه الهجرة كانت تزداد في فترات الاضطهاد وعدم الاستقرار كما حدث عام ١١٥٣ م ، واثناء مذابح عام ١١٦٠ — ١١٦١ م ، واصبحت الهجرة على نطاق اوسع بسبب المذابح والثورة عام ١١٨٩ — ١١٩٠ م .

وبعد وفاة تانكريد عام ١١٩٤ م ، خلفه ابنه الصبي وليام الثالث تحت وصاية والدته . وفي هذه الأثناء زحف الامبراطور الألماني هنري السادس جنوباً ، واستولى على مملكة صقلية باسم زوجته كونستانس ، مُتِّهِماً بذلك الفصلَ النورمانيَّ من تاريخ الجزيرة (١١٩٤ م) .

ولعلَّ من المناسب ختاماً لهذا البحث اقتباسَ ماقاله المؤرخ اللاتيني النورماني المعاصر لتلك الأحداث والمتحمَّسُ لاستقلال الجزيرة اوغو فلقندو (Hugo Falcandus) عن الفترة العصبية التي مرَّت بها صقلية بُعيد وفاة الملك وليام

(٤٧) Ahmad, A., *A History of Islamic Sicily*, p. 61.

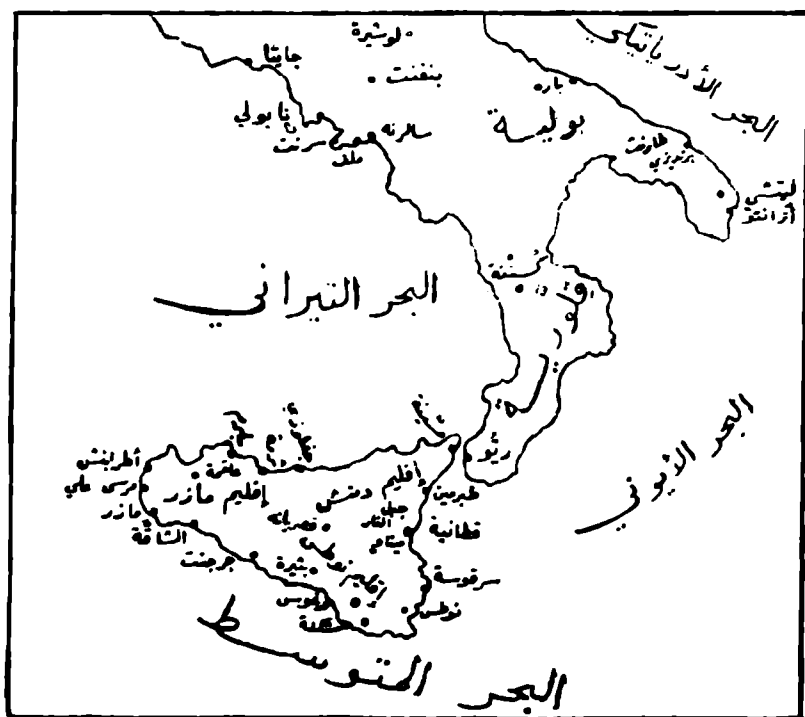
(٤٨) Ibid, p. 75.



الثاني فقد أهاب المؤرخ - عبثاً - بأهالي صقلية على اختلاف أجناسهم ودياناتهم للعمل على توحيد الكلمة وجمع الصفوف لمواجهة الأخطار المحدقة بالجزيرة قائلاً : « لو تَوَجَّ أهالي صقلية رجلاً مُقَرَّأً له بالمقدرة ، ولو زال التنازع بين المسيحيين والعرب ، لتمكَّن الملك الذي يختارونه من رد حملات الأجانب ، ومن إصلاح أمر الدولة البادية علانمُ انحلالها . ولكنْ بعد أن سادت الفوضى ، وعاد الناسُ لا يخافون سلطة الملك قد أصبح ، وللأسف ، من المتعسر أن يكفَّ النصارى عن التعدي على العرب ، وإن يكفَّ هؤلاء ، وهم مسيئو الظن بهم وناقمون ظلمهم ، عن التمرد وعن كبس حصن على البحر تارةً وقلعةً في الجبال طوراً . فإذا وقع ذلك ، فكيف يتمكن الصقليون من مقاومة غزوات العرب بيد [ يقصدُ الموحدين ] ومحاربة الألمان . . . بالأخرى ؟ » (٤٩) .



(٤٩) مورينو : المسلمون في صقلية ٢٤ — ٢٥ .



ملاحظة: جنوب إيطاليا

## المصادر والمراجع

<http://www.al-maktabah.com>

- ابن جبير ، أبو الحسين محمد : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٣٨٨/١٩٦٨ م .  
ابن حمديس ، عبد الجبار : ديوان ابن حمديس ، تحقيق إحسان عباس ، القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠ م .  
ابن حوقل ، أبو القاسم : صورة الأرض ، بيروت ( بدون تاريخ ) .  
ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، القاهرة ( بدون تاريخ ) .  
ابن مقفد ، أسامة : كتاب الاعتبار ( الترجمة الانجليزية لفليب حتي ) ، بيروت ١٩٦٤ .  
أماري ، م . : المكتبة العربية الصقلية ، ليسك ١٨٧٥ .  
عباس ، احسان : العرب في صقلية ، القاهرة ١٩٥٩ .  
المدني ، أحمد توفيق : المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، سرقوسة ( بدون تاريخ ) .  
مورينو ، مارتينو ماريو : المسلمون في صقلية ، بيروت ١٩٦٨ .  
مؤنس ، حسين : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٣٨٦/٢٩٦٧ م

Ahmad, A., *A History of Islamic Sicily*, Edinburgh 1975.  
Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe*, London 1975.  
Lewis, B., *The Arabs in History*, London 150.  
Lombard, M., *The Golden Age of Islam*, Amsterdam 1975.  
Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969.



## السياسة العربية للامبراطور فردريك الثاني

صاحب صقلية (ت ١٢٤٨/٦٤٨ م)

### العرب في جزيرة صقلية إلى تولي فردريك الثاني الملك (٨٢٧-١١٩٨ م)

بدأ افتتاح العرب لجزيرة صقلية في عهد ثالث أمراء الأغالة زيادة الله الأول ، بحملة قامت من سوسة في صيف عام ٨٢٧/٢١٢ م بقيادة القاضي الشهير أسد بن الفرات ، وسُرعان ما استولى العرب على معظم الجزيرة من أيدي الروم البيزنطيين ، واتخذوا بلرم عاصمة لهم . وقد ظَلَّت الجزيرة تحت السيادة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن (٢١٢ — ٨٤٤/٤٨٤ — ١٠٩١ م) . وفي هذه الفترة ، بلغت الجزيرة أوجها الحضاري ، كما تميّزت فترة السيادة العربية بالتسامح الديني ، وبالأزدهار الزراعي والنشاط التجاري .

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، مرّت صقلية بفترة من الفتن والمنازعات الداخلية أشبه ما تكون بفترة ملوك الطوائف المعاصرة لها في الأندلس ، مما أغرى النورمان في جنوب إيطاليا بغزوها . على أن استيلاء النورمان على صقلية لم يكن مع ذلك بالأمر الهين ، فقد صمد العديد من المعقل والمدن الإسلامية في صقلية في وجههم نحو ثلاثين عاما ، إلى أن تمّ للنورمان آخر الأمر فرض سيادتهم على الجزيرة .

حكّم النورمان صقلية قرناً من الزمن (١٠٩١ — ١١٩٤ م) ، ونظراً لقلّة أعدادهم وكثرة الأعداء من حولهم ، فإنهم إجمالاً انتهجوا سياسة تسامح في الجزيرة ، في فترة كانت فيها الحروب الصليبية على أشدها . ومع ذلك ، فإن ملوك النورمان إجمالاً أحسنوا معاملة المسلمين في الجزيرة ، لاسمّا لهم إليهم ، كما اعتمدوا عليهم في جيوشهم ، وأفادوا من مهارة عرب الجزيرة في فنون الحرب ، في حروب النورمان المستمرة في جنوب إيطاليا ، ضد البيزنطيين تارة وضد الامبراطورية الرومانية المقدسة تارة ، وضد قوات الباباوات وحلفائهم

تارة أخرى . لذلك فإن النورمان . في بادئ الأمر على الأقل ، قاوموا المحاولات التي بذلتها الكنيسة لتنصير المسلمين ، وحَمَوْهُمْ ما استطاعوا من اضطهاد الإقطاعيين النورمان والمستوطنين الجدد من اللبارد . ولما كان النورمان حديثي عهدٍ بالحضارة ، فإنهم اعتمدوا على العرب في الإدارة ، وفي أعمال البناء والتشييد . وللملك رجار الثاني وتحت رعايته ، صنّف الشريف الإدريسي كتابَ (نزهة المشتاق في إختراق الآفاق) . وظلّت العملة العربية المعروفة بالرُباعي/الطري (tari) العملة المتداولة في صقلية وجنوب إيطاليا زمنًا طويلا .

ومع أن المسلمين ظلّوا مخلصين للملوك النورمان ، الذين كانوا حماةًهم الوحيدين في جِو مشحون بالعداء نحوهم ، إلّا أنهم دفعوا ثمنَ انتصار الموحدين على النورمان في المهدية سنة ٥٥٥هـ/١١٦٠ م ، اذ انتعشت آمالهم بظهور قوة الموحدين . وعلى الأثر جُرد العربُ في بلرم من السلاح ، مما جعلهم تحت رحمة البارونات والوافدين من اللبارد لَمّا قام هؤلاء بالثورة على الملك وليام (غليام) الأول سنة ١١٦٠ — ١١٦١ م . وفي تلك الثورة ، قتل العديد من فتيان البلاط وموظفية المسلمين . كما هلك كثير من المسلمين في أحياء بلرم وسُلبت أموالهم . وكانت أحوال المسلمين في الأرياف أسوأ من ذلك ، اذ تعرضوا لفتك نبلاء النورمان وأتباعهم .

إن العداء للمسلمين من جانب الإقطاعيين النورمان ومن جانب الأعداد المتزايدة من اللبارد الذين وفدوا من إيطاليا للاستقرار في الجزيرة كان مبعثه التعصب الديني ، ثم الغيرة لَمّا كان للمسلمين من حظوة ونفوذ في البلاط النورماني ، ومن نشاط في مجال التجارة .

وقد مرَّ بصقلية في سنة ٥٨٠هـ/٤ — ١١٨٥ م الرحالة الأندلسيُّ ابنُ جبير ، وكان الملكُ آنذاك وليام (غليام) الثاني . ويتبيّن مما ذكره ابنُ جبير أن المسلمين في الجزيرة كانوا يعيشون في حالة فرح مستمر من الاضطهاد والبطش ، وأن «أهلَ النظر في العواقب منهم يخافون أن يتفقَ على جميعهم ما اتفق على أهل جزيرة إقريطش [كريت] من المسلمين في المدة السالفة»<sup>(١)</sup> . وكانت طبقة المثقفين المسلمين في صقلية ترى أن الحلَّ الوحيد لمشاكلها

(١) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٨٠ .

هو الهجرة إلى بلاد المسلمين .

لم يخلف وليام الثاني عقيباً ، فأوصى بأن تخلفه على عرش صقلية عمته كونستانس ابنة رجار الثاني ، التي كانت متزوجة من الامبراطور الألماني هنري السادس . إلا أن النبلاء الإقطاعيين في صقلية اختلفوا فيما بينهم . وأتى فريق مناهض للألمان منهم في عام ١١٩٠ م بتكريد إلى العرش . وكان تنكريد هذا حفيداً غير شرعي لرجار الثاني . وحتى قبل أن يتولى تنكريد الملك ، حدثت مذبحة للمسلمين في بلرم ، وأصبح وضعهم حرجاً للغاية . وكان تنكريد نفسه شديد التعصب ضد المسلمين . وكان قد قاد عام ١١٦٠ م غارات استتصالٍ ضدهم في بشيرة (Butera) بجنوب شرقي الجزيرة . فليس من الغريب لذلك أن يقوم المسلمون بثورة عارمة أشغلته طوال السنة الأولى من حكمه . واذ تعرض مسلمو بلرم للمذابح ، فر معظمهم معتصماً بالمناطق الجبلية في وسط الجزيرة وغربها ، حيث احتلوا عدداً من المعاقل المنيعه . ولعل الأخطار الخارجية المهددة بتنكريد من ناحية الألمان من جهة ، ومن ناحية الموحدنين من جهة أخرى . زادت من تعصُّبه وغُلُوِّه في سياسته نحو المسلمين ، تحوطاً وكسباً للرأى العام النصراني في الجزيرة وخارجها .

إن وضع المسلمين في صقلية أصبح حرجاً للغاية في فترة الفوضى التي سادت الجزيرة عقب وفاة وليام الثاني ، أي بعد خمس سنوات فقط من مرور ابن جبير بالجزيرة ، اذ إن أمتهم كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود سلطة مركزية قوية ، وتحالفت ضدهم طبقة النبلاء الإقطاعيين مع الكنيسة التي رأت في تنصيرهم عملاً دينياً صالحاً . أما أولئك المسلمون الذين رفضوا التنصر فقد لجأوا إلى الهجرة . وكانت هجرة المسلمين من صقلية إلى شمال إفريقيا والأندلس والمشرق قد بدأت في الحقيقة منذ أن وطئت أقدام النورمان ارض الجزيرة ، واستمرت الهجرة طوال فترة حكم النورمان للجزيرة . ومن الطبيعي أن تزداد الهجرة في فترات الاضطهاد وعدم الاستقرار ، كما حدث عام ١١٥٣ م ، وأثناء مذابح عام ١١٦٠ — ١١٦١ م ، وأصبحت الهجرة على نطاق واسع بسبب المذابح والثورة عام ١١٨٩ — ١١٩٠ م<sup>(٢)</sup> .

(٢) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، تعريب وتعليق أمين الطيبي ، الدار العربية للكتاب

١٩٨٠ ، ص ٨٦ .

وبعد وفاة تنكريد عام ١١٩٤ م ، خلفه ابنه الصبي تحت وصاية والدته . وفي هذه الأثناء ، زحف الامبراطور الألماني هنري السادس جنوباً واستولى على مملكة صقلية باسم زوجته كونستانس ، مُنهيًا بذلك الفصل النورماني من تاريخ الجزيرة (١١٩٤ م) .

## نبذة عن سيرة الامبراطور فردريك الثاني وتعلقه بالثقافة العربية الإسلامية :

بافتتاح الإمبراطور الألماني هنري السادس لصقلية في سنة ١١٩٤م ، انتهت الحقبة النورمانية في تاريخ الجزيرة . وفي سنة ١١٩٨م ، تم في بلرم تتويج أرملة هنري السادس الملكة كونستانس وارثة عرش صقلية وابنها فردريك الذي كان يناهز السنة الثالثة من العمر . وبعد وفاة الملكة في أواخر ذلك العام ، تولّى البابا إنوسنت الثالث الوصاية على فردريك . وقد تأثر فردريك في مرحلة طفولته وصباه بعض الشيء باللغة العربية والثقافة الإسلامية . واستمرت الفوضى والحرب الأهلية في صقلية أثناء فترة طفولة فردريك . وكان الحزبان الرئيسيان هما الحزب الألماني والحزب النورماني الصقلي . وكان الحزب الألماني يلقى مساندة مسلمي صقلية ، وأما الحزب النورماني الذي كان يمثل الإقطاعيين فكان يسانده البابا . وفي تلك المرحلة من العمر كانت حياة الصبي فردريك حياة فاقة وفقر ، إلا أنه أبدى منذ حداثة سنّه اهتماماً بالمسائل الفكرية ، ويُعزى ذلك إلى احتكاكه بمسلمي بلرم .

وبعد أن توجّ فردريك امبراطوراً على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة ، قطع على نفسه عهداً بالمشاركة في حملة صليبية ، وهو وعدٌ قطعه مرضاة للبابا ، الذي كان يُلحّ على ضرورة الاستعجال بالحملة ، بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة في مصر . واعتذر فردريك بادية الأمر بانشغاله في قمع ثورة العرب في غرب صقلية . وكان عرب صقلية ، بعد كل ما عانوه من اضطهاد وفقدان للممتلكات ، يرون أن خضوعهم لفردريك لن يجلب لهم سوى المزيد من الفقر والتبعية الإقطاعية ، ولذلك فإنهم وصلوا ثورتهم بزعامة محمد بن عباد العبسي ، لعدة سنوات . ولما قضى فردريك على حركة الثائرين بكل عنف سنة ١٢٢٥ م ، عمد إلى ترحيل مسلمي صقلية وإسكانهم في مستوطنة لوشيرة (Lucera) بجنوب إيطاليا .

وفي سنة ١٢٢٥ م ، تزوج فردريك من يولنده وارثة الملكة اللاتينية ببيت المقدس ،

واتخذ لنفسه لقبَ (ملك بيت المقدس) ، بالإضافة إلى ألقابه الامبراطورية . وفي سنة ١٢٢٦ م ، وصل إلى بلاط فردريك الأمير فخر الدين بنُ الشيخ مبعوثاً من قِبَل سلطان مصرَ الأيوبي الكامل ، للاستعانة بالامبراطور ضد أخيه المعظم سلطان دمشق . وقد نجحت المفاوضاتُ في الحصول على موافقة السلطان الكامل على التنازل عن بيت المقدس للامبراطور ، إذا أمكن انتزاعها من يد سلطان دمشق .

وفي هذه الأثناء ، كان البابا قد أصدر قرارَ الحرمان (excommunication) ضد فردريك ، بحجة مآطلته في البرُّ بوعده بالقيام بحملة صليبية إلى فلسطين . وأخيراً قرر فردريك الشروعَ في حملته الصليبية ، يحدوه في ذلك هدفٌ سياسيٌّ في المقام الأول ، وهو أن يحظى بالاحترام والهيبة في العالم المسيحي ، بالرغم من صدور قرار البابا بحرمانه . وقد نجحت الحملةُ في أهدافها دون حرب أو إراقة دماء ، وهو ما فشلت الحملاتُ التي سبقتها في تحقيقه . فبعد مفاوضاتٍ دبلوماسية ، تنازل السلطان الكاملُ للامبراطور فردريك عن بيت المقدس والناصرة مع بقاء المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة في بيت المقدس في أيدي المسلمين (١٢٢٩ م) .

وفي سنة ١٢٣١ م ، عقد فردريك الثاني إتفاقيةً مع السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى ، نصّت على أن يحكمَ جزيرة قَوْصَرَة (Pantellaria) والـ مسلمٌ من صقلية بِسْمِة الامبراطور . «وفي حين أن السياسةَ الداخليةَ لفردريك المتفصح ، ظلّت قائمةً على الكبت والقمع تُجاه المسلمين في صقلية ، فإنه ظلَّ يتبادل السفاراتِ الثقافية مع السلاطين المسلمين ، في منطقة البحر المتوسط»<sup>(٣)</sup> .

وفي سنة ١٢٤٤ م ، استردَّ المسلمون بيتَ المقدس . وعرض فردريك الثاني أن يقود حملةً صليبيةً أخرى ، إلّا أن مجمعَ ليون الكنسي رفضَ هذا الإقترح . وقد اتُّهم فردريك من قِبَل معاصريه النصاري بمعاشرته المسلمين أكثرَ من معاشرته النصارى ، وهي تهمة غيرُ صحيحة ، إذ كان فردريك مولعاً ببحث الأمور الفكرية والدينية ، ويفضّلُ بحثها «مع علماء المسلمين ، لأنه اعتبرهم أكثرَ علماً واطلاعاً من غيرهم»<sup>(٤)</sup> .

(٣) المصدر السابق ص ٩٨ .

(٤) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969, p.61.



إن السبب الحقيقي للتراع بين فردريك الثاني والباباوات كان على السلطة : فردريك لم يكن على استعداد لقبول ادعاء الباباوات بالاستتار بالسلطتين الدينية والدنيوية ، كما أن الباباوات كانوا يعارضون بشدة توحيد صقلية مع المانيا ، لما قد يترتب على ذلك من تهديد للممتلكات الباباوية في وسط إيطاليا . هذا ولم يبدِ الباباوات أية معارضة للعلاقات التجارية الوثيقة آنذاك بين المدن الإيطالية ، كالبندقية وجنوة وبيزا ، وبين سلاطين مصر وتونس ، في حين أنهم وجهوا مختلف التهم إلى فردريك لاحتفاظه بمثل هذه العلاقات .

إن فردريك الثاني كان يؤثر صقلية على باقي ممتلكاته ، وكان يستهدف أن يكون حكمه للجزيرة حكماً أوتوقراطياً ، ولذلك ، فإنه طوال حكمه ، عمل جاهداً للحد من سلطات الإقطاعيين من نبلاء النورمان ، ومن سلطات الكنيسة ورجال الدين في صقلية ، كما أنه قمع بكل عنف ثورات المسلمين المتواصلة في الجزيرة .

إن الحضارة العربية في صقلية كان لها كل الأثر على اهتمام فردريك الثاني منذ حداثة سنّه بالعلوم ، وعلى نزعه المتفتحة ، وجهه للإستطلاع والتقصي . وكما يقول هاسكينز (Haskins) ، فإنه «لم يحدث في أي مكان آخر أن قامت الحضارات العربية واليونانية واللاتينية جنباً إلى جنب في سلم وتسامح كما كان الحال في صقلية»<sup>(٥)</sup> . وكان البلاط النورماني في بلرم الوارث المباشر للحضارة العربية في صقلية<sup>(٦)</sup> . وقد كان التأثير العربي في بلاط فردريك أقوى من التأثير اليوناني ، وازداد التأثير العربي إثر زيارته إلى المشرق ، ونمو العلاقات مع سلاطين المسلمين . وكانت مكتبة فردريك تزخر بالكتب العربية ، كما كان على اتصال شخصي أو بالمكتبة بالعلماء العرب المبرزين في العلوم العربية الإسلامية . ومن هؤلاء العلماء علم الدين الحنفي ، وهو رياضي مرموق أوفده السلطان الكامل إلى بلاط فردريك . وكان فردريك قد وجه إلى السلطان الكامل خطاباً تضمن سبعة أسئلة تناولت ثلاثة منها علم البصريات (Optics) .

وكان فردريك يولي إهتماماً خاصاً بالرياضيات ، والطب ، والفلسفة ، وعلم الفلك ، والتاريخ الطبيعي . وحظي الإيطالي ليناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) ،

Haskins, C.H., *The Normans in European History*, U.S.A. 1966, p.235(٥)

(٦) المصدر السابق ص ٣٢٨ .

وكان من أبرز علماء الرياضيات ، برعاية فردريك ، وإلى هذا العالم ، الذي درس في الأندلس والمشرق ، يعود الفضلُ في إدخال الأرقام العربية وعلم الجبر العربي إلى أوروبا . وأصبح بلاطُ فردريك ، مع جامعتي أكسفورد وباريس ، أحد المراكز الرئيسية لدراسة العلوم الرياضية في أوروبا اللاتينية <sup>(٧)</sup> . ويصف المقرئ فيريدريك بأنه « كان متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات » <sup>(٨)</sup> .

وكان يُكثر من الاستحمام ، حتى إن خصومه نددوا به لذلك ، وبخاصة لاستحمامه أيام الأحد . إن عادة الاستحمام أخذها فردريك عن العرب ، وكانت بلرم كثيرة الحمامات العامة . إن حرص فردريك على صحته جعله يولي عناية خاصة للجراحة والطب . وهو الذي أحيا مدرسة الطب العريقة في سالرنه ، وأنشأ فيها أول قسم للتشريح في أوروبا . كما أسس جامعة نابولي في سنة ١٢٢٤ م ، وأودع فيها مجموعة من المخطوطات العربية ، واستعملت في مناهج التدريس فيها مؤلفات أرسطوطاليس وابن رشد التي أمر فردريك بترجمتها من العربية ، كما أرسلت نسخ منها إلى جامعتي باريس وبولونية بشمال إيطاليا <sup>(٩)</sup> .

وكان لفردريك إهتمامٌ شخصيٌ كبيرٌ بالفلسفة العربية . وقد ترجم له مايكل سكوت العديد من شروح ابن رشد وتعليقاته على مؤلفات أرسطو ، كما ترجم له أجزاء من مؤلفات ابن سينا . وإلى مايكل سكوت يرجع الفضلُ في المقام الأول في تعريف الغرب بمؤلفات ابن رشد <sup>(١٠)</sup> .

وقام فيلسوفٌ عربيٌ صقلِّيُّ هو ابن الجوزي بمرافقة فردريك في حملته إلى فلسطين ، وألقى عليه دروساً في علمي الكلام والمنطق <sup>(١١)</sup> .

وكان فردريك قد وجّه مجموعة من الأسئلة الفلسفية تُعرف بالمسائل الصقلية إلى مصر والشام ، دون الحصول على إجابات مقنعة عليها . ثم أرسل بها إلى السلطان الموحيدي

( ٧ ) Smith, pp. 61-62.

( ٨ ) أماري . م : المكتبة العربية الصقلية ، ليسك ١٨٥٧ ، ص ٥٢٢ .

( ٩ ) Hitti, P.K., History of the Arabs, London 1943, p. 612.

( ١٠ ) عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ص ١٠٤ .

( ١١ ) مورينو . مارتينو ماريو : المسلمون في صقلية ص ٢٦ .

الرشيدي الذي أحالها على الفيلسوف والصوفي الأندلسي عبد الحق بن سبعين . وكان مقيماً في سبتة . فكذب ابن سبعين رسالته الشهيرة (الأجوبة عن المسائل الصقلية) رداً على أسئلة الإمبراطور . وكانت الأسئلة تدور حول مواضيع فلسفية وقهية ، منها الاستفسار عن قول أرسطو بأزلية العالم . وعن خلود الروح بعد الموت . كما استفسر فردريك في أحد الأسئلة عن معنى الحديث الشريف القائل بأن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن (١٢) .

إن اهتمام فردريك بالتاريخ الطبيعي جعله يحرص على تربية الحيوانات والطيور الغريبة . فقد هجن الخيول المحلية بنحول عربية ، وكانت حديقة حيواناته تضم الإبل ، وزرافة وفيلاً أهداهما إليه سلطان مصر الكامل . أما الرياضة المحيية إليه فكانت الصيد بالبيزان . وقد وضع له مدرب صقوره (مؤمن ؟ Maomin) كتاباً في هذا الموضوع ، تُرجم إلى اللغة اللاتينية ، وكان مصدراً اعتمد عليه فردريك في رسالته التي وضعها عن الصيد بالبيزان (De arte venendi cum avibus) (١٣) . وأخذ فردريك عن العرب استعمال غطاء الرأس للصقور أثناء حملته إلى فلسطين . وحرصاً منه على الاستفادة من منهج العرب التجريبي ، فإنه اصطحب معه من بلاد الشام خبراء أخذ يراقبهم وهم يدربون البيزان ، ويحاول التأكد من أن البيزان تستطيع ، بعد ستر عيونها ، الاهتمام إلى الطعام بحاسة الشم (١٤) . كما أنه في أثناء حملته الصليبية ، حاول أن يعرف من العلماء العرب السبب في كون الأجسام المغطسة جزئياً في الماء تبدو للناظر منحنية (١٥) .

إن الكتب النادرة والأدوات العلمية كانت الهدايا التي يرحب بها فردريك كل الترحيب ، وكانت الهدية الأثيرة لديه تلك التي بعث بها إليه سلطان دمشق الأشرف ، وهي عبارة عن جهاز في خيمة يمثل حركات الكواكب (planetarium) كانت تتحرك فيه الأجرام المصنوعة من الفضة في مداراتها بفعل آلة خفية (١٦) .

(١٢) عزيز أحمد ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٠٦ .

(١٤) Hitti, p. 610.

(١٥) Smith, p. 61.

(١٦) نفس المصدر السابق والصفحة .

عزيز أحمد ص ٩٨ .

## السياسة العربية لفردريك الثاني

### أ — تُجاه عرب جزيرة صقلية

في فترة الفوضى التي تلت وفاة الإمبراطور هنري السادس سنة ١١٩٧ م ، وقعت حوادثُ شُعبٍ ضد المسلمين ، كذلك التي وقعت في سنة ١١٦١ م وسنة ١١٨٩ م ، مما اضطَهم إلى الثورة ، ولمدة طويلة هذه المرة ، إلى سنة ١٢٢٥ م . إن هذه الثورة جاءت نتيجة لسوء أحوالهم الاقتصادية ، وما كانوا يتعرضون له من اضطهاد وأخطار من جانب أعدائهم من البارونات والإقطاعيين النصارى في الجزيرة . كما أن ضريبة العُشر (tithe) — عُشر الغلات — التي نادى بها البابا إنوسنت الثالث لتجهيز الحملات الصليبية أحدثتُ بالخصوص استياءً كبيراً بين المسلمين في صقلية ، وكانوا يتابعون باهتمام أخبارَ الحروب الصليبية في المشرق . ولا بد أيضاً أن روحهم المعنوية ارتفعت ، وانتعشت آمالهم في هذه الآونة للانتصارات التي أحرزها الموحدون في الأندلس ، في عهد السلطان أبي يعقوب المنصور .

وفي الظروف المضطربة التي تلت موتَ هنري السادس ، جابت جماعاتُ من المسلمين أنحاء الجزيرة الوسطى والغربية لاسترداد ممتلكاتها المقتصة ، وتمكَّنت من الاستيلاء على عدد من المعاقل والضياع . كما استولى الثائرون على جرجنت على ساحل الجزيرة الجنوبي ، لحاجتهم لبناء للاحتفاظ بمواصلاتهم مع افريقية ، ووقعَ أسقفُ المدينة في الأسر لمدة عام . كما أن رئيسَ دير مونريال قرب بلرم فقدَ السيطرةَ على جانب كبير من ممتلكات ديره . وهاجمتُ جماعةٌ من الثائرين مستشفىَّ للبرص في ظاهر بلرم ذاتها .

وقد استمرتُ الاضطراباتُ في صقلية طيلة فترة طفولة فردريك وصباه . وكان من الطبيعي أن ينحازَ العربُ إلى الحزب الألماني المناصر للإمبراطور أتو الرابع ضد الحزب النورماني الصقلي والكنيسة وكانا يناصران فردريك . إلا أن مجلسَ الأمراء في المانيا قرَّر في سنة ١٢١١ م عزلَ أتو ، وانتخب المجلسُ فردريكُ إمبراطوراً بدلاً منه .

وكان على فردريك أن يبارحَ صقلية سنة ١٢١٢ م ، ولم يعدَّ إليها إلا سنة ١٢٢٠ م ، بعد

ان توجَّح إمبراطوراً على رأس الإمبراطورية الرومانية المقدسة . ولدى عودته ، بادر إلى شنِّ حربٍ واسعة النطاق للسيطرة على «منطقة الحرام» في داخل الجزيرة . وكان يُشار إليها أحياناً باسم «نصر المسلمين» (March of the Saracens) (١٧) .

وقد قُدِّر عددُ الثائرين في سنة ١٢٢٠ م ، بما يتراوح بين خمسة وعشرين ألف وثلاثين ألف رجل . ونظراً لانصراف فردريك إلى قمع ثورة المسلمين ، التي كان قد مضى عليها قرابةُ عشرين عاماً ، فإنه حصل في سنة ١٢٢٢ م على موافقة البابا بإرجاء الحملة الصليبية التي كان قد وعد بالقيام بها إلى أن يفرغ من معالجة أمر الثائرين العرب في صقلية .

وكان على رأس الثائرين العرب رجلٌ تشيرُ إليه المصادرُ المسيحيةُ باسم (Morabit/Mirabetto) ، وتبيِّن الآن من المصادر العربية أنه محمد بنُ عبادٍ العبيسي ، الذي كان بمثابة سلطان مستقل في الجزيرة . وفي كتاب (الروض المعطار) للحميري نصُّ قيِّمٍ عن امتناع محمد بن عباد في قلعة إنطالة (Rocca d' Entella) ، إلى الغرب قليلاً من قرليون (Corleone) ، إلى الجنوب الغربي من بلرم ، على رأس ثورة عرب صقلية . «فلما كانت سنة ست عشرة وستائة [١٢٢٠ م] ، عقد الصلح مع الأنبرور . . . على أن يأخذ [ابن عباد] جميع أمواله وذخائره ، ويجهزه في قطائع إلى ساحل إفريقية ولا يقتله . وأبت ابنته أن تدخل في هذا الصلح . وامتنعت في هذه القلعة . . . . وفي الطريق إلى إفريقية ، قال المؤكلون بابن عباد له «الذي صنعت في هذه الجزيرة مثله لا يُنسَى» وبادروا إلى إغراقه ، وعادوا بجميع أمواله إلى الأنبرور . ولما علمت ابنته بما حدث لأبيها . امتنعت في معقل إنطالة ، وواصلت شنَّ الغارات منه ، ثم لجأت إلى حيلة بارعة أوقعت فيها بثلاثمائة من أبطال فردريك ، وصمدت ببطولة في الحصن ، مما اضطر فردريك إلى أن يبني حصناً قبالة ، واصل رجاله منه التضييق على حصن إنطالة . ويبدو أنها صمدت فيه نحواً من عامين بعد مقتل والدها ، ولجأت آخر الأمر إلى تناول السمِّ ، مؤثرة الموت على الاستسلام (١٢٢٢/٦١٩ م) (١٨) . ويبدو أن محمد بن عباد العبيسي كان قد وفد إلى صقلية من جزيرة شريك (شبه جزيرة رأس بون) بافريقية ، التي تنسب إلى شريك

(١٧) Smith, p. 52.

(١٨) الحميري ، محمد بن عبد المنعم : الروض المعطار ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٤٠ — ٤١ .

العبيسي الذي كان عاملاً عليها<sup>(١٩)</sup> .

وفي الفترة ما بين عامي ١٢٢٢ م و ١٢٢٤ م ، لجأ فردريك إلى تدابير عسكرية عنيفة ضدّ الثائرين المسلمين ، منها إحراق المحاصيل كطريقة لإجاعة الثائرين وإهلاكهم ، أو حملهم على الاستسلام . وفي كتاب لفردريك عام ١٢٢٣ م ، يقول إنه تمكّن أخيراً من استئصال عرب صقلية من «قم الجبال والمعاقل المنيع» إلى البساط ، إثر حملة مضنية<sup>(٢٠)</sup> . ولعلّ الهزيمة الكبرى التي لحقت بالموحدين في وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة ١٢١٢/٦٠٩ م ، وما تلاها من انهيار لسلطانهم في المغرب ، كان أحد العوامل التي فتت في عضد المقاومة العربية في صقلية ، وأفقدتها الأمل في الظفر بتلقّي العون منهم .

وبعد أن قضى فردريك على ثورة العرب في صقلية ، اتخذ الخطوة الحاسمة والمصيرية لتصفية الوجود الإسلامي في الجزيرة ، بانتهاج سياسة ترحيلهم منها جملة ، وإسكانهم في لوشيرة/لوجارة (Lucera) بمقاطعة بولية (Apulia) إلى الشمال الشرقي من نابولي سنة ١٢٢٥ م .

وكما تقدّم ، فإن فردريك كان يريد لحكمه لجزيرة صقلية أن يكون أتوقراطياً مطلقاً ، ولذلك فإنه بعد عودته من المانيا أمر بتدمير كافة القلاع الخاصة التي كان الإقطاعيون قد شيّدوها منذ سنة ١١٨٩ م ، كما حدّ من سلطات النبلاء ورجال الكنيسة في صقلية ، وأخضع المدن لسلطانه المباشر . كما أنه اعتمد سياسة الترحيل في معالجة كافة الثائرين ، كما فعل بالنسبة لمدينة شتورب (Centuripe) التي دمرها بعد ثورة سكانها ، وأمر بترحيلهم إلى مدينة جديدة سمّاها أوجسته (Augusta) . إذ كان يرى أن العصيان إنم يستحقّ أقصى العقوبات<sup>(٢١)</sup> . وأعاد إسكان جزيرة مالطة ، وجلب جماعات من اليونان واللبارد للاستيطان في الجهات قليلة السكان من صقلية . كما أزال قرى عقاباً لأهلها ، وبنى أخرى . إلّا أن أقصى إجراءاته إطلاقاً ما قام به من اجتثاث عدة آلاف من المسلمين من صقلية ، وترحيلهم إلى البر الإيطالي ، حيث أسكنهم في مستوطنة عسكرية قرب فوجيا (Foggia)<sup>(٢٢)</sup> .

(١٩) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٢٠) Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe*, Beirut 1975, p. 154.

(٢١) Smith, pp. 53, 55.

(٢٢) المصدر السابق ص ٥٨ ، ٥٩ .

ولما كان مسلمو صقلية قد تلقوا مساعداتٍ من إخوانهم في افريقية . فإن أسطولَ  
فردريك عاثَ بجزيرة جربة ، ونقل الكثيرين من سكانها إلى لوشيرة . كما أقام مستوطنتين  
أصغرَ من لوشيرة في إيطاليا أسكنها المسلمين ، وهما نصيرة (Nocera) وجيروفالكو  
(Girofalco) (٢٣) .

وبعد القضاء على ثورة المسلمين سنة ١٢٢٥ م ، وترحيل معظمهم إلى لوشيرة ، بقي في  
صقلية بعضُ المسلمين يعانون الفقرَ والشقاء ، وكان بعضهم رعاةً لقطعان أغنام فردريك  
نفسه . إلا أنهم كانوا مضطهدين ، مما يفسرُ قيامهم بثورة أخرى عام ١٢٤٣ م استمرت  
ثلاثَ سنوات ، ولما أجبروا على الاستسلام ، رُحِّلَ الباقون منهم على قيد الحياةٍ للالتحاق  
«بفيلق أنكشارية» فردريك في لوشيرة . ولا شك في أن التزَرَ الباقيَ منهم ظل يحيي حياةَ  
أهل الكهوف في دواخل الجزيرة النائية (٢٤) . وتفيد الحوليات الصقلية  
(Annales Siculi) أنه في سنة ١٢٤٥ م «قام الكونت رتشارد صاحب كسنطة  
(Casenta) ، بأمر الإمبراطور ، بطرد كافة العرب من صقلية» وبعث بهم إلى لوشيرة (٢٥) .  
«وإنه لمن سخرية التاريخ أن يتمَّ ذلك على يد إمبراطورٍ كان شديد الإعجاب بالثقافة  
العربية الإسلامية الفكرية والمادية» (٢٦) .

بقي المسلمون في لوشيرة حتى نهاية القرن الثالث عشر في عزلة وانقطاع شبه تامين عن  
إخوانهم في العالم الإسلامي . وقد مارس بعضهم الزراعة كسباً لقوته . ثم لم يلبث أن أخذ  
فردريك في تجنيدهم في قواته . وقد رافقته في حملته الصليبية (٨—١٢٢٩ م) فرقةٌ من  
مسلمي لوشيرة . وعمل المسلمون من لوشيرة رماةً في جيشه ، وزوّده صناعاتهم بأسلحة  
وسهام مسمومة من صنعهم ، ليستعملها جنوده في حروبهم في البلاد المسيحية (٢٧) .  
وبفضل نشاط عمال الفولاذ والنسيج العرب في لوشيرة ، ازدهرت المدينة ونعمت بالرخاء .  
وأبدى هؤلاء النازحون ولاءً ثابتاً للملك فردريك ، الذي كان كثيراً ما يزور المدينة ويسره

(٢٣) عزيز أحمد ص ٩٦ .

(٢٤) Smith, p. 59.

(٢٥) Daniel, p. 154.

(٢٦) عزيز أحمد ص ٩٩ .

(٢٧) المصدر السابق ص ١٢١ .

أن يحيي حياة رعاياه الشرقيين . وقد حماهم فردريك لنشاطهم الصناعي والتجاري ، ولكونهم محاربين بوسائل ، كانوا دوماً على استعداد لخوض غمار حروبه في إيطاليا ، دون أي اكتراثٍ لقرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده . كما أن أسلحتهم كانت رادعا للأرستقراطية النورمانية التي تحالفت مع الباباوات لتقويض السلطة المركزية والاستبداد المطلق ، اللذين سعى فردريك لإقامتهما في صقلية <sup>(٢٨)</sup> . وقد قاوم فردريك كل الضغوط الصادرة عن الكنيسة لتنصير مسلمي لوشيرة عتوةً . وكانت لوشيرة أشبه ما يكون بجزيرة صغيرة ذات هوية عربية ، وسط بحر من المؤثرات والضغوط الإيطالية <sup>(٢٩)</sup> . ويرى مؤرخ معاصر أن سياسة فردريك تجاه عرب صقلية ، كسياسة أسلافه النورمان ، كانت قائمة على الانتهازية ، فهو «الذي قضى على عرب صقلية ، ثم أجلاهم عن وطنهم لإستغلالهم في حروبه الخاصة ، ووطنهم في بيئة أجنبية في جنوب إيطاليا ، حيث لم يكن أمامهم للاحتفاظ بسلامتهم سوى الاعتماد على فردريك ، الذي أصبح في وضعٍ يمكنه من استغلالهم ، أرادوا أم أبوا ، كجنودٍ مرتزقة . ثم إنه كلما زاد عداء الكنيسة لهم ، كلما ازدادوا اتكالاً واعتماداً على الامبراطور» <sup>(٣٠)</sup> .

ويتحدث الحميري عن مسلمي لوشيرة فيقول إنهم كانوا لفردريك «جنداً وعدةً لأعدائه يجد نفعهم ، فنقلهم إلى هذه المدينة تحوطاً عليهم لحاجته اليهم ، وتخوفاً منهم إذ كانوا أعداداً جمّة ، فعمرّوها ومدّنها . . . وكانوا أنجاداً ، وطال مقامهم بها أعصاراً» <sup>(٣١)</sup> . وينقل المؤرخ المشرقي أبو الفداء عن ابن واصل ، الذي زار منفريد الذي ورث عرش أبيه ، موقفاً من قبل السلطان الظاهر بيبرس ، قوله عن لوشيرة إنه «تقام فيها الجمعة ويُعلنُ بشعار الإسلام . . . ووجدتُ أكبر أصحاب الإمبراطور منفريد مسلمين ، ويُعلنُ بالأذان والصلاة في معسكره» <sup>(٣٢)</sup> .

وحتى بعد زوال حكم أسرة هوهنشتاوفن الألمانية ، وقيام حكم أسرة أنجفين

(٢٨) Tout, T.F., *The Empire and the Papacy*, London 1946, p. 361.

(٢٩) عزيز أحمد ص ١٢١ .

(٣٠) Daniel, pp. 153-4

(٣١) الحميري ص ٥١٤ .

(٣٢) اماري ص ٤٢١ .



الفرنسية ، ظلتْ لوشيرة تحتفظ بشيء من ثقافتها العربية . بيدَ أن سياسة ملوك أسرة أنجفين الموالية للبابا كانت تستهدفُ تنصيرَ مسلمي لوشيرة باللجوء إلى الإقناع وشيء من الضغط ، ثم باللجوء إلى الإكراه آخر الأمر . وقُضي آخر الأمر على مستوطنة لوشيرة العربية ، بأمر من شارل الثاني صاحب أنجو ، في شهر أغسطس سنة ١٣٠٠ م ، وانتهى بذلك تماماً الوجود الإسلامي في صقلية وإيطاليا (٣٣) .

ولعلَّ من المناسب أن نوردَ النتائج التي تمخَّضتْ عن قيام فردريك الثاني بترحيل العرب عن جزيرة صقلية ، كما يبيِّنها أحدُ كبار الباحثين المعاصرين في تاريخ صقلية . إن الحملات المتوالية التي جرَّدها فردريك ضدَّ اللاتين العرب في صقلية ، لا بد وأنها ألحقتْ أضراراً كبيرةً في اقتصاد الجزيرة . فع أن هذه الحملات أدتْ إلى قيام مجتمع أكثرَ تجانساً في الجزيرة ، إلّا أنها قضتْ على طبقةٍ من صغار التجار ، وعلى عنصرٍ في الزراعة كان من المستحيل استبداله . ولعلَّ إنتاج القمح لم يستردَّ مكانته الأولى في الجزيرة ، منذ ذلك الحين . ويكاد يكون من المؤكد أنَّ معظمَ أهل الحرف والصناعات كانوا من المسلمين ، وكذلك كان أصحابُ المصانع ، وعلى ذلك ، فإن رحيلهم يفسِّرُ التدنِّي الذي لحق بصناعاتي المنسوجات الحريرية والسكر . إلّا أنه كان لهذه الحملات آثارٌ ضارةٌ أخرى . فإن إحراق المحاصيل كان دائماً أكثرَ الطرق فعاليةً ضدَّ اللاتين ، ومن السهل أن يؤدي إلى حرائق كبيرة في الغابات . وفيما بين عامي ١١٦٠ و ١٢٤٦ م ، كان من نتيجة هجرة وقتل هؤلاء المسلمين أن تركتْ مساحاتٌ واسعةٌ بوراً وشاغرة ، وقد قُدِّرَ أن نصفَ القرى ، التي كانت قائمةً في أوائل القرون الوسطى ، زالتْ من الوجود فيما بعد ، ولا بد أن كثيراً منها اختفتْ لهذا السبب بالذات . فمن مجموع خمسين ضيعةً كان يمتلكها دير مونريال في منطقة سكانها من المسلمين على مقربة من بلرم ، لم يبقَ اليوم سوى نحو اثنتي عشرة ضيعة ، وكلُّها تقريباً تحمل أسماء تختلف عن أسمائها الأصلية ، مما يشير إلى أنها مستوطنات استُحدثتْ فيما بعد . وإنَّ الدلائل من شواهد القبور وأسماء الأسر تؤكدُ أنه بحلول القرن الثالث عشر ، كان من نتيجة طرد السكان العرب أو اندماجهم القضاء على شعبٍ كان إلى عهدٍ قريب قبل ذلك يشكلُ أكثرية السكان في الجزيرة (٣٤) .

(٣٣) عزيز أحمد ص ١٢٢ .

(٣٤) Smith, pp. 59-60

## ب — تُجاه سلاطين المسلمين

بالرغم من المعاملة القاسية التي عامل بها فردريك رعاياه المسلمين في صقلية بإبعادهم جملةً عن موطنهم في الجزيرة وإسكانهم في لوشيرة في جنوب إيطاليا ، إلا أنه مع ذلك احتفظ بعلاقاتٍ طيبةٍ بل وديةٍ مع سلاطين المسلمين ، في المشرق والمغرب ، شملت الميادين السياسية والثقافية وتبادل الهدايا والتبادل التجاري ، مما جلب ضده سخط البابا ورجال الدين . ففي سنة ١٢٢٦ م ، وصل إلى بلاطه الأمير فخر الدين بن الشيخ موفداً من قِبَل الكامل ، سلطان مصر الأيوبي ، للاستعانة به على أخيه المعظم وحليف الأخير جلال الدين الخوارزمي . وقد طال مقام المبعوث الأيوبي في صقلية وأنعم عليه فردريك برتبة فارس . وأوفد فردريك سفارةً رداً على السفارة الأيوبية ، على رأسها رئيس أساقفة بلرم ، ومعها هدايا ثمينة إلى السلطان الكامل . وقد نجحت هذه السفارة في الحصول على موافقة السلطان الكامل على التنازل للإمبراطور عن بيت المقدس ، إذا أمكن إنتراع المدينة المقدسة من يد سلطان دمشق المعظم ، أخيه السلطان الكامل<sup>(٣٥)</sup> . إلا أن صاحب كتاب (جامع التواريخ) يقول إن الكامل كان قد أرسل الأمير فخر الدين بن الشيخ إلى فردريك طالباً منه «القدوم إلى عكا ، ووعده أن يُعطيه الفتوح الصلاحية بالساحل»<sup>(٣٦)</sup> .

ولدى وصول فردريك إلى عكا في خريف عام ١٢٢٨ م ، أوفد مبعوثين عنه إلى السلطان الكامل يحملان هدايا ثمينة ورسالةً إلى السلطان يدعوه فيها إلى البر بوعده بتسليم بيت المقدس ، وكان الكامل قد استولى على المدينة قبيل وصول فردريك إلى فلسطين . وأرسل فخر الدين بن الشيخ مرةً ثانية في سفارة من قِبَل الكامل ، الذي رفض باديء الأمر تسليم بيت المقدس بحجة أن عملاً كهذا من شأنه أن يجلب سخط المسلمين ونقمتهم عليه . وكان السلطان الكامل على علم بقرار الحرمان الذي كان البابا قد أصدره ضد فردريك ، مما أدى إلى ظهور انشقاق في معسكره . كما أن اضطراباتٍ قد حدثت في ممتلكات الإمبراطور في جنوب إيطاليا . وكانت المراكب التي تنقل المؤن إليه قد تحطمت في البحر ، مما عرّض جيشه للموت جوعاً . كما أن السلطان الكامل أيضاً كانت تواجهه

(٣٥) عزيز أحمد ص ٩٦ ، ٩٧ .

(٣٦) أماري ص ٥١٠ .

مشاكل خطيرة ، وكان في حاجة إلى محالفة الامبراطور ، فقَبِلَ المقترحات التي أتى بها مبعوثا الامبراطور في زيارتها الثانية له ، وتنازل عن بيت المقدس والناصرة وبيت لحم للامبراطور ، وبنى المسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة في بيت المقدس في أيدي المسلمين . وقد أثارت الاتفاقية عاصفة من السخط في أنحاء العالم الإسلامي (٣٧) . ولعل هذه الاتفاقية قد أوحى بها الخطأ التي كان قد فكر فيها الملك الإنجليزي رتشارد قلب الأسد أيام صلاح الدين الأيوبي ، ولم تتحقق آنذاك خوفاً من معارضة البابا ولأن جُوانا (Joanna) شقيقة رتشارد رفضت الزواج من أمير مسلم هو العادل شقيق السلطان صلاح الدين (٣٨) .

ويتحدث ابنُ واصل عن الصداقة الودية القائمة بين فردريك والكمال ، ويبدو أن هذه الصداقة قد تعززت بعد أن حذر الكمالُ الامبراطورَ من مؤامرة دبرها فرسانُ الداوية (Templars) لإغتياله . كما يقول ابنُ واصل إن فردريك بذلَ جهده لثني الملك الفرنسي لويس التاسع عن مهاجمة مصر سنة ١٢٤٩ م ، وإنه قام سراً بإبلاغ السلطان الصالح نجم الدين بنبأ قيام الحملة في حينه ، وإن فردريك أنبَ لويس التاسع بعد هزيمة الأخير في المنصورة ، لعدم إصفااته لنصيبته (٣٩) . وفي سنة ١٢٣٨ م ، حاربت فصيلة مصرية إلى جانب قوات الامبراطور عند حصار بريشيا (Brescia) ، كما أن فردريك قام في سنة ١٢٤١ م بتجديد اتفاقية الهدنة المبرمة مع سلطان مصر (٤٠) .

وكان السلطانُ الكمالُ قد أوفد مبعوثاً إلى فردريك الثاني للتوسط بشأن عرب صقلية ، طالباً أن يتركوا وشأنهم في صقلية ، أو أن يُسمح لهم على الأقل بالهجرة إلى مصر ، إلا أن هذا الطلب لم يودَّ إلى أية نتائج عملية (٤١) .

وفي مجال العلاقات الثقافية ، بعث فردريك أثناء إقامته في عكا إلى الملك الكمال

(٣٧) عزيز أحمد ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٣٨) Barbour, N., "The Emperor Fredrick II ... and His Relations with the Muslims", *Orientalia Hispanica*, I/1, Leiden 1974, p. 84.

(٣٩) المصدر السابق ص ٨٨ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٤١) عزيز أحمد ص ٩٨ .

« بعدة مسائل في الهندسة ، والحكمة ، والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين الحنفي المعروف بتعاسيف وغيره ، فكتب جوابها » (٤٢) . وأرسل الملك الصالح إلى فردريك شيخاً عالماً هو الشريف شمس الدين أرموي ، أمضى وقتاً عند فردريك ، وألف له كتاباً في المنطق (٤٣) .

وفي أثناء إقامة فردريك القصيرة في بيت المقدس ، زار المسجد الأقصى وقبة الصخرة وأبدى إعجابه بهما . وزجر قسيساً معه الانجيل قصد دخول المسجد الأقصى وأنكر مجيئه قائلاً « فإنما نحن ممالك هذا السلطان الملك الكامل وعبده ، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الانعام منه ، فلا يتعدى أحد منكم طوره » (٤٤) . وكان قاضي نابلس شمس الدين قد أمر المؤذنين إلا يؤذّنوا في الليلة التي باتها فردريك في بيت المقدس ، وفي صباح اليوم التالي « قال الملك للقاضي : لِمَ كَمْ يُوذّن المؤذّنون على المنائر ؟ فقال له : منعهم المملوك إعظماً للملك واحتراماً له . فقال له : اخطأت فيما فعلت ، والله إنه كان أكبر غرضي في المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسيحهم في الليل » (٤٥) .

ولما عاد فردريك من فلسطين ، اصطحب معه عدداً من الحيوانات الغريبة كانت ترافقه في رحلاته في أوروبا ، من بينها الزرافة التي أهداها له السلطان الكامل ، وكانت أول زرافة يوتي بها إلى أوروبا . وكذلك الفيل الذي أهداه إياه الكامل ، ونال في أوروبا شهرة فيل شارلمان .

وفي سنة ١٢٣٢ م ، قدمت إلى بلاط فردريك سفارة أوفدها سلطان دمشق الأشرف ، ومعها هدية عبارة عن جهاز في خيمة يمثل حركات الكواكب . وفي نفس العام تلقى هدية من شيخ الجبل زعيم فرقة الحشيشية الإسماعيلية في بلاد الشام . وأوفد فردريك مبعوثاً إلى مقر هذه الفرقة في مصياد ، يحمل هدايا إلى رئيس الطائفة في قلعة ألاموت ، الواقعة قرب تبريز ، إلا أن شيخ الجبل قام بمصادرة هذه الهدايا (٤٦) .

(٤٢) اماري ص ٥٢٢ .

(٤٣) Barbour, p. 88.

(٤٤) اماري ص ٥٢١ .

(٤٥) المصدر السابق ص ١ — ٥٢٢ .

(٤٦) عزيز أحمد ص ٩٨ .

إن السلطان الكامل اعتمد على الدبلوماسية في علاقة بفرديريك الثاني، مؤثراً تجنّب أعباء الحرب الباهظة، وكان من نتائج هذه السياسة استئنافاً لبل وازدياد الصلات التجارية مع صقلية والمدن الإيطالية، وكذلك مع بروفانس وقطولونيا، وازدادت عائدات مصر من تجارة العبور بين الشرق ومنطقة البحر المتوسط<sup>(٤٧)</sup>. وفي سنة ١٢٤٢ م، أبرم فردريك اتفاقية تجارية وعامة مع سلطان مصر، الصالح نجم الدين أيوب، اشتملت على بنود بشأن حرية الملاحة، وقمع القرصنة، وبشأن الرسوم الجمركية، كما نصّت على قيام سلم دائم بين الطرفين، وتبادل المساعدة ضد الأعداء أيّاً كانوا<sup>(٤٨)</sup>.

لقد كان الملك الكامل والامبراطور فردريك بثقافتها وعقليتها يسبقان العصر الذي عاشا فيه، فقد كان العصر عصر تزمّت وتعصب ديني وحروب متصلة، أما هما فقد كانت تغلب عليها شخصية الحاكم الذي يُعنى بالإصلاح، وحرية الفكر، والنهوض بالتجارة أكثر من عنايته بالحروب<sup>(٤٩)</sup>.

وبالنسبة لشمال إفريقيا، كانت علاقات فردريك بالحفصيين في تونس وثيقة. ففي سنة ١٢٣١ م، أبرم فردريك مع السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى معاهدة، مدتها عشر سنوات، بشأن وضع جزيرة قوصرة (بنظارية)، وهي تشتمل على بند ينص على أن لا يؤلّى على مسلمي قوصرة نصراني بل يؤلّى عليهم مسلم من أهل صقلية<sup>(٥٠)</sup>. ويبدو أن المعاهدة أبت لمسلمي قوصرة شيئاً من الاستقلال الذاتي إدارياً وقضائياً. وتنص المعاهدة كذلك على أن يتقاسم صاحب صقلية وصاحب تونس خراج الجزيرة مناصفةً بينهما. وعقد السلطان الحفصي معاهدات تجارية مع المدن الإيطالية، ومع صاحب أرجون، كذلك التي عقدها مع فردريك الثاني. ومما يذكر أن فردريك كان أكبر ملأك الأراضي في صقلية، وكان يصدر كميات كبيرة من قحه الخاص إلى شمال إفريقيا<sup>(٥١)</sup>. إن هذه الاتفاقيات تقوم على امتيازات متبادلة، يقصد بها تيسير التبادل التجاري. ففي الاتفاقية التي عقدها

(٤٧) E.I, I, pp. 799, 800.

(٤٨) Barbour, p. 90.

(٤٩) الشبال، جبال الدين: «معايير انتقال الثقافة العربية الإسلامية»، فصل في كتاب اثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية، القاهرة ١٩٧٠، ص ٣٨٠ — ٣٨١.

(٥٠) Daniel, p. 162.

(٥١) Smith, p. 58.

فردريك مع السلطان الحفصي سنة ١٢٣١ م ، يوافق على تبادل الأسرى ، كما يتعهد بإعادة البضائع التي يصادرها القرصان النصارى ، بينما يُعني السلطان الحفصي التجار اللاتين من دفع الجبايات الجمركية (٥٢) .

ومنح فردريك حق اللجوء السياسي لعبد العزيز ، شقيق السلطان أبي زكريا ، وأبقاه رهينة في الواقع في لوشيرة . إن هذا يدل على أن فردريك عامل جيرانه العرب معاملةً عاديةً كما عامل جيرانه الأوروبيين (٥٣) . وفي سنة ١٢٣٩ م ، أرسل فردريك قنصلاً لتمثيل مصالحه التجارية في تونس ، وأوفد إلى تونس في العام التالي في مهمة ، لعلها مهمة علمية ، أحد كتّابه جوفاني البلرمي ، وكان مبرزاً في العلوم الرياضية (٥٤) .

وأقام فردريك مع سلطان الموحدين في مراكش علاقات تجارية وثقافية . وكما تقدّم ، فإنه بعث بأسلته المعروفة بالمسائل الصقلية إلى السلطان الرشيد الموحيدي ، الذي أحالها إلى الفيلسوف والصوفي الأندلسي ابن سبعين للردّ عليها .

لقد كانت علاقات فردريك الثاني مع سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب علاقات وديةً في جميع المجالات السياسية والتجارية والثقافية لمصلحة الطرفين ، في الوقت الذي أبدى فيه قسوةً تجاه المسلمين في صقلية ، بترحيله لهم عن أوطانهم واستغلالهم في موطنهم الجديد لأغراضه الخاصة ، ولعلّ هذه المعاملة القاسية كانت لكونهم ثائرين على حكمه لا بسبب دينهم (٥٥) .

وقد شكّا دعاة البابا من أن فردريك كان يحتفظ في بلاطه بالفتيان والحريم ، ومن أنه احتفظ براقصات شرقيات للترفيه عن ضيوفه ، وعلى ذلك فإن الباباوات كانوا يشيرون إليه بالسلطان المعمد . لقد كان فردريك في شخصيته وتصرفاته دينياً ومتفتحاً بحيث لم يرقّ للباباوات ، كما أنه كان أخطرَ عدو سياسي لهم إذ إن إمبراطوريته كانت تحيط بالأراضي الباباوية في وسط إيطاليا . وقد أتى فردريك أن يسمح للبابا بالتدخل في شؤون مملكته الدنيوية ، ورفض قبول ادعائه بأن صقلية إقطاعية بابوية ، كما أصرّ على أن يدفع رجال

(٥٢) Daniel, p. 162.

(٥٣) المصدر السابق ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٥٤) عزيز أحمد ص ١٠٣ .

(٥٥) Smith, p. 60.

الدين الصرائب كبقية رعاياه (٥٦) .

وفي الختام ، لعل من المناسب أن نقبسَ ما قاله المؤرخ الإنجليزي المعاصر للإمبراطور ،  
ماثيو باريس (Matthew Paris) عند حديثه عن وفاة الإمبراطور فردريك الثاني ، فهو  
يقول «توفي الإمبراطور فردريك ، وقد كان أعجوبة العالم ، ومبدعاً مدهشاً  
» Stupor mundi et immutator mirabilis (٥٧) .



(٥٦) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٥٧) Barbour, pp. 93-94.

# صورة مشرّفة في تاريخ المرأة العربية

مقاومة بطولية لفتاة عربية من بني عبس في صقلية  
(أوائل القرن السابع / الثالث عشر للميلاد)

بلغت جزيرة صقلية في فترة السيادة العربية عليها (٨٢٧ — ١٠٩١ م) أوجها الحضاري، كما شهدت فترة زاهرة من الرخاء الاقتصادي والتسامح الديني.

ولما انتزع النورمان السيادة على الجزيرة من أيدي العرب، وحكموها قرناً من الزمن (١٠٩١ — ١١٩٤ م)، انتهجوا إجمالاً سياسة تسامح ديني تُجاه عرب صقلية، في وقت كانت فيه الحروب الصليبية قائمة في المشرق. ولما كان النورمان قلةً يحيط بهم الأعداء، فإنهم جندوا العرب في جيوشهم، وحَمَوْهم من اضطهاد النبلاء الإقطاعيين من النورمان، والمستوطنين الوافدين على الجزيرة من اللمارد. ومع ذلك، فإن العرب تعرّضوا للاضطهاد والمذابح أكثر من مرة خلال الفترة النورمانية، وبخاصة في عام ١١٦٠ — ١١٦١ م، وعام ١١٨٩ — ١١٩٠ م، حينما انتهز أعداؤهم فرصة ضعف سلطة ملوك النورمان.

وفي الربع الأول من القرن السابع / الثالث عشر للميلاد، عمّت الفوضى والاضطرابات الجزيرة في بداية حكم الإمبراطور فردريك الثاني، الذي ورث الجزيرة عن أمه النورمانية، وقت أن كان صبياً، وقام عرب صقلية بدورهم بحمل السلاح والثورة، لحماية أنفسهم وما تبقى من ممتلكاتهم، وتمكّنوا من السيطرة على منطقة واسعة في غرب الجزيرة، لفترة تقرب من رُبع قرن.

وبعد أن انتُخب فردريك إمبراطوراً على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة (١٢٢٠ م)، صمّم على أن يحكم جزيرة صقلية حكماً فردياً أتوقراطياً، فاتخذ تدابير للحد من سلطة البارونات الإقطاعيين، والكنيسة، والمدن في الجزيرة، ثم بادر إلى شن سلسلة من الحملات الطويلة والمكثفة ضد الثائرين المسلمين، الذين كان يتزعمهم محمد بن عباد



العبيسي، ثم ابنته من بعده . ولما نجح الامبراطور آخر الأمر في قمع هذه الثورة ، اتخذ قراراً قاسياً بترحيل العرب عن صقلية ، وإسكانهم في مستوطنة لوشيرة/لوجارة (Lucera) بجنوب إيطاليا ، حيث أصبحوا تحت رحمة الامبراطور الذي استغلهم في حروبه العديدة في إيطاليا .

ومع ذلك فإن فردريك كان شديد التأثير والإعجاب بالثقافة العربية الإسلامية ، وبخاصة في ميادين الرياضيات والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية ، وفي الرياضة المحببة لديه وهي الصيد باليزان . كما احتفظ طوال حكمه (١١٩٨ — ١٢٥٠ م) بعلاقات طيبة لابل ودية مع السلاطين الأيوبيين بمصر ، والسلاطين الحفصيين بتونس ، لأسباب سياسية واقتصادية وثقافية . وعلى ذلك فإنه يبدو أن ثمة تناقضاً بين السياسة القاسية التي انتهجها تجاه المسلمين في صقلية ، وبين السياسة الودية التي انتهجها تجاه سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب ، ولعل من أسباب ذلك أن فردريك ، وقد استهدف أن يحكم صقلية حكماً استبدادياً مطلقاً ، لم يحتمل أي خلاف أو ثورة عليه في الجزيرة .

### أحوال مسلمي صقلية في أواخر فترة حكم النورمان للجزيرة

مرّ بجزيرة صقلية في أواخر فترة حكم النورمان للجزيرة الرحالة الأندلسي ابن جبير (٥٨٠هـ/١١٨٥ م) ، وأمضى فيها قرابة أربعة شهور في طريق عودته إلى الأندلس بعد تأديته لفريضة الحج . ويستخلص مما ذكره هذا الرحالة أن المسلمين في الجزيرة ، بعد قرن من زوال السيادة العربية عليها ، كانوا يعانون من القيود والاضطهاد . فبعضهم تنصّر مكرهاً ولكنه كان كاتماً لإيمانه ، وكانت صلاة الجمعة محظورة عليهم ، كما كان عليهم أداء إتاوة تقابل الجزية التي كان أهل الذمة يدفعونها للمسلمين . وكان زعماء المسلمين ، كأبي القاسم بن حمود ، عرضة لتهمة التواطؤ مع الموحدين ومدخلتهم . كل ذلك كان يشجع على الهجرة إلى أرض الإسلام ، وهذه الرغبة كثيراً ما عبّر عنها لابن جبير زعماء المسلمين في الجزيرة في أحاديثهم الخاصة معه<sup>(١)</sup> . ويلاحظ ابن جبير أن بعيد النظر من المسلمين

(١) ابن جبير ، محمد بن أحمد : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

الطبي ، أمين : «أحوال المسلمين في صقلية النورمانية» ، بحث نشر في مجلة كلية التربية بجامعة الفاتح ، العدد ١٠ (٨-١٩٧٩) ص ٥٥ .

في الجزيرة كانوا يخشون أن يحلّ بهم ما حلّ بمسلمي جزيرة إقريطس (كريت) بعد استيلاء الروم البيزنطيين عليها من أيدي المسلمين عام ٩٦١/٣٥٠ م ، « فإنه لم تزل بهم الملكة الطاغية من النصارى والاستدراج الشيء بعد الشيء ، حالاً بعد حال ، حتى اضطروا إلى التنصّر عن آخرهم ، وفرّ منهم من قضى الله بنجانه » (٢) .

وفي فترة الفوضى التي سادت الجزيرة بعد وفاة الملك وليام الثاني دون عقّب ، وبعد خمس سنوات فقط من مرور ابن جبير بالجزيرة ، أصبح وضع المسلمين فيها حرجاً للغاية ، إذ إنّ منهم كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بوجود سلطة مركزية قوية ، أما الآن وقد ضعفت سلطة الملك ، وحدث تنازع على الملك ، فإن وضعهم أصبح صعباً لأن طبقة النبلاء الإقطاعيين تحالفت مع الكنيسة ، التي رأت في تنصيرهم عملاً صالحاً (٣) .

### ثورة عارمة للمسلمين في عهد فردريك الثاني

تمّ في بلرم في سنة ١١٩٨ م تنويج الملكة كونستانس وارثة عرش صقلية وابنها فردريك ، الذي كان يناهز الثالثة من العمر ، وبعد وفاتها في أواخر ذلك العام ، تولى البابا انوسنت الثالث الوصاية على فردريك . واستمرت الاضطرابات في صقلية أثناء فترة طفولة فردريك ، وكان الحزبان الرئيسيان المتنازعان هما الحزب الألماني المناصر لخصم فردريك أتو الرابع ، وكان يسانده المسلمون في صقلية ، والحزب النورماني الصقلي الذي كان يمثل الإقطاعيين ، وكان يناصر فردريك ويسانده البابا . إلا أن مجلس الأمراء في المانيا قرّر في سنة ١٢١١ م عزل الامبراطور أتو الرابع ، وانتخب المجلس فردريك امبراطوراً بدلاً منه . وبعد أن توج فردريك امبراطوراً سنة ١٢٢٠ م ، قطع على نفسه عهداً بالمشاركة في حملة صليبية مرضاة للبابا ، الذي كان يُلحّ على ذلك ، بعد فشل الحملة الصليبية في مصر (١٢١٧ - ١٢٢١ م) . ثم لم يلبث فردريك أن اعتذر عن المشاركة في حملة صليبية ،

(٢) ابن جبير ص ٢٨٠ .

(٣) أحمد ، عزيز : تاريخ صقلية الإسلامية ، تعريب وتعليق أمين الطيبي ، الدار العربية للكتاب ،

ليبيا — تونس ١٩٨٠ ص ٨٦ .

بحجة إشغاله بتوطيد الأمن في صقلية ، وقع ثورة العرب فيها . وكان عرب صقلية ، بعد كل ما عانوه من فقدان للممتلكات ، ومن اضطهاد ومذابح ، يرون أن خضوعهم لفردريك لن يجلب لهم سوى المزيد من الشقاء والتبعية الإقطاعية ، ولذلك فإنهم وصلوا ثورتهم نحواً من ربع قرن بزعامة محمد بن عباد العبيسي .

إن ثورة المسلمين في صقلية كانت نتيجة لسوء أحوالهم الاقتصادية ، ولما كانوا يتعرضون له من اضطهاد وبطش من جانب أعدائهم البارونات ، والإقطاعيين النصارى في الجزيرة . كما أن ضريبة العشر (tithe) — عُشر المحاصيل — التي نادى بها البابا إنوسنت الثالث لتجهيز الحملات الصليبية أحدثت بالخصوص استياء كبيراً بين المسلمين في صقلية ، وكانوا يتابعون بكل اهتمام أخبار الحروب الصليبية الدائرة في المشرق آنذاك . ولا بد أيضاً أن روحهم المعنوية قد ارتفعت وانتعشت آمالهم في هذه الآونة للانتصارات التي أحرزها الموحدون في الأندلس ، في عهد السلطان الموحد أبي يعقوب المنصور .

وقد جابت جماعات من المسلمين أنحاء جزيرة صقلية الوسطى والغربية ، لا سترداد لممتلكاتها المغتصبة ، وتمكّنت من الاستيلاء على عددٍ من المعقل والضباع . واستولى الثائرون على جرجنت (Girgenti) على ساحل الجزيرة الجنوبي لتأمين مواصلاتهم مع شمال أفريقيا ، ووقع أسقف المدينة في الأسر لمدة عام . كما أن رئيس دبر مونريال القريب من بلرم فقد السيطرة على جانب كبير من ممتلكات دبره<sup>(٤)</sup> . وقد قدّر عدد الثائرين في سنة ١٢٢٠ م بما يتراوح بين خمسة وعشرين ألف وثلاثين ألف رجل<sup>(٥)</sup> .

ولدى عودة فردريك من المانيا عام ١٢٢٠ م ، بادر إلى شن حرب واسعة النطاق للسيطرة على «منطقة الحرام» (no-man's-land) في داخل الجزيرة ، وكان يُشار إليها أحياناً باسم «ثغر المسلمين» (March of the Sâraceus)<sup>(٦)</sup> .

(٤) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969, p. 51

(٥) أحمد ، عزيز ص ٩٥ .

(٦) Smith, p. 52.

## محمد بن عباد العبي وبنته على رأس ثورة عرب صقلية

كان على رأس الثائرين العرب في صقلية رجلٌ تُشير إليه المصادرُ اللاتينيةُ باسم Morabit/Mirabetto/Benevit/Benaveth . وقد تبيّن الآن من المصادر العربية أنه محمد بنُ عبادِ العبي الذي يبدو أنه كان قد وفدَ إلى جزيرة صقلية من جزيرة شريك (شبه جزيرة رأس بون/الرأس الطيب) بأفريقية التي تنسب إلى شريكِ العبي الذي كان عاملاً عليها (٧) .

إن اسمَ هذا الزعيمِ العربيِّ الصقلّيِّ لم يكنْ معروفاً لدى الباحثين إلى عهد قريب ، إلى أن اهتدي إلى نصٍّ في مخطوطٍ للكتاب الموسوم بكتاب (التاريخ المنصوري) الذي ألفه في سنة ٦٣١/١٢٣٣ م أبو الفضائل محمد بنُ علي الحموي ورد فيه اسمُ هذا الزعيم . ثم تمَّ العثورُ قبيلَ الحربِ العالمية الثانية على قطعةٍ قصيرةٍ من مخطوطِ كتاب (المغرب في حليّ المغرب) ، لابن سعيد عن هذا الزعيم وثورته ، تفيد بأن محمد بنَ عباد قام في حصن إنطاثة والتفَّ حوله مسلموا الجزيرة . ولما شبَّ فردريك ركزَ حملاته ضده مستعيناً بالعديد من فصائل جيش الفرنجة . واستسلم ابنُ عباد بعد أن أدرك أنه لم يُعدْ في وسعه تلقي مساعداتٍ من المسلمين في الخارج . إلا أن الامبراطورَ لم يفِ بوعده بأن يُقيمه على قيد الحياة ، وأودى بحياته . وعلى أثر ذلك ، أوقعتْ ابنته التي بقيتْ في حصن إنطاثة بثلاثمائة من فرسان الامبراطور أدخلتهم الحصنَ بعد أن وعدتْ بأن تسلّمه اليهم ثم انتحرت (٨) .

وكما يقول المستشرقُ ليثي — بروغنسال ، فإن هذه الرواية المقتضبة التي تخلو من السنوات لم تتسنَّ الاستفادة منها كثيراً . أما معقل إنطاثة الذي اعتصم فيه محمد بنُ عبادِ العبي وبنته من بعده فقد أمكن تحديدُ موقعه (٩) . إن هذا الحصنَ يُعرف اليوم باسم

(٧) البكري ، أبو عبيد عبد الله : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، تحقيق دي سلان ، باريس ١٩٦٥ ص ٤٥ .

الحميري ، محمد بن عبد المنعم : الروض المطّار في غير الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ص ١٦٥ .

(٨) Lévi-Provençal, E., "Une héroïne de la résistance musulmane en Sicile au début du XII<sup>e</sup> siècle", *Oriente Moderno*, XXXIV (1954), Rome, pp. 283-4.

(٩) المصدر السابق ص ٢٨٤ .

(صخرة إنطالة Rocca d' Entella) ، وهو يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة بلرم ،  
وإلى الغرب قليلاً من مدينة قرليون (Corleone) .

وقد أورد صاحبُ (الروض المعطار) تحت مادة (إنطالة) روايةً أكثر تفصيلاً عن ثورة ابن عباد وابته. ويرى ليثي بروفسال أن من المحتمل أن يكون الحميري وابن سعيد من قبيلة قد استمدت روايتها من مصدر واحد ، لعله تاريخ مؤلف مجهول الاسم ، يعود إلى أواخر أيام دولة الموحدين ، وعلى نفس المصدر اعتمد الحميري كثيراً في المواد التي أوردها عن المغرب والأندلس ، فيما يختص بالأحداث التي وقعت في القرن السابع / الثالث عشر للميلاد<sup>(١٠)</sup> .

### رواية الحميري عن دهاء ابنة محمد بن عباد العبيسي واستبسالها

لعل من المناسب أن نورد النص الكامل لرواية الحميري عن استبسال ابنة محمد ابن عباد العبيسي ، التي لم يصلنا مع الأسف اسمها الأول ، لِمَا يحتويه على أكثر من مغزى وعبرة ، عن مثل بطولي في الفطنة وصدق الجهاد ضربته هذه الفتاة العربية المسلمة المجهولة الاسم منذ ثيف وسبعة قرون .

يقول الحميري تحت مادة (إنطالة) :

«إنطالة حصن عظيم ومقل منيع من حصون جزيرة صقلية ، فيه تحصن محمد ابن عباد القائم بأمر المسلمين في جزيرة صقلية . فلما كانت سنة ست عشرة وستائة [١٢١٩ — ١٢٢٠ م] ، عقد الصلح مع الانبرور طاغية جزيرة صقلية وغيرها ، على أن يدخل تحت طاعته ويأخذ جميع أمواله وذخائره ويجهز في قطائع إلى ساحل افرقية ولا يقتله ، وأبت ابته أن تدخل في هذا الصلح ، وامتنعت في هذه القلعة ، وقالت لأبيها : أنا فداك ، فإن لقيت خيراً اتبعتك ، وإن كان غير ذلك فلا بد أن أنكي أعداءك ، وأخذ بئارك على قدر الاستطاعة . ولما جذفت به القطائع وغابوا عن العيون ، قال له الموكلون به : إن السلطان قد وفى لك ولم يحنث في يمينه ، وها نحن قد توجهنا إلى افرقية ، وهو لم يقتلك ، ونحن نغرقك ونريح دين المسيح منك ، فالذي صنعت في هذه الجزيرة مثله لا

(١٠) نفس المصدر السابق والصفحة .

يُنْسَى ، ثم غرقوه ، وعادوا بجميع أمواله إلى الانبورو ، وحمدت ابنته رأيتها وزادت بصيرة في الامتناع بذلك المعقل المعانق للسحاب ، وجعلت تغادي شن الغارات وتراوحها بمن خاف غدر الانبورو من فرسان المسلمين ورجالهم ، ثم أرسلت في سنة تسع عشرة [١٢٢٢-١٢٢٣م] إلى الانبورو : إني امرأة وقد بُليت بمحاربة الرجال ومداراتهم ، وقد ضقتُ ذرعاً بالأولياء منهم والاعداء ، وضعفت نفسي ، ومعني من صناديد الأبطال من لا ينقاد لمرادي ، فأرحمني وأرح نفسك وأهل مملكتك من هذا النصب الدائم بأن توجه لي ثلثائة من أبطالك الذين لا يهابون ولا يخذعون ، لأدخلهم ليلاً إلى هذا الحصن ويحتون عليه ، فإذا ملكوه ودخلت أنا بعد ذلك في طاعتك ، لم يكن بعد ذلك شيء يتوقع منه عائد [غائلة؟] ، فأفكر فيما خاطبتك به ، والله يجير ويختار . قال : وكان الانبورو قد طالت إقامته وإقامة جموعه على حصارها ، فرأى ذلك غنيمة لا يجب أن يؤخر انتهاز الفرصة فيها ، فاختر ذلك العدد وأرضاهم وأنفذهم في الليل ، ففتحت لهم باب قلعتها ، وفرقتهم على أبطاله بحيل تمت عليهم . فلما ولّى الظلام ، وتبينت الوجوه ، ركب الانبورو إلى جهة الحصن ، يطلع إلى أعلامه كيف هي على سوره ، فإذا برؤوس أبطاله معلقة ما بين شرفاته ، وأعلام المسلمين منشورة وطبولهم عاملة وكلمتهم عالية ، فسقط في يده ، ونظر الفرنج إلى ما لم يكن في حسابهم ، ولا خطر لهم أنه يتم في المنام بالأحلام . قال : فأراد الانبورو أن يبلغ في هذه القضية غرضه بحيلة توجه عليها ، فأرسل إليها : انت قد عشت [غششت؟] ولا أبالي من مات من أهل ملتي ، وقد ظهر لي أن ما في الدنيا امرأة تصلح أن يكون لي منها ولد غيرك ، فتعالي حتى تتم ذلك ، فأنت إن بقيت على ما أنت عليه ، وحصلت في أيدي الفرنج ، قطعوك عضواً عضواً ، فاختاري لنفسك ما ترضينه مصلحة . فأجابت : وصلني كتابك وفهمت حقه وباطله ، وأبلغني بعض عيوني الذين لم أزل أبتهم عليك أنك قلت : إن هذا عجب ، امرأة تمكر بثلثائة رجل ، وليس هذا بعجب ، وقد أنزل في الكتاب المتزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء (إن كيدهن عظيم) فهذا من ذلك ، وإنما العجب مني ومنك ، إذ أنا مقيمة في نشرة من الأرض ولا ناصر ، وأنت تملك مسيرة نصف شهر ولك الجيوش التي تغص بها الأرض ، والخزائن والأموال والخواص أصحاب الآراء ، وقد أثر فيك توقفك ، وشغلتك عن مهات أمورك ، وقدرت عليك أكثر مما قدرت علي ، وأنكيت فيك أشد من نكايتك في ، وها أنا أقطع عليك السلام في الحيل ، فتكني حيلتك في أبي ثم حيلتي في أبطالك ، ومن الآن فابتن أن أحصل لك في يد ، وفي جسدي روح ، وأنا مقاتلتك

ومكابدتُك حتى تفنى ذخائري التي بهذا الحصن ، ويعجز أهل حمايتي ، فإذا انتهيتُ إلى هذا الحد ، فعلتُ ما سيليغُك . قال : فيئس الانبرور منها وقال ، ما لهذه إلا المطاولة ، فبنى حصناً في مرابطة حصنها ، وصار جندُه يترددون على ذلك الحصن ، كلما كَلَّت طائفةٌ استجدَّ غيرها إلى أن بلغت الحد الذي وعدتُ به فسمتُ نفسها» (١١) .

## إجلاء المسلمين عن صقلية ونتائج ذلك :

لجأ فردريك الثاني في الفترة ما بين عامي ١٢٢٢ و ١٢٢٤ م إلى اتخاذ تدابير عسكرية عنيفة ضدَّ الثائرين ، منها إحراق المحاصيل لاجاعتهم وإهلاكهم جوعاً أو حملهم على الاستسلام . وفي كتاب فردريك عام ١٢٢٣ م يقول إنه تمكَّن أخيراً من استئزال عرب صقلية «من قمم الجبال والمعاقل المنيعه» إلى البساطت أثر حملة مضنية (١٢) .

ولعلَّ الهزيمة الكبرى التي لحقت بالموحدين في وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) في الأندلس سنة ١٢١٢/٦٠٩ م ، وما تلاها من انهيار لسلطانهم في الأندلس والمغرب ، كان أحد العوامل التي فُتت في عضد المقاومة العربية في صقلية ، وأفقدتها كلَّ أمل في تلقي العون منهم .

وبعد ان قضى فردريك على ثورة العرب في صقلية ، اتخذ الخطوة الحاسمة والمصيرية لتصفية الوجود الإسلامي في الجزيرة ، بانتهاج سياسة ترحيلهم منها جملةً ، وإسكانهم في مستوطنة لوشيرة/ لوجارة (Lucera) بمقاطعة بولية (Apulia) إلى الشمال الشرقي من نابولي في سنة ١٢٢٥ م . ومما يذكَّر أن سلطان مصر الأيوبي الكامل أوفد مبعوثاً إلى فردريك للتوسط بشأن عرب صقلية ، طالباً أن يُتركوا وشأنهم في صقلية ، أو أن يُسمح لهم على الأقل بالهجرة إلى مصر ، إلا أن هذا الطلب لم يودَّ إلى نتائج عملية (١٣) .

(١١) الحميري ص ٤٠ — ٤١ .

(١٢) Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe*, Beirut 1975, p. 154.

(١٣) أحمد ، عزيز ص ٩٨ .

ولما كان مسلحو صقلية قد تلقوا مساعداتٍ من اخوانهم في إفريقية ، فإن أسطول فردريك عاثَ بجزيرة جربة ، ونقلَ الكثيرين من سكانها إلى لوشيرة<sup>(١٤)</sup> .

إن الحملات المتوالية التي جرّدها فردريك الثاني ضد الثائرين العرب في صقلية لا بدّ وأنها ألحقت أضراراً كبيرةً باقتصاد الجزيرة . فقد قضتْ على طبقةٍ من صغار التجار ، وعلى عنصرٍ في الزراعة كان من المستحيل استبداله . ولعلّ إنتاج القمح لم يستردّ مكانته الأولى في الجزيرة منذ ذلك الحين . ويكاد يكونُ من المؤكد أن معظمَ أهلِ الجرفِ والصناعاتِ كانوا من المسلمين ، وكذلك كان أصحابُ المصانع . وعلى ذلك ، فإن رحيلهم عن الجزيرة يفسّرُ التدنّي الذي لحقَ بصناعاتي المنسوجاتِ الحريرية والسكر . ثم إن إحراقَ المحاصيل كان دائماً أكثرَ الطرق فعاليةً ضد الثائرين ، ومن السهل أن يؤدي إلى حرائق كبيرة في الغابات . وفيما بين عامي ١١٦٠ و ١٢٤٦ م ، كان من نتيجة هجرة و قتل هؤلاء المسلمين ، أن تُركت مساحاتٌ واسعةٌ من الأراضي بوراً وشاغرة ، وقد قدّر أن نصفَ القرى التي كانت قائمة في فترة حكم العرب للجزيرة زالتْ من الوجود فيما بعد ، ولا بُدّ أن كثيراً منها اختفى لهذا السبب بالذات . فن بين مجموع خمسين ضيعةً كان يمتلكها دَيْرٌ مونريال في منطقة سكانها من المسلمين على مقربةٍ من بلرم ، لم يبقَ سوى نحو اثنتي عشرة ضيعةً ، وكلها تقريباً تحملُ أسماءَ تختلف عن أسائها الأصلية ، مما يشير إلى أنها مستوطناتٌ استُحدثتْ فيما بعد . وتؤكد الدلائلُ من شواهد القبور وأسماء الأسر أنه ، بحلول القرن الثالث عشر الميلادي ، كان من نتيجة إجلاء السكان العرب أو اندماجهم القضاء على شعبٍ كان إلى عهد قريب قبل ذلك يشكلُ أكثرية السكان في الجزيرة<sup>(١٥)</sup> .

(١٤) المصدر السابق ص ٩٦ .

(١٥) Smith, pp. 59-60.



## جزيرة قوصرة العربية

إن جزيرة قَوْصُرة (بَنطَلارية حالياً) الجبلية البركانية الصغيرة ، (مساحتها ٨٣ كم مربعاً وسكانها حوالي عشرة آلاف نسمة) ، التابعة لإيطاليا ، تشغل موقعاً استراتيجياً مهماً في وسط البحر المتوسط ، فهي تتحكم في الملاحة بين شرق البحر المتوسط وغربه ، وبين جزيرة صقلية وساحل إفريقية (تونس) ، ولذلك فإن الدول التي تعاقبت في بسط نفوذها في حوض البحر المتوسط — لا سيَّما في وسطه — حرصت على احتلالها ، فكَذلك فعل الفينيقيون ، والقرطاجنيون ، والرومان ، والبيزنطيون ، والعرب ، والنورمان ، والقطانيون الإسبان ، وأخيراً الإيطاليون . وفي الحرب العالمية الثانية اتخذ الإيطاليون الجزيرة قاعدةً بحريةً وجوية ، ولذلك فإن الجزيرة تعرَّضت للقصف الشديد ، ولحق بها دمارٌ كبيرٌ على أيدي الحلفاء الذين احتلوها سنة ١٩٤٣ .

وقد سيطر العربُ على جزيرة قَوْصُرة منذ سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م ، إذ انتزعوها من أيدي الروم البيزنطيين الذين دأبوا على شن الغارات البحرية منها ومن مالطة وصقلية على سواحل إفريقية الإسلامية . واتخذ الأغالبُ جزيرة قَوْصُرة قاعدةً ومعبراً لافتتاح صقلية (٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، ومحطةً لرسو مراكبهم في غدوها ورواحها بين إفريقية وصقلية ، كما اتخذوا فيها محطة للحام الزاجل ليتسنى نقلُ الأخبار على وجه السرعة بين ولاية صقلية وأمراء إفريقية . والجزيرة تبعد نحو ١٠٠ كم عن ساحل صقلية و٧٦ كم عن ساحل تونس — يقول الحميري «جزيرة قوصرة تُرى من مدينة مازر ، وتُرى أيضاً من إقليبية من بر إفريقية ، لأن هذه الجزيرة جبلٌ مُشرفٌ عالٍ جداً . . . وهي مَكْمَنٌ للغزاة من المسلمين والروم»<sup>(١)</sup> .

إن جزيرة قَوْصُرة عبر التاريخ كانت تتبع الدولة التي تسيطر على صقلية ، وعلى ذلك فإن النورمان بعد استيلائهم على صقلية العربية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي استولوا أيضاً على قَوْصُرة ومالطة ، واتخذوها قاعدتين للإغارة على ساحل

(١) الحميري ، محمد بن عبد المنعم : الروض المطّار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٤٨٦ .

إفريقية ثم السيطرة على هذا الساحل فترة قصيرة من الزمن في منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي .

وقد أسكن الأغالبة جزيرة قوصرة المسلمين من الساحل التونسي وبعض النصارى من أهل صقلية ، وتعرب هؤلاء تدريجياً لغةً وزياء وعادات ، حتى إذا ما انتهت فترة السيادة العربية على صقلية والجزر التابعة لها ، بقي مع ذلك الأثر الإسلامي بارزاً في قوصرة إلى عهد قريب . وكان للمسلمين في قوصرة في القرن التاسع/ الخامس عشر قاضي يتخبونه من بينهم ، ولعل انتهاء الإسلام في الجزيرة حدث في القرن العاشر/ السادس عشر الميلادي أيام حكم الإسبان ، الذين فعلوا بمسلمي قوصرة ما فعلوه بمدجني المسلمين في الأندلس ، وهو حملهم قسراً على التنصر أو التزوج عن الجزيرة . ومع ذلك فإن لهجة قوصرة القريبة من اللهجة الصقلية غنية بالمفردات العربية ، كما أن كثيراً من أسماء الأماكن في الجزيرة عربية الأصل .

### قوصرة في التاريخ القديم

إن الفنيقيين وقد اتسع نطاق تجارتهم مع غربي البحر المتوسط استوطنوا جزيرتي مالطة وغوزو قبل القرن الثامن ق . م . ، واتخذوا من موانئها محطات لرسو مراكبهم . ولا بد أن جزيرة قوصرة هي الأخرى ، بحكم موقعها ، قد احتلت في نفس الوقت ، ولكننا لا نعلم ما إذا كان احتلالها تم على أيدي الفنيقيين مباشرة أم على أيدي المستوطنين الفنيقيين في جزيرة مالطة . ولما كان لجزيرة قوصرة مرسى طبيعي جيد على ساحلها الشمالي الغربي ، فإن من المحتمل أن هذا المرسى كان أول نقطة لتزولهم واستقرارهم في الجزيرة . ولعل اسم الجزيرة في العصور الكلاسيكية وهو (Cossyra) مشتق من اصل فنيقي .

ومع انه يبدو ان القرطاجنيين سيطروا على جزيرتي مالطة وغوزو منذ القرن السادس ق . م . ، الا ان جزيرة قوصرة لم تخضع لسيطرتهم ، إذ إن الروايات التاريخية الرومانية في القرن الثالث ق . م . عن الحرب البونية الأولى تذكر انتصاراً على القورسين والقرطاجنيين ، مما يوحي بأن قوصرة كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي وكما حدث بالنسبة لشمال افريقيا ، فان الثقافة البونية لم تختف من هذه الجزر الا ببطء ،

رغمًا عن استيلاء الرومان عليها ، كما تدل على ذلك العُمَلَاتُ التي تَحْمِلُ كُتَابَاتٍ منقوشة بونِيَّة ، والتي ضُرِبَتْ في مالطة وقَوْصِرَة حتّى القرنين الثاني والأول ق. م. (٢). وبما يذكُر أن الرومان اتخذوا جزيرة قوصرة منفىً للمغضوب عليهم (٣).

## تسمية الجزيرة ومواردها

رَسَمَ البكري اسمَ الجزيرة (قُوسِرَة) (٤) وهو الاسمُ الذي عُرِفَتْ به الجزيرة في المصور القديمة (Cossyra) بمعنى السِّلَة أو القَرَطْل ، ولعلَّ الجزيرة اكتسبت هذه التسميةً للتشابه بين شكلها وشكل السِّلَة أو القَرَطْل . ويقول ياقوت الحموي إن القَوْصِرَة لغةٌ هي وعاء التمر (٥) . ويورد حسن حسني عبد الوهاب بيتاً من الشعر يُنسب إلى علي بن أبي طالب كَرَّمَ الله وجهه وهو .

أفْلَحَ من كانت له قَوْصِرَة يَأْكُلُ كُلَّ يَوْمٍ منها مَرَّةً (٦) .

ان الاسمَ الحديثَ للجزيرة وهو بَنْطَلَارِيَة (Pantellaria/Pantelleria) أُطلق على الجزيرة منذ القرن الحادي عشر الميلادي وذاع بعد فترة حكم القطلانيين الإِسبَان لها في أواخر القرن السابع / الثالث عشر للميلاد ، ومن الغريب أن هذه التسمية لها نفس المعنى القديم لاسم الجزيرة .

وبالرغم من كون قَوْصِرَة جزيرةً جبليَّةً ، وبالرغم كذلك من افتقارها إلى المياه العذبة ، فإن الجغرافيين العرب القدامى تحدّثوا عن وفرة غلاتها الزراعية . فالإدريسي يقول إنه تكثُر

(٢) Moscati, S., *The World of the Phoenicians*, London 1973, pp. 238-239. (٣) Collins English Dictionary, London 1979, p. 1061.

(٤) البكري ، أبو عبيد عبد الله : *المُغْرِب في ذِكْر بلاد المغرب* (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك) ، تحقيق دي سِلَان ، باريس ١٩٦٥ ، ص ٤٥ .

(٥) ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبد الله : *معجم البلدان* ، الجزء الرابع ، بيروت ، ص ٤١٣ .

(٦) حسن حسني عبد الوهاب : «قصة جزيرة قوصرة العربية» ، وِلايات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم الثاني ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢٨٢ ، الحاشية رقم ١ .

فيها اشجار الزيتون ، وفيها معز كثيرة برية <sup>(٧)</sup> . ويقول ابن سعيد ، وكذلك أبو الفداء ، إن من جزيرة قَوْصَرَة تُجلب شريحة التين والقطن وبها المَصْطَلْكِي <sup>(٨)</sup> . أما صاحب (الروض المعطار) فيقول إنها «مَقْطَعٌ للخشب الجيد ، ويحمل منه إلى صقلية» <sup>(٩)</sup> .

وكما هو معروف فإن العرب منذ أيام الأغالبة أدخلوا إلى صقلية والجزر المجاورة لها عدة محاصيل زراعية جديدة منها القطن والحمضيات ، وما زالت الحمضيات عماداً اقتصاد صقلية . وقد انتهت زراعة القطن في جزيرة صقلية منذ القرن الرابع عشر الميلادي أي منذ أن نزع عن الجزيرة مزارعوها المسلمون ، ، أما في قَوْصَرَة فما زالت زراعة القطن إلى يومنا هذا ، ذلك لأن السكان المسلمين بقوا في الجزيرة تحت عهد من أصحاب صقلية النصارى <sup>(١٠)</sup> . كما كان أهل قَوْصَرَة يزاولون صيد الأسماك «ويربون نوعاً ممتازاً من البغال» <sup>(١١)</sup> .

## السيادة العربية على قَوْصَرَة

يعود الى معاوية بن أبي سفيان ، أيام ولايته على بلاد الشام ، الفضل في إنشاء أول أسطول عربي في البحر المتوسط ، وذلك لدرء الغارات التي ما انفك الروم البيزنطيون يشنونها على سواحل الشام ومصر . ثم ازداد نشاط العرب البحري بعد فتح بلاد المغرب وإنشاء دار صناعة السفن في تونس على يد الوالي حسان بن النعمان الغساني في حدود سنة ٦٨٠هـ/٦٩٩هـ . وقد اتخذ الروم البيزنطيون ، بعد فقدانهم لإفريقية ، من صقلية

( ٧ ) الإدريسي ، أبو عبد الله محمد (الشريف) : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، (قطعة في المكتبة العربية الصقلية ، تحقيق م . أماري ، ليسك ١٨٥٧) ص ٢٤ .

( ٨ ) ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ، تحقيق إسماعيل العربي ، بيروت ١٩٧٠ ص ١٤٤ . أبو الفداء ، عماد الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر (قطعة في المكتبة العربية الصقلية ، تحقيق م . أماري ، ليسك ١٨٥٧) ص ١٤٨ .

( ٩ ) الحميري : الروض المعطار ص ٤٨٦ .

(١٠) Gabrielli, F., "Islam in the Mediterranean World", *Legacy of Islam* (Second Edition), Oxford 1974, p. 75.

(١١) Braudel, F., *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II*, London 1978, p. 144.

وقوصرة ومالطة قواعد لسفنهـ ظلت تُغير منها على سواحل إفريقية وبرقة ، ولذلك أقام العرب المحارس والرباطات على طول ساحل إفريقية ، واهتموا ببناء أسطول في دار الصناعة بتونس ، ولم يلبثوا أن اخذوا بزمام المبادرة لانتزاع الجزر من أيدي الروم ، فأغزوا صقلية وقوصرة أكثر من مرة قبل افتتاحها في عهد الأغالبة . يقول البكري : « أغزى عبد الملك بن مروان عبد الملك بن قطن [الفهري سنة ٨٨١/ ٧٠٠ م في ولاية موسى بن نصير] في البحر ، ففتح ما كان هنالك من الجزائر والقصور ، خربها وقفل ظافراً »<sup>(١٢)</sup> . إلا أن ياقوت الحموي يذكر أن فتح قوصرة كان قبل ذلك في أيام معاوية بن أبي سفيان ، وبقيت الجزيرة في أيديهم الى أيام عبد الملك بن مروان ، ثم خربت<sup>(١٣)</sup> . ويعتقد حسن حسني عبد الوهاب أن استيلاء المسلمين النهائي على قوصرة كان حوالي سنة ٧٤٨/ ١٣٠ م ، على يد الأمير عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، الذي كان قد استقل بأمير إفريقية في أواخر أيام الدولة الأموية بالشرق<sup>(١٤)</sup> . ومهما يكن من أمر ، فإن العرب كالروم أدركوا أهمية الجزيرة الإستراتيجية ، ولذلك قال عنها الحميري بأنها «مكن للغزاة من المسلمين والروم»<sup>(١٥)</sup> .

ولما استولى العرب على قوصرة سنة ٨٨١/ ٧٠٠ م ، انتقل البيزنطيون منها الى جزيرة صقلية ، وقد استفاد العرب من سيطرتهم على قوصرة حينما جهّزوا حملتهم لافتتاح صقلية في عهد الأغالبة<sup>(١٦)</sup> . ومع أنه لا يُعرف على وجه التحديد تاريخ استيلاء الأغالبة النهائي على جزيرة قوصرة ، إلا أنه يبدو أن الجزيرة كانت بأيديهم حوالي سنة ٨٢٥/ ٨٦٤ م . وبعد هذا التاريخ تعرّبت الجزيرة تماماً ، وسادها الاسلام ، وظلت تشكل جزءاً من إفريقية الى أيام الموحدين<sup>(١٧)</sup> .

وقد أسكن الأغالبة جزيرة قوصرة بعض نصارى صقلية ، كما انتقل الى الجزيرة

(١٢) البكري : المغرب في ذكر بلاد المغرب ص ٤٥ .

(١٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٤١٣ .

(١٤) حسن حسني عبد الوهاب : ورققات ، القسم الثاني ، ص ٢٨٩ .

(١٥) الحميري : الروض المطار ص ٤٨٦ .

(١٦) Lewis, B., *The Arabs in History*, London 1950, p. 116.

(١٧) *EI<sup>2</sup> = The Encyclopaedia of Islam* (New Edition), Vol. IV, Leiden 1976, S. V. *Ḳawṣara*, p. 805 (M. Talbi).

فلاحون من الساحل التونسي المقابل، وتم بذلك امتزاج السكان ، مسلميهم وذمّيتهم ، وانتشرت في الجزيرة اللغة والتقاليد العربية<sup>(١٨)</sup> . ولعلّ الأغالبة جعلوا على قوصرة عاملاً مستقلاً وقاضياً ، فلم تكن تابعة للوالي في بلرم<sup>(١٩)</sup> . كما أن الأغالبة هم الذين أدخلوا الى الجزيرة زراعة القطن ، واحتفظ أهل الجزيرة الى يومنا هذا بالأسماء العربية المتصلة بملح القطن ونسجه مثل ملحج (mulugiu) وردانة (ruddana) ، وهي الخشبة المستعملة لغزل القطن<sup>(٢٠)</sup> .

وقد اتخذ الأغالبة جزيرة قوصرة محطة لأساطيلهم ، كما أقاموا فيها مركزاً للحام الزاجل أو حمام البطاقة ، كما يسميه ابن خلدون ، تسهيلاً لوصول الرسائل بسرعة إلى القيروان ، لا سيما فيما يتعلق بتحركات سفن الروم .

وبعد قيام دولة العبيديين في إفريقية ، وانتهاء حكم بني الأغلب (٩٠٩/٨٦٩ م) ، نزح بعض الإباضية ، بسبب اضطهاد الشيعة الإسماعيلية لهم ، واستقروا في جزيرة قوصرة . يقول ياقوت : « قيل إن في إيامنا هذه [أوائل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي] فيها قوم من الخوارج الوهّية»<sup>(٢١)</sup> .

وقد لعبت جزيرة قوصرة دوراً في الصراع البحري بين دولة بني زيري في القيروان والنورمان الطامعين في صقلية . يذكر ابن الأثير أن أمير القيروان ، المعز بن باديس ، جهّز أسطولاً كبيراً لنجدة مسلمي صقلية في سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢ م «فساروا إلى قوصرة ، فهاج عليهم البحر ففرق أكثرهم ، ولم ينبج منه إلا القليل»<sup>(٢٢)</sup> . ويذكر الحميري أنه كانت في جزيرة قوصرة للمسلمين على الروم أيام صمصام الدولة ، آخر ولاية الكلبيين في صقلية ، «وقعةٌ مجحفة ومقتلة عظيمة»<sup>(٢٣)</sup> .

(١٨) حسن حسني عبد الوهاب : وولات ، القسم الثاني ، ص ٢٩٠ .

(١٩) المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٢٠) المصدر السابق ص ٢٩١ .

(٢١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٤١٣ .

(٢٢) ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن محمد : الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ، بيروت ١٩٧٨ ، ص ١٥٨ .

(٢٣) الحميري : الروض المطّار ص ٤٨٦ .

ويدو أن النورمان قبل أن يفرغوا من الإستيلاء على صقلية احتلوا جزيرة قَوْصَرَة لدرء غارات المسلمين عن سواحل صقلية . يذكر ابن الأثير أن النورمان وحلفاءهم من البيشانيين والجنوبيين أعدوا سنة ١٠٨٧/٨٤٨٠ م — بسبب غارات المسلمين على سواحل صقلية — أسطولا من أربعائة قطعة ، واجتمعوا بجزيرة قَوْصَرَة . فكتب أهل قوصرة كتاباً إلى الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس صاحب المهدية على جناح طائر يذكرون وصولهم وعددهم وحكمهم على الجزيرة . وقد مجّد البيشيون احتلالهم للمهدية وزويلة في قصيدة بعنوان (Carmen in victoriam Pisanonum) وفيها أربعة أبيات تشير إلى احتلالهم لجزيرة قَوْصَرَة وفتحهم بسكانها المسلمين ، في طريق الغزاة إلى المهدية (٣٤) .

### جزيرة قَوْصَرَة بعد انتهاء السيادة العربية عليها أ — فترة حكم النورمان

لقد دامت السيادة العربية على جزيرة صقلية نيفاً وقرنين ونصف القرن (٨٢٧ — ١٠٩١ م) . وأما جزيرة قَوْصَرَة فقد استوطنها العرب وحكموها زهاء أربعائة سنة . ولما شغل النورمان في إتمام فتح صقلية وتوطيد حكمهم فيها ، فإنه يبدو أنهم لم يسيطروا على قَوْصَرَة نهائياً إلا في سنة ١١٢٣/١٠١٧ م ، في طريقهم لغزو ساحل إفريقية . يقول ابن الأثير إنه في تلك السنة « سار الأسطول الفرنجي في ثلاثمائة قطعة . . . فرمتهم الريح وغرق منهم مراكب كثيرة ، ونازل من سلم منهم جزيرة قَوْصَرَة ، ففتحها وقتل من بها وسبا وغنم ، وساروا عنها فوصلوا الى إفريقية ونازلوا الحصن المعروف بالديماس . . . » (٣٥) . وإلى هزيمة الروم في رأس الديماس ، يُشير كبيرُ شعراء صقلية عبد الجبار ابن حمّديس ، وكان اذ ذاك في المهدية :

وقوصرة فيها رؤوسُ جدودهم  
إلى اليوم ملآنٌ بأفلاقها العفر

(٢٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الثامن ، ص ١٤٧ .

Cowdrey, H. E. J., "The Mahdia Campaign of 1087," *English Historical Revue*, No. 362-January 1977, p. 25 (lines 15-18).

(٢٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٣١٢/٨ .

ولا شك في أن الشاعر يشير هنا إلى جزيرة قَوْصَرَة ذاتها ، لا إلى اناة أو مستودع اطلاقاً ، كما ورد في ديوان ابن حَمْدِيس (٣٦) .

ولما قرر صاحبُ صقلية النورماني رجار الثاني احتلال المهديّة سنة ١١٤٨/١١٤٣ م. عهدَ بذلك الى مقدّم أسطوله جورج الأنطاكي « فقصّد قَوْصَرَة ، وصادف بها مركباً من المهديّة . فغنمه ، ووجد عندهم حمامَ البطاقة ، فبعث الخبرَ للمهديّة في أيجنتها بأن أسطول الفرنج أقبل الى القسطنطينيّة » (٢٧). ويبدو من ذلك أن صاحبَ المهديّة كان يرسل المراكبَ مزوّدةً بحمام الزاجل الى مياه قَوْصَرَة ، المتوسطة الموقع بين المهديّة وصقلية ، لموافاته بأخبار تحركات أساطيل الروم في اتجاه سواحل إفريقية على وجه السرعة ، للتأهب للملاقاة ، كما أن المقدّم جورج الأنطاكي استعمل نفس الحمام للتصويه على صاحب المهديّة ومباغته المدينة . سيطر النورمان على معظم مدن ساحل إفريقية من طرابلس الغرب الى عنابة بضع عشرة سنة ، الى أن حرّرها الموحدون ، وكان آخر ما حرروه من المدن المهديّة سنة ١١٦٠/١١٥٥ م. ويبدو أن الموحدين استردوا كذلك جزيرة قَوْصَرَة ، إلّا أن حكمهم للجزيرة لم يطل (٢٨) .

إن السكان المسلمين في صقلية والجزر المجاورة بقوا فيها أثناء فترة حكم النورمان لها . ولما كان النورمان قلةً وواجهوا عداء الكنيسة وأمرأ الإقطاع ، ونظراً لاعتمادهم على المسلمين في الجيش والزراعة والصناعة والإدارة ، فإن ملوكهم انتهجوا نحو المسلمين من رعاياهم إجمالاً سياسةً اللين والمدارة ، وقاوموا سياسةً التنصير التي كانت تسعى اليها الكنيسة . ومع أن ملوك النورمان شجّعوا استيطان صقلية من قِبَل اللمبارد والنورمان ، إلّا أن هذا الاستيطان يبدو أنه اقتصر على صقلية ، ولم يبيد المستوطنون النصارى الجدد رغبةً في سكنى الجزر النائية كمالطة وقَوْصَرَة . فبعد استيلاء النورمان على مالطة ، عرض رجار الثاني ان يبني قريةً للأسرى من النصارى الذين اطلق سراحهم في الجزيرة ، كما عرض ان يقدم لهم المالَ ويخفّض الضرائب ، إلّا أن العرض مع ذلك لم يُغرهم على البقاء في الجزيرة (٢٩) .

(٢٦) ابن حَمْدِيس ، عبد الجبار : ديوان ابن حَمْدِيس ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٢٥٥ الحاشية ٣ .

(٢٧) ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر ، الجزء الخامس ، بيروت ١٩٥٩ ص ٤٣٣ .

(٢٨) EI<sup>2</sup>, IV, p. 805.

(٢٩) Smith, D.M., *Medieval Sicily*, London 1969, p. 23.



## ب — فترة حكم الألمان من أسرة هوهنشتاوفن

بعد قرن من الحكم النورماني ، آلت صقلية والجزر التابعة لها إلى حكم أسرة هوهنشتاوفن الألمانية ، وأشهر ملوكها فردريك الثاني (١١٩٨ — ١٢٥٠ م) . وقد دامت ثورات المسلمين في مستهل حكمه نحو عشرين عاما ، بزعامة محمد بن عباد العبسي ، ولما تمكن فردريك من قمع حركة الثائرين بمنتهى العنف ، لجأ إلى سياسة ترحيل المسلمين عن صقلية عام ١٢٢٥ م إلى مستوطنة خصصها لهم في جنوب إيطاليا هي مستوطنة لوشيرة/لوجارة (Lucera) ، ثم لما تجددت ثورات من بقي من المسلمين في صقلية بعد ذلك بعشرين عاما ، نقل كل من بقي من المسلمين في صقلية إلى لوشيرة (١٢٤٦ م) . ومع ذلك ، فإن سلاطين المسلمين في المشرق والمغرب كانت تربطهم بفردريك الثاني صلات ودية . ويبرر بعض المؤرخين المحدثين سياسة فردريك الثاني تجاه مسلمي صقلية بسخطه على أية ثورة في مملكته ، لا لتعصبه ضد العرب والمسلمين<sup>(٣٠)</sup> . أما بالنسبة لجزيرة قوصرة ، فقد أبرم فردريك الثاني معاهدة مع السلطان الحفصي أبي زكريا يحيى — مدتها عشر سنوات — سنة ١٢٣١ م ، وهي تشتمل على بند ينص على أن «لا يؤلّى على مسلمي قوصرة نصراني ، بل يؤلّى عليهم مسلم من أهل صقلية»<sup>(٣١)</sup> . ويبدو أن المعاهدة أبقّت لمسلمي قوصرة شيئا من الاستقلال الداخلي إداريا وقضائيا . وتنص المعاهدة كذلك على أن يتقاسم صاحب صقلية وصاحب تونس خراج الجزيرة مناصفة بينهما . وقد وصف مؤرخ معاصر هذا الحكم الذي ساد في قوصرة بأنه حكم ثنائي (Condominium) من قِبل فردريك الثاني والسلطان الحفصي<sup>(٣٢)</sup> . ويقول مؤرخ معاصر آخر إن المصالح التجارية للدول المسيحية في حوض البحر المتوسط أملت عليها إتباع سياسة سلمية في الغالب تجاه سلاطين شمال إفريقيا ، «وخير مثل على ذلك نظام الحكم الثنائي الإقطاعي الصقلي التونسي الغربي والدائم ، في جزيرة بنظارية»<sup>(٣٣)</sup> .

(٣٠) المصدر السابق ص ٥٩ — ٦٠ .

(٣١) Daniel, N., *The Arabs and Mediaeval Europe*, London 1975, p. 162.

(٣٢) Smith, p. 134.

(٣٣) Luttrell, A., "The Crusade in the Fourteenth Century", *Europe in the Late Middle Ages*, London 1970, p. 138.

وقد ساءت أحوال المسلمين في جزيرة قَوْصُرَة بعد وفاة السلطان أبي زكريا (١٢٤٧هـ/١٢٤٩م). يقول ابن خلدون: «ولما بلغ الخبرُ بمهلك الأمير أبي زكريا... إلى صقلية... تعدى [فرديريك الثاني] إلى جزيرة مالطة وقَوْصُرَة، فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وألحقهم بأخوتهم [في لوشيرة] واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها، ومحا منها كلمة الإسلام بكلمة كفره...<sup>(٣٤)</sup>. والواقع أن مسلمي قَوْصُرَة لم يتم إبعادهم جميعاً من الجزيرة، ومما يدل على ذلك بقاء عددٍ منهم فيها طوال القرنين التاليين. ثم إن قرارَ صاحب صقلية الخاصَّ بترحيل المسلمين عن قَوْصُرَة لا بد وأنه اتخذ في نفس الوقت الذي اتخذ فيه قرارُ ترحيل إخوانهم مسلمي صقلية إلى مستوطنة لوشيرة، دون أن تكون للقرار علاقة مباشرة بوفاة السلطان الحفصي أبي زكريا.

### ج — الفترة الأراجونية الإسبانية

خضعت صقلية والجزرُ المجاورة لها لحكم أسرة أنجو الفرنسية، المعروفة بشدة تعصبها الديني، فترة قصيرة (١٢٦٦ — ١٢٨٢ م). ثم آلت الجزيرة إلى حكم صاحب أراجون (قطالونيا)، ثم إلى حكم الإسبان بعد اتحاد قشتالة وأراجون في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وفي هذه الفترة، انتهى الوجود الإسلامي في جزيرة قَوْصُرَة، ولعل ذلك حدث في أواخر القرن السادس عشر الميلادي، فحلَّ بمسلمي قَوْصُرَة ما حلَّ بأخوانهم مدجنِّي الأندلس، المعروفين بالمورييسكو، والذين طُردوا من إسبانيا فترحوا إلى أقطار المغرب واستقروا فيها. وكان هذا المصيرُ أيضاً من نصيب مسلمي قَوْصُرَة الذين نزح مَنْ لم يقبل التنصُّر منهم إلى الساحل التونسي. ويذكر حسن حسني عبد الوهاب أنه توجد في منطقة قليبية جالية وفدت عليها من قَوْصُرَة منذ مائة عام تقريباً — ويقرب عددهم من المائة نفر — واشتغلوا بالزراعة. وقد تعرَّبت هذه الجالية لغةً وعاداتٍ مع تمسكهم بالدين المسيحي<sup>(٣٥)</sup>. ويسمِّي أهالي مدينة قليبية إلى الآن الريحَ الشمالية الشرقية التي تهبُّ على بلدهم بالريح القوصري لهبوبها من جهة جزيرة قَوْصُرَة.

(٣٤) ابن خلدون: كتاب العبر، الجزء الثامن، ص ٦٢٦.

(٣٥) حسن حسني عبد الوهاب: وولات، القسم الثاني، ص ٢٧٩.

(٣٦) المصدر السابق ص ٢٧٨.

وقد عُرِفَت الجزيرةُ عند النصارى منذ القرن الحادي عشر الميلادي باسم (بنطلارية (Pantellaria) وهو الاسم الذي ترسَّخ وذاع منذ أيام حكم القطلانيين للجزيرة في أواخر القرن الثالث عشر، وحلَّت هذه التسمية في العصور الحديثة محلَّ التسمية القديمة (قَوْصَرَة) (٣٧).

ويذكر العمري (منتصف القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي) «أن بقوصرة جماعة من المسلمين تحت الذمة على مقرّر لهم، ومثل هؤلاء إذا كانوا تحت أيدي الفرنج يُعرفون في بلاد المغرب بالمُدَجَّنين» (٣٨).

ولم يتخلَّ سلاطين الحفصيين نهائياً عن فكرة استرداد جزيرة قَوْصَرَة، فقد نصَّ اتفاق عام ١٤٠٣ م على سيطرة صاحب أراجون، الذي كانت صقلية تابعة له، على جزيرة جربة في مقابل حصول سلطان تونس الحفصي على جزيرة قَوْصَرَة، إلا أن الاتفاق لم يوضع موضع التنفيذ (٣٩).

وقد احتفظت جزيرة قَوْصَرَة بأهمية موقعها في وسط البحر المتوسط، واستغل هذا الموقع غزاة البحر والقرصان من المسلمين والنصارى. ففي سنة ١٣٠٥ م، استولى القشتالي جاسبردي كاستلينو في مياه طرابلس على سفينة محملة بالبضائع، وتحوّل بغنيمة إلى جزيرة قَوْصَرَة (٤٠). وفي شهر أغسطس سنة ١٥٥٣ م، وبعد أن حلَّ درغوت محل سنان باشا في قيادة الأسطول العثماني، غزا الأسطول، في طريقه إلى غزو سواحل صقلية وإيطاليا، جزيرة قَوْصَرَة، ونهبها، ثم توجه إلى ميناء ليكاتا (Licata)، وهو ميناء تصدير القمح في صقلية (٤١).

(٣٧) Cowdrey, p. 25. *EI*<sup>2</sup>, IV, p. 805.

(٣٨) العمري، أبو العباس أحمد: ممالك الأبهار في ممالك الأمصار (قطعة في المكتبة العربية الصقلية، تحقيق م. أماري، ليسك ١٨٥٧) ص ١٥٠.

(٣٩) *EI*<sup>2</sup>, IV, p. 805.

(٤٠) روسي، إتوري: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة ١٩١١، تعريب خليفة محمد التليسي، بيروت ١٩٧٤، ص ١٣٤.

(٤١) Braudel, p. 927.

## سكان جزيرة قوصرة وتأثيرهم بالعرب

لقد ظلَّ سكانُ جزيرة قوصرة مسلمين فترةً طويلة من الزمن . فيذكر ياقوت الحموي (ت . ١٢٢٨/٥٦٢٦ م) أنهم كانوا في مستهل القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي من الخوارج الوهبيَّة<sup>(٤٢)</sup> . وقد حرص الحكامُ النصارى على إبقائهم في الجزيرة للاستفادة منهم إقتصادياً . ففي سنة ١٤٣٨ م ، شكَا صاحب أراجون إلى سلطان تونس الحفصي من أن بعضَ رجال الدولة الحفصية كانوا يشجعون مسلمي قوصرة على الهجرة من الجزيرة ، وطالب بعودة النازحين ، لا بل واستيطان آخرين من إفريقية في الجزيرة<sup>(٤٣)</sup> . ومما يذكُر في هذا الصدد ، أن أصحابَ صقلية الإسبان درجوا على سياسة منع الجزر القريبة من صقلية كإقطاعياتٍ لعدد من الأسر ، وكانت قوصرة من نصيب أسرة ريكوسين (Requesens) التي استعمرت الجزيرة<sup>(٤٤)</sup> . وفي مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، كان النصارى والمسلمون في قوصرة يرتدون زياً واحداً ويتكلمون لغةً واحدة هي العربية ، القريبة من لهجة أهل جزيرة مالطة<sup>(٤٥)</sup> . ولما فر من الأسر في مدينة تونس التاجرُ البروفنساليُّ (من مقطعة بروفانس بجنوب فرنسا) جان بونيه (Bonnet) عام ١٦٧٠ م ، ووصل إلى جزيرة قوصرة ، لاحظ أن لغةَ أهل الجزيرة شبيهةٌ باللغة المالطية — أي أنها لهجةٌ عربية<sup>(٤٦)</sup> .

ويستفاد مما أورده الفقيهُ ابن ناجي القيرواني (ت سنة ١٤٣٦/٨٨٣٩ م) أن جزيرة قوصرة كان يقطنها آنذاك المسلمون والنصارى ، وأنه كان للمسلمين بها قاضي ، وأنهم كثيراً ما كانوا يترددون على الموانئ التونسية . يقول ابنُ ناجي «وجرى لي ، وأنا قاضي بحربة [حوالي سنة ٨٠٠/١٣٩٨ م] أن قُدِّم لي رسمٌ فيه شهادةُ قاضي قوصرة ، يذكر حقَّ شهود من علمه ، فطلب مني العارضُ أن أوقع على خطه ، فلم أمكِّن صاحبه من ذلك ،

(٤٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، الجزء الرابع ، ص ٤١٣ .

(٤٣) EI<sup>2</sup>, IV, p. 805.

(٤٤) Smith, p. 196.

(٤٥) المصدر السابق ص ١٣٦ .

(٤٦) المصدر السابق ص ١٣٦ . EI<sup>2</sup>, IV, p. 805.

لأنهم [مسلمي قوصرة] قادرون على التحيل في الخروج منها ، وربما يخرج بعضٌ من فيها ويعود إليها ، وهم تحت حكم الكفار» (٤٧).

ويضيف العلامة التونسيُّ حسن حسني عبد الوهاب إلى ذلك فتوى صادرةً عن الإمام البرزلي (ت ٨٤١/١٤٣٨ م) يقول فيها : «ومثله عندنا بإفريقية أهلُ قوصرة ، فإنها تحت إياالة أهل الكفر ، وقد اختار بعضهم الإقامة بها ، فن غلب على أمره منهم فله مندوحة ، وليس بمرحوة في حقه ، لأنه كالمكره ، ومن كان باختياره فهو جرحه وحكم ما له يجري على ما سبق ؛ وهم [مسلمو قوصرة] ونحوهم من أهل الأندلس يستمّون بالدجن» (٤٨).

وفي مقالٍ ممتع عن جزيرة قوصرة للعلامة التونسي المرحوم حسن حسني عبد الوهاب ، يذكر أن عادات سكان قوصرة كانت إلى عهدٍ قريبٍ عاداتٍ عربية ، فكانوا يلبسون الشاشية التونسية الحمراء غطاءً للرأس ، والقشاية الصوفية ، كما أن النساء كنَّ إلى أمدٍ قريب يتحجبن عند الخروج من منازلهن بحيث لا تبدو سوى عيونهن (٤٩).

ويقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب إن المفردات من أصل عربي في لهجة أهل قوصرة من الكثرة بحيثُ تكفي لإعداد مُعْجَمٍ بها. ومن هذه المفردات زيب (Zebibo) وسكارة (قُفل) وحفيان ، لا بل إنهم احتفظوا بشخصية جحا واسمه العربي (Giufa) . وأما أسماء الأماكن بقوصرة فهي عربية بنسبة ٨٠٪ ، ومنها على سبيل المثال : الحمة ، بويرة ، سداري ، المرسى ، الكدية (أي الربوة) ، جبل ، المنية (٥٠) . لا بل إن المؤرخ الفرنسي بروديل يقول «إن مالطة — جزيرة الفرسان — وبنطلارية احتفظتا بسكانها العرب ولهجتيهما العرييتين إلى يومنا هذا» (٥١).

(٤٧) حسن حسني عبد الوهاب : وولات ، القسم الثاني ، ص ٣٠٠ .

(٤٨) المصدر السابق ص ٣٠١ .

(٤٩) المصدر السابق ص ٣١٣ .

(٥٠) المصدر السابق ص ٣٠٨ — ٣١٢ .

(٥١) Braudel, p. 150, n. 182.

# حمام الزاجل

## عرض تاريخي حول استعماله في المراسلات السريعة في العالم الإسلامي في القرون الوسطى

### حمام الزاجل :

الحَمَامُ بالمَدْلُول العام «كل طائر عِبْ وهدر» ، وهو بالمعنى الأكثر تحديداً حَمَامُ الأَمْصار الذي كثيراً ما تَغْنَى وتباهى به أَهْلُ مَكَّة (والناس يقولون : آمَنُ من حمام مكة) <sup>(١)</sup> ، وكذلك الحمام الداجن المَذْرَبُ على التوطن في أعمدة أو بروج خاصة . وإلى هذا النوع الأخير كثيراً ما أشار المصنّفون العربُ في القرون الوسطى نثراً ونظماً ، وهو المعروف بالزاجل أو الهَدْي (carrier-pigeons) ، وهو أعلى الحمام قيمةً ، ويُعرف بالحمام الرِسائلي ، وهو الذي كان الملوك يتخذونه لحمل الرسائل المستعجلة . وكان من نتيجة الاتصال بين العرب والروم البيزنطيين في إقليم الثغور على حدود الشام الشمالية أن انتشرت بين العرب هواية «اللعب بالحمام» ، وهي هواية سُرْعان ما تَفُشَّتْ حتى إنها اجتذبت عدداً من الخلفاء العباسيين ، وتنافس فيها الناسُ بالعراق لاسيما بالبصرة <sup>(٢)</sup> . وكالصيد بالبازي ، فإن هواية اللعب بالحمام انتشرت في جميع البلاد الإسلامية ابتداء من القرن الثاني للهجرة/الثامن الميلادي حتى القرن السابع للهجرة/الثالث عشر الميلادي . وكان التسابقُ يدور حول أي الحمام أحسنُ تربيةً وأيه أكثرُ دُرْبَةً على العودة إلى أبراجه من مسافة بعيدة ، أو ما كان يُعَبَّر عنه «من الغاية» .

(١) الجاحظ : كتاب الحيوان ٣/١ ص ٤٥٨ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٣٩١/١٤ ، ٨٩/٢ .

أما عن معنى كلمة (الزاجل) فإن ابن سيده يقول : زَجَلَ الحمامُ يزجلها زجلاً ، أرسلها على بُعد ، وهي حمام الزاجل . ويضيف بأن من هذا الحمام «النقازات وهنّ السماويات يذهبن في الهواء صُعداً كأنهنّ يُردن السماء من المواضع التي يرتفعن منها حتى يغبن عن العيون . . . . ومنهنّ الهداء ، الواحد الهادي ، وهنّ اللاتي يُدرّسن ويُرفعن من مرحل إلى مرحل حتى يبحنّ من البعد من بلاد الروم وعريش مصر . . . ولا يكون ذلك إلا بالتدرّج والتوطئة من موضع إلى موضع . . . . وقد تفرّس في الهداء منها العلماء والقدماء ذوو الفراسات كما تفرّسوا في الخيل والناس» (٣) .

وقد كذب العرب الأوائل الرسائل العلمية عن الحمام ، ومع أن معظمها لم يصل إلينا ، إلا أننا نعرف عناوينها وشيئاً عن محتوياتها من الإشارات إليها في مؤلفات المصنفين كالجاحظ وابن النديم والقلقشندي والمقريزي . فالجاحظ يقتبس في (كتاب الحيوان) فقرات مطوّلة عن صاحب الحمام وعن اقليمون وعن مثنى بن زهير ، الذي يصفه بأنه إمام الناس في البصرة بالحمام ، وعن البصري . أما القلقشندي فيذكر المقرّ الشهابي بن فضل الله وابن سعيد والقوّاس البغدادي الذي يقول عنه إنه ألف كتاباً عن الحمام للخليفة العباسي الناصر لدين الله ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ورياشه والوشوم التي توشم في كل عضو وألوان الطيور وما يستحسن من صفاتها وبعض المسافات التي أرسلت منها وذكر شيء من نوادرها (٤) . وفي (الفهرست) يذكر ابن النديم (كتاب الحمام) للعالم اللغوي أبي عبيدة و(كتاب أنساب الحمام) و(كتاب ما ورد في تفضيل الطير الهادي) لابن طرحان المغني . كما أن القاضي محي الدين ابن الظاهر ألف كتاب (تمام الحمام) الذي يذكره المقريزي ويقتبس عنه كثيراً في خططه .

أما الحمام فالأمر بالبصرة جلّ فيه وتجاوز الحد ، كما يقول ابن عبد المنعم الحميري الذي يضيف ضمنّ المادة التي أدرجها في معجمه الجغرافي عن البصرة : «وبلغت الحمام عندهم في الهدى ان جاءت من أقاصي بلاد الروم ومن مصر إلى البصرة . . . . وقيل إنه بلغ بالبصرة ثمنُ لطائرٍ منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . . . . وعندهم دفاتر بأنساب

(٣) ابن سيده : المخصص ١٧٠/٨ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ٩٠/٢ .

الحمام كأنساب العرب»<sup>(٥)</sup> . وينقل الجاحظ عن صاحب الحمام قوله : «والذي تشتمل عليه دواوينُ أصحاب الحمام أكثرُ من كتب النسب التي تضاف إلى ابن الكلبي . . . إلى دغلة بن حنظلة . . . بل إلى شربة الجرهمي»<sup>(٦)</sup> . ويذكر الحميري أن الأجلاء والفقهاء لم يكونوا يستنكفون عن التنافس في الحمام والإخبار عنه حتى إن أهل البصرة وجَّهوا إلى «بكار بن قتيبة البكراني قاضي مصر ، وهو منهم ، وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكنْ عليه قاض ، بحمائمٍ لهم مع قوم ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه ان يتولى إرسالها بنفسه ففعل»<sup>(٧)</sup> .

وكان بوسع المرء التعرفُ على مبلغ ثمن الحمام الذي جاء من الغاية في أسواق بغداد والبصرة ، حيث كان يُباع الفرخُ الذكر من هذا الحمام بعشرين دينارا أو أكثر ، والأنثى بعشرة دنانير أو أكثر ، والبيضة بخمسة دنانير<sup>(٨)</sup> .

كان فرخُ حمام الزاجل يلقى عنايةً خاصةً منذ صغره ، فيُدربُ الفرخُ على الصعود على سُلَّمٍ داخل البرج قافراً لتقوى بذلك عضلاته . وتلي مرحلة بداية طيرانه مرحلة تدريبية لكي يعتاد على العودة إلى برجه من تلقاء نفسه . ويحدثنا الجاحظُ عن هذه المرحلة فيقول : «وأولى ذلك أن يخرج على ظهر سطح يعلو عليه ، ويُصب عليه عَلمٌ يعرفه ، ويكون طيرانه لا يجاوز محلته ، وأن يكون علفه بالغداء والعشي ، يُلقي له فوق ذلك السطح ، قريباً من عَلمه المنسوب له ، حتى يألف المكان ويتعود الرجوع إليه . . . ولا ينبغي أن يطير وزوجته معا ، ولكن يُتف أحدهما ويطير الآخر ، ويخرجان إلى السطح جميعا ، ثم يطير الوافي الجناح ، فانه ينازع إلى زوجته ، وإذا عرف المكان ودأره ، ورجع وألف ذلك الموضع ، ونبت ريشُ الآخر ، صنعُ به كذلك . . .»<sup>(٩)</sup> . ويروي الجاحظ قصةَ ملكٍ اقتنى الحمامَ ودربه بحيث كان على علم بكل ما يجري داخل مملكة خصمه ، فأعدَّ هجوماً مباغتاً واستولى على مملكة عدوه «وإنما كان سببُ ذلك كله الحمام»<sup>(١٠)</sup> .

(٥) الحميري : الروض المَطَّار ١٠٧ .

(٦) الجاحظ : كتاب الحيوان ٣/١ ص ٤٧٤ .

(٧) الحميري : الروض المَطَّار ١٠٧ .

(٨) الجاحظ : كتاب الحيوان ٣/١ ص ٤٧٥ .

(٩) الجاحظ : كتاب الحيوان ٣/١ ص ٥٠٠ .

(١٠) نفس المصدر ٣/١ ص ٥٠٥ .



ويسرد الجاحظُ حكايةً تدل على مبلغ ولع الناس بالعراق في زمانه بحمام الزاجل فيقول : « إن أبا أحمد التمار المتكلم » شاهد صاحب حمام في يوم مجيء حمامه من واسط ، وكانت واسط يومئذ الغاية ، فرآه كلما أقبل طائر من حمامه سر ورقص ، فقال له : والله اني لأرى منك عجباً ، أراك تفرح بأزجال حمام من واسط ، وهو ذلك الذي كان ، وهو الذي جاء ، وهو الذي اهتدى ، وأنت لم تنجيء ولم تهتد ، وحين جاء من واسط لم يجيء معه . . . بشيء من جوز ولا بشيء من زبيب . . . ذهب صحيحاً نشيطاً ورجع مريضاً كسلان . . . قفل لي : ما وجهُ فرحك ؟ فقال : فرحي اني أرجو أن أبيعهُ بخمسين ديناراً . قال : ومن يشتريه منك بخمسين ديناراً ؟ قال : فلان وفلان . فقام ومضى إلى فلان وفلان ، فقال : زعم فلان أنك تشتري منه حماماً جاء من واسط بخمسين ديناراً . . . قال : لأنه جاء من واسط . قال : فإذا جاء من واسط ، فلم تشتريه بخمسين ديناراً ؟ قال : لأنني أبيع الفرخ منه بثلاثة دنائير والبيضة بدينارين . . . » (١١) .

### حمام الزاجل في تاريخ المشرق :

يذكر القلقشندي نقلاً عن صاحب (التعريف) قوله إن الحمام أول ما نشأ من الموصل ، وإن أول من اعتنى به من الملوك ونقله من الموصل نور الدين بن زنكي صاحب الشام في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م (١٢) . والواقع أن حمام الزاجل عُرف واستعمل في المشرق قبل أيام الدولة الزنكية بقرون . فأقليم الثغور بشمال بلاد الشام اشتهر بتربية حمام الزاجل واستخدامه في نقل الرسائل منذ القرن الثالث للهجرة / التاسع الميلادي . وكان بحصن الحجر قرب أنطاكية وبمعاقل الثغور كربطرة والمصيصة وأضنة رجال مهروا في تدريب الحمام جماعاتٍ وفردى حسب الحاجة . وكان يُعهد بتدريب حمام الزاجل إلى أشخاصٍ يؤثرون بهم لمراقبة أعلام الغاية وتسجيل خطوات التدريب (١٣) .

وقد اهتم بأمر حمام الزاجل عددٌ من خلفاء العباسيين كالمهدي (١٤) .

(١١) نفس المصدر ٣/١ ص ٥٠٨ — ٥٠٩ .

(١٢) القلقشندي : صبح الأعشى ٢/٩٠ ، ١٤/٣٩٠ .

(١٣) فتحي عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية ٢/٣٠٧ .

(١٤) القلقشندي : صبح الأعشى ٢/٨٩ .

(ت ١٦٩هـ/٧٨٥م) والوائق (ت ٢٣٢هـ/٨٤٧م) والناصر لدين الله (ت ٦٢٢هـ/١٢٢٥م) الذي أعاد العمل ببريد الزاجل (pigeon post) ، ولكن ذلك لم يلبث أن اختفى بعد غزو المغول للعراق (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) .

وأول مرة سجّل فيها نقلُ حمام الزاجل لخبر هام هو ما ذكره المسعودي عن نقل الحمام للخليفة المعتصم بالله العباسي ببغداد نبأ الظفر بياك الحرّميّ اذ يقول : «وأطلقت الطيورُ إلى المعتصم وكُتب بالفتح ، فلما وصل اليه ذلك ، ضجّ الناسُ بالتكبير ، وعمّهم الفرح ... وكُتب الكُتبُ إلى الأمصار بالفتح»<sup>(١٥)</sup> . كان ذلك في سنة ٢٢٣هـ/٨٣٧م . وكان بابك هذا ثائراً فارسياً اقضّ مضجعَ الدولة في خلافتي المأمون والمعتصم ، واعتصم بمقلّ جبليّ منيع في مقاطعة أذربيجان ، ومن معقله هذا كان يبعث بأتباعه إلى كافة أنحاء الدولة مما هدّد طرق التجارة وقوافل الحجيج وأشغل جانباً كبيراً من الجيش الخلافي لحاربه ، وكان في الوقت ذاته يتلقّى العونَ والتأييدَ من امبراطور الروم ثيوفيل نكايةً بالدولة العباسية . وعلى يد الأفشين قائد المعتصم تمّ الاستيلاء على معقل بابك وتدميره ، ونقل بابك أسيراً إلى بغداد حيث مثّلَ به وُصِّلَ . ولما تخلّص المعتصمُ من بابك تفرّغ لحاربة الروم وقاد بنفسه غزواته الشهيرة التي استولى فيها على مدينة عمورية ودكها<sup>(١٦)</sup> .

وفي القرن الرابع للهجرة/العاشر الميلادي ، لجأت فرقُ الباطنية من الشيعة إلى استعمال حمام الزاجل في المراسلات ، فقد استعان به عبدُ الله بن ميمون في نقل الأخبار إلى أنصاره ، كما استعان بحمام الزاجل زعيمُ القرامطة في العراق وابن حوشب في اليمن وأبو عبد الله الشيعي في المغرب . لما دخل القرامطة البصرة أخبروا الناس بتولية ابن الفرات الوزارة وعزل حامد بن العباس قبل وصول الخبر إلى البصرة بأربعة أيام مستعينين في ذلك بالحمام<sup>(١٧)</sup> .

وذكر مسكويه عند حديثه عن بَجْكم التركي (منتصف القرن الرابع للهجرة/العاشر

(١٥) المسعودي : مروج الذهب ٤٦٩/٣ . Hitti, *History of the Arabs*, p. 323

(١٦) Lombard, *The Golden Age of Islam*, p. 152.

(١٧) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ... ٢٧٦/٣ — ٢٧٧ .

الميلادي) أن طائراً سقط «فصادره غلمان يحكم وجاءوا به إلى مولاهم ، فوجد على ذنبه كتاباً ، ففريء فاذا هو كتاب من كاتبه إلى اخيه يعرفه فيه انخدار يحكم ومن أنفذ على الظهر من الجيش ، وسائر أسرارهم وعزائمهم . فلما وقف عليه يحكم عجب واغتاز ، وأحضر هذا الكاتب ورمى اليه بالكتاب ، فسقط في يده ، ولم يُمكنه جحده لأنه بخطه المعروف» فاعترف بذلك وقُتل (١٨) .

ويذكر القلقشندي بأن الفاطميين (٢٩٧-٥٦٧/هـ-٩١٠-١١٧١ م) اهتموا بالحمام لنقل الرسائل وبالفوا ، حتى أفردوا ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . ويُروى أن العزيز بالله ثاني خلفاء الفاطميين بمصر (حكم ٣٦٥-٣٨٦/هـ-٩٧٥-٩٩٦ م) ذكر لوزيره يعقوب بن كلّس أنه ما رأى ثمر القراصية البعلبكية وأنه يجب أن يراها ، فإكان من الوزير إلا أن كتب بطاقةً يأمر فيها مَنْ بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ويعلق في كل طائر حبات من القراصية ، فطلع بها إلى العزيز من يومه (١٩) . كما ان الوزير اليازوري وزير المستنصر بالله الفاطمي (حكم ٤٢٧-٤٨٧/هـ-١٠٣٦-١٠٩٤ م) وجّه الحمام من مدينة تونس إلى مصر (٢٠) .

وفي فترة الحروب الصليبية استخدم الأيوبيون حمام الزاجل للاتصال بالمسلمين أثناء حصار الصليبيين لهم برا وبحرا في مدينة عكا عام ٥٨٦/هـ-١١٩٠ م . ويحدثنا بهاء الدين ابن شداد صاحبُ سيرة صلاح الدين وقاضي عسكره عن ذلك فيقول : «هذا ، والكتبُ متواصلة من عكا ومنا إليها على أجنحة الطيور» (٢١) . وفي حوادث سنة ٥٨٦ هـ يقول ابن شداد : «وصل كتاب طائر في طي كتاب ، وصل من محروسة حماة ، قد طار به الطائر من محروسة حلب ، يذكر فيه أن البرنس صاحب انطاكية (وكان آنذاك بوهند الثالث) خرج بعسكره نحو القرايا الإسلامية لشن الغارة عليها ، فبصُرْتُ به العساكر . . . فكنت الكثناء وخرجوا عليه ، فلم يشعر بهم إلا والسيف وقع فيهم . . .» (٢٢) .

(١٨) نفس المصدر ٢٧٧/٣ ، نقلًا عن مسكويه : تجارب الأمم ٤١٢/١ وما بعدها .

(١٩) القلقشندي : صبح الأعشى ٩٧/٢ ، ٣٩١/١٤ .

(٢٠) نفس المصدر ٩٧/٢ ، ٣٩١/١٤ .

(٢١) ابن شداد : النوادر السلطانية والحاسن اليوسفية ١٣١ .

(٢٢) نفس المصدر ١٤٣ .

ويحدثنا جوافيل (Joinville) ، مؤرخُ الملك الفرنسي لويس التاسع (القديس لويس) بأنه لما نزل الملك الفرنسي—في الحملة الصليبية السادسة التي قادها بنفسه—إلى البر في دمياط (٢١ صفر ٦٤٧هـ/ ٥ يونيو ١٢٤٩ م) «أظلمت السماء فترة من الزمن» (for a moment the sky was darkened) بسبب أسراب الحمام التي طيرها الأهالي لإبذار السلطان الصالح نجم الدين أيوب بالخطر الذي يهدد مدينتهم<sup>(٢٣)</sup> .

ومما يُذكر في هذا الصدد أن من جملة ما أخذه الصليبيون عن المسلمين أثناء الحروب الصليبية ونقلوه إلى أوروبا كيفية تدريب حمام الزاجل واستخدامه في نقل المعلومات العسكرية<sup>(٢٤)</sup> .

والمعروف أن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (حَكَم ٦٥٨ — ٦٧٦هـ/ ١٢٦٠ — ١٢٧٦ م) قام بدور بارز في الجهاد ضد الصليبيين والمغول على السواء ، وحقق عليهم انتصارات باهرة . وقد بادر بعد هذه الانتصارات إلى ترميم القلاع التي دمرها المغول من حمص إلى حوران وزودها تحوطاً بالمؤن والذخائر . ومع ذلك كان يرى بأن هذه الإجراءات غير كافية ، ولذلك فإنه حرص على إبلاغ تعليقاته لتوابعه وقواده بسرعة ، وعلى تلقي أنبائهم بنفس السرعة . فأنشأ لهذا الغرض بريداً منتظماً كان ينقل إليه المعلومات مرتين في الأسبوع من كافة أنحاء الدولة . وفي العادة كان يستغرق وصول الرسائل من دمشق إلى القاهرة أربعة أيام ، وأما في الحالات المستعجلة فإن الأنباء كان ينقلها إليه حمام الزاجل . وكان على الموظف المختص ، والمعروف باسم البَراج أو البطاقي ، أن يحمل الرسائل بنفسه ويسلمها فور وصول الحمام إلى السلطان شخصياً ، حتى ولو كان متجرداً من ثيابه . وبالطبع فإنه كان لهذا الإهتمام البالغ أثره على رجال الدولة الذين اقتصدوا بسلطانهم من حيث النشاط واليقظة . وقد جعل الظاهر بيبرس من القاهرة مركزاً لتربية حمام الزاجل اقتنى فيه ما يقرب من ألفي طائر كانت تحمل علامة الدولة (داغ)<sup>(٢٥)</sup> .

El<sup>2</sup>, III, s.v. hamam, p. 111. (٢٣)

Hitti, *History of the Arabs*, p. 664. (٢٤)

Mayer, H.E., *The Crusades*, p. 269. (٢٥)

El<sup>2</sup>, I, s.v. Baybars I, p. 1125.

## حمام الزاجل في تاريخ المغرب :

حرص امراء الأغالبة في إفريقية (حكموا في الفترة ١٨٤ — ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ — ٩٠٩ م) على استعمال حمام الزاجل لنقل الرسائل ، وكانت ثمة محطات أو مراكز للحمام مدرجة على طول ساحل افريقية / شرق المغرب ، محاذية للرباطات أو المحارس على طول الساحل ، وكان يُقصد بها تأمين وصول الرسائل المستعجلة من أمراء الأغالبة في القيروان والبيم ، خصوصاً فيما يتعلق بغارة قد يشنها الروم على الساحل . ولعل اسم بلدة الحمامات (بتخفيف الميم الأولى) ، كما يقول ف. فيراي F. Viré ، دليل حي على وجود مثل تلك المراكز على الساحل (٢٦) .

وفي أثناء الحملة المظفرة التي قادها القاضي أسد بن الفرات من سوسة لغزو جزيرة صقلية وانتزاعها من أيدي الروم البيزنطيين (صيف سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م) ، اتخذ الأغالبة من جزيرة قوصرة (بانتلاريا حالياً) ، بين المهديّة وصقلية ، محطة لمراكبهم ونصبوا بها مركزاً هاماً لحمام الرسائل في المخابرة السريعة (٢٧) . واحتفظت جزيرة قوصرة بمركزها الحربي في عهدي الأغالبة والعبيدين نظراً لتوسط موقعها بين إفريقية وصقلية ، وكان بها محطة لحمام الرسائل لنقل المعلومات السريعة بين البر الإفريقي والأساطيل (٢٨) .

وفيما يتعلق باستعمال حمام الزاجل في فترة حكم العبيدين الذين خلفوا الأغالبة على إفريقية ، يذكر ابن عذاري ضمن حوادث سنة ٢٩٨ هـ / ٩١١ م أن عبيد الله المهدي كتب إلى عامله بطرابلس يأمره بقتل ابن زاكي تمام بن مبارك الأجنبي لاشتباهاه في ولائه . فبعث عامل طرابلس في ابن زاكي ، وكان عمه ، ثم عرض عليه كتاب عبيد الله . فلما قرأه أبو زاكي قال له : يا عمّ ، نفّذ ما أمرت به . فقدّمه وضرب عنقه ، وكتب إلى عبيد الله بخبر قتله مع حمام وصل إلى رقادة (قرب القيروان) من ساعته (٢٩) .

ومن حوادث سنة ٣٠١ هـ / ٩١٣ — ٩١٤ م ، يذكر ابن عذاري أن عبيد الله الشيعي

(٢٦) El<sup>2</sup>; III, s.v. hamam, p. 110.

(٢٧) حسن حسني عبد الوهاب : وولات ٢٨٩/٢ .

(٢٨) نفس المصدر ٢٩١/٢ .

(٢٩) ابن عذاري : البيان المغرب ١٦٤/١ .

أخرج حباسه بن يوسف بالجيوش في حملة تأديبية إلى المشرق ، فكان كلما دخل مدينة فتك بأهلها وصادر أموالهم . ومثل ذلك فعل بجماعة بمدينة برقة (يعني المرج) وجدهم يلعبون بالحمام ، فقال : «ان هذه الحمام كانت تأتيهم بالأخبار من قِبل بني العباس» ، فأمر لذلك بقتلهم (٣٠) .

ونجد اشارات تاريخية وأدبية إلى استعمال حمام الزاجل في الأندلس في القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر الميلادي . فالى استعمال الحمام يعود الفضل في احتفاظ الأمير الزيري باديس بن حبوس صاحب غرناطة بمدينة مالقة بعد ان انتزعها المعتمد بن عباد ، لفترة قصيرة ، من أيدي بني زيري إثر هجوم مباغت شنه على المدينة بالتواطؤ مع أهلها عام ٤٥٩هـ/١٠٦٧م . وكما يقول الفتح بن خاقان (٣١) فان مالقة سقطت في يد المعتمد الا قصبته فانها امتنعت بطائفة من السودان المغاربة . . . وفي أثناء امتناعهم طُيروا إلى باديس من ذلك خبرا «فأرسل في الحال كتيبة عليها قائده ابن النابة الذي باغت جنود بني عباد وأوقع بهم ، ونجا المعتمد بن عباد بصعوبة ولاذ معتصما بحصن رُنْدَه المجاور .

وبعد أن عزم السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين على نجدة أهل الأندلس لدفع الخطر الذي دامهم من جانب النصارى ، ألحَّ على المعتمد بن عباد صاحب اشيلية بإخلاء الجزيرة الخضراء ليتخذها قاعدة لقوات المرابطين القادمة من عدوة المغرب ، فاعتذر المعتمد بادية الأمر عن تلبية الطلب . «فلم يكن إلا كلمح البصر وإذا بمائة شرع قد أطلت على الجزيرة ، قطير ابنه (يزيد الراضي) الحمام إليه ، فأمره بإخلاصها» (٣٢) .

وعلى أثر انتصار المسلمين في وقعة الزلاقة الشهيرة (يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ/٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م) ، تناول المعتمد بن عباد صاحب اشيلية «ظفارة كاغدٍ على عرض الإصبع وكتب فيها سطرين إلى ابنه الرشيد : اعلم انه التقت جموع المسلمين بالطاغية ادفنش اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين ، والحمد لله رب العالمين . فأعلم بذلك من قبلك من إخواننا المسلمين والسلام . وكان عند الزوال من يوم الجمعة ، وعلّق الظفارة من جناح حمام كان احتمله معه لهذا الحال . فكان الناس بإشيلية اقتط ما

(٣٠) ابن عذاري : البيان المغرب ١/ ١٧٠ .

(٣١) ابن خاقان : قلائد العقبان ١٨ .

(٣٢) المقرئ : نفع الطيب ٥/ ٣٧٨ .

كان في ذلك اليوم ، فوصل الحمام من يومه وقرئت على الناس بمسجد اشيلية ، فعمّ السرور وكثر الدعاء (٣٣) .

ويروي العماد الإصفهاني الكاتب ان المعتصم بن ضُباح صاحب المربة (ت ٤٨٤هـ / ١٠٩١ م) تذكر في بعض منتزهاته حظية ، فهذه الشوق إليها فكتب على جناح طائر تحية :

وحملت ذات الطوق مني تحيةً تكون على أفق المربة مجمرًا (٣٤) .

ويذكر ابن الأثير في جملة حوادث سنة ٤٨١هـ / ١٠٨٨ — ١٠٨٩ م انه بسبب غارات المسلمين على سواحل جزيرة صقلية أعد الروم (٣٥) وحلفاؤهم من البيشانيين (أي أهل بيزة) والجنوبيين وهم من الفرنج اسطولا من أربعائة قطعة واجتمعوا بجزيرة قوصرة وفكتب أهل قوصرة كتابا [إلى الأمير الزيري تميم بن المعز بن باديس صاحب المهديّة] على جناح طائر ، يذكرون وصولهم وعدّدهم وحكمهم على الجزيرة (٣٦) .

وفي حوالي منتصف القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي ، كانت دولة بني زيري في المهديّة قد تفككت واعتراها وهنٌ شديد ، واستقلّ في قابس بعد وفاة صاحبها مولى له اسمه يوسف ، ولما نازعه الحسن بن علي صاحب المهديّة (حكم ٥١٥ — ٥٤٣هـ / ١١٢١ — ١١٤٨ م) ، أرسل يوسف هذا إلى روجر الثاني صاحب صقلية (حكم ١١١١ — ١١٥٤ م) ينشد مساعدته على أن يكون تابعا له ونائبا عنه في قابس . وحدث أن يوسف صاحب قابس أرسل رسولا إلى الملك روجر الثاني بصقلية ، فاجتمع هو ورسول الحسن صاحب المهديّة عنده ، فجرت بين الرسولين مناظرة ، فذكر رسول يوسف الحسن وذمّه ثمّ انها عادا في وقت واحد وركبا البحر كل واحد منهما في مركبه . فأرسل رسول الحسن إلى صاحبه رقعة على جناح طائر يخبره بما كان من رسول يوسف ، فسير الحسن جماعة من أصحابه في البحر ، فأخذوا رسول يوسف

(٣٣) مؤلف مجهول الإسم : الحلل الموشية ٥٠ .

(٣٤) العماد الإصفهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ٨٨ .

(٣٥) يقصد بالروم النورمان الذين انتزعوا السيادة على جزيرة صقلية من أيدي المسلمين بعد حروب دامت ثلاثين عاما (٤٥٤هـ — ٤٨٤هـ / ١٠٦١ — ١٠٩١ م) .

(٣٦) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٤٧/٨ . أناري : المكتبة العربية الصقلية ٢٧٢ .

وأحضره عند الحسن ، فسبّه وقال : ملّكت الفرنج بلاد الإسلام ، وطوّلت لسانك بدمي ، ثم أركبه جملاً وعلى رأسه طرطور يجلاجل وطيف به في البلد ، ونودي عليه هذا جزء من سعي أن يملك الفرنج بلاد المسلمين . فلما توسط المهديّة ، ثار به العامة فقتلوه بالحجارة وصلبوا جسده (٣٧) .

ولما ستولى الحسنُ على قابس وأسر صاحبها ، غضب روجر الثاني لما حلّ بتابعه ، وعزم على غزو المهديّة مفتتاً فرصة ضعف صاحبها وسوء الأحوال الاقتصادية في إفريقية بسبب توالي أعوام الجفاف ، وأعدّ لذلك أسطولاً ضخماً سار من صقلية فوصل جزيرة قوصرة حيث صادفوا بها مركبا وصل من المهديّة ، فأخذ أهله وأحضره بين يدي جرجي (٣٨) مقدّم الأسطول ، فسألهم عن حال إفريقية . ووجد في المركب قفص حمام ، فسألهم هل أرسلوا منها شيئاً فحلقوا أنهم لم يرسلوا شيئاً . فأمر الرجل الذي كان الحمام صاحبه أن يكتب بخطه انتالما وصلنا جزيرة قوصرة وجدنا بها مراكب من صقلية ، فسألناهم عن الأسطول المخدول ، فذكروا أنه أقلع إلى جزائر القسطنطينية . وأطلق الحمامُ فوصل إلى المهديّة ، قسّر الأمير الحسن والناس . وأراد جرجي بذلك أن يصل بفتة . وقدّر وصولهم إلى المهديّة وقت السحر ، إلّا أن ريحا هائلة هبّت فأخّرت وصولهم أثناء النهار (٢ صفر ٥٤٣/١٢٢٢ يونيو ١١٤٨ م) ، فرأهم الناس . ولما رأى جرجي أن الخديعة فاشته ، أرسل إلى الأمير الحسن يقول : انا جئت بهذا الأسطول طالبا بثأر محمد بن رشيد صاحب قابس ورده إليها ، وأما أنت فبيننا وبينك عهود وميثاق إلى مدة . . . (٤٠) . ومع ذلك فإن الحسن رحل عن

(٣٧) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٩/٩ . المكتبة العربية الصقلية ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٣٨) هو جورج الانطاكي (ت ١١٥٢/٥٤٦ م) ، كان قد هاجر من بلاد الشام والتحق بخدمة الأمير الزيري تميم بن المعز الذي حكمه في دخله وخرجه ، وكان يبيد العربية . فلما مات تميم (١١٠٧/٥٠١ م) خاف الانطاكي من يحيى بن تميم فاتصل بصاحب صقلية الذي دبر له قطعةً فر من المهديّة على ظهرها . وقد عمل في بلاط رجار الثاني سفيراً ومقدماً على الاسطول نحو أربعين عاماً . وهو الذي استولى على طرابلس (١١٤٦/٥٤١ م) ثم المهديّة (١١٤٨/٥٤٣ م) وغيرهما من مدن الساحل الافريقي ، وقد أفاد في حروبه ضد المسلمين بما سبق أن اكسبه من معلومات وخبرة عملية عن طبوغرافية إفريقية وأحوال سكانها . (أنظر رحلة التجاني ص ٢٣٣) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٩/٩ . أماري : المكتبة العربية الصقلية ٢٩٣ .



المهدية متخاذلا ، وتسلمها النورمان ، وبذلك انتهت دولة بني زيري في إفريقية بعد نحو  
قرون من قيامها في سنة ٩٧٢/٨٣٦٢ م .

## رسائل حمام الزاجل ومدارجه :

كانت الرسائل التي يحملها حمام الزاجل تُكتب على ورق رقيق جدا يُعرف باسم ورق  
الطير ، وكانت الرسائل تُعطر إذا كانت تتضمن أنباء سارة ، أما الرسائل التي تحوي أنباء  
سيئة فكان الحمام الذي ينقلها يُسود ريشه بالسُخام . وكالبرقيات في أيامنا هذه ، كان  
الإيجاز الشديد من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها حمام الزاجل ، فيستغنى فيها عن  
الهوامش وعن عبارات البسلة أو التقديم أو الألقاب ، ولا يرد فيها ذكر السنة ، بل  
يكفي بذكر اليوم والشهر . وكانت الرسائل تُكتب بخط دقيق عُرف بالغبار لأنه يشبه  
ذرات الغبار ، وتُختتم بعبارة (كني بالله هاديا) . وكانت هذه الرسائل تُطوى وتُشد إلى  
جناح الحمامة أو إلى ذنبها على أن لا تُعيق طيرانها . وكانت الرسائل في العادة تُرسل دون ذكر  
أي عنوان ، ومن صورتين مع حامتين تُطلق إحداها بعد فترة قصيرة من إطلاق الحمامة  
الأخرى ، حتى إذا ضلّت إحداها أو هلكت أمكن الاعتماد على وصول الحمامة الأخرى .  
كما جرت العادة بأن لا يُطلق الحمام في الجو العاصف أو المطر ، ولا قبل تغذيته الغذاء  
الكافي . وإذا حدث أن وقع الطائر في يد شخص غير الشخص المُرسَل إليه ، ترتب على  
ذلك الشخص أن يعتني بالحمام فيطعمه ويسقيه ويكتب على ظهر الرسالة بإيجاز ما قام به ،  
ثم يُطلق الحمام لاستئناف رحلته<sup>(٩١)</sup> .

وكان حمام الزاجل يُدرج من القاهرة إلى أسوان وعيذاب على ساحل البحر الأحمر ،  
ومن القاهرة إلى السويس . وكان أهل أبراج الحمام في مصر يرفع قلع الجبل التي كان يُدرج  
منها حمام الرسائل إلى سائر أنحاء مصر والشام . وكانت مسارح الحمام تتشعب من أبراجه في  
غزة إلى سائر المدن الفلسطينية كالحليل والقدس و نابلس . وكان الحمام يُدرج من غزة إلى

(٩١) العبادي : في التاريخ العباسي والفاطمي ٩٦ .

El<sup>2</sup>, III, s.v. hamam, p. 111,

حسن ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ٢٣٢ — ٢٣٣ .

دمشق عن طريق اللد وقاقون وجنين ويسان واربند . ومن دمشق كانت تتشعب مسارجُ الحمام إلى حمص فحماة فالمرّة فحلب ، ومن حلب إلى تدمر (٤٢) . .

وقد انتهى تدريجياً استعمالُ حمام الزاجل لنقل البريد المستعجل خلال القرن التاسع للهجرة/ الخامس عشر الميلادي ، فالقلقشندي المتوفى سنة ١٤٢١/١٤١٨ م يقول : « وقد تعطل تدريجُ الحمام الآن » (٤٣) .

وهكذا فإن الدور الهام الذي كان يضطلع به حمامُ الزاجل في نقل الأنباء والمعلومات على وجه السرعة في البلاد الإسلامية طوال القرون الوسطى هو أشبه ما يكون بدور البريد الجوي في يومنا هذا . ولعلَّ عبارة (طير برقية) و(على الطائر الميمون) هما مما وصلنا من عبارات ترجع إلى أيام استخدام حمام الزاجل في نقل الرسائل المستعجلة . وقد كان حمامُ الزاجل عوناً لصاحب البريد في الدولة الإسلامية للقيام بواجباته الخطيرة التي يُستدل عليها من لقبه الكامل وهو (صاحب البريد والأخبار) ، فهو فضلاً عن كونه مسؤولاً عن المراسلات البريدية الرسمية بين العاصمة والأقاليم كان عيناً للخليفة أو الأمير في الجهة التي يعمل فيها ، يزوده منها بانتظام بأخبار الولاة والعمال ، ويوافيه بتقارير عن أحوال الإقليم الاقتصادية (٤٤) .

---

(٤٢) القلقشندي: صبح الأعشى ١٤/٣٩٢ — ٣٩٣ .

(٤٣) نفس المصدر ١٤/٣٩٤ .

(٤٤) Hitti, p. 325.

El<sup>2</sup> = The *Encyclopaedia of Islam* (New Edition), Vol. I, 1960, Vol. III, 1971, London-Leiden.

Hitti, P.K., *History of the Arabs*, London 1943.

Lombard, M., *The Crusades*, Oxford 1972.

ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، الجزء آن الثامن والتاسع ، بيروت ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .

ابن خاقان ، الفتح : قلالة الطيآن ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .

ابن سيدة : المخصّص في اللغة ، السفر الثامن ، بيروت (بدون تاريخ) ، ابن شداد : النواحر السلطانية والهامص اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ .

ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الأول ، ليدن ١٨٤٨ — ١٨٥١ .

أماري ، م : المكتبة العربية العقلية ، ليسك ١٨٥٧ .

التجاني : رحلة التجاني ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٣٧٨ هـ / ١٩٥٨ م .

الجاحظ : كتاب الحيوان ، المجلد الأول ( الجزء الثالث ) ، بيروت ١٩٦٨ .

حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي ... ، الجزء الثالث ، القاهرة ٦٥ - ١٩٦٦ .

حسن ، حسن إبراهيم بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٠ .

الحميري : الروضُ المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ .

العبادي ، أحمد مختار : في التاريخ العباسي والفاطمي ، بيروت ١٩٧١ .

عبد الوهاب ، حسن حسني : وثائق في الحضارة العربية الإفريقية التونسية ، القسم الثاني ، تونس

. 1977

عثمان ، فتحى : الحدود الإسلامية البيزنطية ، الكتاب الثانى ، القاهرة (بدون تاريخ) .

القلقشدي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الجزء الثاني ، والرابع عشر ، القاهرة (بدون تاريخ) .

المسعودي : مروج الذهب ، الجزء الثالث ، بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٦ م .

المقرى : نفع الطيب ، الجزء الخامس ، القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٩ م .

مؤلف مجهول الاسم : الحُلل المؤشبة ، تحقيق علوش ، الرباط ١٩٣٦ .

مَكْتَبَةُ الرِّسَالَةِ لَدُنْ سَيِّدِ الْمُرْتَضَى

# قيام عمر بن حفصون وبنيه ببيشتر (Bobastro) على الإمارة الأموية بقرطبة

(٢٦٧ — ٨٣١٥ / ٨٨٠ — ٩٢٨ م)

تمهيد

تعاقب على الإمارة الأموية بقرطبة في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة / التاسع للميلاد ثلاثة أمراء هم محمد بن عبد الرحمن ، وابناه المنذر وعبد الله . وفي هذه الفترة ، شهدت البلاد قيام أكثر من خمسة عشر ثائراً في كافة أنحاءها ، وكان معظم هؤلاء المتترين من المولدين ، وعلى رأسهم بنو قسي أصحاب الثغر الأعلى ، وابن مروان الجليبي في ماردة ثم بطليوس في الثغر الجوفي ، وعمر بن حفصون في حصن بيشتر (Bobastro) بكورة ربه في الجنوب ، إلا أن بعض هؤلاء القائمين على إمارة قرطبة كانوا من العرب ، كبنو حجاج في إشبيلية ، وبنو نجيب في سرقسطة ، وبني صقالة وسوار بن حمدون في غرناطة بكورة البيرة .

إن هذه الظاهرة — ظاهرة انتشار الثورات — تلفت النظر وتدعو الى تفصي أسبابها . يقول لسان الدين بن الخطيب : « والسبب في كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه . الأول منعة البلاد وحصانة المعقل وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين . . . ، والثاني علو الهمم وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، إذ كان من تحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض ، والثالث الاستناد عند الضيقة والاضطرار الى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصراني الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض » (١) . ولعل من أهم أسباب هذه الظاهرة كذلك ضعف

(١) ابن الخطيب : أفعال الأعلام ص ٣٦ .

الحكومة المركزية ، وتباين الأجناس والمِلل وظلاماتها . كما في كورة البيرة حيث كان أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي ، والي الأندلس ١٢٥هـ / ٧٤٣ م ، قد أنزل جند دمشق «وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة»<sup>(٢)</sup> .

وتكتسب ثورة عمر بن حفصون أهمية خاصة لطول مدتها ، إذ استمرت نحو نصف قرن ، ولترعمه المولدين والعجم في كورة ربه مما أضفى على حركته طابعاً عصبياً وقومياً ، وقرب كورة ربه من مقر الإمارة بقرطبة ، وكثرة مداخلاته وأحلافه في داخل الأندلس وخارجها ، مما زاد من خطورة هذه الحركة .

وقد استحوذت هذه الثورات على اهتمام المؤرخين الأندلسيين ، فصنّفوا فيها كتباً . فابن حزم القرطبي في رسالته عن فضائل أهل الأندلس يقول : «رأيتُ فيها أخبارَ عمر بن حفصون القائم بربه ووقائمه وسيره وحروبه . وتاريخ آخر في أخبار عبد الرحمن بن مروان الجَلْبُقي القائم بالجوف ، وفي أخبار بني قسي والتجيين . . . وكتابُ أحمد بن فرج في المترين والقائمين بالأندلس وأخبارهم»<sup>(٣)</sup> . بيد أن هذه المصنّفات لم تصلنا ، ومصدرنا الرئيسي عن ثورة ابن حفصون مصنّفات أعدائه التي اعتمد عليها شيخُ مؤرخي الأندلس أبو مروان بن حيّان في كتاب (المقتبس) — الجزء الثالث والخامس — وفيه يقتبسُ ابن حيّان عن أحمد بن محمد الرازي وابنه عيسى ، وعن محمد بن مسعود صاحب (الأنبي) ، وعريب بن سعد ، وابن القوطية ، وكلهم من رجال البلاط الأموي ، وعلى ذلك فإن رواياتهم تُمثلُ وجهةَ نظر واحدة ، مما يستدعي شيئاً من الحذر والتحفّظ عند استعمالها .

وفي بحثنا هذا ، سنحاول تتبعَ حركة عمر بن حفصون وأبنائه من بعده ، من بدايتها الى سقوط بيشتر في يد الأمير عبد الرحمن الثالث (٣١٥هـ / ٩٢٨ م) ، على أن نقفَ عند أبرز الأحداث والتطورات لإبداء بعض الملاحظات حولها ، وبخاصة أبعاد ما كان لابن حفصون من اتصالات ومدخلات مع الدول التي تعاقبت في الشمال الإفريقي — الأغالبة في القيروان ، والأدارسة في شمال المغرب الأقصى ، والعبيديون في افريقية .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة ١/ ١٠٩ . ابن الأبار : الحلة السراء ١/ ٦٣ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ٦/ ٤ — ١٦٧ .

عمر بن حفصون : نشأته وبدأة ثورته في إمارتي محمد بن عبد الرحمن  
(٢٣٨ — ٢٧٣هـ / ٨٥٢ — ٨٨٦ م)

وابنه المنذر (٣ — ٢٧٥هـ / ٦ — ٨٨٨ م)

هو عمر بن حفصون — المعروف بحفص — بن عمر بن جعفر الإسلامي ، الذي ينحدر من أصل قوطي ، وكان جد جعفر الأعلى يحمل اسم الفونسو ولقب كونت . وقد أسلم جعفر — جد والد عمر — في بداية افتتاح العرب للأندلس . وكانت الأسرة تمتلك مزرعة بالقرب من مدينة مالقة ( في طریشيلا Torrecilla جنوب شرقي رندة في رأي ليفي — بروفنسال ، لا في حصن أوط Aute كما ذكر دوزي<sup>(٤)</sup> ) ، فرمها والد عمر بعد أن قتل ابنه — وكان حاد الطبع — ابن أحد جيرانه ، ونزح مع أسرته الى منطقة جبال رندة (Serrania de Ronda) واستقر عند سفح جبل بُبشتر. يذكر ابن القوطية أن عامل كورة ريه (Regio/Reiyo) ضرب عمر بالسياط لفساد أحدثه ، ففر الى تهرت عاصمة الرستمين ، وصار فيها عند خياط أصله من كورة ريه حيث بقي أربعين يوما ، ثم أسرع بالعودة الى موطنه . ويوصف عمر وهو في تهرت بأنه غلام ، أي أنه كان في حدود السابعة عشرة من العمر على الأكثر ، وهذا يمكننا من إعطاء تاريخ تقريبي لولادته ( حوالى سنة ٢٥٠هـ / ٨٦٤ م ) ، كما انه يوصف بأنه كان «أفضّ الثنية» ، أي مفروق الأسنان ، لا فاقد لإحدى أسنانه كما حَسِبَ دوزي<sup>(٥)</sup> . ومع أن عودة عمر من تهرت كانت نتيجة لنصيحة أحد زبائن الخياط الذي كان يعمل عنده عمر ، كما يذكر ابن القوطية ، إلا أن إشارة نفس المصدر إلى أن عمر عاد لتوه خوفاً من أن يقبض عليه بنو أبي اليقظان أصحاب تهرت — «وللأولهم لبني أمية» — إشارة جديرة بالملاحظة ، ولعل هذا هو السبب الحقيقي لعودة ابن حفصون<sup>(٦)</sup> . فن المعروف أن العلاقات بين أمراء بني أمية بقرطبة والأئمة الرستمين بتهرت كانت وثيقة جداً طوال القرن

(٤) ليفي — بروفنسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ٣٠١/١ . دوزي : تاريخ مسلمي إسبانيا ص ٣١٦ .

(٥) دوزي ، ص ٣١٧ .

(٦) ابن القوطية : تاريخ التاج الأندلس ص ١١٠ .

الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد ، بسبب المصالح السياسية والاقتصادية التي كانت تربطها .  
 أم المصالح السياسية ، فتقوم على مناهضتها للأغالبية أمراء بني العباس في القيروان ، ثم إن  
 التجارة بينهما كانت نشطة وبخاصة التجارة عبر الصحراء عن طريق تيهرت إلى السودان  
 الغربي . يقول ابن الخطيب في هذا الصدد إن الأمير محمد بن عبد الرحمن «اعترفت»  
 بطاعته تاهرت وسجلماسة»<sup>(٧)</sup> . ويضيف ابن عذاري أن محمد بن أفلح صاحب تيهرت  
 كان «لا يقدم ولا يؤخر في أموره ومعضلاته إلا عن رأيه [الأمير محمد بن عبد الرحمن] ،  
 وكذلك بنو مدرار بسجلماسة»<sup>(٨)</sup> .

عاد ابن حفصون إلى عمه الذي جمع له نحو أربعين رجلا ، احتل بهم حصن بُشْتُرُ  
 الواقع ما بين رُنْدَة ومالقة ، إلى الغرب قليلا من إلتشورو (El Chorro)<sup>(٩)</sup> .  
 وهو حصن قديم منيع . يقول ابن سعيد : «قلعة بُشْتُرُ بين رُنْدَة ومالقة . وقد وقفت عليها ،  
 وهي خراب ، وكانت من أمنع قلاع الأندلس ، لا ترام ، ولا يخشى من فيها إلا من  
 الأجل»<sup>(١٠)</sup> . ويضيف الحميري أن الحصن يقع «على صخرة صماء منقطعة ، بها بابان  
 يتوصل إلى أعلاهما من شغب يسلكه الرجل الحقيف ، وطريقه عند الطلوع والهبوط على  
 النهر [وادي الحرش ؟ Guadalhorce] . وأعلى الصخرة سهلة مربعة ذات مياه  
 كثيرة تقطع الحجر ، فينبعث الماء العذب . وحصن بُشْتُرُ كان قاعدة العجم ، كثير  
 الديارات والكنائس والدواوير . ولهذا الحصن قرى كثيرة وحصون خطيرة ، وما حوله كثير  
 المياه والأشجار والثمار والكروم وشجر التين وأصناف الفواكه والزيتون . وما بها الآن إلا بُذْ  
 مما كان ، فان فتنة ابن حفصون أتت على أكثر ذلك»<sup>(١١)</sup> .

من هذا الحصن المنيع ، أخذ عمر بن حفصون في شن نوع من حرب العصابات  
 وقطع الطرق (٢٦٧هـ / ٨٨٠ م) ، وهزم عامل الأمير محمد على كورة ريه ، وتمادى في  
 شره ثلاث سنوات ، إلى أن استنزله القائد هاشم بن عبد العزيز بعد تأمينه ، وأحضره إلى

(٧) أعمال ص ٢٢ .

(٨) ابن عذاري : البيان المغرب ١٦١/٢ .

(٩) ليني — برونسفال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٣٠٣/١ ، حاشية رقم ١ .

(١٠) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ٥٣/١ .

(١١) الحميري : الروض المطار ص ٣٧ .

قرطبة وأكرمها، وألحقها بالحشم، وغزا معه إلى الثغر الأعلى في حملة قادها هاشم ضد محمد ابن لب القسوي وألفونس الثالث ملك أشطوريش، وأبلى فيها ابنُ حفصون بلاءاً حسناً. وبعد عودته إلى قرطبة، وما لقيه من سوء معاملة على يد صاحب المدينة، محمد بن غانم، وكان خصماً لهاشم، قرأ ابنُ حفصون في العام التالي إلى بُيُشتر واستولى على الجبل من العريف التجوي الذي كان قد نصبه هاشم، وأخذ جارية العريف المعروفة بالتجوية وتزوجها. واتسعت منطقة نفوذه، وسيطر على كافة الحصون والمعاقل بين بُيُشتر والساحل «حتى ملك ما بين الجزيرة وتدمير» (١٢).

ولعل النداء الذي وجهه ابنُ حفصون إلى سكان كورة ربه وما جاورها يفسر اتساع منطقة نفوذه وازدياد عدد أنصاره، ففي هذا البيان، قال ابنُ حفصون: «طالما عنت عليكم السلطان، وانتزع أموالكم، وحملكم فوق طاقكم، وأذلّتكم العرب واستعبدتكم، وانما أريد أن أقوم بثأركم وأخرجكم من عبوديتكم» (١٣). وكان سكان كورة ربه في معظمهم من المولدين حديثي العهد بالإسلام، كما أن كثيراً من القرى والمعاقل كان وقفاً على العجم من أهل الذمة في كورة ربه والكور المجاورة (١٤). وعلى ذلك، فإن ابن حفصون تزعم المولدين والعجم ضد سلطة الأمير الأموي بقرطبة، وضد الجماعات العربية التي استقرت في كور الجنوب منذ بداية الفتح العربي، وحظيت بامتيازات وإنجازات لم تُرق للمولدين وأهل الذمة من العجم (١٥).

ومع أن المؤرخين الأندلسيين يذكرون أن أتباع ابن حفصون كانوا من شطّار الناس وشرارهم، وأنه لاجتذابهم إليه كان يمتنهم بفتح البلاد وبالعنائم، إلا أنهم مع ذلك يذكرون عدداً من الخصال التي تحلّى بها ابنُ حفصون وحبّته إلى أنصاره، فقد كان «متواضعاً لألأفئه، شديد الغيرة حافظاً للحرمة... ولقد كانت المرأة في أيامه نجيء بالمال والمتاع من بلد إلى بلد منفردة لا يعترضها أحد... وكانت عقوته السيف... لا يطلب

(١٢) ابن القوطية ص ١١٢.

(١٣) ابن عذاري ١٧٢/٢.

(١٤) ابن حوقل: صورة الأرض ص ١٠٦. عبد الله بن يلقين: التبيان ص ٩٤. ابن حيان:

المقتبس ١٧٩/٥. الحميري: الروض المطار ص ١٤٤.

(١٥) ابن الخطيب: الإحاطة ١٠٨/١ - ١١٣، المعجم البلدي ص ٢٦.



على ذلك شاهداً أكثر من الشكوى . وكان يأخذ الحق من ابنه ، ويبرّ الرجال ويكرمُ الشجعان ، وإذا قلدز عليهم عفا عنهم » (١٦) .

وفي السنة الأولى من ولاية الأمير المنذر (٢٧٣هـ/٨٨٦م) ، اتسع نطاق غارات ابن حفصون ، فشمل قبرة وعدة حصون في كورتي البيرة وجبان ، لا بل إنه أسر عامل الأمير على باغهُ (Priego) (١٧) . وكان الأمير المنذر بعد شهر من ولايته قد قتل وزير أبيه وقائد هاشم بن عبد العزيز لضغينة شخصية ، مما أوهن الإمارة ، ولعل هاشماً — وكان على علاقة طيبة بابن حفصون — كان بإمكانه ترضية ابن حفصون واستترأله قبل استفحال ثورته (١٨) .

وفي العام التالي لولايته ، نازل المنذر ابن حفصون في قامرة من عمل ربه . وتظاهر ابن حفصون بقبول الطاعة « على أن يكون عند الأمير من خاصة جنده وقطان قرطبة بأهله وولده » ، وسأل مائة بغل لحمل متاعه من حصن بيشتر ، فأمر المنذر له بذلك ، وانسحب العسكر ، إلا أن ابن حفصون نكث عهده ففر من قامرة الى بيشتر ليلاً ، وأخذ البغال واستأنف الثورة . وعاد الأمير الى محاصرة بيشتر وتوفي في الحصار بعد ثلاثة وأربعين يوماً من بدايته ( صفر ٢٧٥هـ/يونيو ٨٨٨م ) (١٩) .

**تفاقم خلاف عمر بن حفصون في عهد الأمير عبد الله بن محمد**

( ٢٧٥ — ٣٠٠هـ/٨٨٨ — ٩١٢م )

**أ — الى وقعة بُلاي (٢٧٨هـ/٨٩١م)**

توفي الأمير المنذر محاصراً لابن حفصون في بيشتر ، وقد يكون سُمّ بتدبير أخيه عبد الله (٢٠) . وعلى أثر وفاته ، تفرق العسكر وعجز عبد الله عن ضبطه ، وتعرض الأمير

(١٦) ابن عذاري ١٧٢/٢ .

(١٧) المصدر السابق ص ٢ — ١٧٣ .

(١٨) المصدر السابق ص ١٧٣ .

(١٩) ابن عذاري ١٧٩ — ٧/٢ . ابن الخطيب : افعال ص ٣١ .

(٢٠) ابن عذاري ٢٣٣/٢ .

الجديدُ والنفرُ اليسير الذي بقي معه لهجات ابن حفصون ، مما جعل الأمير عبد الله يناشده الكفَّ عن ذلك لتمكينه من نقل جثان أخيه ودفنه في قرطبة ، فأوقف ابنُ حفصون عملياته بعض الوقت . ومحاولةً من لأمر الجديد إرضاء ابن حفصون وتهديته ، ولأه في أولى سني إمارته كورة ربهُ مشركاً معه عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ، فأظهر عمرُ قبوله ، واستمسك بالطاعة شهوراً ، ثم انتقض ، واستأنف الغاراتِ وقطعَ السبلَ في كورة ربهُ والكور المجاورة ، لا بل وحتى أبواب قرطبة ، مما جعل أهل الحاضرة يضجون إلى الأمير من هذه الغارات ، التي أدت إلى قطع المواصلات إلى قرطبة وبالتالي إلى تدني الأوضاع الاقتصادية فيها ، لانقطاعها عن بقية الكور . وهزم عمرُ جيشاً للأمير بكورة إستجة وقتلَ قائده ، ثم طردَ عاملَ الأمير عن كورة ربهُ وانفرد بها ، وأخذ يرنو بصره إلى أخذ قرطبة ذاتها ، أي إلى تولي الإمارة بنفسه .

وفي هذه الفترة ، شبت الفتنة ما بين العرب من جهة ، وبين المولدين والعجم ، وبخاصة في كورة البيرة ، واستعملوا العصية ، وقام المولدون ونصارى الذمة بدعوة عمر ابن حفصون<sup>(٢١)</sup> . وفي بادئ الأمر ، قام عربُ البيرة بزعامة يحيى بن صقالة بالثورة على الأمير عبد الله ، وبعد مقتل يحيى رأسُ العربُ عليهم سوار بن حمدون في صدر سنة ٢٧٦هـ / صيف ٨٨٩م ، وانضوت إليه بيوتاتُ العرب من كورة ربهُ والبيرة وجيان ، وأوقع بجعد ، عاملَ الأمير عبد الله على البيرة وأسرهُ ، فاستعطفه الأمير وشاركه في ولاية البيرة ، فأطاع سوار ، وتحول إلى مهاجمة حصون ابن حفصون ، وأوقع بالمولدين في البيرة - وقعة المدينة - مما جعلهم ينحازون إلى ابن حفصون ويستنصرونه ، ويخضعون طاعةً للأمير عبد الله . وقد هزمهم سوار ، وجرح ابنُ حفصون ، ولأذ بحصنه ببشتر . ولعلَّ ابنَ حزم يشير إلى ذلك إذ يقول ، إن يحيى بن ضريس الصنهاجي صدم ابنَ حفصون فأبطل يده بالضربة المشهورة ، فلم يأكل ابنُ حفصون يمينه بعدها ، وعاش بعد ذلك نحو ثلاثين سنة<sup>(٢٢)</sup> . ثم لم يلبث أن قتل سوار غيلةً في كمين نصبه له قائدُ ابن حفصون ، بعد أن ظلَّ عاماً في رئاسة العرب في كورة البيرة . وولي إمارةً عرب غرناطة بعد مقتل سوار بن حمدون صاحبه سعيد بن جودي إلى أن قتل هو الآخر غيلةً بعد ذلك بسبع سنوات ، على أيدي بعض أصحابه (٢٨٤هـ / ٨٩٧م) . ولما أثمرت غرناطة سعيداً ،

(٢١) ابن حيان : المقنيس ٥٠/٣ .

(٢٢) ابن حزم : جمهرة أنسان العرب ص ٩٠ . ابن الخطيب : أفعال الأعلام ص ٣٢ .

خاطبوا الأمير عبد الله يسألونه العقد له عليهم ، ففعل . وجدَّ سعيدُ بن جودي في حرب ابن حفصون ، وتعصَّب للعرب قومه ، فقصدوه من كل كورة « وهابه ابنُ حفصون هبةً لم يَهبها أحداً مَنَّ مارسه ، إذ لم يَلْقَه قطُّ إلا علاه وهزمه . ولقد دعاه في بعض أيامهم الى المباراة ، فلم يُجِبْهُ ابنُ حفصون اليها ، وحاد عنه . وواجهه يوماً في بعض أيام الجلالد . . . فعلاه سعيد ، وهجم عليه ، فألقى عليه ذراعه واجتذبه الى الأرض ، فأنجاه منه الا أصحابه الذين انقضوا على سعيد ، فتنقذوا عمرَ من يده » (٢٣) .

وفي الوقت نفسه (٢٧٦هـ/٨٨٩م) ، هاجت فتنة أخرى في كورة إشبيلية بين العرب ، بزعامة ابني خلدون وإبراهيم بن حجاج ، وبين المولدين ، وكانت وقعة العرب بالمولدين في إشبيلية شبيهة بوقعة عرب غرناطة على المولدين والعجم (٢٤) .

وانتزى في نفس العام بسرقسطة على الأمير عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبي وقتل عامل الأمير ، ومع ذلك ، فإن الأمير عبد الله أقره في ولايته (٢٥) .

وفي هذه الأثناء ، ظلَّ ابنُ حفصون يوسِّع من رقعة سيطرته ونفوذه ، منتزحاً فرصة ضعف الأمير عبد الله ، فاستولى على حصن إسطبة وحصن أشونة ، واستدعاه أهلُ إسججة ، واختلق عذراً للأمير على ما فعل ، وسأله الولاية على ما في يده « فاستمسك الأمير برأيه في الدفع بالتالي هي أحسن ، وأجابه الى مراده » ، فكانت هذه ولاية عمر الثانية (٢٦) .

ولما جهَّز الأمير حملةً ضد سعيد بن مسننة المستري في باغُه ، وأشرك ابنُ حفصون فيها ، غدره ابنُ حفصون وتواطأ مع ابن مسننة ، وتظاهر بالقتال . ثم استولى ابنُ حفصون على وادي آش وعلى غرناطة « عُش العرب » ، كما استولى على حصن ييانة ، وعلى حاضرة جيان ، ثم على حصن بلاي المنيع (Poley) ، الذي عُرف فيما بعد باسم أجويلار (Aguilar) (٢٧) ، الواقع غربي قبرة والمطل على كنبانية قرطبة . وازدادت الحالة

(٢٣) المقنيس ٣٠/٣ . ابن الأبار : الحلة السراء ١٥٥/١ .

(٢٤) المقنيس ٨٥/٣ .

(٢٥) المنذري : ترويح الأخبار ص ٣٥ — ٣٦ .

(٢٦) المقنيس ٥٤/٣ .

(٢٧) دوزي ص ٣٥٦ ، الحاشية رقم ١ .

الاقتصادية بقرطبة سوءاً ، وأصبح ابنُ حفصون يسيطر على كافة الحصون والمعقل الجنوبي نهر الوادي الكبير ، «وأقامتُ حاضرتا البيرة وجيَّان شاعرتين لا عاملَ للأمير عبد الله عليهما» (٢٨) .

وحدث أن لجأ إلى ابن حفصون في حصن بُلاي آنذاك شَرَبَنْد (Servando) ابنُ حجاج القومس من قرطبة «لحقدٍ احتمله على الأمير في حبس أخيه بذنبٍ اقترفه» ، فرحَّب به ابنُ حفصون ، وعهدَ اليه بشنُّ الغارات المتوالية على أحواز قرطبة ، فصيرَّها كطرفٍ من أطراف الثغر ، وهلك في إحدى هذه الغارات ، وقتلَ الأمير أباه وصلَّبه إنتقاماً (٢٩) . ولم يكنْ لانهيار شَرَبَنْد لابن حفصون صدى يُذكر لدى النصارى المستعربة في قرطبة (٣٠) .

وما زاد الوضعَ سوءاً الخلافاتُ داخل الأسرة الحاكمة . ففي سنة ٢٧٦هـ / ٨٩٠ م ، وعلى أثر نزاعٍ بين ولدي الأمير ، وليَّ العهد محمد وأخيه المُطَرِّف ، قرَّر محمد ، والدُّ عبد الرحمن الناصر ، ولجأً عند ابن حفصون في حصن بُيَشْتَر ، ثم أمَّنه والدُّه فعاد إلى قرطبة . إلا أن أخاه المطرف ظلَّ يغري به ، ويزعم أنه يخاطب ابنَ حفصون ويدخله للقيام على أبيه ، ومع أن شيئاً من ذلك لم يثبت ، إلا أن المُطَرِّف أقدم على اغتيال أخيه (١٠ شَوَّال ٢٧٧هـ / ٢٣ يناير ٨٩١ م) (٣١) . وبعد ذلك بضع سنوات ، قتلَ الأمير عبدُ الله ابنه المُطَرِّف . ولا شك في أن كلَّ ذلك أضرَّ بهيئة الأمير وسلطته .

ويمكن القول إن عمرَ بنِ حفصون بلغ ذروة سَطوته ونفوذه في عام ٢٧٨هـ / ٨٩١ م ، اذ كان يسيطر عندئذ على كل المعقل والمدن الجنوبي نهر الوادي الكبير ، ولم تُعدْ سلطةُ الأمير في موسطة الأندلس مدينةً قرطبة التي طمع ابنُ حفصون آنذاك في الاستيلاء عليها وتولِّي الإمارة فيها . إذ نراه عندئذ يُظهر الميلَ الى دعوة العباسيين ، فكاتبَ إبراهيمَ بن أحمد الأغلبي (إبراهيم الثاني) ، أمير إفريقية لبني العباس «ولاطفه بالهدايا . وأجابه ابنُ الأغلب ، وكافأه عن هديته ، وطمع فيه» (٣٢) . إن ابنَ حفصون لا شك كان يصبو الى

(٢٨) المقتبس ٩٣/٣ .

(٢٩) المصدر السابق ص ٩٢ ، ١٠٢ .

(٣٠) لثي — بروفتسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ٣٧١/١ .

(٣١) ابن القوطية ص ١٢٤ . المقتبس ١١٢/٥ . الحلة السراء ٣٦٧/٢ . ابن عذاري ٢٢٤/٢ .

(٢٢) المقتبس ٩٣/٣ .

(٣٣) المصدر السابق ص ٩٦ — ١٠٠ .

الاستيلاء على قرطبة ، وتولي إمارتها ، وإضفاء الشرعية على ذلك باعلان ولائه للعباسيين ، وأن يكون لهم في الأندلس أميراً كالأغالبية في أفريقية ، أي أن يكون في الواقع مستقلاً بولاء اسمي للخليفة العباسي .

وفي هذه اللحظة الحرجة ، فإن قرار الأمير عبد الله بالنهوض بنفسه لملاقاة ابن حفصون — مخالفاً في ذلك رأي وزرائه — كان قراراً جريئاً وحاسماً ، بالنسبة لمصير إمارة بني أمية في الأندلس .

خرج الأمير عبد الله على رأس قوة قوامها نحو أربعة عشر ألف رجل ، ومعه قائد العسكر عبد الملك بن عبد الله بن أمية الذي رأى الانحراف عن ابن حفصون نحو المرتفعات القريبة ، فخالفه في هذا الرأي أحمد بن محمد بن أبي عبدة ، الذي رأى لقاء العدو فوراً ودون أي انحراف قد ينشأ عن ضعف ، فأخذ الأمير برأيه . ووقع القتال مع ابن حفصون ، وكان عسكره ضعفاً عسكر الأمير عدداً ، فهزم ابن حفصون في هذه الوقعة المعروفة بوقعة بُلاي (غرة ربيع الأول ٢٧٨هـ / ١٣ يونيو ٨٩١م) وفر إلى حصن بُلاي معتصماً به ، ومنه مضى مسرعاً إلى إستجة ، ومنها إلى قاعدته ببشتر إن انتصار الأمير عبد الله قُرب حصن بُلاي يمكن اعتباره نقطة تحول في تاريخ قيام عمر بن حفصون على الإمارة الأموية ، إذ إن خطره الداهم على كيانهما خف بعده . وحاز الأمير حصن بُلاي ، ومدينة إستجة ، وحاضرة جيان ، ثم حاصر ببشتر وانتسف زروعها ، وأخفق ابن حفصون في الكمين الذي نصبه لقوات الأمير في أحد الشُعاب في طريق عودتها إلى قرطبة . ويشير دوزي إلى أنه بعد الهزيمة التي مُني بها ابن حفصون في بُلاي لم يعد مبعوثوه إلى ابن الأغلب يُستقبلون بحرارة كما في السابق ، وكان يقال لهم إن الأمير مشغول في أفريقية ، بما يتعذر عليه معه التدخل في شؤون الأندلس (٣٤) .

ونوه أهل العسكر باسم أحمد بن محمد بن أبي عبدة بأنه ولي الفتح ، فشكره الأمير وولاه خطة الوزارة والقيادة . وبرز اسم هذا القائد الكفء باستمرار ، ولمدة ثلاث وعشرين سنة ، في قيادة الصوائف ضد المعتزيين وضد جليقية ، وله فضل كبير في تثبيت دعائم الإمارة في هذه الفترة العصيبة من تاريخها . ويوجز صاحب (أخبار مجموعة) أعمال القائد ابن أبي عبدة فيقول<sup>١</sup> وله على ابن حفصون وغيره من الثوار وقائع مشهورة انتصف

(٣٤) دوزي ص ٣٦٧ .

فيها معهم ، وأرى عليهم ، وأخرج ابن حفصون من حصن بلّاي ، وجي بعض نواحي الشرق ، وصالح قوماً آخرين على بَعَثِ أموالِ ضُربت عليهم مع إقرارهم في مواضعهم<sup>(٣٥)</sup> . وقد استشهد القائد ابن أبي عبدة في غزوة قادها ضد جليقية عام ٩١٧/٨٣٠٥ م ، أي في السنة التي توفي فيها عمرُ بن حفصون .

## ب- من وقعة بلّاي الى نصر عمر بن حفصون (٢٧٨ - ٢٨٦/٨٩١ - ٨٩٩ م)

على أثر وقعة بلّاي ، طلب عمرُ بن حفصون السلم ، ثم لم يلبث أن انتقض سريعا ، وكثيرا ما فعل ذلك طيلة فترة عصيانه ، واسترد بعض المدن والمعاقل التي كان قد فقدتها إثر الوقعة . وثار أهلُ حاضرة البيرة واستدعوا ابن حفصون الذي استجاب ، وقتلَ عاملَ السلطان في الكورة ، ثم تقدّم إلى مدينة غرناطة العرب ، فخرج إليه أميرها سعيدُ ابنُ جودي مبتعداً عن باب المدينة ، مما أدى إلى هزيمته . وبعد هذا الانتصار ، قصد ابنُ حفصون حاضرة جيان فتغلّب عليها ، وصارت كورتا البيرة وجيان ، فضلاً عن كورة ريه ، في قبضته بعد عامٍ واحدٍ فقط من وقعة بلّاي . وجهز الأميرُ في العامين التاليين صائفتين ضد ابن حفصون ، واستردّت حاضرة البيرة .

وفي سنة ٢٨٢/٨٩٥ م ، قتل المُطرفُ ابنُ الأمير عبد الله القائدَ عبدَ الملك بن عبد الله بن أمية ، كما كان قد فعل عمّه المنذرُ بالقائد هاشم بن عبد العزيز قبل ذلك بتسع سنوات . ولا شك في أن مثل هذه الأعمال كانت ذات أثر سيئٍ على أوضاع الإمارة وهيئتها .

وقاد أحمد بنُ أبي عبدة عام ٢٨٤/٨٩٧ م صائفة الى الجزيرة الخضراء ، وقبض على من كانوا يحملون الميرة من بر العدو لابن حفصون . وهذا يدل على قيام علاقات اقتصادية بين ابن حفصون وأمرأ الأدارسة في شمال المغرب الأقصى ، فضلاً عن حصوله على الميرة من بر العدو ، كان ابن حفصون يجنّد الرجال لمواصلة غاراته<sup>(٣٦)</sup> .

(٣٥) مؤلف مجهول الاسم : أخبار مجموعة ص ١٥١ .

(٣٦) المقتبس ١٢١/٣ .

وفي عام ٢٨٥هـ/٨٩٨م ، تحالف ابنُ حفصون مع محمد بن لبّ القسوي صاحب الثغر الأعلى ، وهو من المولّدين ، ضد الأمير عبد الله ، واتفقا على الاجتماع في ناحية جيان من عمل ابن حفصون لتتميم المعاهدة . إلا أن ابن لبّ لم يتمكن من الحضور بنفسه لانشغاله بمحاربة محمد بن عبد الرحمن التّجّبي المتزّي بسرقطة ، وأرسل ابنه لبّ ابن محمد للاجتماع بابن حفصون ، إلا أن الاجتماع لم يتمّ إذ عاد لبّ مسرعاً الى سرقطة فور سماعه بمقتل أبيه في ظاهر مدينة سرقطة (رمضان ٢٨٥هـ/اكتوبر ٨٩٨م) (٣٧) . أما العُدري فيقول إن الرسول وافي لبّاً نبأ وفاة أبيه وهو منصرف من غزاة كانت له الى ناحية جيان (٣٨) . وما يُذكر أن جدّ لبّ هذا — لبّ بن موسى — كان اولَ الثائرين على الأمير محمد بن عبد الرحمن ، اذ كان قد انتزى في الثغر الأعلى ، وملك سرقطة وتُطيلة سنة ٢٥٧هـ/٨٧١م ، وقتل عربَ سرقطة من قبائل شتى سنة ٢٦٠هـ/٨٧٤م (٣٩) .

ومن بين كبار الثائرين من المولّدين الذين حالفوا ابنَ حفصون وظاهروه ضد الأمير عبد الله : عبد الله بن أُمّة بن الشالّة المتزّي بجبل شُمْتان وما يليه من كورة جيان ، الذي والى ابنَ حفصون وزوّج ابنته من جعفر بن عمر بن حفصون (٤٠) ، وبكرُ بن يحيى بن بكر المتزّي بشنت مرّة ، والذي تعصّب للمولّدين والعجم وواصل حليفه ابنَ حفصون والجلّعي (٤١) ، وخيرُ بن شاكِر الذي قام بدعوة المولّدين والعجم على العرب في ناحية كورة جيان (٤٢) ، وظاهر ابنَ حفصون ضد سوار بن حمدون ، وسعيدُ بن هذيل الثائر بحصن المُتِلون (Monteléon) بكورة جيان ، وقد عاهد عمرَ بن حفصون (٤٣) ، وسعيدُ بن وليد بن مستنة الثائر بكورة باغّه ، وقد مال مع العجم على العرب وحالف ابنَ حفصون (٤٤) .

(٣٧) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٣٨) العُدري ص ٣٦ .

(٣٩) المصدر السابق ص ٣١ .

(٤٠) المقتبس ٩/٣ — ١٠ .

(٤١) المصدر السابق ص ١٦ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤٣) المصدر السابق ص ٢٤ .

(٤٤) المصدر السابق ص ٢٦ .

## ج — تنصر عمر بن حفصون (٨٢٨٦/٨٩٩ م)

في سنة ٨٢٨٦/٨٩٩ م « أظهر عمر بن حفصون النصرانية ، وباطن العجم نصارى الزمة واستخلصهم وأبدىهم وفضلهم وتعصب على المسلمين وأساء الظن بهم »<sup>(٤٥)</sup> . وكان من نتيجة ذلك أن تخلى عنه بعض أنصاره من المولدين كعوسجة بن الخليج التاكرني الذي خرج عليه وحاربه ، ويحيى بن أنثلة من أصحابه الأثريين عنده . ولما ارتد ابن حفصون عن الإسلام ، أعلن الفقهاء ، الجهاد ضده ، وفقد الكثير من هيئته لدى المسلمين ، وأخذ المؤرخون يشيرون إليه باسم الكافر المرتد والمُلحد والمُشرك ، وإلى بُيُشتر ببشتر الردة وقاعدة الشرك ، كما أن الغزوات تواصلت ضده صيفاً وشتاء ، بقيادة أحمد بن محمد ابن أبي عبدة . ويقال إن عمر اتخذ لنفسه بعد ارتداده اسم صامويل (Samuel) ، كما أن زوجته اتخذت اسم كولومبة (Columba) ، وترهنت ابنتها أرجنتية (Argentea) والتحقت بأحد الأديرة<sup>(٤٦)</sup> . كما جد ابن حفصون في تشييد الكنائس ، وعول على النصارى دون المسلمين .

إن نية التنصر والارتداد عن الإسلام بالنسبة لعمر بن حفصون ترددت كثيراً بعد نحو ثلاثين سنة ، أي بعد سقوط بُيُشتر والقضاء على حركة آل حفصون ، إذ تبين بعد نبش قبره ، كما تقول المصادر الأندلسية ، أنه دُفن على سَنَةِ النصارى ، كما أن اهتمامه بتشيد الكنائس وإقماره للمساجد اعتبراً من أقوى الأدلة على رده<sup>(٤٧)</sup> . أضف إلى ذلك أن ابنه وخليفته جعفر أبلغ نصارى بُيُشتر بعيد وفاة أبيه أن والده كان يدين بالنصرانية « وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره »<sup>(٤٨)</sup> .

وفي المقابل ، نجد ابن الخطيب يشير إلى قضية تنصر ابن حفصون بقوله « عول على النصارى ، وتقلد — زعموا — دينهم دين آبائهم »<sup>(٤٩)</sup> . إن من المستبعد أن يكون عمر ابن

(٤٥) المصدر السابق ص ١٢٨ .

(٤٦) دوزي ص ٣٨٥ . لثي — بروئنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية ١/٣٧٧ .

(٤٧) المقتبس ٦/٥ — ٢١٧ .

(٤٨) المصدر السابق ص ١٣٩ .

(٤٩) أعمال الأعلام ص ٣٢ .



حفصون قد أعلن على الملأ إرتداده عن الإسلام ، إلا أن من الجائز ، كما ذكر ابنه جعفر ، أن يكون قد اعتنق النصرانية وكَمَّ ذلك دون إعلانه . وإلا فكيف يمكن التوفيق بين ارتداد ابن حفصون وقيامه في الوقت ذاته بالخطبة لابراهيم بن القاسم ابن ادريس صاحب البصرة وأصيلا ، ثم قيامه بالتحالف مع ابراهيم بن حجاج الزعيم العربي المتغلب على اشبيلية ، وقيامه بعد ذلك بوضع سنوات بالدعوة للشيعه العبيديين؟ أضف إلى ذلك أنه لو كان أمرُ ارتداده صحيحا ، لاستغله الأمير عبد الله اكبر استغلال في حينه ، لإثارة حمية المسلمين ضد ابن حفصون .

ومها يكن من أمر ، فان موقف ابن حفصون بعد « تنصره » إن دلَّ على شيء فانما يدل على الانتهازية وعدم الثبات في شخصيته ، إذ بادر بعد ذلك الى الاتصال بمختلف الجهات بغية التحالف معها لتقويض الإمارة بقرطبة . فضلاً عن مداخلاته مع بني قسي والفونس الثالث ملك أشطوريث وليون ، اتصل ابنُ حفصون بابراهيم بن القاسم بن ادريس صاحب البصرة وأصيلا بشمال المغرب الأقصى ، ليخطب له في المساجد القائمة في الأراضي الخاضعة لسيطرة ابن حفصون في الأندلس (٥٠) .

وفي العام التالي (٢٨٧هـ/٩٠٠م) ، تحالف ابنُ حفصون مع ابراهيم بن حجاج المتتزي باشبيلية ، وهو من زعماء الأرسقراطية العربية ، لابل وصاهره (٥١) ، لرد اعتباره عند المسلمين بعد ما قيل عن تنصره (٥٢) . وكان ابراهيم بن حجاج قد استقلَّ باشبيلية في أواخر عام ٢٨٦هـ/أوائل ٩٠٠م ، بعد أن فتك بشريكه في الحكم من آل خلدون ، ثم عاقد ابنُ حفصون « فصار كل واحد منهما يُمدُّ لصاحبه إذا استمده (٥٣) » ، واتفقا على الاحتلال بقرطبة ذلك العام ، وأمدَّ ابنُ حجاج ابنَ حفصون بالمال والرجال فقويت شوكة

(٥٠) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٥٠ . لثي — بروثسال : تاريخ اسبانيا الاسلامية ٧/١ — ٣٧٨ .

(٥١) هوثي ميراندا ، الفصل الخاص عن الأندلس في المجلد 2A ، ص ٤١٥ .  
Cambridge History of Islam

(٥٢) دوزي ص ٣٧٤ .

(٥٣) المقتبس ١٢٩/٣ .

ابن حفصون<sup>(٥٤)</sup> . فبعث اليه ابنُ حجاج قائداً خيله العربي الشريفَ فجبل بن أبي مسلم الشدوني ، فأحرز وابنُ حفصون انتصاراً مبدئياً على قوات الأمير ، مما قوى من أمل ابن حفصون في احتلال قرطبة ، ولما أعاد ابنُ حفصون اللقاء مع قوات الأمير بقيادة ابن أبي عَبدَةَ — مخالفاً بذلك نصيحةَ فجبل له بعدم معاودة اللقاء — باء ابنُ حفصون بالفشل والهزيمة . وعلى الأثر ، قتل الأميرُ عبدُ الله ابنَ أنخي عمر المرتينَ عنده ، دون عبد الرحمن ابن ابراهيم بن حجاج ، الذي أفرج عنه ، وأعيد مُكرِّماً الى أبيه ابراهيم ، لا بل وسُجِّلَ له في حياة أبيه على اشيلية ، وسُجِّلَ لأخيه على قرمونة<sup>(٥٥)</sup> . فاستجاب أبوهما الى الطاعة ، واشترط على ذلك أن يحلَّ ما بينه وبين ابن حفصون من المناصرة والمعاونة فقط ، وأما الصداقة والمواصلة فلم يُجبْ إلى حلِّها ، نظراً منه لنفسه ورعيته ، فرضي [الأمير عبد الله] منه بذلك<sup>(٥٦)</sup> . وكان من نتائج هذا الاتفاق بين الأمير عبد الله وابن حجاج ، ان تحسَّنت أحوالُ قرطبة الاقتصادية بانفتاح طريق إشبيلية والغرب إليها .

لقد فقد عمرُ بن حفصون زمامَ المبادرة في السنوات العشر الأخيرة من حياة الأمير عبد الله ، ولم يتوقَّفْ في أحلافه ، وبفضل نشاط القائد أحمد بن محمد ابن أبي عَبدَةَ استردَّ الأميرُ جيَّان ، وأرشدونه وبَسْطَةَ<sup>(٥٧)</sup> ، وواصلت قواتُ الأمير غزوها لناحية بُيْشْتَر ، فأفسدت الزروعَ وأحرقت الكنائس ، والضباعَ القريةَ منها .

## د — عمر بن حفصون والعبيديون

ومما يدلُّ على انتهازية ابن حفصون وتطلُّعه الى مناصرة خصوم أمراء قرطبة ، أيًا وأتى كانوا ، مبادرته الى الاتصال بالعبيديين فورَ قيام دولتهم بافريقية ، بالرغم من كون أهل

(٥٤) ابن عذاري ٢/ ١٩٠ ، ٢٠٤ .

(٥٥) العذري ص ١٠٣ .

(٥٦) المقنيس ٣/ ١٢٩ — ١٣١ .

(٥٧) لثي بروقتسال : تاريخ إسبانيا الإسلامية ١/ ٣٧٩ — ٣٨٠ .

الأندلس من أخلص أتباع المذهب السني المالكي. ففي سنة ٢٩٧هـ/٩١٠ م «خاطب [عمر بن حفصون] ملوك الشيعة بأفريقية، أصداد الأموية، ووجهوا اليه رجلين ممن يعتقد مذهبهم بخلعات، وخاطبوه بالخص على التزام طاعتهم وإقامة دعوتهم، وأقاما عنده حتى حضرا كثيراً من حروبه، وصرفها، ووجه معها هدية انتخبها إلى صاحبها» (٥٨). إلا أن عبيد الله المهدي لم يكن في السنوات الأولى من حكمه في وضع يمكنه من تقديم أي عون مادي لابن حفصون، لانشغال المهدي عندئذ في توطيد حكمه، وقمع الثورات العديدة التي واجهها في القيروان، وتيهرت، وطرابلس الغرب، وصقلية، ثم لانشغاله بالحملات التي شرع في تجهيزها إلى مصر، اذ كان اهتمامه منصرفاً بآديء الأمر إلى محاولة السيطرة على المشرق دون المغرب. ومع ذلك، فإن مداخلته ابن حفصون للعبيدين جعلت الأمير عبد الله — وخليفته الأمير عبد الرحمن الثالث على وجه الخصوص — يضاعف من حملاته لقمع حركة ابن حفصون، والحيلولة دون تعرض الإمارة الأموية في الأندلس لخطر غزو خارجي من قبل العبيدين. ان الفاطميين كانوا سيشكلون خطراً حقيقياً على إمارة قرطبة لو تمت لهم السيطرة على شمال إفريقيا (٥٩). فقد وصلت إلى الأندلس أنباء قيام دولتهم، ونزع اليهم نفر من الأندلسيين. يذكر ابن حزم اسم واحد على الأقل، وهو من بني قسي بالثغر الأعلى — لب بن قسي — ويقول إنه لحق بالشيعة في إفريقية (٦٠).

وفي نفس العام الذي خاطب فيه ابن حفصون العبيدين، جدد تحالفه مع اثنين من كبار الثائرين المولدين القريين من كورة ربه، وهما سعيد بن وليد بن مستنة بكورة باغّه وسعيد بن هذيل بحصن المتلون من كورة جيان، فأخذوا في شن الغارات على الحصون الموالية للأمير. ويلاحظ أنه في إحدى الغزوات، فرّ البربر الطنجيون الذين كانوا في عسكر الأمير، وانحازوا إلى ابن حفصون وحليفه (٦١)، مما يدل على قيام الجانبين يجلب الرجال من بر العدو.

(٥٨) أعمال الأعلام ص ٣٢.

(٥٩) اوكالاهان (O'Callaghan): تاريخ إسبانيا في العصر الوسيط ص ١١٩.

(٦٠) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص ٥٠٣.

(٦١) المقبس ١٤٧/٣. ابن عذاري ٢٢١/٢.

## إمارة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) (٣٠٠ - ٥٣٥٠/٩١٢ - ٩٦١ م)

ولي الأمير الشاب عبد الرحمن بن محمد الحكم بعد وفاة جده عبد الله ، والأندلس تخرج بالثائرين ، وعلى رأسهم عمر بن حفصون «رأس الفتنة بالأندلس» ، ومُضرمُ نارها ، وركنُ العصية للعجم والمولدين»<sup>(٦٢)</sup> . فصرف الأمير الشاب همه إلى استئصال الثائرين بعد طول انتراهم ، الذي شلَّ اقتصاد الإمارة وأوهنها ، خصوصاً بعد ظهور خطر العبيديين ومداخلة ابن حفصون لهم . أما السياسة التي انتهجها الأمير الجديد ، فقد جمعت بين الإدارة والحزم : وجّه نداء لهم بالاستسلام ومثّاهم ، وقاد بنفسه حملات سنوية ضد المخالفين منهم . إن هذه السياسة القائمة على الإدارة أنتت ثمارها ، وكما يقول ابن الخطيب ، فإن الأمير عبد الرحمن كان مبرزاً في هذه السياسة «فهادن طائفة» ، وارتمن أخرى ، واستنزل الى حضرته أخرى ، وغلب بالسيف أخرى ، فاستأثر من بين قومه بالهدو ، وخلو الجهات من الهرج»<sup>(٦٣)</sup> .

ففي السنة الأولى من إمارته ، فُتحت إستجة ، واستسلم سعيد بن هذيل صاحب حصن المتلون (Montelén) الذي كان يتحكّم في المواصلات بين كورتي البيرة وجيان ، وبينها وبين بجانة مرفأ الأندلس القبلي ، كما استسلم عبد الله ابن الشالفة صاحب حصن شمتان ، وهُزم عمر بن حفصون قرب البيرة ، وأسر حفيده عمر ابن أيوب .

وفي السنة التالية (٩١٣/٥٣٠١ م) ، افتُتحت اشيلية التي كان انتري فيها أحمد ابن مسلمة من بني حجاج ، وظاهر ابن حفصون ، وبذلك تمّ القضاء على الحركة الانفصالية التي تزعمها بنو حجاج في اشيلية لمدة عشر سنوات ، وحُرم ابن حفصون من حليف عربي يؤازره ، ويخفف من الضغط عليه .

ودخل الأمير عبد الرحمن مدينة الجزيرة الخضراء (ذو القعدة ٥٣٠١/يونيو ٩١٤ م) «وكان في ساحلها للوارد ابن حفصون وأصحابه عدة من المراكب البحرية يسفرونها إلى

(٦٢) ابن الأبار : الحلة السيّاء ١/١٥٩ .

(٦٣) ابن الخطيب : اعمال الأعلام ص ٣٦ .

ارض العدو في المير والتجارات . . . فيتسعون بها أعظم التوسعة . . . وقد كان الفسقة نجوا بها في البحر . فأدخل الجند خلفهم . . . وقبض عليها ، فقيدت . . . الى ضفة البحر ، وأحرق جميعها بين يديه « (٦٤) . ثم نظر الأمير عبد الرحمن عند مقامه بالجزيرة الخضراء « في إحكام أمر البحر ، وشد ضبطه على اهل العدوئين ، فاستدعى جملة من المراكب البحرية من مالقة واشبيلية وغيرهما . . . فأقامها بباب الجزيرة ، وشحنها بصنوف الأسلحة والعدد ، وأعد فيها النفط وآلات حرب البحر . . . وأمر [العرفاء] بالتجول في السواحل كلها من حد الجزيرة الخضراء الى حد تدمير ، وقطع مرافق البحر كلها عن ابن حفصون وأصحابه ، والا تجري في البحر جارية إلا لأهل الطاعة فقط ، فللك البحر منذ هذا الوقت ، وأمن ضرر السفن المختلفة فيه ، وغلب بذلك على الساحل كله وحصونه ، ومنع الأخاب آله حفصون وأتباعها رقد ذلك « (٦٥) . لقد أولى الأمير عبد الرحمن اهتماماً خاصاً لتعزيز الأسطول ، وأنشأ بالجزيرة الخضراء دار صناعة للأساطيل ، ومنها تغلب ملوك بني أمية على ما تغلبوا عليه من بلاد المغرب (٦٦) .

وهكذا ، فإن هذه التدابير التي اتخذها الناصر في مدينة الجزيرة الخضراء كان من شأنها عزل ابن حفصون ، وقطع الإمدادات عنه من بر العدو ، كما أنها كانت تدابير وقائية ضد خطر العيدين ، وكانت قواتهم قد غزت في سنة ٩١٢/٨٢٩٩ م المغرب وأوقعت بزنانة (٦٧) .

وفي هذه الفترة ، ولمدة ثلاث سنوات ، ثار على العيدين في جزيرة صقلية أحمد زيادة الله بن قُرب ودعا للخليفة العباسي ، كما كان يفعل أمراء بني الأغلب في القيروان . يقول ابن حيان : « فيها [ ٨٣٠٢/٤ — ٩١٥ م ] ترددت الكتابة بين ابن قُرب الأغلي المستري بأرض صقلية على عبيد الله الشيعي . . . وبين الناصر الى إمداده وتقويته ، والناصر يكلوه مستخبراً عن حاله ، ويحبيه شاحداً عزيمته مؤكداً بصيرته ، إلى أن ظهر عبيد الله عما

(٦٤) المقتبس ٨٧/٥ .

(٦٥) المصدر السابق ص ٨٧ — ٨٨ .

(٦٦) الحميري : الروض المطار ص ٧٣ — ٧٤ .

(٦٧) ابن عذاري ٢٢٩/١ .

قليل عليه فزال أمره» (٦٨). إن سياسة الحذر وعدم التسرع التي انتهجها الأمير عبد الرحمن هي نفس السياسة التي انتهجها فيما بعد إزاء أبي يزيد مَخْلَد بن كيداد ، فهي ترمي الى عدم التورط قبل التأكد من وضع الثائرين ، أضف الى ذلك أن ابن قُرْب كان ولاؤه للعباسيين لا لأمراء بني أمية بقرطبة .

وفي العام الثالث لولاية الأمير عبد الرحمن (٨٣٣/٥ - ٩١٦ م) ، خطب ابن حفصون الصلح ، وتولّى مفاوضته بشأنه طبيبُ الناصرووزيرُه يحيى بن إسحاق ، وحاجبُه بدرُ بن أحمد ، وكان صديقاً لعمر موثقاً عنده» (٦٩) . إلا أن في رواية ابن حيان عن ذلك شيئاً من التناقض ، إذ يذكر أن عمر وأبناءه، كانوا غير راغبين في الصلح ، وأنهم حُمِلوا عليه من قِبَلِ أكابر رجال ابن حفصون النصارى، وعلى رأسهم جعفر بن مَقْسِم (Maximo) ، أسقف بِيَشْتَرُ، فقد داخله يحيى بن إسحاق ، فرغبوا عمر في طلب الصلح . ومهما يكن من أمر ، فإن الأوضاع العامة لم تكن في صالح ابن حفصون : ففي ذلك العام انتشر القحطُ ووقع الوباء في الأندلس ، فكان لذلك مع قطع اتصال ابن حفصون ببر العدو أثره دون شك ، كما أن عمر تقدمت به السن ، وضاق الناسُ ذرعاً بتواصل القتال والحصار وانتساف الزرع ، كما أحسوا بسياسة الأمير الحازمة ، التي استهدفت استئزال كافة الثائرين على الإمارة ، وفي مقدمتهم ابن حفصون ، الذي انقطع كذلك أمله في الحصول على مساعدات من العبيديين .

قرر يحيى بن إسحاق مع عمر شروط الصلح ، ومن الغريب أن مؤرخي الأندلس لا يوردون هذه الشروط ، التي يبدو أنها كانت سخيّة لابن حفصون . ويُفهم من روايتهم أن ابن حفصون احتفظ بِيَشْتَرُ وبمائة واثنتين وستين حصناً ، وأن عهدَ الناصر له شمل ذريته من بعده . وبعبارة أخرى ، فإن ابن حفصون احتفظ باستقلاله داخلي كالذي منحه الأمير فيما بعد لآل تُجيب في سرقسطة . ويذكر المؤرخون أن ابن حفصون اغتبط بالأمان وتمسك به حياته ووفى بشروطه . ولما غدر سليمان بن حفصون بعامل الأمير على مدينة ألبدة في العام التالي ، اتهم الأمير أباه عمر بتحريضه على ذلك ، إلا أن عمر تبرأ من التهمة وخرج بنفسه لقتال ابنه ، الى أن استترله وجسه شهوراً في بِيَشْتَرُ . ولما أعاد سليمان الكرة على مدينة

(٦٨) المقتبس ١٠١/٥ .

(٦٩) المصدر السابق ص ٢ - ١١٣ .

أبذة ، حاصره أبوه ثانية الى أن اعتلَّ وعاد الى بُيُشْتَر ، حيث توفي في ١٦ شعبان ٨٣٠٥ / ١ فبراير ٩١٨ م <sup>(٧٠)</sup> ، بعد ثورة استمرت نحو أربعين عاما ، ولعله كان يناهز الخامسة والخمسين من العمر عند وفاته . وقد خلف أربعة أبناء ، تعاقب ثلاثة منهم على تملك بُيُشْتَر : جعفر ، وسليمان ، وحفص . وبعد نزاع فيما بينهم بشأن الوراثة ، آلت الولاية الى جعفر ، الذي حكمَ بُيُشْتَر لمدة ستين ونصف السنة ، أظهر فيها الخلاف على الأمير عبد الرحمن ، ولم يُقدَّر ما فعله أبوه له من الصلح مع الأمير « بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه » <sup>(٧١)</sup> . أما سليمان ، فقد استنزله الأمير عن أبذة ، وشارك الأمير في غزاة له في جليقية .

وفي سنة ٩١٧ / ٨٣٠٥ م ، استولى العبيديون على مدينة نكور ، قرب مليلة ، بعد أن رفض أميرها سعيد بن صالح إطاعة المهدي ، ولجأت ذرية سعيد إلى الأندلس حيث أكرمهم الناصر ، واستقروا بمالقة شهوراً ثم استردوا نكور من أيدي العبيديين في أواخر العام نفسه (٨٣٠٥ / أوائل ٩١٨ م) ، وكتبوا إلى الناصر بالفتح ، فبادر إلى مدّهم بالسلاح والهدايا <sup>(٧٢)</sup> . وما يذكر أن عبد الرحمن ، أخا سعيد بن صالح ، كان قد عبر إلى الأندلس للجهاد أيام فتنة عمر بن حفصون ، فقطع هذا عليه الطريق وقتل من كان معه ، ونجا عبد الرحمن واستشهد في غزو الروم <sup>(٧٣)</sup> .

وتوالت غزوات الأمير عبد الرحمن لبُيُشْتَر والمعاقل التابعة لها ، واستولى على حصن بلّدة ( أنتقيرة Antaquera ) وعلى طُلجيرة قرب بُيُشْتَر ، وأبدى رجالُ جعفر مقاومة شديدة ، إذ برزوا للقتال « كالوحوش المستنفرة » <sup>(٧٤)</sup> .

وفي سنة ٩٢٠ / ٨٣٠٧ م ، أرسل جعفر يطلب الصلح ، فقبل الأمير « تانياً وسبراً لسُقم سريرته » . كما استأمن أخوه عبد الرحمن صاحب حصن طُرش خشين ، فأكرمه الأمير عبد الرحمن وأنزله قرطبة . وكان عبد الرحمن قد خالف أخاه جعفر ، وامتنع في

(٧٠) المصدر السابق ص ١٣٨ .

(٧١) المصدر السابق ص ١٤٠ .

(٧٢) البكري : المغرب ص ٩٦ — ٩٧ .

(٧٣) ابن عذاري ٢٤٧ / ١ .

(٧٤) المقتبس ١٥٣ / ٥ .

الحصن ، فحاربه أخوه حتى لاذ بالأمير عبد الرحمن (٧٥) .

وقام على جعفر طائفة من خاصته فُقتل ( ١٣ جمادى الآخرة ٣٠٨هـ / ٣٠ أكتوبر ٩٢٠ م ) واستدعى المتآمرون عليه أخاه سليمان ، وكان بقرطبة ، فقدم فوراً . إلا أن ابن الخطيب يقول إن عبد الرحمن وحفصاً خالفاً أخاهما جعفراً ، وقام عليه طائفة من خاصته فُقتل ، واستدعى قتلته أخويه سليمان وحفصاً ، فسبق سليمان إلى يُبشتر ، واستأمن الأمير عبد الرحمن ، ثم نكث (٧٦) .

وتوالت غزواتُ الأمير عبد الرحمن على حصون سليمان بكورة ربه . ففي غزوة طُرش ( ٩٢٢هـ / ٩٢٢ م ) احتشد النصارى في حصن طُرش ، وأبدوا مقاومة عنيفة قبل استسلامهم . وأمر الأمير عبد الرحمن بهدم الحصن وأسواره والقاء أحجاره في النهر ، كما أمر ببناء مسجد جامع موضع الكنيسة في الحصن (٧٧) . كما استنزل بنو سعيد ابن مستنة من حصونهم بكورة باغُه . وفي غزوة منت روي ( ٩٢٣هـ / ٩٢٣ م ) ، تم الاستيلاء على الحصن وهدمه . وكان حصنُ مُنت روي حصناً منيعاً كثير السكان من العجم ، وهو متوسط بين كورتَي البيرة وجيَّان ، وعلى قارعة طريق مدينة بَجَّانة . فكان مَنْ سلك ذلك الطريق لا يسلم (٧٨) .

ونزل حفص عن حصن قامرة ، فأمنه الأمير عبدُ الرحمن وأقره في بعض حصونه «لِمَا رآه في ذلك من السياسة ، ووجوه المصلحة فيه وفي الغاوي سليمان أخيه» (٧٩) . أي أن الأمير أراد مداراة حفص لكسبه إلى جانبه ، وللتفريق بينه وبين أخيه .

وفي المغرب ، وبعد فشل الحملتين اللتين جرَّدهما العبيديون للاستيلاء على مصر ،

(٧٥) المصدر السابق ص ١٥٤ .

(٧٦) ابن الخطيب : اعمال الاعلام ص ٣٣ .

(٧٧) المقتبس ١٧٢/٥ .

(٧٨) المقتبس ١٧٩/٥ . يردُ اسمُ الحصن في كتاب (التيان) المتتوري (التيان ص ٨٨ ، ٨٩) .

ويقول ابن الخطيب إن منت روي فيه مدينة فنيانة (اللمحة البيرية ص ٣٠) واهل فنيانة

«عجم ذوو يساره» (الحميري : الروض المطار ص ١٤٤) .

(٧٩) المقتبس ١٨٤/٥ .



حوَّلَ عُيَيْدُ الله نظره إلى المغرب، حيث بدأت حملةٌ جديدة عام ٩٢٤/٨٣١٢ م، ثم فيها الاستيلاء على سجلماسة وإخضاع يحيى الرابع الإدريسي، وعُيِّن موسى بن أبي العافية المكناسي مكانه. إلا أن الأمير عبد الرحمن لم يقف إزاء ذلك مكتوف اليدين، بل عمد بدوره إلى مؤازرة زناته مغراوة ضد أبناء عمومته زناته مكناسة، وعاقت ذلك حروبٌ طويلة للسيطرة على شمال المغرب الأقصى. ثم داخل الأمير عبد الرحمن موسى ابن أبي العافية، واقعه بالتخلي عن العبيدين والانضمام إلى جانبه<sup>(٨٠)</sup>. ولما افتتح الأمير مليلة سنة ٩٢٧/٨٣١٤ م، قام بتحصينها، وولَّى عليها موسى بن أبي العافية<sup>(٨١)</sup>.

وفي بيشتر دبرت مؤامرةٌ ضد سليمان بن حفصون، وخاطب مدبروها القومس كبير النصارى المعاهدين، عامل النصارى بتلك الجهة، فلاحق بهم، إلا أن سليمان انتقم من مدبري المؤامرة<sup>(٨٢)</sup>. إن اتَّخَذَ الأمير عبد الرحمن هذا العامل من النصارى، واتَّخَذَهُ عاملاً نصرانياً آخر، هو ابنُ بَزَنْت، في مدينة أْبْدَة يدلان على أن الأمير عمَدَ إلى هذه السياسة مستهدفاً ترضية النصارى في المنطقة أولاً، ثم للتفريق بين صفوفهم.

قُتِلَ سليمان بن حفصون، بعد أن حكم يُبَشْتَرُ ست سنوات ونصف السنة، خارج يُبَشْتَرُ بعد أن كبا به فرسه (غرة ذي الحجة ٩٣١٤/٧ فبراير ٩٢٧ م)<sup>(٨٣)</sup>.

وخلف سليمان في يُبَشْتَرُ أخوه حفص، وبادر الأمير عبد الرحمن بتشديد الخناق على الحصن، وأمر ببناء الحصون حوله لعزله تماماً، وأهمُّ الحصون المبتناة على يُبَشْتَرُ حصنُ طَلْجيرة — خُلَيْدَة عند ابن الخطيب<sup>(٨٤)</sup> — الذي أقام فيه حاميةً لمراقبة بيشتر «فصار السبب في فتح مدينة بيشتر بعد مديدة»<sup>(٨٥)</sup>.

ولما اشتدَّ الحصارُ على بيشتر، خاطب حفصُ الأمير عبد الرحمن طالباً الصلح، فلم يجب إلا على النزول عن الحصن وتسليمه. إلا أنه يبدو أن ذلك لم يتم إلا بعد عناء

(٨٠) جولين ص ٥٧، ٥٩.

(٨١) البكري ص ٨٩.

(٨٢) ابن الخطيب: أعمال الاعلام ص ٣٢.

(٨٣) المصدر السابق ص ٣٤.

(٨٤) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٨٥) المقتبس ٢١١/٥.

كبير<sup>(٨٦)</sup> . وقد أكرم الأمير عبد الرحمن حفصاً وأشرکه في غزواته في جليقية . أما بيشر ذاتها فقد دخلها وزير الأمير عبد الرحمن أحمد بن محمد بن حدّير ، وسعيد ابن المنذر القرشي في ٢٣ ذي القعدة ٣١٥/١٩ يناير ٩٢٨ م<sup>(٨٧)</sup> .

بعد سقوط بيشر (٣١٥ — ٩٢٨/٣٢٠ — ٩٣٢ م) :

دخل الأمير عبد الرحمن بيشر بعد شهرين من سقوطها لتدبير أمرها . وأمر بنيش قبر عمر بن حفصون ، فتبين أنه دُفن على سنة النصارى ، وأنه ارتد عن الاسلام ، فنقلت جثته إلى قرطبة ، وصُلب بين ابنه الصليبين هنالك قبله : حَكَم وسلیمان . وعُمرت في بيشر المساجد وهدمت الكنائس . ودُمرت الحصون المجاورة لبيشر وُفِرَق أهلها في البسائط كما كانوا أيام الجماعة .

ويذكر الأمير عبد الرحمن في كتابه بفتح بيشر أنه ضبط قصبته العليا فقط لنفسه ، وأحكم تحصينها . ويقول صاحب (أخبار مجموعة) إن الأمير عبد الرحمن حصّن بيشر لتكون عُدّة لنفسه ولولده ، ليلجأوا إليها عند قيام الفتن المرتبة في الأندلس<sup>(٨٨)</sup> . كما أمر الأمير بهدم المسجد الجامع الذي كان اتخذهُ عمر بن حفصون أول قيامه خُدعة لمن كان معه من فسقة المسلمين ، إذ كان أسسه على غير تقوى من الله ، وأنفق عليه من غنائم المسلمين وأسلاهم . وأحرق منبره الذي دُعي عليه لابن حفصون ، وجرى عليه ذكر ولّيه عُبيد الله الشيعي ، الذي كان تشبّث بدعوته<sup>(٨٩)</sup> .

ثم أخرج الأمير القواد إلى جميع الحصون بكورة ربه لتدميرها ، وأجبر أهلها على

(٨٦) أعمال الأعلام ص ٣٤ .

(٨٧) مؤلف مجهول الاسم : تاريخ الناصر ص ٧٥ .

(٨٨) مؤلف مجهول الإسم : أخبار مجموعة ص ١٥٤ . كما فعل الأمير عبد الله بن بلقين ، آخر أمراء بني زيري في غرناطة ، بعد ذلك بنحو قرنين من الزمن ، إذ حصّن المنكب ، وشحنه بالسلاح والمؤن للاشتباك فيه ضد الروم ، على حد قوله ، وإذا تعدّر ذلك ، خرج منه بأهله وذخائره إلى المغرب (التيان ص ١٢٠ ، ١٢١) .

(٨٩) المقبّس ٢١٩/٥ — ٢٢٠ .

التزول إلى السهل ، وعامرة القرى بالبساط ، كما نُفي أهلُ الفتنة ومن يخشى شرهم إلى قرطبة ، وأُجبروا على الإقامة فيها ، ولم يترك أحداً من نصارى الدمة في معقل .

وفي السنة التالية لسقوط بيشتر ، توالى الفتحُ بشرق الأندلس ، واستنزل القائمون في لَقْنَت وكورتِي تدمير وبلنسية ، كما افتتحت ماردة . وفي سنة ٩٢٩/٩٣١٧ م استسلم المتزولون في كلٍّ من باجة وأكشونة ، بغرب الأندلس وانقضت دولة بني قسي في الثغر الأعلى<sup>(٩٠)</sup> . وفي سنة ٩٣٠/٩٣١٨ م ، استسلم عبدُ الرحمن الجليقي المتزري في بطليوس ، والذي ورث إمارته عن أربعة من آبائه<sup>(٩١)</sup> . وبعد حصارٍ دام شهرين ، سقطت طليطلة (٩٣٢/٩٣٢٠ م) .

وهكذا ، فإنه ما إن حلَّ عامُ ٩٣٢/٩٣٢٠ م حتى تمَّ للأمير عبد الرحمن بسطُ سيطرته على كافة أرجاء الأندلس ، وإحلال الأمن في ربوع البلاد «واستقامت له الأندلس بعد نيفٍ وعشرين سنةً من أيامه»<sup>(٩٢)</sup> . ولم يمتنع على الأمير سوى سرقسطة ، التي كان قد تغلب عليها التُجيبون زمنًا طويلا ، وأميرهم عندئذ محمد بن هاشم التُجبي ، فاستأمن الأمير عبد الرحمن بعد حصارٍ للمدينة دام ثمانية شهور (٩٣٧/٩٣٢٦ م) ، وأمنه الأميرُ الرحمن ، وضمن له ولأمرته ولايةً مستمرةً على المدينة ، كما سبق أن فعل مع عمر بن حفصون سنة ٩٣٠٣/٥ — ٩١٦ م .

وبعد عامٍ من سقوط بيشتر ، اتخذ الأمير عبد الرحمن الثالث لنفسه لقبَ الخلافة ، وتسمّى بأمير المؤمنين ، كما تلقب بالناصر لدين الله (ذو الحجة ١٥/٩٣١٦ يناير ٩٢٩ م) ، وكان ذلك بعد أن توطّد سلطانه في الأندلس ، وتدعيماً لمكانته في أعين رعاياه في الأندلس وأنصاره في المغرب الأقصى ، وأهمُّ من ذلك كله الرد على العبيديين الذين اتخذوا لقبَ الخلافة والإمامة لأنفسهم ، بعد أن كان أمراء بني أمية في قرطبة منذ أيام الأمير عبد الرحمن الأول (الداخل) يقتصرون على لقب الأمراء وأبناء الخلائف<sup>(٩٤)</sup> .

(٩٠) العذري ص ٤٠ .

(٩١) المقتبس ٢٧١/٥ .

(٩٢) المقرئ : نفع الطيب ٣٣٠/١ .

(٩٣) المقتبس ٢٤٢/٥ . أعمال الأعلام ص ٣٠ .

(٩٤) المقتبس ٢٤٣/٥ .

وفي نفس السنة ، أمر الناصرُ لدين الله باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة ، لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فأصبحتُ دنانيرُهُ عياراً محضاً (٩٥) .

وفي المغرب ، اتبع الناصرُ لدين الله سياسةً اجتذاب لمواجهة خطر العبيديين في «معركة بسط النفوذ» على المغرب (٩٦) . ففي سنة ٣١٧هـ / ٩٣٠ م ترددت الكتبُ بين الناصر وبين محمد بن خزر ، عظيم أمراء زناتة ، فكان أولَ من اجتذبه الناصرُ بالمكاتب والمهاداة . وكان محمدُ بن خزر من ألدِّ أعداء عبيد الله الشيعي ، الذي يدعوه ابنُ خزر في كتبه إلى الناصر بالشيعي اليهودي ، ويشيد بحربه له في المسيلة وتيهرت (٩٦) . كما اجتذب الناصرُ إليه موسى بن أبي العافية المكناشي في العام نفسه (٣١٧هـ / ٩٢٩ م) ، وكان هذا قد أجلى آل إدريس عن إماراتهم ، فاعتصموا بجحرِ النسر (٩٧) . وفي كتابٍ بعث به ابنُ أبي العافية إلى الناصر يقول : «أنا عينُ أمير المؤمنين الكائنة في هذه العدو . . . حتى يتصلَ بالشرق وميراثِ سلفه . . .» ، ويقول في كتابٍ آخر انه سيواصل «مجاهدةً هؤلاء الخنازير [العبيديين] الذين جهادهم عند أهل السنة أولى من جهاد الروم» (٩٨) .

وكما تقدّم ، فقد كانت علاقاتُ الناصر متينةً بصالح بن سعيد ، أمير نكور . أما من بقي من صفار أمراء الأدارسة ، فكانوا منقسمين على أنفسهم ، وكاتب بعضهم الناصر وبايعوه (٩٩) .

وكان الناصرُ في كتبه إلى الزعيمين الزناتيين ، محمد بن خزر ، وموسى بن أبي العافية ، يقرّظ البربرَ ، ويمتدحُ دياتهم السليمة وجهادهم في سبيل الله ، ويحثهم على حرب الشيعي ، ويمدّهم بالرماة والسفن ، والخبراء في حصار المعقل والحصون (١٠٠) .

وفي سنة ٣١٩هـ / ٩٣١ م ، احتل الناصرُ سبتة ، فلَمَّ البحرَ بعدوتيه ، وكان قبل

(٩٥) EI<sup>2</sup>, I, pp. 83-84.

(٩٦) المقتبس ٢٥٧/٥ ، ٢٥٩ .

(٩٧) البكري ص ١٢٧ .

(٩٨) المقتبس ٣٧١/٥ ، ٣٧٣ .

(٩٩) المصدر السابق ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ .

(١٠٠) المصدر السابق ص ٣٢٧ ، ٣٢٩ .

ذلك بأربع سنوات قد أخذ مليلة ، وأقام فيها وليه موسى بن أبي العافية . ووضع الناصر حاميات في الثغور التي سيطر عليها بشمال المغرب ، لتأمين الأندلس ، ولتحكيه من تقديم العون لأنصاره في المغرب ، كما أخذ يخطط لاسترداد ملك آباءه في إفريقية والمشرق<sup>(١٠١)</sup> . وفي هذا الصدد ، يقول صاحب (أخبار مجموعة) عن الناصر عندئذ « واستحكم من أمره ما لو اتصل عزمه فيه وتأيد الله عليه ، لغلب على المشرق فضلاً عن المغرب ، ولكنه ، عني الله عنه ، مال إلى اللهو ، واستولى عليه العجب »<sup>(١٠٢)</sup> .

## كلمة ختامية :

بالقضاء على خلاف آل حفصون الذي دام قرابة نصف القرن ، تم لأمر بني أمية في قرطبة القضاء على أخطر الثورات وأطولها في تاريخ الأندلس ، بعد أن كادت أن تعصف بإمارة قرطبة في أوائل عهد الأمير عبد الله بن محمد ، وإن استمرار هذه الثورة كل هذه المدة لمّا يدل على ضعف الحكومة المركزية آنذاك<sup>(١٠٣)</sup> . وقد اعتبر البعض حركة ابن حفصون حركة وطنية إسبانية بهدف الإستقلال<sup>(١٠٤)</sup> ، وشبه البعض عمر بن حفصون بنسر أندلسي انقضى من وركته في قلعة بيشتر<sup>(١٠٥)</sup> ، كما شبه البعض عمر بن حفصون في السنوات الأولى من خلافه بروبين هود ، وما قام به من أعمال السلب وقطع الطرق<sup>(١٠٦)</sup> . أما المستشرق الهولندي المعروف دوزي فإنه رأى في ابن حفصون في مستهل حركته زعيم عصابية من صغار قطاع الطرق (ratero) ، إلا أنه لم يلبث أن أصبح زعيماً للأندلسيين في جنوب البلاد من مولدين وعجم<sup>(١٠٧)</sup> .

- 
- (١٠١) المصدر السابق ص ٣١١ .  
 (١٠٢) مؤلف مجهول الاسم : أخبار مجموعة ص ١٥٥ .  
 (١٠٣) واط (Watt) ص ٣٧ . او كالا هان (O'Callaghan) ص ١١٣ .  
 ريد (Read) ص ٦٨ .  
 (١٠٤) جثالثل بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٥٧ ، ٣٢٧ .  
 (١٠٥) غارسيا غومس : الشعر الأندلسي ص ٣٥ . هويثي ميراندا (Huici Miranda) .  
 Cambridge History of Islam, Vol. 2A, p. 416.  
 (١٠٦) ريد (Read) ص ٦٨ . هويثي ميراندا ، المصدر في الحاشية السابقة ص ٤١٥ .  
 (١٠٧) دوزي ص ٣١٧ ، ٣٢٠ .

إن ابن حفصون يبدو للمتقصي لسيرته والمتبع لأخباره رجلاً مغامراً، انتهائياً، طموحاً، فقد كان يصبو إلى الاستقلال بل وإلى الإمارة، كالسيد القنيطور بعده بقرنين من الزمن. وكان رجلاً متقلباً لا يثبت على حال، ويرى أن الغاية تبرر الوسيلة. فزاده تارة يحالف بعض أمراء الأدارسة في شمال المغرب الأقصى، وتارة يحالف أمراء الأغالبة في افريقية، ثم لا يلبث أن يعلن ولاءه للشيعنة العبيديين فور قيام دولتهم في افريقية، ونزاه تارة «بتنصر»، وهو يحالف ويظاهر الثائرين من المولدين أمثاله في الأندلس، ويقوم على الإمارة الأموية بقرطبة، ويناهض أمراء العرب في غرناطة، وفي الوقت نفسه يمضي إلى محالفة بني حجاج المنتزين على الإمارة في إشبيلية، وهم يمثلون الأرستقراطية العربية في البلاد. وفي كل ذلك، كان ابن حفصون يستهدف تفويض الإمارة الأموية بقرطبة، ويصبو إلى أن يتحقق له في الأندلس ما تحقق لبني الأغلب في القيروان، من استقلال عملي مع ولاء إسمي لخلافة نائية في بغداد. وحتى في بيشر، نرى عمر بن حفصون يتخذ لنفسه حضرة، ويباع لابنه جعفر في حياته، ولا يعرف ما إذا كان ضرب لنفسه عملة خاصة به. إن طول أمد ثورته يدل على مدى مثابرته وإصراره لبلوغ غايته في الاستقلال. وقد كانت الظروف مواتية له في باديء الأمر، إبان إمارة عبد الله بن محمد، وقت أن كثّر المنتزون على الإمارة في كافة أرجاء الأندلس، ولعل ابن حفصون وصل إلى ذروة سلطانه عام ٢٧٨هـ/٨٩١م — أي إلى أن هُزم في وقعة بلّاي — إذ كان يسيطر آنذاك، مباشرة أو عن طريق حلفائه من الثائرين في المعقل، على معظم الأراضي الواقعة إلى الجنوب من نهر الوادي الكبير حتى مشارف قرطبة، ولكن نجمه أخذ في الأقول رويداً رويداً بعد ذلك، ولعل من أسباب ذلك ظهور قادة أكفاء على رأس قوات الأمير عبد الله، وفي مقدمتهم القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة، ثم تهمة التنصر والارتداد عن الإسلام التي نسبت إلى ابن حفصون، مما جعل الكثيرين من أنصاره المولدين ينفضون من حوله، وأضنى على حرب الأمير له صبغة دينية قائمة على الجهاد، دفاعاً عن الإسلام في الأندلس. وكان من الممكن أن يتبدل الوضع لصالح ابن حفصون، لو قدر للعبيديين آنذاك السيطرة على المغرب كله، اذن لكان ابن حفصون عندئذ في وضع يمكنه من تلقي المساعدات منهم لمواصلة ثورته.

وكان لظهور الأمير الشاب عبد الرحمن بن محمد، وسياسته المنيعة على المداراة والحزم معاً تجاه المنتزين على الإمارة، وقطعه كل صلة بحرية بين ابن حفصون وبر العدو، ثم

بسط نفوذه على شمال المغرب الأقصى ، وغزواته المتواصلة على بيشتر والحصون المجاورة لها وتضييق الخناق عليها — كان لكل ذلك أثره الفعال في إضعاف حركة ابن حفصون وأبنائه من بعده . كما كان إيذاناً بقرب نهاية خلافتهم ، خاصة وأن عمر بن حفصون تقدمت به السن ، وملأ اتباعه استمرار القتال وأعمال التخريب . لذلك ، فإن الحركة وهنت في السنوات الأولى من تولي الأمير عبد الرحمن مقاليد الحكم ، وزادت وهناً بعد وفاة عمر ابن حفصون ، بسبب المنازعات بين أبنائه ، وبسبب التصدع الذي حدث في صفوف أتباعهم من النصارى في بيشتر . ومع ذلك ، فإن عمر بن حفصون احتفظ بموجب صلحه الذي عقده مع الأمير عبد الرحمن ببيشتر ومائتي واثنتين وستين معقلاً ، له ولأبنائه من بعده ، أي أنه لم يُهزم في ساحة القتال ، ولم تؤخذ ببيشتر عنوة . ولعل الناصر رأى أن يداريه ويقيه في بيشتر مع الحصول على طاعته وولائه للإمارة ، لكي يتسنى له استئصال بقية النصارى في الأندلس ، ولكي يتفرغ لمواجهة خطر العبيديين الداهم في المغرب .







## ثبت بالمصادر والمراجع

### أ — باللغة العربية :

ابن الأبار ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله : **المحلة السيّارة** ، جزء آن ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .

ابن بلقين ، عبد الله : **التيان (مذكرات الأمير عبد الله)** ، تحقيق إ. ليثي — بروكسسال ، القاهرة ١٩٥٥ .

ابن حزم ، أبو محمد علي : **جمهرة أنساب العرب** ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٢ .  
ابن حوقل ، أبو القاسم محمد : **كتاب صورة الأرض** ، طبعة بيروت (بدون تاريخ) .

ابن حيان ، أبو مروان حيان بن خلف : **المقتبس في تاريخ الأندلس** .

أ — **القسم الثالث** ، نشره الأب ملشورم . أنطونية ، باريس ١٩٣٧ .

ب — **الجزء الخامس** ، نشره ب . شاليتا ، مدريد ١٩٧٩ .

ابن الخطيب ، لسان الدين محمد : **أعمال الأعلام** ، تحقيق إ. ليثي — بروكسسال ، بيروت ١٩٥٦ .  
**الإحاطة في أخبار غرناطة** ، المجلد الأول ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ .

**اللمحة البدرية** ، بيروت ١٩٧٨ .

ابن سعيد ، أبو الحسن علي : **المغرب في حلى المغرب** ، جزء آن ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٥ — ٣ .

ابن عذاري ، أبو العباس أحمد : **البيان المغرب** ، جزء آن ، بيروت ١٩٥٠ .

ابن القوطية ، أبو بكر بن عمر : **تاريخ الناح الأندلس** ، تحقيق عبد الله أنيس الطباع ، بيروت ١٩٥٧ .  
الإدريسي . أبو عبد الله محمد : **صفة جزيرة الأندلس** (مأخوذة من كتاب **تروة المشتاق**) ، تحقيق دوزي ودي خويه ، لندن ١٨٦٦ .

البكري ، أبو عبيد عبد الله : **المغرب في ذكر بلاد المغرب** (قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك) ، تحقيق دي سلان ، باريس ١٩٦٥ .

جنثالث بالنيشيا ، آتخل : **تاريخ الفكر الأندلسي** ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .

الحميري ، أبو عبد الله محمد : **صفة جزيرة الأندلس** (منتخبة من كتاب **الروض المعطار**) ، نشر إ. ليثي — بروكسسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

المعدي ابن الدلائي) ، أحمد بن عمر بن أنس : ترويض الأخبار ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ١٩٦٥ .

غارسيا غومس ، إميليو : الشعر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ .  
المقري ، أحمد بن محمد : نفع الطيب ، الجزء الرابع ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

مؤلف مجهول الاسم : أخبار مجموعة ، تحقيق إميليو لافونتي والقنطرة ، مدريد ، ١٨٦٧ .  
مؤلف مجهول الاسم : تاريخ الناصر ، نشره ليثي — بروئنسال وغارسيا غومس ، مدريد — غرناطة ١٩٥٠ .

## ب — باللغة الأجنبية :

*Cambridge History of Islam*, Vol. 2A, ed. P.M. Holt, etc., Cambridge 1970. Part VII, Ch. 7 (A. Huici Miranda).

Dozy, R.P.H., *A History of the Moslems of Spain*, London 1913, (translated by F.G. Stokes).

El = *The Encyclopaedia of Islam*, Leiden 1913-34. Vol. III, s.v. 'Omar b. Hafsūn (by E. Lévi-Provençal), pp. 981-2.

El<sup>2</sup> = *The Encyclopaedia of Islam* (New Edition), Leiden-London 1960-00. Vol. I, s.v. 'Abd Allāh b. Muḥammad (p. 49), 'Abd al-Rahamān b. Marwān (p. 85) (E. Lévi-Provençal).

Julien, Charles-André, *A History of North Africa*, London 1970.

Lévi-Provençal, E, *Histoire de l'Espagne musulmane*, Tomes I and II, Paris-Leiden 1950.

Lomax, D.W., *The Reconquest of Spain*, London 1978.

O'Callaghan, J.F., *A History of Medieval Spain*, London 1975.

Read, J., *The Moors in Spain and Portugal*, London 1974.

Watt, W.M., *A History of Islamic Spain*, Edinburgh 1965.

## كتاب «المقتبس»

الجزء الخامس ، لأبي مروان بن حيّان القرطبي

تحقيق ب . شالميتا ، مدريد ١٩٧٩

نُشرَ عام ١٩٧٩ في مدريد الجزء الخامسُ من تاريخ (المقتبس في تاريخ الأندلس) لأبي مروان بن حيّان القرطبي (ت ١٠٧٦/٥٤٦٩ م) من قِبَل المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد بالتعاون مع كلية الآداب بالرباط . ويتناول هذا الجزء فترة ثلاثين سنة (٢٩٩ — ٣٣٠/٩١١ — ٩٤١ م) من إمارة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) الذي حكم الأندلس طيلة نصف قرن (٣٠٠ — ٣٥٠/٩١٢ — ٩٦١ م) . وكتاب (المقتبس) أصلاً في عشرة أجزاء ، وفيه يؤرخ ابن حيّان للأندلس ابتداءً من الفتح العربي إلى نهاية الخلافة الأموية بقرطبة . وقبل ظهور الجزء الخامس من الكتاب كان قد عُرِ على ثلاثة أجزاء منه وتمّ نشرها ، وهي : الجزء الثالث الذي يتناول الفترة ٢٧٥ — ٢٩٨ م وقد نشره الأب ملشور م . أنطونية بياريس سنة ١٩٣٧ ، والجزء السابع ويتناول الفترة ٣٦٠ — ٣٦٤ م ، وقد نشره عبد الرحمن الحجي ببيروت سنة ١٩٦٥ ، والجزء الثاني ويتناول الفترة ٢٣٢ — ٢٦٧ م وقد نشره محمود علي مكّي بالقاهرة سنة ١٩٧١ .

ولعلّ من المناسب قبل التحدث عن الجزء الخامس من (المقتبس) التمهيد بكلمة وجيزة عن أبي مروان بن حيّان ومصنّفاته . عاش أبو مروان بن حيّان ، شيخ مؤرخي الأندلسي ، في فترة عصية مؤسّية من تاريخ الأندلس (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) ، فقد شبّ في أواخر أيام الخلافة الأموية بقرطبة ، ثم شهد زوالها وقيامَ دول الطوائف في الأندلس . وقد آله كثيراً ما آلت إليه حالُ الأندلس من تمزق وفرقة بعد أن نعمت بالوحدة والمنعة أيام الخلافة التي كثيراً ما يشير إليها بأيام الجماعة ، فأخذ في تدوين تاريخ عصره بعمقٍ وإسهاب ، فكان كتابه (المتين) في ٦٠ مجلداً . ولسوء الحظ ، فإن كتاب (المتين) ، وهو كتابُ ابن حيّان الأصيل ، لم يصلنا إلّا في مقتطفات وتُفٍ أوردها ابن بسام الشترني في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) ، كما احتفظ لنا ببعض

الفقرات المؤرخون التالون كابن الأبار وابن عذاري وابن الخطيب . ان الفقرات التاريخية في كتاب ابن بسام الموسوعي الذي أرخ فيه للأدب الأندلسي في القرن الخامس /الحادي عشر الميلادي مقتبسة عن تاريخ ابن حيان . يقول ابن بسام «واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة ، فشرحتُ بعض منها . . . وأحصيتُ عللَ استيلاء طوائف الروم على هذا الأقليم . . . وعولتُ في معظم ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيان . . . فإذا أعوزني كلامه ، وعزّي سرده ونظامه ، عكفتُ على طللي البائد ، وضربت في حديدي البارد» (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، الدار العربية للكتاب ١٩٧٥ ، ١/١ ص ١٧ — ١٨) . .

وقيل كتاب (المتين) ظهر كتاب (المقتبس) في عشرة أسفار أو أجزاء ، وهو — كما يستدلُّ من اسمه — إقتباسات عن مؤرخين سابقين لابن حيان لم تصلنا كتبهم ، وفي مقدمتهم أبناء الرازي . وتخلل الكتاب فقرات لابن حيان نفسه يبدى فيها رأيه الصريح بشأن الأمراء الذين يتحدث عنهم .

وتتميز كتابات ابن حيان بالدقة والتفصيل ، والمقارنة بالأحداث في المشرق ، كما تتميز بالصدق والصراحة ، وبعصبية لقوميته الأندلسية ، وميوله لبني أمية وتمجيده لأيام الخلافة بقرطبة ، ونفوره الشديد من ملوك الطوائف لما جنوه على البلاد من فُرقة وتمزق مما أطمع الروم بها .

ويعتبر ابن حيان بحق في طليعة المؤرخين العرب من حيث البيان وقوة الأسلوب والتقصي والجرأة والتحليل والتعليل للأحداث ، وعليه اعتمد مؤرخو الأندلس من بعده إلى يومنا هذا . ولو قدر لكتاب (المقتبس) بجميع أجزائه وكتاب (المتين) الوصول إلينا كاملين لتوفرت لدينا معلومات وافية عن تاريخ الأندلس من الفتح العربي حتى منتصف القرن الخامس /الحادي عشر الميلادي ، أي لفترة مداها ثلاثة قرون ونصف القرن .

وقد أنشئ المؤرخون القدامى والمحدثون على تاريخ ابن حيان . فابن حزم ، في رسالته عن فضل أهل الأندلس ، يقول «ومنها كتابُ التاريخ الكبير في اخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حيان ، نحو عشرة اسفار ، من أجل كتاب ألف في هذا المعنى» (المقري ، نفع الطيب ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٤/ص ١٦٧) . ويضيف ابن سعيد فيما بعد قوله «وأما التواريخ فكتابُ ابن حيان الكبير المعروف بالمتين في نحو ستين مجلدة ، وانما ذكر

ابن حزم كتاب المقتبس ، وهو في عشرة مجلدات . والمتن يذكر فيه أخبار عصره ، ويُعَمَّن فيها مما شاهده ، ومنه ينقل صاحبُ الذخيرة (المُقَرِّي ، نفع الطيب ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٤/ص ١٧٢) . ويسميه ابنُ بشكوال «صاحبُ لواء التاريخ ، أفصحُ الناس فيه وأحسنهم نظماً له» (ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القاهرة ١٩٥٥ ، ١/ص ١٥٠ ، الترجمة رقم ٣٤٥) . أما ابن الأبار فيسميه «جهينة أخبار الروانية» (ابن الأبار ، الجلة السيرة ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١/ص ٢١٠) .

ويقول المستشرق الهولندي المعروف ر. دوزي عن ابن حيان المؤرخ : «يسوق التاريخ مساقاً من يدي رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء . . . ولا نجد من بين مؤرخي العرب إلا القليلين ممن نستطيع أن نقارنهم به ، ولن نجد من تقدّمه عليه» (بالنثيا ، آخُل جنتال ، تاريخ الفكر الأندلسي ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢١١) .

إن نشر الجزء الخامس من (المقتبس) سيلقى كلَّ اهتمام وترحيب من جانب الباحثين في تاريخ الأندلس والمغرب في فترة الثلاثين سنة الأولى من القرن الرابع / العاشر الميلادي . ففيه يتناول ابن حيان بإسهاب أخبارَ المنتزعين الثائرين في الأندلس ، وعلى رأسهم المولّد عمر بن حفصون وأبناؤه من بعده ، وكيف تسبّى للأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) القضاء عليهم واحداً بعد الآخر بالمدارة والحزم معاً .

وفي الجزء الخامس من (المقتبس) معلومات هامة عن قيام الناصر بتعزيز قطع الأسطول ، منها إنشاءه دار صناعة في الجزيرة الخضراء ، فضلاً عن دار صناعة السفن في المرية قاعدة الأسطول . وقد غزا الأسطولُ برشلونة قاعدة صاحب إفرنجة (قطلونيه) ، واتخذ من جزيرة ميورقة وطرطوشة قاعدتين لهذه الغزوات . وبفضل الأسطول ، استولى الناصر على قرصتي سبتة وطنجة «فللك البحر بعدوتي» ، فكنّه ذلك من تقديم العون لحلفائه الزناتيين ، إذ اخذ في إمدادهم بالرمّة والسفن لصد الغارات المتكررة التي كان يشنها عليهم العبيديون وحلفاؤهم من صنهاجة . وكان الناصر في كتبه إلى محمد بن خزر زعيم قبائل زناتة بالمغرب يمتدح «ديانتهم السليمة» ، كما كان يستدعيهم للمشاركة في الجهاد في الأندلس .

وفي الكتاب معلوماتٌ قيمةٌ عن اتخاذ الناصر لدار الضرب (السكة) بقرطبة . وكما هو معلوم ، فإن العملة الوحيدة المتداولة في الأندلس إلى عهد الناصر كانت الدراهم الفضية إلى أن ضرب الناصر أول دينار من الذهب في الوقت الذي اتخذ لنفسه لقب الخلافة (٩٢٩/٣١٦ م) . وقد قلّد الناصر خطة السكة قاسم بن خالد «وحدّله العيار الجيد فيها الذي ينسب بعد إليه على مر الأيام» — أي الدنانير القاسمية .

وعلى أثر هزيمة الخندق ، ويسميا ابن حيان «حطمة الخندق» ، عام ٩٣٩/٣٢٧ م ، أحدث الناصر تغييراً جوهرياً في خططه الحربية تجاه الروم ، فلجأ إلى شن الغارات بدلاً من القيام بغزوات كبرى ، ولم يعد يغزو بنفسه ، بل ولى على الثغور «أكابر سكانها وورثاتها عن الأجداد والآباء . . . آل تُجيب وآل ذي النون . . .»

ويحدثنا ابن حيان عن وصول العالم اللغوي المشرفي أبي علي القالي إلى الأندلس في ٢٧ شعبان ٩٣٠هـ/ ١٧ مايو ٩٤٢ م فيقول «وكان من أعظم من وفد إلى الأندلس من العلماء . . . فأوسع الناصر عليه في الإنزال والإقطاع» .

وقد قلّد الناصر عدداً من رجالات أهل الذمة مناصب هامة ، وكان يوفدهم في سفارات للتفاوض مع ملوك النصارى . فقد أوفد الطبيب اليهودي حسداي بن اسحاق (ابن شبروط) سفيراً إلى صاحب جليقية وإلى صاحب برشلونة . كما أوفد سفارة من أساقفة أهل الذمة في مهمة إلى صاحب جليقية .

ومن بين المعلومات الطريفة في الكتاب ما يذكره ابن حيان عن اتخاذ الناصر ضمن أعلامه «علم العقاب المصورة التي اخترعها ولم تكن لسلطان قبله» ، واتخاذها في غزوه لبلاد طوطة صاحبة بنبلونة فرقاً «بالفؤوس والمناجل لقطع ما اجتاز به من كرمٍ موقر أو شجر مشمر» . وترد في الكتاب أكثر من مرة التسمية «القلاع» و«بلاد القلاع» عند الحديث عن الغارات على قشتالة ، التي سُميت كذلك لكثرة القلاع والحصون فيها .

ومما يدلّ على قيام مبادلات تجارية مع الخارج ، وحتى مع الإمارات النصرانية في جنوب إيطاليا ، ما يذكره ابن حيان ضمن أحداث سنة ٩٣٠هـ/ ٩٤٢ م عن وصول تجار مَلَف (Amalfi) بجنوب إيطاليا «بضروبٍ من تجارتهم النفيسة من سبائك الفضة الخالصة والديباچ» ، برفقة رسول صاحب سردانية الذي جاء «ليخطب الصلح والألفة» .

وورد في الكتاب مرتين العبارة الأندلسية «قَرطس» : «وقرطسه بآرائه المصيبة» (ص ٣١٩) و«رماء فقرطس» (ص ٤٦٧) . ويعلق المحقق في حاشية في ص ٣١٩ بقوله «كلمة أندلسية بمعنى لا تُثبت القواميس» . والواقع أن هذه الكلمة تعني إصابة الهدف (أنظر دوزي ، ملحق القواميس العربية ، لندن ١٨٨١ ، ٢/ ص ٣٣٨) .

والكتاب يحتوي على ٤٩٠ صفحة من الحجم المتوسط ، والطباعة جيدة ، والكلمات كلها مشكولة . والحق يقال إن الناشر . شاليتا وزميليه أسدوا خدمةً جليلاً للباحثين في أحداث هذه الحقبة الهامة من تاريخ الأندلس والمغرب .



## وقعة الزلافة المجيدة

(١٠٨٦/٥٤٧٩ م)

### مقدماتها ونتائجها

تمهيد :

أعقب سقوط الخلافة الأموية في قرطبة في مستهل القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ظهور نحو عشرين دولة في الأندلس يحكمها ملوك الطوائف، ومن أشهرهم بنو عباد في اشبيلية، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة، وبنو زيري في غرناطة، وبنو صمادح في المرية. وقد شغل كل هؤلاء الرؤساء في الكيد واللدس بعضهم لبعض وفي حروبهم المستمرة فيما بينهم مما أضعفهم وهباً لعدوهم النصراني المتربص بهم في الشمال الفرصة للتوسع على حسابهم. وفي مقابل التجزئة والفرقة اللذين شهدتهما الأندلس في فترة ملوك الطوائف شهد اتحاد مملكتي ليون وقشتالة في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي على يد فرديناند الأول الذي بدأ الحرب المعروفة لدى النصراني بحرب الاسترداد (Reconquista) والتي واصلها من بعده ابنه الفونس السادس، وهي الحرب التي بلغت ذروتها عند استيلائه على إحدى قواعد المسلمين في الأندلس وهي طليطلة (١٠٨٥/٥٤٧٨ م). وفي الوقت ذاته، ظهرت دولة المرابطين إلى حيز الوجود في المغرب، وهي دولة فتيّة قائمة على الجهاد والإصلاح والوحدة. وإزاء الخطر النصراني الداهم من الشمال، اضطّر ملوك الطوائف إلى استصراخ المرابطين والاستعانة بهم، فهبّ سلطانهم المجاهد يوسف بن تاشفين لنصرة إخوانه



المسلمين، وأوقع بالفونس السادس هزيمة ساحقة في فحص الزلاقة قرب مدينة بطليوس في غروب الأندلس (١٠٨٦هـ/١٠٧٩ م). <http://www.al-malah.com>

## استيلاء النصارى على طليطلة :

كان لسقوط طليطلة في يد الفونس (الأدفتش) السادس ملك ليون وقشتالة (محرم ٤٧٨هـ/مايو ١٠٨٥ م) رجة في سائر انحاء الأندلس والعالم الإسلامي ، إذ إنها كانت من أكبر قواعد المسلمين ومراكز العلم في جزيرة الأندلس ، وكان سقوطها يندربأسوأ العواقب لبقية الأندلس ، ذلك أن الفونس قال صراحة إنه لن يبدأ بالاحتيا حتى يسترد بقية الأندلس ويخضع قرطبة لسلطانه<sup>(١)</sup> . ولعل في قول الزاهد ابن عسال ما يعبر عن مشاعر الأندلسيين ومخاوفهم مما يخبئه لهم المستقبل :

يا أهل اندلس حثوا مطيكم      فإ المقام بها إلا من الغلط  
الثوب ينسل من أطرافه وأرى      ثوب الجزيرة منسولا من الوسط<sup>(٢)</sup>

وكان هذا الفقيه قد نظم قصيدة مؤثرة على أثر سقوط بُرْشْتَر في أقصى شمال الجزيرة والفتك بأهلها على أيدي النورمان عام ٤٥٦هـ/١٠٦٤ م يعلل فيها لما حدث ، منها قوله :

لولا ذنوبُ المسلمين وانهم      ركبوا الكبائر ما لهنَّ خفاء  
ما كان يُنصَر للنصارى فارس      أبداً عليهم فالذنوب الداء<sup>(٣)</sup>

وبعد استيلائه على طليطلة ، لم يكتف الفونس بفرض الجزية على ملوك الطوائف ، بل أخذ أيضاً في مطالبته بالتنازل له عن معاقل وأراضٍ جديدة ، وبمعاملة جميع هؤلاء الملوك كأتباع له<sup>(٤)</sup> .

---

(١) ابن بسام : اللخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القاهرة ١٩٤٥ ، القسم الرابع — المجلد الأول ص ١٣٢ .

(٢) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، القاهرة ٥٣ — ١٩٥٥ ، ج ٢ ص ٢١ .

(٣) نفس المصدر ، ج ١ ص ٢٣٦ .

(٤) اللخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ص ١٣٠ — ١٣١ .

ومما يُذكر أن جيش الفونس الذي استولى على طليطلة كان يضم عناصر من جميع أرجاء أسبانيا المسيحية ، فضلاً عن متطوعين قدموا من فرنسا وإيطاليا وألمانيا . وكان رهبان دير كلوني في جنوب شرقي فرنسا يسيطرون على كثير من الأديرة في قشتالة ، كما أن كونستانس زوجة الفونس الثانية كانت فرنسية المولد وتحت تأثير رهبان دير كلوني ، وقد نصب الفونس أحدهم رئيساً لأساقفة طليطلة بعد استيلائه عليها . إن رهبان دير كلوني هؤلاء كانوا غلاة في تعصبهم الديني ، وهم الذين قاموا — خلافاً لأوامر الفونس كما يقال — بتحويل المسجد الجامع في طليطلة إلى كنيسة أثناء غياب الملك عن المدينة<sup>(٥)</sup> . ورهبان دير كلوني هم الذين أضفوا على الصراع الدائر في إسبانيا صبغة حرب دينية ضد المسلمين شبيهة بالحروب الصليبية التي كانت على الأبواب في المشرق ، والتي كان لنشاطهم أيضاً دور مهم في إذكائها .

بعد أن استولى الفونس السادس على طليطلة ، أصبح جاراً مباشراً للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية . ويذكر المؤرخون المسلمون بأن النزاع بدأ بينهما عام ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م بعد أن تأخر المعتمد عن دفع الجزية السنوية في حينها . وقد حضر ابن شاليب اليهودي مبعوث الفونس مع قوم من رؤساء النصارى إلى إشبيلية لقبض الجزية ، ولكنه رفض تسلّم المال بحجة أنه من عيار ناقص وأغظ القول وهدد بأنه لن يقبل مستقبلاً إلا أجفان البلاد . ولما علم المعتمد بما صدر عن اليهودي أمر بصلبه وبزج أصحابه في السجن<sup>(٦)</sup> . ولما استشار المعتمد الفقهاء استحسنوا عمله إذ إن المبعوث اليهودي كان قد تجاوز حدود مهمته . وصرح أحد الفقهاء فيما بعد بأنه أفاد المعتمد باستصوابه لما عمله لأنه خشي أن يراجع عن قراره بالصمود في وجه النصارى . وعندما تلقى الفونس نبأ مصير بعثته ، هدد باجتياح مملكة المعتمد وبالزحف حتى بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) .

ويصف الحميري المعتمد في هذه الفترة بأنه كان «عهيداً» لألفونس ، ويعزو منشأ الخلاف بينهما إلى تأخر المعتمد في دفع الضريبة في حينها بسبب تكاليف الحرب الباهظة مع

(٥) متنيث بيدال : *La España del Cid* ، مدريد ١٩٦٩ ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

(٦) المقرئ : *نفع الطيب* ، القاهرة ١٩٤٩ ج ٥ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

جاره المعتصم بن صامح صاحب المرية ، فغضب الفونس لهذا التأخير وتشطط فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، لا بل وسأل « في دخول امرأته القمطيجة (condesa) إلى جامع قرطبة لتلد فيه . . . . حيث أشار إليه بذلك القيسون والأساقفة لمكان كنيسة في الجانب الغربي معظمة عندهم . . . فأياسه ابن عباد من جميع ذلك »<sup>(٧)</sup> .

## تطاول الفونس السادس على ملوك الطوائف :

ولما قرر الفونس الإغارة على مملكة إشبيلية ، أرسل جيشاً للعث في إقليم الغرب وسار هو بنفسه على رأس جيش آخر لتخريب إقليم الشرف المجاور لإشبيلية . ثم تقابل الجيشان خارج إشبيلية في مواجهة قصر المعتمد ، ومن هناك كتب الفونس إلى المعتمد يشكو شدة الحر وكثرة الذباب ويطلب منه مِرْوَحَةً «أروح» بها على نفسي وأطرد الذباب عني» ، فرد عليه المعتمد قائلاً : «قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية في أيدي الجيوش المرابطة تروّج منك لاتروّج عليك إن شاء الله»<sup>(٨)</sup> .

إن تجرّوة الفونس واستطالته على ملوك الطوائف بيدوان جليئين من الكتاب الذي خاطب به المعتمد وفيه يقول : «من الأنيطور ذي الملتين... إلى المعتمد بالله... قد أبصرتم ما نزل بطليلة وأقطارها... فأسلمتم إخوانكم... ولولا عهد سلف بيتنا نحفظ ذمامه . . . لنهض بنا نحوكم ناهض العزم . . . لكن الانذار يقطع الأعذار . . . »<sup>(٩)</sup> وقد اعترف المعتمد في رده بذنبه في التخلف عن نصرته إخوانه في الدين في طليطة إذ قال : «وكان بيتنا وبينك من المسألة ما أوجب القعود على نصرتهم وتدبير أمرهم ، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتينا في أنفسنا وفيهم من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم»<sup>(١٠)</sup> .

( ٧ ) الحميري : الروض المطار ، القاهرة ١٩٣٧ ص ٨٣ — ٨٤ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، بيروت ١٩٥٦ ص ٢٤٥ .

( ٨ ) الروض المطار ص ٨٠ ، نفع الطيب ، ج ٦ ص ٩١ .

( ٩ ) الحلل الموشية ، لمؤلف مجهول الاسم ، الرباط ١٩٣٦ ص ٢٥ .

( ١٠ ) نفس المصدر ص ٢٨ .

وقد كان عبدُ الله بن بلقين آخرُ ملوك بني زيري في غرناطة معاصراً لهذه الأحداث ، وهو لذلك يزودنا بوصف شاهديّانٍ لسياسة الفونس الرامية إلى إضعاف ملوك الطوائف ، فيقول « وكنا رأينا كلبَ النصراني على الجزيرة وأخذه لطليطة وقلّة رفقه ، بعد ما كان يقنع منا بالجزية ، وصار يروم أخذَ القواعد ، وأن أخذَه لطليطة للضعف المتوالى عليها عاماً بعد عام ، وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبه ألا يتنازل معقلاً ، ولا يفسد أجناده على مدينة ، لبعد مرامها ومن فيها من محالّي ملته ، وإنما كان يأخذ منها الجزية عاماً بعد عام ، ويعنف عليها بما شاء من أصناف التعدي ، إلى أن تضعفَ وتلقيَ بيدها كما فعلت<sup>(١١)</sup> » . ويضيف عبدُ الله بن بلقين بأن محالفاتٍ كثيرةً جرت بين المعتمد والفونس ، وسأله التخليّ عن معاقلٍ فوجست نفسه منه ، ورام كسره بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض<sup>(١٢)</sup> .

### الاستنجاد بالمرابطين :

ولما ازداد خطرُ الفونس وتهديدهُ للأندلس عبرتُ عدةٌ وفود أندلسية إلى مراکش وناشدت السلطانَ المرابطي يوسفَ بن تاشفين العون والنجدة . وما كان ليخطر على بال الأندلسيين قبل ثلاثين عاماً من هذه الأحداث الاستنجادُ بالمغرب قبل ظهور المرابطين ، إذ كان المغرب يعاني التجزؤ والضعف . أما الآن فقد تم ليوسف بن تاشفين توحيدُ المغرب من مدينة الجزائر شرقاً إلى السنغال جنوباً ، وقامت دولة المرابطين الفتية على مبدأ الجهاد والإصلاح . لذلك فإن أهل الأندلس تلقوا باهتمام بالغ أنباء ظهور هذه الدولة القوية المجاهدة في المغرب<sup>(١٣)</sup> . وكان من الطبعي أن يتوجهوا في محنتهم إليها مستنجدين ضد ملك قشتالة وليون الذي كان يتلقى بدوره العون والنجدة من الممالك النصرانية في شمالي إسبانيا وفي ما وراء جبال البرتات (البرانيس) . وهكذا فإن المغرب الذي كان ينظر إليه أهل الأندلس قبيل ذلك الحين على أنه بلاد متخلفة عن الأندلس حضارياً ولا يصلح إلا لتعزيز جيوش الأندلس بالمتطوعين ، أصبح الآن يقوم في نظرهم بدور المنقذ<sup>(١٤)</sup> .

(١١) عبد الله بن بلقين : البيان (مذكرات الأمير عبد الله) القاهرة ١٩٥٥ ص ١٠١ .

(١٢) نفس المصدر ص ١٠٢ .

(١٣) أعمال الأعلام ص ٢٤٣ ، ٢٤٥ .

(١٤) لثي بروقتسال : حضارة العرب في الأندلس ، بيروت (بدون تاريخ) ص ٢٠ .

تجمع المصادر الإسلامية على أن المعتمد بن عباد كان أول من بادر من ملوك الطوائف بالاستنجاذ بالمرابطين لوضع حد لنوايا الفونس العدوانية في الأندلس . أجل ، إن مبادرة المعتمد هذه يعدّها البعض إحدى فضائله <sup>(١٥)</sup> . وحتى لو لم يستصرخه أهل الأندلس ، فقد كان من المستبعد على أية حال أن يكتبني يوسف بن تاشفين — وقد أسس في أقل من ثلاثين عاماً امبراطورية قوية مترامية الأطراف — بما أنجزه في المغرب ، وأن يترك الأندلس تحت رحمة حركة الاسترداد المسيحية . ففي عام ١٠٧٥/هـ ٤٦٧ م استغاث المعتمد بابن تاشفين الذي اعتذر عن تقديم العون قبل أن يتملك طنجة وسبتة <sup>(١٦)</sup> . وفي عام ١٠٨٢/هـ ٤٧٤ م اتصل وفد أندلسي بيوسف بن تاشفين مستصرخاً فوعده خيراً <sup>(١٧)</sup> . ثم عاد المعتمد فخطب ابن تاشفين في العام التالي مستغيثاً ، ولعله فعل ذلك بعد الغارة المدمرة التي شنها الفونس على أراضي مملكة إشبيلية ، إلا أن يوسف أفاده بأنه سيتصل به بعد الاستيلاء على سبتة وهي فرضة الحجاز . وبعد سقوط طليطلة في أيدي النصارى (محرم ٤٧٨/هـ مايو ١٠٨٥ م) اتفق ملوك الطوائف على مناشدة يوسف بن تاشفين مد يد العون إليهم ، ويقال إن المعتمد توجه بنفسه إلى يوسف بن تاشفين الذي طلب إليه التهيؤ لمقدمه <sup>(١٨)</sup> . أما عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة والمعاصر لهذه الأحداث فيقول : « وقد كانت رسل المعتمد قبل هذا قد وردت عليه [يوسف بن تاشفين] تُعلمه أن يتأهب للجهاد وتعدّه باخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصل إلى سبتة إلّا ويضعها في يديه . فلما وصل متأهباً لذلك بمن احتفل به من جيشه قدم رسله إلى المعتمد . . . فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة ، وأمير المسلمين في ذلك متقلق لورودهم . فأرسل معهم من شيوخ إشبيلية من يقول له : تربّص من سبتة مدة من ثلاثين يوماً إلى أن نخلي لك الجزيرة فأجابهم إلى هذا . . . وقيل له : لم يحملك ابن عباد في هذا الالتواء إلّا أنه يريد أن يرسل إلى الفونس يعلمه بقدموك . ولعله يتأتى له منه ما يرغب ويهدده بك ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزيرة أعواماً . فإن فعل استجاش عسكره إلى الجزيرة ومنعك الجواز ، فاسبقه إليها . وإن كان

(١٥) ابن الأبار : الحلة السراء ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج ٢ ص ٥٤ .

(١٦) ابن أبي زرع : الانيس المطرب بروض القرقطاس ، أسالة ١٨٤٦ ص ٩١ . كانت سبتة وطنجة بيد سكوت البرغواطي الذي انتزى فيها أسوة بما فعله ملوك الطوائف في الأندلس .

(١٧) الحلال الموشية ص ٢٢ .

(١٨) روض القرقطاس ص ٩٢ — ٩٣ .

النصراني لا يتأتى له أرسل إليك في الجواز<sup>(١٩)</sup>. « لذلك فإن يوسف أمر جنوده بالجواز إلى الجزيرة الخضراء فوراً بعد انصراف رسل المعتمد . ومما تجدر ملاحظته ما يذكره صاحب غرناطة من أن يوسف بن تاشفين كان قد عاقد وقدأ ضمَّ رسله ورسل المعتمد «على أن تتصل الأيدي على غزو الروم بمعوثته ، والا يعرض لأحدنا في بلده ، ولا يقبل عليه رعيته بمن يروم الفساد عليه<sup>(٢٠)</sup> . »

ولما استقرَّ عزم المعتمد على استدعاء المرابطين حذَّره ابنه ووليُّ عهده الرشيد من الأخطار المترتبة على ذلك ، ولكن المعتمد كتب إلى يوسف بن تاشفين في ١ جمادى الأولى ٤٧٨هـ / ٢٥ أغسطس ١٠٨٥ م — أي بعد سقوط طليطلة بأقل من ثلاثة شهور — يرجو الاجتماع به للاتفاق على سياسة مشتركة تجاه الاندلس . وفي العام نفسه ، قام المعتمد بزيارة يوسف ووقع معه اتفاقاً ثم تنازل له عن الجزيرة الخضراء ، وبضيف ابن خلدون بأن المعتمد كان قد أمدَّ يوسف بالسفن للاستيلاء على سبتة ، وأنه قد زاره في فاس وتنازل له عن الجزيرة الخضراء ليتخذها المرابطون قاعدة لإنزال جنودهم<sup>(٢١)</sup> .

وبعد استيلاء المرابطين على سبتة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣ م) طلب المعتمد من صاحبي غرناطة وبطليوس إيفاد قاضي بلديهما إليه فضم إليهما قاضي قرطبة ، ووزيره أبا بكر ابن زيدون ، وأرسلهم في مهمة إلى يوسف بن تاشفين . واقترح ابن زيدون في أثناء المحادثات بأن يتزل المرابطون في جبل طارق ، إلا أن يوسف أصر على الجزيرة الخضراء دون أن يتم التوصل إلى اتفاق يحدد بهذا الشأن . وجريا على عادته ، استشار يوسف الفقهاء وقرر على ضوء مشورتهم بأن يرسل قواته إلى الجزيرة الخضراء<sup>(٢٢)</sup> .

ويبدو أن بعض ملوك الطوائف أعربوا للمعتمد عن مخاوفهم من استدعاء المرابطين ، وحذروه من مغبة ذلك ، إلا أنه أجابهم بكلمته المعروفة : « رعي الجبال خير من رعي الخنازير . أي أن كونه مأكولاً لابن تاشفين أسيراً يرعى جباله في الصحراء خير من كونه ممزقاً

(١٩) التبيان ص ١٠٢ — ١٠٣ .

(٢٠) نفس المصدر ص ١٠٣ .

(٢١) أعمال الأعلام ص ٢٤٥ — ٢٤٦ . ابن خلدون : العبر ، بولاق ١٨٦٧ ، ج ٦ ص ١٨٦ .

(٢٢) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٩٩ . روض القرطاس ص ٨٦ .

لابن فردلند أسيراً يرعى خنازيره في قشتاله (٢٣) . وقال للوامه : «يا قوم ، أنا من أمري على حالتين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا يدلي من أحدهما . أما حالة الشك ، فاني إن استندتُ إلى ابن تاشفين أو إلى ابن فردلند في الممكن أن يفيا لي وبقيا علي ، ويمكن أن لا يفعلا ، فهذه حالة الشك . وأما حالة اليقين فهي اني إن استندتُ إلى ابن تاشفين فأنا أرضي الله ، وإن استندتُ إلى ابن فردلند أسخطُ الله ، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلاي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه ، وحينئذ أقصر أصحابه عن لومه (٢٤) .

وتجلى حالة الضعف التي كان عليها ملوك الطوائف مما يذكره صاحب ( الحُلل الموشية ) من أن المعتمد رفض ما ذهب إليه بعضُ مستشاريه من ضرورة مداراة الفونس وعقد صلح معه ، حيث قال : «إن اخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع ولا يُرجى منهم نصره ولا حيلة إن نزل بنا مصاب . . . . وهاهو اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وهاهو قد رفع رأسه إلينا . . . ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذا الصحراوي ملك العدو نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا . . . » (٢٥) .

وقبل موقعة الزلاقة بنحوشهرين ، بعث المعتمد إلى يوسف بن تاشفين بكتاب يشير فيه إلى تفرق كلمة أهل الأندلس وإلى استيلاء الفونس على طليطلة وغيرها من المعازل والحصون ويقول : « ونحن أهل هذه الأندلس ليس لاحد منا طاقة على نصره جاره ولا أخيه . . . ( لذلك ) استنصرتُ بالله ثم بك . . . لتجوزَ لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحبون شريعة الإسلام . . . » (٢٦) وفي كتاب آخر يؤكد المعتمد الطابع الديني للصراع الدائر في الأندلس ، مشيراً إلى ما عقد الفونس عليه العزم من تحويل الجوامع إلى كنائس (٢٧) .

أطلع يوسف بن تاشفين اخوته وبنو عمه على ما كتبه المعتمد فوافقوا على ضرورة إغاثة

(٢٣) الروص المظمار ص ٨٥ . الحلل الموشية ص ٣٢ .

(٢٤) الروص المظمار ص ٨٦ .

(٢٥) الحلل الموشية ص ٣١ .

(٢٦) نفس المصدر ص ٣٣ .

(٢٧) نفس المصدر ص ٣٤ .

أخوانهم المسلمين ، ثم استشار يوسف كاتبه الأندلسي عبد الرحمن بن أسبط ، فأشار عليه بأن يُصرَّ على أن يتخلَّى له المعتمدُ عن الجزيرة الخضراء ، فأجاب المعتمد إلى ذلك في عقدٍ كتبه بمحضر الفقهاء ، وكتب إلى ابنه الراضي يزيد — وكان ولأه . الجزيرة إذ ذاك — بأمره بإخلائها (٢٨) .

## الجواز الاول للمرابطين إلى الاندلس :

وفي هذه الأثناء كان الفونس قد أغار عبر البلاد وبلغ مدينة طريف ، في أقصى جنوب جزيرة الأندلس ، ومنها كتب إلى يوسف بن تاشفين يقول : إن ملوك الطوائف ضعفاء فاسدون وظالمون لرعاياهم ، وأنه اجتاحت أراضيهم عابثا ومخربا وقد أسر الكثيرين من رعاياهم . وتحدي الفونس يوسف بن تاشفين بأن يجوز البحر لنجدتهم ، ومضى يقول : « إن كنت لا تستطيع الجواز ، فابعث إليَّ ما عندك من المراكب نجوز إليك أناظرك في أحب البقاع إليك » . فأمر يوسف بأن يُكتب على ظهر كتاب الفونس : ماترى لا ما تسمع إن شاء الله (٢٩) . وأردف الكتاب بيت أبي الطيب المتنبي :

ولا كتبَ الا المشرفةَ والقنا      ولا رسل الا الخسيس العرمم

عبر يوسف بحر الزقاق إلى الجزيرة الخضراء ، وكان قد حل بها قائده داود بن عائشة بعد أن اخلاها له الراضي بن المعتمد . وكتب يوسف إلى جميع رؤساء الاندلس يطلب إليهم اللحاق به مع قواتهم . ويصف لنا عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة مشاعره آنذاك قائلا : « وطننا أن إقباله إلى الاندلس مئة من الله عظمت لدينا ، لاسيما خاصة من أجل القرابة ، وللذي شاع من خيرهم واقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق... » (٣٠) وقد قبل يوسف وجنوده أنى حلوا بالحفاوة والتكريم . وبعد أن نزل يوسف بجنوده في ظاهر إشبيلية لبضعة أيام ، أمر قائده داود بن عائشة بالتقدم أمامه في اتجاه بطليوس ، كما أمر بأن توضع القوات الأندلسية تحت قيادة المعتمد ، وأن تكون لجند الاندلس

(٢٨) نفس المصدر ص ٢٦ — ٢٨ .

(٢٩) روض القرطاس ص ٩٤ . الروض المطار ص ٩٠ .

(٣٠) البيان ص ١٠٤ .



محلّتهم وللمرابطين محلّتهم (٣١) .

قصد يوسف وحلفاؤه الاندلسيون بطليوس حيث استقبلهم صاحبها المتوكل ابن الأفطس مرحباً ، ونزلوا في ظاهر المدينة . وكان يوسف منذ جوازه الى الاندلس شديد الحذر ، إذ إنه حديث عهد بطبيعة البلاد ، ولم يسبق له أن حارب جيشاً نصرانياً ، كما أنه لم يكن واثقاً كل الثقة من حلفائه الاندلسيين . ويقول صاحبُ غرناطة — وقد شارك بنفسه في معركة الزلاقة — إن يوسف أراد أن تكون ملاقاته النصرارى في ناحية بطليوس ، وأن لا يتوغّل كثيراً في أرض الروم (٣٢) . أما الفونس السادس فكان يرغب في أن يتم اللقاء في أرض المسلمين صوّناً لبلاده ، ولتمكينه من الانسحاب آمناً إلى بلاده إذا حلّت به الهزيمة (٣٣) .

### اللقاء في الزلاقة :

ولما بلغ الفونس نبأ تقدم المسلمين لملاقاته ، فكّ الحصارَ الذي كان يضربه على مدينة سَرَقُسطَة — وكانت توشك أن تسقط في يده — واستدعى قائده البرهانس (Alvar Hanez) من بلنسية حيث كان قد أرسله على رأس قوة لتثبيت تابعه القادر بن ذي النون ، صاحب طليطلة السابق ، كما استدعى شانجه بن رميره (Sancho Ramirez) صاحب أرغون ، وبعث مستغيثاً بجميع النصرارى في شمال إسبانيا وفي ما وراء جبال البرتات (البرانس) طالباً اليهم اللحاق به . فانضم اليه العديد من الأساقفة والقسيسين والرهبان يحملون أُنَاجيلَهم وصلبانَهم ، مؤكدين بذلك الطابع الديني للصراع الدائر . كما استجاب لنداء الفونس أعداد كبيرة من الجلالقة والفرنجية . وكان الفونس حانقاً على المعتمد بصفة خاصة ، اذ اعتبره المسؤول الاول عن استدعاء المرابطين (٣٤) . وكان يُعني نفسه بإيقاع هزيمة ساحقة بالمرابطين بحيث يكون ذلك

(٣١) روض القرطاس ص ٩٤ .

(٣٢) البيان ص ١٠٥ .

(٣٣) الروض المعطار ص ٨٨ .

(٣٤) روض القرطاس ص ٩٣ . الروض المعطار ص ٨٨ .

رادعاً لهم عن أي تفكير في الجواز إلى الاندلس مرة أخرى ، اما قوات الاندلس ، فإن الفونس كان يزدرئها ولا يأبه بها (٣٥) . وكان الفونس لا يريد ملاقاتة المسلمين قبل أن يصله المتطوعون والتعزيزات من أرغون وبرجلونة وفرنسا وإيطاليا (٣٦) . وقد اتخذت المواجهة الآن طابع الجهاد لدى الجانبين ، وكان ذلك قبيل بدء أولى الحملات الصليبية التي توجهت بتحريض من البابا إربان الثاني لانتزاع بيت المقدس من أيدي المسلمين .

يبالغ معظم المؤرخين المسلمين كثيراً في عدد قوات الفونس السادس ، وهم يُجمعون على أنها كانت تفوق قوات المسلمين عدداً . أما جيش المسلمين فلا يذكر عدده سوى مصدرين : فيقدره صاحب (الحلل) بمائة وأربعين ألفاً ، بينما يقدره صاحب (المعجب) بعشرين ألفاً (٣٧) . وأما جيش الروم فتذكر المصادر الإسلامية أرقاماً متباينة كثيراً لعدده ، ولعل أقربها إلى الحقيقة ما يذكره صاحب (الحلل) — ثمانون ألفاً — وابن الكردبوس — ستون ألفاً — وابن الأثير — خمسون ألفاً (٣٨) .

دارت رحى المعركة العظيمة في فحص الزلاقة (Sagrajas/Sacrajas) على أحد نهيرات وادي آنه المسمى ، نهر جيريرو ، على بعد نحو اثني عشر كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من مدينة بطليوس . وكان يوسف بن تاشفين — عملاً بمقتضى السنة — قد كتب قبل القتال إلى الفونس يعرض عليه الدخول في الإسلام أو الجزية أو القتال (٣٩) . وكتب الفونس إلى أمير المسلمين مكرماً منه يسمي يوم الاثنين للقتال بحجة أن يوم الجمعة عيد المسلمين ، وأن يوم السبت عيد اليهود

(٣٥) عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، القاهرة ١٩٤٩ ص ١٢٣ .

(٣٦) (La España del Cid) ص ٣٣٩ — ٣٤٩ .

(٣٧) الحلل الموشية ص ٤٤ . المعجب ص ١٣٣ .

(٣٨) الحلل الموشية ص ٤٤ . ابن الكردبوس : الاكضاء ، قطعة في المجلد الثاني من مجموعة دوزي

عن تاريخ بني عباد (Historia Abbadidarum) . ليدن ٤٦ — ١٨٦٣ ص ٢٣ .

(٣٩) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٧ ص ١٤٢ . هويثي ميراندا : مجلة هسبريس

(Hesperis) مجلد ٤٠ (١٩٥٣) وله بحث بعنوان : المرابطون ومعركة الزلاقة

(Los Almoravides y la batalla de Zallaqa) ، ص ٣٥ .

«وهم كثير في محلتنا» ، وأن يوم الأحد عيد النصرى ، فوافق يوسف على ذلك<sup>(٤٠)</sup> . غير أن المعتمد—وهو الأندلسي العالم بمكايد الروم—حذر يوسف بأن لا يثق بكلام الفونس ، إذ إنه قد يشن هجوماً مفاجئاً قبل اليوم المحدد ، وهذا ماحدث فعلاً ، إذ إن الفونس شن هجومه يوم الجمعة (١٢ رجب ٤٧٩هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م) على قوات أهل الأندلس . ولما تأخر وصولُ نجدة من المرابطين فر بعضُ الجنود الأندلسيين محتمين بأسوار مدينة بطليوس . ولم تلبث أن وصلت نجدة من المرابطين بقيادة داود بن عائشة ، فخفض مَقْدَمُها من وطأة الهجوم النصراني على المعتمد . وفي هذه الأثناء ، أرسل يوسف قوةً لمهاجمة محلة (معسكر) الفونس وإضرار النار فيها ، ومضى هو في أثر داود ابن عائشة ، وطوبله تصدع الجو وتهدأت الأرض مما أفرج رجالَ الفونس وخيولهم<sup>(٤١)</sup> . وما أن أبصر الفونس يوسف على رأس قواته حتى تحول للملاقاة تبعه معظمُ قواته ، وانتهت المعركة الحامية الوطيس بانزهاج ساحقٍ للفونس الذي تمكن من الفرار إلى تلي كان يلي محله في دون الخمسائة فارس ، بعد أن أباد القتل والأسر من عداهم ، وعمل المسلمون من رؤوسهم صوامع يؤذنون عليها<sup>(٤٢)</sup> . وفي أثناء احتدام القتال طعن غلام أسود بنحجره إحدى ركبتي الفونس ، وظل أثر الطعنة بقية عمره<sup>(٤٣)</sup> .

أما ابن أبي زرع فيضيف بأن يوسف أرسل قوةً بقيادة الأمير سير بن أبي بكر لنجدة

(٤٠) الحلل الموشية ص ٤٤ . أما الحميري فيقول إن الفونس بعث إلى المعتمد يقول : «غداً يوم الجمعة وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فليكن لقاءنا بينها وهو يوم السبت .» الروض المطار ص ٩٠ .

(٤١) أحمد مختار العبادي : في التاريخ العباسي والأندلسي ، بيروت ١٩٧٢ ص ٥١٩ . يرى المؤلف بأن المرابطين لعلمهم أخذوا عادة استخدام الطبول الضخمة من زونج افريقية ، إذ لا يزال الطبل الكبير يعرف في المغرب بطبل جناوة نسبة إلى غينيا .

(٤٢) الروض المطار ٩١—٩٣ . الحلل الموشية ص ٤٨ . ليني بروقتال مع آخرين : بحث بعنوان (Novedades sobre la batalla llamada de al-Zallaqa)

في مجلة (الأندلس) ، مدريد — غرناطة ، ج ١٥ (١٩٥٠)

ص ١١٦ و ١٤١ وما يليها .

(٤٣) الروض المطار ص ٩٢—٩٣ . الحلل الموشية ص ٤٨ .

داود بن عائشة والمعتمد ، بينما توجه هو بنفسه إلى محلة الفونس وأضرَم النار فيها وهاجم الجيش النصراني من الخلف ، ولما رأى الفونس النار تشتعل في محلته وأن المرابطين يهاجمونه من الخلف يادر بالانسحاب لملاقاتهم فأجهزوا على معظم من معه ، وظن المعتمد بادئ الأمر بأن انسحاب الفونس كان نتيجة لانتهزامه أمامه (٤٤) .

ويبدو أن قوات أهل الأندلس كانت قد صُفَّتْ قبل القتال على شكل خميس بحيث كان المعتمد في قلب المقدمة ، وكان ابن الأفطس في يمينها ، وأهل شرق الأندلس في يسيرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، أما المرابطون وأهل العدو فقد كانوا كائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء (٤٥) .

وقد كتب يوسف بأنباء النصر إلى بلاد العدو وإلى تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية . وبعث المعتمد بأخبار الانتصار العظيم فوراً إلى ابنه الشيد في أشبيلية مستعملاً حام الزاجل لهذا الغرض ، فعمَّ السرور بعد أن كان أهل أشبيلية أقتط ما كان في ذلك اليوم (٤٦) .

ومع أن صاحب (روض القرطاس) يقول إن يوسف بن تاشفين « في هذا اليوم [الزلاقة] تسمى بأمر المسلمين » إلا أنه يبدو ما ذكره صاحب (الحلل الموشية) — وعلى ضوء العُلمة المرابطة والوثائق — بأن يوسف بن تاشفين اتخذ لقب « أمير المسلمين » عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، ولم يعترض الخليفة العباسي في بغداد على اتخاذ يوسف لهذا اللقب ، خاصة بعد انتصاره العظيم في وقعة الزلاقة ، ومع ذلك فإنه لم يخاطبه به في كتبه إليه (٤٧) .

وكان هذا الانتصار العظيم الذي أحرزه المسلمون في الزلاقة — والذي يشبه بانتصارات المسلمين الأولى في اليرموك والقادسية — في يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ / ٢٣

(٤٤) روض القرطاس ص ٤٠ — ٤٣ .

(٤٥) الحُلل الموشية ص ٤٦ — ٤٧ .

(٤٦) نفس المصدر ص ٥٠ .

(٤٧) روض القرطاس ص ٩٦ . الحُلل الموشية ص ١٩ — ٢٠ . حسين مؤنس : بحث بعنوان « سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين » في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية مدريد ، مجلد ٢ (١٩٥٤) ص ٦٤ — ٦٦ .

أكتوبر ١٠٨٧ م ، وقد أشار إليه الأدباء والشعراء باسم يوم عروبة<sup>(٤٨)</sup> ويوم العروبة (يفتح العين) ، وهي من أسماء يوم الجمعة لغة عند العرب ، ومن شعر المعتمد يذكر يوم العروبة وبلاء يوسف بن تاشفين فيه :

ويومَ العَروبةِ ذدتِ العِدا  
نصرتِ الهدى وأبیتَ الفرارا  
ثبت هناك وإن القلوا  
بَ بين الضلوع لتأبى القرارا  
ولولاك ————— يوسف المتقى  
رأينا الجزيرة للكفر داراً<sup>(٤٩)</sup>

وفي ذلك يقول ابن جمهور من أدباء وفقهاء إشبيلية :

لم تعلم العجمُ إذ جاءت مصمعةٌ  
يوم العَروبة أن اليوم للعرب<sup>(٥٠)</sup>

ومن المدهش حقاً أن عبد الله بن باقين صاحب غرناطة الذي شارك في الزلافة يروي لنا هذا النصر المؤزر بصورة عابرة ومقتضبة ، لا بل إنه لا يستعمل اسم الزلافة ، بل يشير إلى الواقعة باسم وقعة بطليوس ، ولا يذكر اليوم أو التاريخ للمعركة ، ولا يتكلم عن دوره ودور بقية رؤساء الأندلس في القتال . ولعل ذلك يعود إلى أنه وبقيّة الرؤساء الأندلسيين — وربما باستثناء المعتمد بن عباد — لم يبلوا بلاء حسناً في ساحة القتال ، فهو يقول إن عسكر الرومي فجأ عسكر المسلمين وهم على غير إعداد ، وإن النصاري كانوا قد كلوا وثقلهم السلاح مع بُعد المسافة ، ثم يختم حديثه المقتضب عن المعركة معقّباً بأنه « لو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفتيين ومناطقتهما في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر . . . ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر<sup>(٥١)</sup> .

(٤٨) ابن خاقان : فلالد الطيبان ، القاهرة . ١٣٢ هـ ص ١٢ .

(٤٩) ديوان المعتمد بن عباد ، القاهرة ١٩٥١ ص ٩٧ .

(٥٠) الحلة السراء ، ج ٢ ص ١٠١ .

(٥١) التبيان ص ١٠٥ — ١٠٦ .

وقد ألحَّ المعتمدُ على أمير المسلمين بضرورة مطاردة العدو المنهزم والإجهاز عليه وعلى فلول عسكره ، الا ان يوسف اعتذر عن ذلك ورأى التريثَ حتي يرجعَ الأندلسيون المنهزمون ، ويقول الحميري إن الناس أخذوا يتكلمون في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقال شيعةُ ابن عباد إن يوسف خشي ان يهلكَ العدو الذي من أجله استدعاه المعتمد ، فيقع الاستغناء عنه ، وقال شيعةُ يوسف إن ابن عباد انما أراد قطعَ حبال يوسف من الرجوع إلى جزيرة الأندلس (٥٣) .

ولما فرغ يوسف من المعركة تواردت عليه أنباء اقتضت عودته بسرعة إلى بر العُدوة ، ويعلل بعضهم عودته إلى وصول نبأ وفاة اكبر أبنائه أبي بكر ، وكان قد تركه مريضاً في سبتة (٥٤) . وقد تكون عودةُ يوسف على وجه السرعة إلى المغرب بسبب وفاة ابن عمه أبي بكر بن عمر ، زعيم المرابطين ، الذي كان قد انتدب يوسف لتولي أمور المغرب ، فإذا صح هذا التفسير فإن يوسف قد يكون أراد من عودته الى مراكش أن يُدعمَ مركزه ويضمنَ مبايعته قبل أن يتقلدَ السلطةَ غيره من أبناء أسرته . وما يؤيد هذا الافتراض أن النقودَ المرابطيةَ كانت تحمل اسمَ أبي بكر بن عمر من عام ٤٥٠هـ / ١٠٥٨ م الى عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ م ، ثم أخذت تحمل اسمَ يوسف بن تاشفين ابتداء من عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧ م . (٥٥) ومهما يكن من أمر ، فإن أمير المسلمين لم يكن عند جوازه الأول إلى الأندلس يفكر في البقاء فيها ، فهذا صاحب غرناطة يقول : « لم يتربص [أمير المسلمين] في البلاد لئلا يوحشَ سلاطينها مما يتوقعونه من انجاش رعيتهن إليه » (٥٦) كما أن المراكشي يذكر بأن أمير المسلمين كان قد حدد لنفسه مدةً في الأندلس فلما انقضت تلك المدة أو قاربت عبرَ إلى العُدوة (٥٧) .

(٥٣) . روض القرطاس ص ٩٦ .

(٥٤) . الروض المطار ص ١٣ . لا يذكرُ عبدُ الله بن بلقين شيئاً عن هذا الطلب لابن عباد .

(٥٤) . الروض المطار ص ٩٤ ، الحلل الموشية ص ٥٣ ، روض القرطاس ص ٩٨ .

(٥٥) . روض القرطاس ص ٨٧ ، حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٥٦) . التبيان ص ١٠٧ .

(٥٧) . المعجب ص ١٣٨ .

## نتائج وقعة الزلاقة :

مع أن وقعة الزلاقة لم تكن في نتائجها حاسمة تماماً ، إلا أن انتصار المسلمين فيها نتج عنه توقف ملوك الطوائف عن دفع الجزية لألفونس السادس ، كما أن هذا الانتصار انعقد غرب الأندلس من غارت الفونس المدمرة ، وافقده عدداً كبيراً من خيرة جنوده المدربين ، وأهمهم من ذلك كله أن انتصار الزلاقة انعش آمال أهل الأندلس ورفع من معنوياتهم . أضف إلى ذلك أن قدوم المرابطين اضطر الفونس إلى رفع الحصار الذي كان يضربه على مدينة سرقسطة ، وكانت توشك على السقوط في يده ، كما أضطره إلى سحب الحامية القشتالية التي كان يحتفظ بها في بلنسية لمساندة وحماية صنيته القادر بن ذي النون ، الذي كان قد نصبه أميراً لها عوضاً له عن طليطة . وارتفعت مكانة المعتمد بين أهل الأندلس لمبادرته في استدعاء المرابطين ولبلائه — دون غيره من ملوك الطوائف — في المعركة . ومع ذلك ، فإن يوسف بن تاشفين لم يحاول استرداد طليطة ، ولم يتمكن من أن ينجي من هذا الانتصار كل الثمار التي كان يأمل فيها ملوك الطوائف . (٥٨) ومهما يكن من أمر ، فإن الانتصار الذي أحرزه المسلمون في الزلاقة — بفضل تدخل المرابطين — قد حال دون سقوط الأندلس كلها في أيدي النصارى ، وهو ما كان سيحدث دون شك قبل نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فكان أن مدَّ الانتصار من عمر الوجود الإسلامي في جزيرة الأندلس قروناً .

وسرَّ أهل الأندلس بالمرابطين وبأمر المسلمين ، وكثُر الدعاء له في المساجد ، وذلك أن الأندلس — كما يقول المراكشي — « كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها واخذهم الأتاوة من ملوكها قاطبة ، فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين ، أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور » (٥٩) . ويعقب الأمير الزيري المعاصر عبد الله ابن بلقين بقوله : « ولما انقضت غزوه تلك جمعنا في مجلسه ، أعني رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالانفاق والاتلاف ، وإن تكون الكلمة واحدة ، وإن النصارى لم تفرصنا إلا للذي كان من تشننا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكل أن وصيته مقبولة ، وإن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة » (٦٠) .

(٥٨) (La España del Cid) ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٥٩) المعجب ص ١٣٥ .

(٦٠) البيان ص ١٠٦ .





## المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية

( ت ٤٨٨ هـ / ١٩٠٥ م )

( سيرته وشخصيته من خلال شعره )

لعلَّ شهرة المعتمد بن عباد في كتب التاريخ والأدب تقوم على كونه شاعراً مبدعاً أكثر من كونه ملكاً. فالمعتمد ، كأبيه المعتضد وجده وسميَّه القاضي أبي القاسم محمد بن عباد ، وكأبنائه هو من بعده ، نظم الشعر ، إلا أنه بموهبته الشعرية فاقهم بكثير ، كما فاق غيره من ملوك الطوائف بالأندلس . كان المعتمد شاعراً من الطراز الأول ، وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أدبياً شاعراً حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد من قبله<sup>(١)</sup> . وفي عهد المعتمد كان للشعراء عصرهم الذهبي ، وتقاطر خيرتهم إلى بلاطه من الأندلس وصقلية وإفريقية<sup>(٢)</sup> . وشعر المعتمد كثير المُلحِ جداً (bons mots) ، وقد شُبَّ بالحُلل المنشرة<sup>(٣)</sup> .

وفي وسع القاريء لأشعار المعتمد أن يدرسَ من خلالها شخصيته وأن يكتبَ سيرته . كذلك فإن المعتمدَ يشير في أشعاره إلى الأحداث الهامة في زمنه ، كشفله في عهد أبيه في الاستيلاء على مالقة من أيدي بني زيري أصحاب غرناطة (٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م) ، واستيلائه على قرطبة من بني جَهْوَر (٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م) ، وانتصار الزلافة (٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م) . أجل ، إن حياة المعتمد هي شعره وشعره حياته<sup>(٤)</sup> . ويرى

(١) المعجب ١٠٥ . أعال ١٥٧ .

(٢) الحُلَّة ٥٥/٢ .

(٣) المعجب ١٠١ ، مجموعة دوزي عن بني عباد ٣٠/٢ (قطعة من أخبار الملوك لأمير حماة الملك المنصور) .

(٤) ظُهر الإسلام ١٧١/٣ .

المستشرق الأسباني غارسية غومس بأن المعتمد «كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه : أولها أنه كان ينظم شعراً يؤثر الإعجاب ، وثانيها إن حياته نفسها كانت شعراً حياً ، وثالثها أنه كان راعي شعراء الأندلس أجمعين ، بل شعراء الغرب الإسلامي كله» (٥) .

وكان المعتمد يتحلّى بخلال حبيته إلى رعيته لا بل وإلى أهل الأندلس عامة ، منها الجود والحلم والتواضع والفروسية ، فضلاً عن موهبته الشعرية ، لذلك فإنهم تأسفوا عليه فيما بعد في محنته عند خلعه ونفيه .

إن الغالب على أسلوب المعتمد في أشعاره الرقة والسلاسة والبساطة ، وقلاً يحتاج القاريء العربي إلى الاستعانة بمعجم لغوي لتفسير مفرداته . أما الموضوعات التي طرقتها في مقطوعاته الشعرية قبل خلعه فكانت في معظمها موضوعات غزلية ووصفية وسياسية ومن البحور الشعرية القصيرة المرحية ، بالمقابلة إلى البحور الطويلة الرزنية التي نظم فيها مراثيه أثناء محنته وأسرره في أغاث (٦) .

وسنحاول في هذا البحث أن نستعرض نتفاً من شعر المعتمد الذي نظمه أميراً وملكاً وأسيراً ، بقصد محاولة التعرف على شخصيته ، وعلى موهبته الشعرية ، وكذلك على التطورات والأحداث التي عاصرها .

### المعتمد أميراً

ولد المعتمد في باجة (Beja) — في البرتغال حالياً — سنة ٤٣١ هـ / ١٠٤٠ م (٧) . وكان والده المعتضد قد ولّاه على ولبة (Huelva) في إقليم الغرب (Algarve) عام ٤٤٣ هـ / ١٠٥٢ م ولما يتجاوز المعتمد الثالثة عشرة من عمره ، ثم بعد أن استولى المعتضد على شلب (Silves) انتقل المعتمد إليها وأصبحت شلب مقرّ عامل إقليم الغرب (٨) . ولما

(٥) الشعر الأندلسي ٤٧ .

(٦) الديوان م ٣٠ — ٣٢ .

(٧) الحلة ٥٣ / ٢ .

(٨) العبر ، قطعة في مجموعة دوزي عن بين عباد ٢ / ٢١٠ وما بعدها .

قتل المعتضدُ ابنَه الأكبرَ ووليَّ عهده اسماعيلَ بتهمة التآمر على حياته (١٠٥٩/٥٤٥ م) ، استدعى المعتضدُ من شلب إلى إشبيلية وولاه عهده .

وفي شلب كان المعتضد قد تعرّف على شاعرٍ محليٍّ قدّر له فيما بعد أن يلعبَ دوراً خطيراً في أحداث الأندلس ، ألا وهو أبو بكر محمد بن عمار الذي أصبح صديقاً حميماً للمعتضد . إلا أن المعتضد لم يكن راضياً عن علاقة ابنه بابن عمار ، ولذلك فانه أبعدَ الشاعرَ فيما بعد عن إشبيلية <sup>(٩)</sup> .

حدث ذات يوم ان ركب المعتضد في نهر الوادي الكبير ومعه ابنُ عمار ، وقد زردت الريحُ النهرَ فقال المعتضد لابن عمار ، أجزّ : صنعَ الريحُ من الماء زرد . ولما أطال ابنُ عمار الفكرَ قالت امرأةٌ من الغسّالات : أيّ درع لقتال لو جمد . فأعجب المعتضدُ بحضور بديعتها وجالها وسألها عنّ تكون ، فأجابت بأنها اعتماد جارية رُميك بن حجاج ، فابتاعها المعتضدُ من مولاهما وتزوجها <sup>(١٠)</sup> . وقد ارتبط المعتضد طيلة حياته ارتباطاً وثيقاً باعتماد ، ولم يرقّ ذلك لأبيه باديء الأمر ، كما أسخط الفقهاء فيما بعد إذ اتهموها بصرف المعتضد عن واجباته الملكية والدينية . وبلغ من تعلقه بها ان اتّخذَ لقبه من حروف اسمها ، وله فيها ، وقد ضمّن أوائلَ الأبيات حروفَ اسمها <sup>(١١)</sup> .

أغائبةَ الشخص عن ناظري  
وحاضرةً في صميم الفؤاد  
عليك السلام بقدر الشجون  
ودمع الشؤن وقدر السهاد  
تملّكت منّي صعب المرام  
وصادفت منّي سهل القياد  
مرادِي أعياكِ في كل حين  
فيا ليت أني أعطى مرادي

(٩) المعجب ١١٧ . الحلة ١٣١/٢ .

(١٠) نفع الطب ٣٤٢/٥ .

(١١) الحلة ٦١/٢ .

أَقْبِمِي عَلَى الْعَهْدِ فِي بَيْنِنَا  
 وَلَا تَسْتَحِيلِي لَطُولَ الْبَعَادِ  
 دَمَسْتُ اسْمَكَ الْخَلَوَ فِي طَبِيبِهِ  
 وَأَلْفْتُ فِيكَ حُرُوفَ «اعْتِمَادِ»

ولا يُذكر شيء عن حياة المعتمد في إشبيلية بعد عام ٤٥٠هـ/١٠٥٨ م إلى حين فشل الحملة التي وجهها المعتضد بقيادة المعتمد الشاب لانتزاع مالقة من يد باديس بن حبوس ، صاحب غرناطة (٤٥٨هـ/١٠٦٦ م) ، وهي الحملة التي باءت بالفشل ، ونجا المعتمد بصعوبة معتصماً في حصن رُنْدَةَ المجاور، حيث أخذ يستعطف أباه شعراً مبرراً لفشل الحملة. وقد نفى المعتمد ما اتهم به من الانشغال بالشراب والنساء فقال من قصيدته الرائية (١٢) :

لَمْ أَوْتَ مِنْ زِمْنِي شَيْئاً أَلْذُّ بِهِ  
 فَلَسْتُ أَعْرِفُ مَا كَاسٌ وَلَا وَتَرُ  
 وَلَا تَمْلِكُنِي دَلٌّ وَلَا خَفَرُ  
 وَلَا تَمْرُسُ بِي غُنْجٌ وَلَا حُورُ

ثم يَمْضِي إِلَى التَّعْرِيزِ بِفَتْةٍ مِنَ الْمَغَارِبَةِ خَذَلُوهُ وَكَانُوا سَبَباً فِي الْهَزِيمَةِ :

مَا الذَّنْبُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ ذَوِي دَغَلٍ  
 وَفِي لَهْمٍ عَفْوُكَ الْمَعْهُودُ إِذْ غَدَرُوا  
 قَوْمٌ نَصِيحَتُهُمْ غِشٌّ، وَحُبُّهُمْ  
 بَغْضٌ، وَنَفْعُهُمْ إِنْ صُرِفُوا ضَرَرُ

وكتب كذلك إلى والده يسترضيه (١٣) :

مَوْلَايَ أَشْكُو إِلَيْكَ دَاءَ  
 أَصْبَحَ قَلْبِي بِهِ جَرِيحاً

(١٢) لَاحِد ١٩ . الْحَلَّة ٥٧/٢ .

(١٣) لَاحِد ١٩ . الطَّرِب ١٦ .

إن لَمْ يُرَخِّهِ رِضَاكَ عَنِّي  
فَلَسْتُ أَدْرِي لَهُ مَرْحَا  
سَخَطُكَ قَدْ زَادَنِي سُقَامَا  
فَابْعَثْ إِلَيَّ الرِّضَا مَسِيحَا

ويبدو ان المعتمد ، بتشجيع من والده ، أخذ ينظم الشعر في حداثة سنه ، ولا بد أن موهبته الشعرية قد نشطت لكثرة الشعراء في بلاط أبيه من أمثال أبي الوليد أحمد ابن زيدون .

كان المعتمد مولعاً منذ أيام صباه بالصيد وركوب الخيل . كتب إلى أبيه شعراً يلتمس منه جواباً (١٤) :

لِعَبِيدِكَ هَمَّةٌ هَامَتْ  
بِرِكَضِ الضُّمْرِ الْجُرْدِ  
وكتب إلى والده يستأذنه بالخروج إلى الصيد (١٥) :

عبيدك مولع بالصيد قَدْماً  
وَحُبُّ الصَّيْدِ مِنْ شَيْمِ الْكِرَامِ  
وجرباً على عادة شعراء الأندلس آنذاك ، نظم المعتمد أبياتاً يصف فيها مِجَنَّا وتُرْساً وشمعةً وعوداً .

وبناء على تعليمات أبيه ، دفع المعتمد مجلسه عن مجلس مؤدبه ابن زيدون ، ولكنه أعرب عن تواضعه واحترامه للشاعر والوزير بانشاده (١٦) :

أَيُّهَا الْمُنْحَطُّ عَنِّي مَجْلِسَا  
وَلَهُ فِي النَّفْسِ أَعْلَى مَجْلِسِ

---

(١٤) الديوان ٣٤ .

(١٥) الديوان ٤٤ .

(١٦) قلاهد ٧ .

بفؤادي لك حبٌ يقتضي  
أن تُرى تُرفعُ فوق الأرواس

وكما يقول ابن الأبار ، فإن المعتمد كان مولعا بالشراب والدعة ، خصوصا في أيام شبابه وفي السنوات الأولى من توليه الملك <sup>(١٧)</sup> . وما قاله في ذلك <sup>(١٨)</sup> :

مررتُ بكرمةٍ جذبتُ ردائي  
فقلتُ لها : عزمتِ على أذائي  
فقلتُ : لِمَ مررتَ ولم تسلِّم  
وقد رويتُ عظامك من دماي  
استدعى المعتمدُ يوما ابن عمار لمشاركته في مجلس أنسه فقال <sup>(١٩)</sup> :

قد زارنا النرجسُ الذكي  
وحان من يومنا العشي  
ونحن في مجلس أنيق  
وقد ظمئنا وثم ريُّ  
ولي خليل غدا سميي  
يا ليتته ساعد السمي  
وبلغه أن جماعة من الأصحاب قد أمضوا نزهةً ممتعةً في مدينة الزهراء ، فبعث يدعوهم إلى حفلٍ في قصره في قرطبة <sup>(٢٠)</sup> :

حسد القصرُ فيكمُ الزهراء  
ولعمري وعمركم ما أساء  
قد طلعتُمُ بها شموساً صباحا  
فاطلعوا عندنا بدورا مساء

(١٧) الحلة ٥٤/٢ .

(١٨) الديوان ٢ .

(١٩) المطرب ١٦ وما بعدها .

(٢٠) قلايد ١٠ .

كان المعتمد في نحو الثلاثين من عمره حينما خلف أباه على عرش اشيلية (٤٦١هـ/١٠٦٩م). وعلى العكس من والده الذي اشتهر بالقسوة والبطش ، فان المعتمد تميز بالحلم والصفح . حدث بعيد توليه الملك ان نظم بعض حساد ابن زيدون أبياتا وجهوها إلى المعتمد يتهمون فيها الشاعر بارتياحه لوفاة المعتضد ، ويحثون المعتمد على الانتقام منه . ولكن المعتمد ، وكان يدرك ما في نفوسهم ، رد عليهم بأبيات تنم عما في سجيته من وفاء وكرم ، منها (٢١) :

كذبتُ مُناكم صرّحوا أو جمجموا  
فالدين أمتنُ والسجية أكرم  
أتى رجوتكم غدر من جرّتم  
منه الوفاء وظلم من لا يظلم

وفي نفس المعنى قال المعتمد مطمئناً وزيره ابن عمار قبيل استيلاء الأخير على مرسية (٤٧١هـ/١٠٧٨م) ، وكان الشاعر قد أحسّ بوحشة نحوه من جانب المعتمد (٢٢) :

متى تلقني تلق الذي قد بلّوته  
صفوحاً عن الجاني ، رؤوماً على الصحب  
فا أشعر الرحمن قلبي قسوة  
ولا صار نسيان الأذمة من شيعي

استولى المعتمد على قرطبة من بني جهور (٤٦٢هـ/١٠٧٠م) ، ونظم قصيدة من خمسة أبيات يعبر فيها عن اعتزازه بتملك عاصمة الخلافة القديمة ، ويحذر بقية ملوك الطوائف مما سيحل بهم على يديه (٢٣) :

من للملوك بشأو الأصيد البطل  
هيات جاءتكم مهدية الدول

(٢١) الذخيرة (مخطوط) في مجموعة دوزي عن بني عباد ٣٠٢/١ وما بعدها . قلائد ١٥ .

(٢٢) الحلة ١٣٦/٢ .

(٢٣) قلائد ١١ .

خطبتُ قرطبةَ الحسناءَ اذ منعتُ  
 من جاء يخطبُها بالبيض والأسل  
 وكم غدت عاطلا حتى عرضتُ لها  
 فأصبحتُ في سريّ الحلي والحُلل  
 عرسُ الملوك لنا في قصرها عُرسُ  
 كلُّ الملوك به في مآتم الوجل  
 فراقبوا عن قريبٍ لا أبالكم  
 هجومٌ ليثٍ بدرع البأس مشتملٍ  
 والمعتمد في ذلك يجذو حذو أبيه المعتضد ، الذي كان قد نظم أبياتا مبديا فيها سروره  
 لانتزاعه رُندة الحصينة من يد صاحبها ابن أبي قرّة (٤٥٧هـ / ١٠٦٥ م) ومطالبها رعاياه  
 بحفظها ، ومطلعها (٢٤) :

لقد حُصِّلَتِ يا رندة  
 فصرتِ لملكنَا عُدَّة

ما ان ارتقي المعتمدُ العرشَ حتى استدعى صديقه الشاعرَ أبا بكر بن عمار من منفاه في  
 سرقسطة وولّاه على شلب ، وكتب اليه يحنُّ إلى أيام صباه وهو فيها ، وقت ان كان واليا  
 لأبيه عليها (٢٥) :

ألا حيّ أوطاني بشلبِ أبا بكر  
 وسلهنَّ هل عهدُ الوصال كما أدري  
 وسلّم على قصرِ الشرابيب من فتى  
 له أبدا شوقٌ إلى ذلك القصر  
 منازلُ آسادٍ وبيضٍ نواعم  
 فناهيك من غيلٍ وناهيك من خدر  
 وفي قصيدة من ثمانية أبيات نظمها في مستهل تولّيه الملك ، يصف المعتمدُ ما كان يحفُّ

(٢٤) الذخيرة (مخطوط) في مجموعة دوزي عن بني عباد ٢٤٧/١ .

(٢٥) قلاذ ٥ .



به من أبهة وعز، منها (٢٦) :

ولقد ثرى الراح يسطع نورها  
والليل قد مدّ الظلام رداء  
حتى تبدى البدر في جوزائه  
ملكاً تنامى بهجة ورواء  
وحكيته في الأرض بين مواكب  
وكواعب جمعت سناً وسناء

يعتبر المعتمد في طليعة شعراء الغزل في الأدب العربي ، والكثير مما نظم من الشعر قبل توليه الملك وفي السنوات الأولى من ملكه كان شعراً غزلياً . قال منشوقاً إلى اعتماد (٢٧) .

كبت وعندي من فراقك ما عندي  
وشوقي كمن قد بان عن جنة الخلد  
وما خطت الأقلام إلا وأدممي  
تخط سطور الشوق في صفحة الخد  
ولولا طلابُ المجد زرتك طيبه  
عميداً كما زار الندى ورقَ الورد

وقال في أبيات رقيقة يتغزل في إحدى جواريه (٢٨) :

يسا ليت مدةً بمدك  
رشيقاً مثل قدك  
كم مدة الورد ، ورد  
الربيع ، لا ورد خدك  
فممرُ ذا عمر صبري  
وعمرُ ذا عمر صدك

(٢٦) قللاد ٦ .

(٢٧) الديوان ٦ .

(٢٨) الديوان ١٠ .

رضيت منك وإن لم  
تُنجز بلذوق وعدك

كان المعتمد مغرماً بإنشاد أشطارٍ من الشعر ومطالبة جلسائه باجازتها. وبهذه الطريقة اختبر المعتمدُ أجادةَ عبد الجبار بن حمديس الشعر قبل أن يلتحق بشعراء بلاطه. وكان ابن حمديس قد وصل إلى إشبيلية (٤٧٠هـ/١٠٧٨م) نازحاً عن مسقط رأسه سرقوسة في صقلية قبيل سقوطها في أيدي النورمان<sup>(٢٩)</sup>.

كان المتنبي شاعرَ المعتمد المفضل، وكثيراً ما كان يردد أشعاره ويبحثها في مجالسه. أنشد المعتمدُ يوماً بيتاً للمتنبي، فقال أحد شعراء البلاط عبد الجليل بن وهب<sup>(٣٠)</sup>:

لئن جاد شعراً ابن الحسين فانما  
تجيدُ العطايا واللها تفتح اللها  
تنبأ عجباً بالقريض ولو درى  
بأنك ترويه إذا لتألها

فكافاه المعتمد بمائة دينار!

وفي أثناء حملة الزلافة، امتدح أبو محمد الحجاري المعتمد في قصيدة ورد فيها البيت التالي<sup>(٣١)</sup>:

ولا سقاهم على ما كان من عطشٍ  
إلا ببعض ندى كف ابن عباد

ويقول الحجاري إن المعتمد أخذ يتمعن في القصيدة «وأنا مترقب لنقده، لكونه في هذا الشأن من أئمة، وكثيراً ما كان الشعراء يتحامونه لذلك إلا من عرف من نفسه التبريز». وتلقى الحجاري هبة سخية مكنته من أن يبدأ مشروعاً ناجحاً في المرية.

لقد كان المعتمدُ مضرباً للأمثال في سخائه وكرمه. تلقى بعد توليه الملك هديةً وقصيدة

(٢٩) نفع الطيب ١٥٠/٥ وما بعدها.

(٣٠) المطرب ١١٨.

(٣١) نفع الطيب ١١٠/٥ وما بعدها.

مدح من ابن عمار ، فبعث اليه المعتمدُ بهدية وبمبلغ كبير من المال وشكره في البيت التالي (٣٢) :

فلو ان بيتَ المال يحوي قفله  
أضعافها لكسرته من بابه

وبعد أن ساءت العلاقة بين ابن عمار وراعيه المعتمد بشأن أحداث مرسية — حيث تطَّلَعَ ابنُ عمار إلى الانتراء فيها — ووقع آخر الأمر في يد المعتمد ، نظم ابنُ عمار قصيدةً يلتمس فيها صفحه ، ومنها (٣٣) :

وبين ضلوعي من هواه تيممة  
ستنفع لو أن الحمامَ يجلح

فسخر عراقي كان حاضرا في المجلس من القصيدة ، إلا أن المعتمد قال : انه رغا عن نكران ابن عمار للجميل ، فانه لم تعوزه الفطنة ، إذ إنه في البيت كان يشير إلى بيت للهذلي :

وإذا المنية أنشبت أظفارها  
ألفيت كل تيممة لا تنفع

بعد عام ٤٧٥هـ / ١٠٨٢ م — حينما قتل المعتمدُ ابنَ شاليب اليهودي مبعوثَ أدفونش لتسلم الضريبة — وبعد عام ٤٧٧هـ / ١٠٨٤ م — حينما قتل المعتمدُ ابنَ عمار لغدره وهجائه المقذع للمعتمد وأسرته — لم يبقَ سرور حقيقي في حياة المعتمد .

وإزاء ازدياد خطر أدفونش السادس ملك ليون وقشتالة وتهديده للمعتمد وبقية ملوك الطوائف ، بادر المعتمدُ إلى الاستعانة بـيوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في المغرب ، وقوبلت هذه المبادرة من جانب المعتمد بالارتياح من قبل الأندلسيين عامة . فهي هو الأديبُ والجغرافيُ الأندلسيُّ المعاصرُ أبو عيينة البكري يمتدحُ المعتمدَ لاستدعائه المرابطين

(٣٢) الحلة ١٦٢/٢ .

(٣٣) المعجب ١٢٦ وما بعدها . قلاوڤ ١٠١

ويقول (٣٤) :

فجزت أجاج البحر تبغي زلاله  
وذقت جنى الأهوال تبغي جنى الشهد  
محمد يا ابن الأكرمين أرومة  
لهنك تشيب المكارم والمجد  
فلو خلّد الانسان بالمجد والتقى  
وآلائه الحسنى لهئت بالخلد

هذا في وقت كان فيه الفقهاء يحملون على ملوك الطوائف لتخاذلهم وانقساماتهم بدلا  
من الوقوف صفا واحدا أمام هجمات النصارى ، مما أدى إلى سقوط طليطلة  
(٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م) . فأبو القاسم الإلبيري المعروف بالسيسري يقول (٣٥) :

نناد الملوك وقيل لهم  
ماذا الذي أحدثتم  
أسلمتم الإسلام في  
أسر العدا وقعدتم  
وجب القيام عليكم  
إذ بالنصارى قتم  
لا تنكروا شق العصا  
فصا النبي شققتم

وقيل وقعة الزلافة (٤٧٩هـ / ١٠٨٦ م) بعث المعتمد بالأبيات التالية إلى يوسف ابن  
تاشفين (٣٦) :

غزو عليك مبارك  
في طيه الفتع القريب

(٣٤) الحلة ٢ / ١٨٧ .

(٣٥) الدخيرة ٢ / ١ ص ٣٧٤ .

(٣٦) الحلل الموشية ٤٦ . ويوم القليب هو يوم بدر .

لله سيفك إنه  
سخط على دين الصليب  
لا بد من يوم يكون  
له أخ يوم القليب

ويبدو أن المعتمد ، دون بقية ملوك الطوائف ، أبلى بلاءً حسناً في وقعة الزلاقة في حين  
فرَّ جانبٌ من القوات الأندلسية من ساحة القتال . وقد جرح المعتمد وأبنت عليه شاعريته  
حتى في ميدان الوعى إلا أن يقول شعراً ، ذاكرًا ابنه الطفل الذي لحقه في إشبيلية (٣٧) :

أبا هاشم هشمي الشفار  
فلا لله صبري لـذاك الأوار  
ذكرتُ شخصيك ما بينها  
فلم يثنني حُبُّه للفرار

وللمعتمد قصائدٌ ساخرةٌ عارض في إحداها قصيدةً لابن عمار  
كان حمل فيها ابن عمار على ابن عبد العزيز صاحب بلنسية ، وفي قصيدة أخرى عاتب عابثاً  
ابنه الراضي الذي كان قد تمارس في لورقة حيناً أمره والده بأن يقود قوةً ضد القشتاليين  
الذين ما انفكوا يغيزون من حصن ليط (Aledo) على منطقة مرسية ويروعون سكانها  
بعد وقعة الزلاقة . وكان الراضي محباً للكتب والمطالعة وشاعراً ناشئاً . ومن أبيات قصيدة  
المعتمد المازلة الساخرة بابنه (٣٨) :

المُلكُ في طيِّ الدفاتر  
فتخلَّ عن قود العساكر  
طفً بالسريـر مسلماً  
وارجع لتوديع المناير  
أولست نذكرُ وقتَ لو  
رقةٍ وقلبك ثم طائر

(٣٧) الحلل الموشية ٤٧ . روض القرطاس ٩٨ .

(٣٨) قلائد ٣٤ .

لا يستقر مكانه  
وأبوك كالضرغام خادر  
هلا اقتديت بفعله  
وأطعمته إذ ذاك أمر

وردّ يزيد ، الملقّب بالراضي ، على أبيه معتذرا ومتوسلا عفوه في قصيدة من سنة  
وثلاثين بيتا في نفس الوزن والقافية ومنها (٣٩) :

مولاي قد أصبحت كافر  
يجمع ما تحوي الدفاتر  
وعلمت أن الملك ما  
بين الأسنة والبواتر  
لا تنس يا مولاي قو  
لـ ضارع لا قول فآخر  
ضبط الجزيرة عندما  
نزلت بمعقوتها العساكر

وفي البيت الأخير يشير الراضي إلى أول نزول المرابطين في الجزيرة الخضراء  
(٤٧٩هـ/١٠٨٦ م) حينما كان هو واليا عليها ، فصمد فيها إلى أن جاءه كتاب أبيه بأمره  
فيه باخلاء الجزيرة الخضراء للمرابطين .

وأثناء حصار المرابطين والأندلسيين لحصن ليظ Aledo ، الذي اعتصم فيه جنودُ  
النصارى (٤٨١هـ/١٠٨٨ م) ، بذل المعتصمُ بن صمّاح صاحبُ المربة — وكان شديدَ  
الغيرة والحسد للمعتد — قصارى جهده للايقاع بين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين  
والمعتد . ولما علم المعتدُ بسعايات ابن صمّاح ، حذّره قائلا (٤٠) :

يا من تعرّض لي يريدُ مساعني  
لا تعرّصنُ فقد نصحتُ لمندم

(٣٩) قلايد ٣٥ وما بعدها . الحلة ٧٥/٢ .

(٤٠) قلايد ١٤ .

مَنْ عَرَّهْ مِنْ خِلَاقٍ سَهْلَةً  
فَالسُّمُّ تَحْتَ لِيَانِ مَسِّ الْأَرْقَمِ

المعتمد أسيرا :

لما قرر يوسفُ بن تاشفين خلعَ ملوك الطوائف في الأندلس بعد استشارته الفقهاء ونيل موافقتهم ، بدأ بصاحب غرناطة عبد الله بن بلقين ، ثم ثنى بالمعتمد الذي بنى على المقاومة في كل من قرطبة وإشبيلية . ونظم المعتمدُ القصيدةَ التالية التي تعبَّرُ خير تعبير عما كان يختلج في نفسه من رغبة في الدفاع عن ملكه حتى النهاية<sup>(٤١)</sup> :

لَا تَمَسُّكَ السُّدْمُوعُ  
وَتَنْبَهَ الْقَلْبُ الصَّدِيعُ  
قَالُوا الْخَضُوعُ سِيَاسَةٌ  
قَلْبِي بُدِّ مِنْكَ لَمْ خَضُوعُ  
وَالْعِزُّ مِنْ طَعْمِ الْخَضُوعِ  
عَ عَلَى فِي السُّمِّ النَّقِيعِ  
إِنْ يَسْلُبُ الْقَوْمُ الْعَمَدَا  
مَلَكِي وَتَسْلُمْنِي الْجُمُوعُ  
لَمْ أُسْتَلْبِ شَرَفَ الطَّبَا  
عَ أَيْسَلْبُ الشَّرْفُ الرَّفِيعُ  
قَدْ رَمْتُ يَوْمَ نَزَالِهِمْ  
أَلَا تَحْصُنُنِي السُّدْرُوعُ  
وَبَرَزْتُ لَيْسَ سِوَى الْقَمِيصِ  
عَ عَلَى الْحَشَا شَيْءُ دَفُوعِ  
وَبِذَلِكَ نَفْسِي كَيْ تَسِيلَ  
إِذَا يَسِيلُ بِهَا النُّجُوعُ

(٤١) قلائد ٢٢ . المعجب ١٤١ وما بعدها . الحلة ٢/٦٥ وما بعدها .





كم سال في الماء من دمع وكم حملت  
تلك القطائع من قطعات أكباد

لقد أحبّ الإشبيليون المعتمد ، ولعلّ ذلك يفسّر المقاومة التي أبدّوها في وجه  
المرابطين . لقد احبوا فيه شاعريته وكرمه وحلمه وشجاعته وفروسيته ، ورحبوا باستدعائه  
المرابطين لنصرة أهل الأندلس . وفي عهده شهدت أشبيلية رخاء كبيرا ، وأصبحت عاصمة  
لأكبر وأقوى مملكة من ممالك الطوائف . لذلك فإن أهل أشبيلية نظروا إلى سقوط اسرة بني  
عباد على أنه نهاية حقبة مجيدة في تاريخ مدينتهم .

بني المعتمد وأسرته في طنجة أياما ، ثم نُقلوا منها إلى مكناس حيث أمضوا بضعة  
شهور . وفي الطريق إلى مكناس أبصر المعتمد موكبا من الناس يصلون صلاة الاستسقاء ،  
فأنشد بيتين يفيضان حسرة على ما ألمّ به <sup>(٤٤)</sup> :

خرجوا ليستسقوا فقلت لهم  
دمعي ينوب لكم عن الأنواء  
قالوا حقيق في دموعك مقنع  
لكنها ممزوجة بدماء

تقرّر نقل المعتمد من مكناس إلى اغمات ، وفي الطريق إلى اغمات يبدو أن المعتمد عتب  
على ابنه الرشيد عتبا أفرط فيه ، فكذب الرشيدُ اليه مستعظفا <sup>(٤٥)</sup> :

يا حليفَ الندى وربّ السماح  
وحبيبَ النفوس والأرواح  
من تمام النعمى عليّ التماحي  
لحمة من جبينك الوضّاح  
فأجابه المعتمد <sup>(٤٦)</sup> :

(٤٤) خريدة القصر ، كما في مجموعة دوزي عن بني عباد ٣٨٣/١ . الديوان ٨٩ .

(٤٥) الحلة ٦٩/٢ وما بعدها .

(٤٦) الحلة ٧٠/٢ .

كنتُ حلفَ الندى وربَّ السماح  
وحبيبَ النفوس والأرواح  
إذ يمضي للبذل يوم العطايا  
ولقبض الأرواح يوم الكفاح  
وأنا اليوم رهنُ أسيرٍ وفقرٍ  
مستباحُ الحمى مهيضُ الجناح  
لا أجيبُ الصريحَ إن حضرَ النا  
سُ ولا المعتقين يوم السماح

لقد تقرر أن تكون أغاث مقرأ لاقامة المعتمد وأسرته في المنى ، ولعل اختيارها يعود إلى كونها غير بعيدة عن مراكز العاصمة ، وإلى أنه يتعدّر على المعتمد النجاة منها أو إحداثُ القلاقل للمرابطين في مملكته السابقة . وتقع اغاث على بعد نحو خمسة وعشرين ميلا إلى الجنوب من مدينة مراکش ، وكانت أكبر مدن جنوب المغرب إلى أن بنى المرابطون مراکش واتخذوها عاصمة لهم (٨٤٦٢/١٠٧٠ م) . ويصف الجغرافيون العرب مدينة اغاث في القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي بأنها مدينة مزدهرة تحيط بها البساتين ، كما أنها كانت مركزا ثقافيا نشطا اجتذب الكثيرين من الفقهاء والأدباء من قرطبة والقيروان (٤٧) .

نقل المعتمد وأسرته إلى قلعة أغاث ، ولم يُقيد بالأغلال إلا بعد عامين من وصوله ، بعد أن تزعم ابنه عبد الجبار ثورةً ضد المرابطين في جنوب الأندلس ، وفي ذلك يقول ابن خاقان : «ولما زار الشبل خيف ثورة الأسد» (٤٨) .

وقد وُفّى للمعتمد وزاره في أغاث شعراء بلاطه السابقون كابن اللبّانة ، وابن حمديس . والحجاري وابن عبد الصمد . وكان ألمه في منفاه في أغاث في الحقيقة نفسياً ناتجا عن فقدانه لسلطانه وجاهه . وتتميز القصائد العديدة التي نظمها المعتمد أثناء أسره بالصدق والأسى . فقدانه مملكته وحرته ، ومصرع عدد من أبنائه ، والقيّد الذي كان

(٤٧) دائرة المعارف الإسلامية: (الطبعة الجديدة) ٢٥٠/٩ وما بعدها تحت مادة «أغاث» .

(٤٨) قلائد ٢٦ .

يرسف فيه ، والمشاق التي تعرض لها أفراد أسرته — كل ذلك حَزَّ في نفسه وترك فيها أثراً عميقاً أوحى إليه نظم بعض من أجود قصائده ، وبذلك أثرى التراث الأدبي العربي . وفي هذه القصائد ، لا يتحدث المعتمد بلهجة الوعيد أو الثأر ، بل يبكي فيها حظه ويعبر عن الاستسلام للقدر وما خبَّاه له . لقد وجد عزاءه في الشعر ، وبه عبَّر عن أعمق أحاسيسه وأصدق مشاعره .

وفي المتن في أغاث ، قالت له اعتماد : يا سيدي ، لقد هُنا هنا ، فقال (٤٩) :

قالت لقد هُنا هنا  
مولاي أين جأئنا  
قلتُ لها الهُنا  
صيّرنا إلى هنا

وقال وقد تذكَّر أيامَ نعيمه في إشبيلية (٥٠) :

قُبِّحَ الدهرُ فاذا صنعا  
كلما أعطى نفيساً نزعا  
قد هوى ظلماً بمن عادته  
ان ينادي كلُّ من يهوي : «لعا»

من إذا قيل الخنا صُمَّ وان  
نطق العافون همساً سمعا

وقال في قصيدة بعث بها إلى ابن حمديس (٥١) :

غريبٌ بأرض المغربين أسيرٌ  
سبيكي عليه منبرٌ وسرير

---

(٤٩) نفع الطيب ٣٤٣/٥ .

(٥٠) المعجب ١٤٥ وما بعدها .

(٥١) قلالد ٣٤ وما بعدها .

فيا ليت شعري هل ابیتن ليلة  
أمامي وخلني روضةً وغدير  
وتذكر قصوره في إشيلية فقال (٥٢) :

بکی المبارك في إثر ابن عباد  
بکی على إثر غزلان وآساد  
بکی الوحيد بکی الزاهي وقبته  
والنهر والتاج كل ذله بادي

فقد المعتمد ثلاثة من أبنائه في قتال المرابطين ، وهم : المأمون (الفتح) في قرطبة ،  
والراضي (يزيد) في رندة ، ومالك في إشيلية . وكان قبل ذلك قد فقد ابنه الأكبر عبّادا  
(أبا عمرو) على يد اللاتر ابن عكاشة في قرطبة (٤٦٦هـ / ١٠٧٤ م) . قال يرثيهم (٥٣) :

يقولون صبراً لا سبيل إلى الصبر  
سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري  
هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه  
يزيد فهل عند الكواكب من خبر

أفتح لقد فتحت لي باب رحمة  
كما بيزيد الله قد زاد من أجري  
تولسيتما والسن بعد صغيرة  
ولم تلبث الأيام ان صعرت خدي

فلو عدت لاخترت العود في الثرى  
إذا أنما أبصرتمني في الأسر  
معى الأخوات المالكات عليكما  
وأما الشكلي المضربة الصدر

(٥٢) قلايد ٢٤ .

(٥٣) الحلة ٦١/٢ . قلايد ١٢ .

أبا خالد أورثني الحزن خالدا  
أبا النصر مذ ودَّعت ودَّعتي نصري  
وقبلكما قد أودع القلب حسرةً  
تجدد طول الدهر نكل أبي عمرو

زارت المعتمد يوم العيد بناته وهن يرتدين أسمالا ، وكن قد اضطرن لغزل الثياب  
لأعانتن على العيش ، فقال المعتمد متحسرا (٥٤) :

فما مضى كنت بالأعياد مسرورا  
فساءك العيد في أغات مأسورا  
تري بناتك في الأطمار جائعة  
يغزلن للناس لا يملكن قطميرا  
يطأن في الطين والأقدام حافية  
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

وحدث انه لما سقطت إشبيلية في أيدي المرابطين، كانت ابنة المعتمد بثينة في جملة من  
سبي، ثم حازها أحد تجار إشبيلية وأراد ابنه الزواج منها، ولكنها أبت الزواج قبل استئذان  
والديها. ولما علم المعتمد بذلك، بعث إليها بموافقته ونصيحته (٥٥) :

بُنَيْتِي كوني به برة  
فقد قضى الدهر بإسعافه

وكان منظر الطيور تملق حرة طليقة في السماء يثير الشجون في نفس المعتمد، الذي  
كان يغطها حريتها ويتمنى أن يكون مثلها حرا طليقا (٥٦) :

بكيت إلى سرب القطا إذ مررت بي  
سوارح لا سجن يعوق ولا كبل

(٥٤) قلاذ ٢٥ .

(٥٥) نفع الطيب ٢٠/٦ وما بعدها .

(٥٦) قلاذ ٢٨ .

ولم تك والله المعيدُ حادةً  
ولكن حنيناً أنْ شكلي لها شكل  
ألا عصمَ الله القطا في فراخها  
فان فراخي خانها الماء والظل  
وأبصر يوماً قمريةً تنوح على إلها فذكرته أبنائه (٥٧) :

بكت واحداً لم يشجها غيرُ فقده  
وأبكي لألافٍ عديدهم كثر  
ونجمان زين للزمان احتواهما  
بقرطبة النكداء أو رندة القبر

في وسط كل الآلام ، كان المعتمد يجد سلواه في إيمانه (٥٨) :

مُخَفَّفٌ عن فؤادي أنْ ثكلكما  
مُنْقَلٌ لي يوم الحشر ميزانا

ولما سمع المعتمد بثورة ابنه عبد الجبار على المرابطين ، اضطرب بأديء الأمر ، الا انه لم يلبث « أن أطرق ورفع رأسه وقد تهللت أسرته . . . وتشوف إلى السماء ، فعلمت انه قد رجا عودة سلطانه » (٥٩) . لقد بعثت ثورة ابنه الأمل في نفس المعتمد وذكرته بسيفه ورعه (٦٠) :

كذا يهلك السيفُ في جفنه  
إلى هـز كفي طويل الحنين  
كذا يعطش الرمحُ لم اعتقله  
ولم تُروه من نجميع يميني

(٥٧) الديوان ٧٠ .

(٥٩) لبلاد ٢٧ .

(٦٠) نفع الطب ٣٥١/٥ .

وعلى اثر ثورة عبد الجبار ، أمر يوسف بن تاشفين بتكليف المعتمد تحوطا ، وللمعتمد  
أشعار يشكو فيها قيده منها (٦١) .

فيدي أما تعلمني مسلما  
أبيت أن تُشفقَ أو ترجح  
دمي شراب لك واللحم قد  
أكلته لا تهتم الأعظم  
ببصرني فيك أبو هاشم  
فينثني القلبُ وقد هُشما  
وارحم أخياتٍ له مثله  
جرعنهنَّ السُّمَّ والمعلما

وحدث ان قدم إلى مراکش الوزير والطبيب أبو العلاء بن زهر لمعالجة يوسف ابن  
تاشفين ، فدعاه المعتمد إلى اغاث لمعالجة زوجته اعتماد . ومما يُذكر ان المعتمد كان قد أعاد  
إلى ابن زهر ممتلكات أسرته المصادرة على يد المعتضد . وقد لبى ابن زهر دعوة المعتمد  
وبعث اليه بأطبب تمنياته ، فشكره المعتمد قائلا (٦٢) :

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى  
أسير أن يطولَ به الشقاء  
ليس الموتُ أروحَ من حياة  
يطول على الشقي بها الشقاء  
فن بك من هواه لقاء حبيب  
فان هواي من حنفي اللقاء

ويبدو أن المعتمد لم يتقطع تماما عن مراسلة أصدقائه في الأندلس ، وكانت زيارات  
شعراء بلاطه السابقين ترفع من روحه المعنوية . وفي قصيدة بعث بها إلى ابن اللبانة اثر زيارة  
من هذا القبيل يشير المعتمد صراحةً إلى غدر المرابطين به (٦٣) :

(٦١) الأخيرة (مخطوط) في مجموعة دوزي عن بني عباد ٣١٧/١ .

(٦٢) المعجب ١٥٥ وما بعدها .

(٦٣) الأخيرة (مخطوط) في مجموعة دوزي عن بني عباد ٣١٣/١ .

وَأَبْقَى أَسَامُ الذِّلَّ فِي أَرْضِ غَرْبِ  
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا الْغَدْرُ ذَاكَ أَسَامُ

وطلب المتمدُّ مرةً خباءً من ابنة يوسف بن تاشفين ولكنها اعتذرت ، واعتبر المتمدُّ  
اعتذارها إهانةً متعمَّده ، وقال في قصيدة يعتب فيها على المرابطين سوء معاملتهم له وعدم  
الوفاء بعهودهم له (٦٤) :

هُمُ أَوْقَدُوا بَيْنَ جَنْبَيْكَ نَارَا  
أَطَالُوا بِهَا فِي حَشَاكَ اسْتِعَارَا  
أَمَا يَنْجِلُ الْمَجْدُ إِنْ يَرْحَلُوا  
كَ وَلَمْ يَصْحَبُوكَ خَبَاءَ مُعَارَا  
فَقَدْ قَنَعُوا الْمَجْدَ إِنْ كَانَ ذَا  
كَ - وَحَاشَاهُمْ - مِنْكَ خَزِيَا وَعَارَا

تَراهم نَسُوا حِينَ جَزَتِ الْقَفَا  
رَ حَنِيناً إِلَيْهِمْ وَخُضَّتِ الْبَحَارَا  
بِعَهْدٍ لَزُومٍ لِسَبْلِ الْوَفَا  
إِذَا حَادَ مِنْ حَادٍ عَنْهُ وَجَارَا

غير انه تمالك نفسه ولم يتأد في عتابه ، واختتم القصيدة بالاشادة بيوسف بن تاشفين  
وبلائه في وقعة الزلاقة مما أنقذ الأندلس من الوقوع في أيدي النصارى :

وَقَلْبِي نَزَّوْعٌ إِلَى يُوسُفٍ  
فَلَوْلَا الضَّلُوعُ عَلَيْهِ لَطَارَا  
وَيَوْمَ الْعَرُوبَةِ ذَدَّتْ الْعَدَا  
نَصْرَتَ الْهَدَى وَأَبَيْتَ الْفَرَارَا  
ثَبْتُ هُنَاكَ ، وَإِنْ الْقُلُوبُ  
بَ بَيْنَ الضَّلُوعِ لَتَأْبَى الْقَرَارَا

(٦٤) الديوان ٩٧ ، نفح الطيب ٣٤٨/٥ . يوم العروبة / عروبة لغةً هو يوم الجمعة ، وهو اليوم الذي  
دارت فيه معركة الزلاقة .



ولولاك يا يوسفُ المتقى

رأينا الجزيرة للكفر دارا

وقبل ان تحضره الوفاة ، نظم المعتمد قصيدة رثاء لنفسه من عشرة أبيات وأوصى بأن تُكتب على قبره ، وفيها يعدد شئالهُ التي كثيرا ما أشار إليها في أشعاره ، نجتزيء منها الآيات التالية (٦٥) :

قبرَ الغرب سقاك الراحُ الغادي  
حقاً ظفرت بأشلاء ابن عباد  
بالعلم بالنعمى اذا اتصلتُ  
بالخصبِ إن أجذبوا بالري للصادي  
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا  
بالموت أحمر بالضرغامة العادي  
نعم هو الحق ووافاني به قدر  
من السماء ووافاني لميعاد

توفي المعتمد وهو في الخامسة والخمسين من العمر (١٠٩٥/٥٤٨٨م) بُعيد وفاة زوجته الأثيرة لديه ، ودفن إلى جانبها وقد رثاه كثير من الشعراء وزاروا قبره في أغمات ، كابن اللبانة وابن عبد الصمد وابن الخطيب والمقرئ (٦٦) . كما ان الكثيرين قاموا بتدوين سيرته وجمع قصائده في دواوين لم تصلنا (٦٧) .

ان شهرة المعتمد تقوم على موهبته الشعرية ورعايته للشعراء ، مما جعله ينال إعجاب الأدباء في عصره وفي العصور التالية. وقد وصف أحدُهم حياة المعتمد بأنها «شِعْرٌ صاف يفيض بالحياة والحركة» (٦٨) . ويقول ابن بسّام (ت ١١٤٧/٥٥٤٢م) إن للمعتمد

(٦٥) المعجب ١٥٩ . أعال ١٦٤ .

(٦٦) قلائد ٣١ . نفع الطيب ٢٣٧/٥ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ .

(٦٧) الذخيرة (مخطوط) في مجموعة دوزي عن بني عباد . الحلة ١٣٦/٢ . نفع الطيب ٣٨٨/٥ ، ٣٩١ .

(٦٨) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية) ٦٠١/١ تحت مادة Arabiyya .

«شعراً كما انشق الكأَمُ عن الزهر ، ولو صدر مثله عَمَنَ جعل الشعرَ صناعةً واتخذَه بضاعةً لكان رائقاً معجباً ونادراً مستغرباً ، فما ظنُّكَ برجل لا يحُدُّ الا رائياً ولا يُجيد الا عابثاً» (٦٩). أما ابن الأَبار (ت ١٢٥٨هـ / ١٢٦٠ م) فيقول «إنه لم يك في ملوك الأندلس قبله أشعرُ منه ولا أوسعُ مادة» ويضيف بأن «محاسنَ المعتمد في اشعاره كثيرة، وخصوصاً مراثيه لأبنائه وتفجعة لزوال سلطانه... ورزق من الناس حبا ورحمة فهم يبيكونه إلى اليوم» (٧٠). كما وُصف المعتمدُ بأنه كان «زعيمَ شعراء الحزن في بلاد الأندلس على العموم» لكثرة ما نظم من القصائد في هذا الباب (٧١).

ان الانطباع الذي يخرج به القارئ لشعر المعتمد هو صدق شاعريته وعمق أحاسيسه ، وقد شبه شعرُ المعتمدُ بأنه «ظلُّ له . فان رأيتَ غزلاً هادئاً وحبا صادقا فذلك في الفترة الأولى . . . واذا رأيتَ شعرَه فخرا وشمًا مملوا حماسةً أو رثاءً فذلك في الفترة الثانية ، واذا رأيتَ بكاءً على الماضي ومقارنةً بين ماضٍ زاهر وحاضرٍ بائس ، فاعلم ان هذا ظل للفترة الثالثة» (٧٢).



(٦٩) الدخيرة (مخطوط) في مجموعة دوزي عن بين عباد ٢٩٧/١ .

(٧٠) الحلة ٥٥/٢ ، ٦٣ .

(٧١) قصايا اندلسية ٣٢٠ .

(٧٢) ظهر الاسلام ١٧٨/٣ وما بعدها .

- ( ١ ) أخبار الملوك : الملك المنصور ، قطعة في مجموعة دوزي عن بني عباد (٢) ، ليدن ١٨٥٢ .
- ( ٢ ) الحلة السراء : ابن الأبار ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ( ٣ ) الحلل الموشية : المؤلف مجهول الاسم ، الرباط ١٩٣٦ .
- ( ٤ ) غريدة القصر : عاد الدين الإصفهاني ، قطعة في مجموعة دوزي عن بني عباد<sup>(١)</sup> ، ليدن ١٨٤٦ .
- ( ٥ ) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالانجليزية) ، ليدن — لندن ١٩٦٠ .
- ( ٦ ) ديوان المحمد بن عباد : جمعه وحققه أحمد أحمد بدوي وحامد عبد المجيد ، القاهرة ١٩٥١ .
- ( ٧ ) اللذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : ابن بسام الشنترفي (٢/١) ، القاهرة ١٩٤٢ .
- ( ٨ ) اللذخيرة (القسم الثاني المخطوط) ، قطعة في مجموعة دوزي عن بني عباد<sup>(١)</sup> ، ليدن ١٨٤٦ .
- ( ٩ ) روض القرطاس : ابن أبي زرع الفاسي ، أبسالة ١٨٤٦ .
- ( ١٠ ) الشعر الأندلسي : غرسية غومس (ترجمة حسين مؤنس) ، القاهرة ١٩٥٦ .
- ( ١١ ) ظهر الإسلام : أحمد أمين ، القاهرة ١٩٦٢ .
- ( ١٢ ) العبر : ابن خلدون ، قطعة في مجموعة دوزي عن بني عباد (٢) ، ليدن ١٨٥٢ .
- ( ١٣ ) لخصايا أندلسية : بدير متولي حميد ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ( ١٤ ) قلائد العقيان : ابن خاقان ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .
- ( ١٥ ) المطرب من أشعار أهل المغرب : ابن دحية ، القاهرة ١٩٥٤ .
- ( ١٦ ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب : عبد الواحد المراكشي ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ( ١٧ ) نفع الطيب : المقرئ ، القاهرة ١٩٤٩ .

## الأمير عبد الله بن بلقين

( حكم ٤٦٥-٤٨٣ هـ / ١٠٧٣-١٠٩٠ م )

آخر أمراء بني زيري في غرناطة  
وكتابه (التبيان)

تمهيد :

كان بنو زيري أمراء غرناطة من جملة ملوك الطوائف الذين ظهروا في الأندلس بعد سقوط الدولة العامرية (٣٩٩هـ/١٠٠٩م) ، وقد حكموا غرناطة نحو ثمانين عاماً (٤٠٣ — ٤٨٣هـ/١٠١٣ — ١٠٩٠م) وكان آخرهم الأمير عبد الله بن بلقين الذي كان أول أمير من أمراء الطوائف خلعه سلطان المرابطين يوسف بن تاشفين حينما قرّر خلعههم وضمّ الأندلس لمملكته كي يتفرّغ للجهاد ضد مملكة ليون وقشتالة التي باتت تهدّد الوجود الإسلاميّ في الأندلس تهديداً خطيراً .

وفي منفاه في أغات بالمغرب الأقصى دوّن الأمير عبد الله بن بلقين كتابه (التبيان) وعنوانه الكامل (التبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري في غرناطة) ، وهو كما يستدلّ من عنوانه تاريخ لأمرته منذ قدومها إلى الأندلس من المغرب الأوسط للجهاد في عهد الدولة العامرية حتى خلّع هو على أيدي المرابطين سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠م ، ثمّ الدفاع عن أمراء بني زيري في غرناطة الذين اتهموا باتخاذهم وزراء من اليهود دون المسلمين وتبرير ذلك ، والأهمّ من ذلك كله هو الدفاع عن نفسه ضدّ التهمة التي وُجّهت إليه من قِبَل الفقهاء وغيرهم وأخذ بها المرابطون مما جعلهم يُقدّمون على خلعه قبل غيره من أمراء

الطوائف ، الا وهي همة التواطؤ مع الفونس (أدفونش) السادس ملك قشتالة وليون ضد المرابطين بعد قدوم هؤلاء إلى الأندلس لنصرة امراء الطوائف ، وكذلك اتهامه بسوء الحكم والسيرة .

## مصادرنا عن تاريخ فترة ملوك الطوائف :

قبل العثور على المخطوط الوحيد من كتاب «التبيان»<sup>(١)</sup> ، كان مصدرنا الرئيسي عن تاريخ الأندلس في عهد ملوك الطوائف حتى منتصف القرن الخامس الهجري /منتصف الحادى عشر الميلادى المؤرخُ القرطبيُّ المعاصر أبو مروان بن حيان (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦ م) ، ومن تاريخه استقى مؤرخو الأندلس والمغرب المتأخرون معلوماتهم وأخبارهم عن تلك الفترة . إلا أنه لسوء الحظ ، فان تاريخ ابن حيان الكبير الموسوم بكتاب (المتين) لم يصلنا منه إلا بعضُ القطع القليلة ، وكذلك نتفُ واقتباساتُ في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢/١١٤٧ م) .

ومن بين الكتاب الأندلسيين المعاصرين لابن حيان والذين تلقى كتاباتهم بعضُ الضوء على جوانب من تاريخ فترة ملوك الطوائف الفقية والأديب الأندلسي المعروف ابن حزم (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٤ م) ، وصاعدُ بن احمد الطليطلي (ت ٤٦٢هـ/١٠٧٣ م) صاحب

---

(١) كان المستشرق الفرنسي ليثي بروفنسال قد عثَرَ على المخطوط الوحيد من الكتاب في مكتبة جامع القرويين بفاس في الثلاثينات من هذا القرن ، وتولَّى تحقيقه مبدئياً ونشره في القاهرة عام ١٩٥٥ تحت عنوان (مذكرات الأمير عبد الله) ، وذكر بانه والمستشرق الإسباني . غرسيه غومس سوف ينشران ترجمةً للكتاب بالاسبانية ، مصحوبةً بمقدمة مفصلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية . إلا ان وفاة ليثي بروفنسال في العام التالي حالت دون ذلك ، وقد قام صاحبُ هذا البحث بإعادة تحقيق المخطوط ، وترجمته إلى الإنجليزية ، كما زوّده بمقدمة مسهية وحواش وتعليقات وافية حول كل ما ورد في النص من اعلام وامشارات تاريخية وجغرافية وأدبية .

كتاب (طبقات الأمم) الذي ينتهي كتابه بسنة ١٠٦٧/هـ ١٤٦٠ م ، وعلمان جغرافيان هما أحمد بن عمر العذري (ت ١٠٨٥/هـ ١٤٧٨ م) صاحب كتاب (ترصيع الأخبار وتنويع الآثار) ، وأبو عبيد عبد الله البكري (ت ١٠٩٤/هـ ١٤٨٧ م) صاحب كتاب (المسالك) الذي ينتهي كتابه بسنة ١٠٦٨/هـ ١٤٦٠ م ، ولسوء الحظ لم تصلنا إلا قطعة قصيرة منه عن الاندلس .

يتبين مما تقدم ان كتاب (التيان) الذي ألفه الأمير عبد الله في منفاه بالمغرب بعيد سنة ١٠٩٠/هـ ١٤٨٣ م ، ذو أهمية خاصة لدارسي تاريخ الأندلس منذ انتهاء الدولة العامرية (١٠٩٩/هـ ١١٠٩ م) إلى خلع آخر ملوك الطوائف (١٠٩٤/هـ ١٠٩٤ م) . فالكتاب أولاً يغطي تاريخ الثلاثين سنة التي تلت نهاية تاريخ ابن حيان ، وهي فترة لم تصلنا عنها معلومات إلا عن طريق مؤرخين متأخرين . وثانياً فإن (التيان) يتناول الأحداث والتطورات في الأندلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، مما يساعد الباحث على التثبت من صحة ما ورد في تاريخ ابن حيان ، أو هو يقدم مادة جديدة . وثالثاً فإن (التيان) يقدم لنا وجهة نظر أحد ملوك الطوائف ، في حين ان معلوماتنا عن الفترة حتى الآن كانت مستقاة من مؤلفات كتاب أندلسيين ذوي ميول أموية ، كابن حيان وابن حزم ، معادين أشد العدا للملوك الطوائف .

### أهمية كتاب (التيان) :

كتاب (التيان) كما تقدم هو المصدر الوحيد لمعلوماتنا عن الأحداث التي وقعت في العشرين سنة الأخيرة من فترة ملوك الطوائف وقت ان كانت حركة الاسترداد المسيحية reconquista في أوجها ، وفيها سقطت طليطلة في يد الفونس السادس ، واستدعي المرابطون لنجدة أهل الاندلس ، وفيها خلع ملوك الطوائف .

ومن بين النقاط الهامة التي يؤكد بها المؤلف انقسام أهل الأندلس في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي إلى جماعتين متباينتين — الاندلسيين والوافدين الجدد من البربر<sup>(٢)</sup> — والعرف الخاص بقسمة الأملاك بين رؤساء البربر في الأندلس عن طريق

القرعة<sup>(٣)</sup> ، وما كان للمرأة في المجتمع البربري من دور نشيط ونفوذ<sup>(٤)</sup> ، والأسباب التي حدثت بالأمير حبوس وابنه الأمير باديس جد المؤلف إلى اتخاذ اليهود وزراء لها دون المسلمين. فهذه الأسباب يُجعلها الأمير عبد الله كما يلي<sup>(٥)</sup> : «وكان في اليهودي [أبو إبراهيم اسماعيل بن النغيلة] من الكيس والمدارة للناس ما طابق الزمان الذي كانوا فيه والقوم الذين يرمونهم . فاستعمله لذلك استبحاشاً من غيره ، ولما كان يرى من طلب بني عمه له ، ولأن هذا يهودي ذمي لا تشره نفسه إلى ولاية ، ولا هو اندلسي ، فيتقي منه إدخالاً داخله مع غير جنسه من السلاطين ، ولاحتياجه الاموال التي يطبّي بها بني عمه ، ويحاول بها أمر الملك ، لم يكن له بد من مثله ان يجمع له من الاموال ما يُدرك معها الآمال . ولم يكن له تسلط على مسلم في حق ولا باطل . . . » .

ويصف الأمير عبد الله بالتفصيل ، وعلى ضوء تجربته الشخصية ، السياسة التي كان ينتهجها الفونس السادس نحو ملوك الطوائف من فرض الضرائب والإيقاع بينهم ، إلى الاستيلاء على المعقل وضم الأراضي ، إلى ان استولى آخر الأمر على مدينة طليطلة (٤٧٨هـ/١٠٨٥ م) . كما يتناول بأسهاب الكلام عن الانحلال السياسي والاجتماعي في الاندلس في عهده ، وعن ضعف ملوك الطوائف ومشاحناتهم ودسائسهم ضد بعضهم البعض متعاونين في ذلك مع الرومي . ويتحدث المؤلف كذلك عن الظروف التي حدثت بملوك الطوائف إلى استصراخ المرابطين ، وعن الحماس الذي قوبل به المرابطون من أهل الأندلس عامة .

وما يذكره المؤلف عن وقعة الزلاقة (٤٧٩هـ/١٠٨٦ م) وحصار حصن لبيط (٤٨١هـ/١٠٨٨ م) ذو أهمية خاصة ، إذ إنه الوصف الوحيد لشاهد عيان شارك بنفسه في الحملتين ، ولذلك فوصفه ادعى للتصديق من الأوصاف المبالغ فيها التي خلفها لنا المؤرخون المتأخرون .

ويؤكد الأمير عبد الله ما ذكره المؤرخون المسلمون المتأخرون من ان يوسف بن تاشفين لم يكن يتخذ اجراء ضد احد من ملوك الطوائف قبل استشارة الفقهاء وقبل صدور فتاوى

(٣) نفسه ١٩ .

(٤) نفسه ٤١ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٦٧ وما بعدها .

(٥) نفسه ٣١ وما بعدها .

تجيز خلعتهم لتواطؤهم مع النصارى<sup>(٦)</sup> . كما يؤكد بأن المرابطين ، وقد خلعوا ملوك الطوائف ، استأنفوا الجهاد ضد النصارى في شمال اسبانيا<sup>(٧)</sup> .

ويشتمل الكتابُ على معلومات فريدة عن الأسباب التي جعلت زاوي بن زيري (حَكَمَ ٤٠٣ — ٤١٠ هـ / ١٠١٣ — ١٠١٩ م) يطلب من أهل البيرة الانتقال إلى جبل غرناطة المجاور الحصين ، حيث قامت عاصمة دولة بني زيري . فهو يقول<sup>(٨)</sup> : « فوقعتُ أعينهم على بسيط جميل قد جمع الانهارَ والاشجارَ ، وجميعُ ما يليه من البلد كله ينسقي من وادي شنبلي المنحدر من جبل شلير [جبل الثلج] . وبصروا بالجبل الذي فيه الآن مدينة غرناطة موسطة البلد كله ، والفحص أمامه ، وجهتي الزاوية والسطح يجنبتيه ، ونظر الجبل وراءه . فأفتنهم المكان ، وان العدو متى نازله لم يُطقْ له إحصاراً ولا منعه داخلاً ولا خارجاً البتة في كل ما يحتاج إليه الناس من المرافق . فشرعوا في بنيانه . . وخربت عند ذلك البيرة » .

ويرد اسمُ عاصمةِ المرابطين مرتين في الكتاب على صورة (مروكش)<sup>(٩)</sup> ، وهذا يؤكد بان هذا هو اللفظ الصحيح لاسم المدينة التي بناها المرابطون عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ، واتخذوها عاصمةً لهم ، ومن هذه الصورة للاسم انتقل اسمُ المدينة إلى اللغة الاسبانية (Marruecos) وغيرها من اللغات الأوروبية .

وبعطينا كتابُ (التيان) فكرةً عن المستوى الثقافي والأدبي الرفيع نسيها الذي بلغه أفراد الأسر الحاكمة في الأندلس في ذلك العصر ، لابل مما يزيد دهشة القارئ ان الكتاب من تصنيف أميرٍ ينتمى إلى أسرة كانت حديثة العهد بالثقافة والحضارة بالأندلس .

وأخيراً فإن الكتاب يتخلله الكثير من الكلمات والعبارات والتراكيب الأندلسية الدارجة . التي تعين الباحث في ميدان اللهجة العربية في غرناطة في ذلك الوقت .

(٦) التيان ١٦٩ ، ١٧٢ .

(٧) نفسه ١٧٥ ، المعجب ١٧٠ .

(٨) التيان ٢١ ، ٢٢ .

(٩) نفسه ١٢٥ ، ١٧١ .



## عرض وتحليل لمحتويات (التيان) :

كان زاوي بن زيري وابنا اخيه ماكسن من كبار رؤساء صنهاجة الذين أذن لهم ابن أبي عامر بالقُدوم إلى الأندلس للمشاركة في غزواته ضد النصارى<sup>(١٠)</sup> . وبعد سقوط الدولة العامرية ونشوب الفتن في الأندلس ، عزم زاوي على العودة إلى المغرب ، إلا أنه ، على حد قول الأمير عبد الله ، ثناه عن ذلك أهل مدينة البيرة الذين دَعَوْه للذب عنهم وليكون أميراً عليهم<sup>(١١)</sup> .

ونظرا لما لمسه من عداء الأندلسيين نحوه ، اقترح زاوي على أهل البيرة الانتقال إلى الجبل القريب ، والذي كان يقوم عليه حصنُ غرناطة ففعلوا ، وبذلك هُجرتُ البيرة وأصبحت أطلالا .

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى تعرّضتُ غرناطة لهجوم اندلسي بقيادة الخليفة الأموي المرتضي ، ولكن زاوي أوقع بالجيش المهاجم هزيمةً منكرةً في ظاهر غرناطة (٤٠٨هـ/١٠١٨ م) .

والغريب ان زاوي قرّر بعد هذا النصر العودة إلى القيروان ، إذ يبدو أنه كان — فضلا عن حنينه إلى مسقط رأسه — يطمع في إمارتها ، وقد تولاها آنذاك صبي من آل زيري ، هو المعز بن باديس حفيد بلقين أخي زاوي .

وخلفه في حكم غرناطة ابن اخيه حبوس (حكّم ٤١٠ — ٤٢٩هـ/١٠١٩ — ١٠٣٨ م) الذي لا يذكر عبد الله الكثير عن حكمه ، مع ان الخلافة في قرطبة ألغيت نهائيا في هذه الفترة (٤٢٢هـ/١٠٢١ م) واشتدت الفتنة في انحاء الاندلس .

وتلاه ابنه باديس بن حبوس (حكّم ٤٢٩ — ٤٦٥هـ/١٠٣٨ — ١٠٧٣ م) ، وكان عدوا لدودا لمنافسه المعتضد بن عباد صاحب اشيلية . وتمكن باديس هذا من هزيمة زهير العامري صاحب المرية ، وانتزع مالقة من الحموديين وضمها للملك . وحدث ان مات ابنه

(١٠) التيان ١٦ ، ١٧ ، الذخيرة ١/٤ س ٦١ .

(١١) التيان ١٩ .

وولي عهده بلقين مسموما ، كما يذكر ابنه الأمير عبد الله ، على يد الوزير اليهودي يوسف ابن النغيلة<sup>(١٢)</sup> . وعلى الأثر ، قامت ثورة على اليهود في غرناطة (٤٥٩هـ / ١٠٦٦ م) قتل فيها ابن النغيلة نفسه<sup>(١٣)</sup> . ورغما عن مشاكله الداخلية وتقدم سنه تمكن باديس من صد أعدائه والمحافظة على أراضيه .

لم يكن الأمير عبد الله قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره حينما خلف جده باديس على امانة غرناطة (٤٦٥هـ / ١٠٧٣ م) ، ولذلك فقد انتهر جيرانه من امراء الطوائف هذه الفرصة لمهاجمة أراضيه ، وكان في مقدمتهم المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية . ولكي لا يتعرض لهجوم مشترك من جانب المعتمد وحلفائه القشتاليين ، قام الأمير عبد الله بإبرام اتفاقية مع الفونس السادس تعهد بموجبها بأن يدفع للأخير ضريبة سنوية ، كما اضطر للتنازل للمعتمد عن عدد من الحصون والمعاقل . وكان من حسن حظ الأمير الزيرى ان المعتمد شغل عنه بعد ذلك بأمر قرطبة ، التي كان المعتمد قد ضمها لمملكته من بني جهور ، ولكنها ظلت مهددة من جانب منافسه ابن ذى النون صاحب طليطلة .

ثم وقعت أحداث في الأندلس كانت في صالح الأمير عبد الله منها : مشاكل القادر ابن ذى النون في طليطلة ، وانشغال المعتمد بن عباد بأمر مرسية التي انتزى فيها وزيره الاثير لديه ابن عمار ، كما أن الفونس حول أنظاره إلى ناحية بطليوس وطليطلة . فأغتم الأمير عبد الله الفرصة وتخلص من وزيره المتسلط ، سماجة ، واستبد هو بالسلطان . كما حاله النجاح في الحملات التأديبية التي شنّها ضد أخيه تميم في مالقة ، وضد المعتمد بن صمادح في المرية ، وهما اللذان كانا قد طمعا في أراضيه مغتتمين حداثة سنة وانشغاله باديء الأمر في صد اطماع المعتمد وادفونش في اراضيه .

إن ما يذكره الأمير عن السياسة التي انتهجها ادفونش لاضعاف طليطلة تمهيدا للاستيلاء عليها ، رواية مهمة لشاهد عيان وأمير مطلع بحكم منصبه على الأحداث فهو يقول<sup>(١٤)</sup> : « وكنا رأينا كلب النصراني على الجزيرة واخذه لطليطلة وقلة رفقه بعد ما كان يقنع منا بالجزيرة وصار يروم أخذ القواعد ، وان اخذه لطليطلة للضعف المتوالي عليها عاما

(١٢) نفسه ٤٠ .

(١٣) نفسه ٥٤ .

(١٤) البيان ١٢١ .

بعد عام ، وكذلك كان من شأنه في أخذ البلاد ، إذ كان مذهبة ألا ينازل معقلا ، ولا يفسد اجناده على مدينة لبعد مرامها ومن فيها من مخالف ملته ، وانما كان يأخذ منها الجزية عاما بعد عام ، ويعتف عليها بما شاء من اصناف التعدي إلى ان تضعف وتلقي يدها كما فعلت .

وقد لجأ ادفونش إلى نفس الأسلوب فيما بعد مع المعتمد بن عباد مما جعل المعتمد يستغيث بالمرابطين . وكتاب (التيان) هو المصدر المعاصر الوحيد الذي يورد ما جاء في الاتفاقية التي تم التوصل إليها بين يوسف بن تاشفين وبين وفد أندلسي مشترك ضم ممثلين عن المعتمد والأمير عبد الله ، وهي تقضي بالقيام بعمل مشترك ضد ادفونش ، وبعدم تدخل المرابطين في الشؤون الداخلية لمالك الطوائف (١٥) .

وخلافا لما ذكره المؤرخون المسلمون المتأخرون من وصف مسهب ومبالغ فيه عن وقعة الزلاقة ، فان رواية الأمير عبد الله عن الوقعة التي شارك فيها أدعى للتصديق . فهو لا يصف الوقعة بأنها كانت حاسمة ، بل كل ما يقوله هو ان يوسف بن تاشفين خرج منها « على حال سلامة ونصر » . كما يضيف بان خسائر الجانبين في الأرواح كانت كبيرة « ولم يفقد من المسلمين إلا الاقل » (١٦) . ومحدثنا عن ادفونش فيقول إنه كان متحمسا للقاء ، واثقا من النصر ، في حين ان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أبدى الكثير من الحذر والتردد في لقاء العدو . ولعل رواية الأمير عبد الله أقرب إلى الحقيقة ، فهو فضلا عن مشاركته في المعركة من المستبعد ان يكون — وهو أسير المرابطين في أغات عند كتابة (التيان) — قد قلل من قيمة النصر الذي احرزوه ، أو بدّل الحقائق ، لو انها كانت كما أوردها المؤرخون المتأخرون .

ويقول الحميري إن المعتمد ، بعد انتصار الزلاقة مباشرة ، ألح على يوسف بن تاشفين بمطاردة فلول النصرارى ، إلا ان يوسف لم يوافق على ذلك (١٧) ، أما عبد الله فلا يذكر شيئا من هذا القبيل ، كما انه لا يذكر ماورد في اقوال بعض المؤرخين المتأخرين من ان يوسف اضطر للعودة إلى المغرب على عجل ، بعد ان تلقى نبأ وفاة ابنه الأكبر وولي عهده

(١٥) نفسه ١٠٣ .

(١٦) التيان ١٠٦ .

(١٧) الروض المطار ٩٣ .

أبي بكر ، أو لسبب آخر عاجل<sup>(١٨)</sup> . أما الأمير عبد الله فيذكر سبباً آخر فريداً ، ألا وهو ان أمير المسلمين بعد انتصار الزلاقة « لم يترصّ في البلاد ألا يوحش سلاطينها مما يتوقعونه من انخياش رعيّتهم إليه »<sup>(١٩)</sup> .

وفي أكثر من موضع في (التبيين) يشير الأمير عبد الله إلى سلطان المرابطين بأمر المسلمين ولا يقول — كما يفعل ابن أبي زرع وابن الخطيب وغيرهما — إن يوسف مُنحَ اللقب من قِبَل ملوك الأندلس بعد انتصاره في الزلاقة مباشرة<sup>(٢٠)</sup> . ومن الواضح ان رواية عبد الله هي الأصح ، فقد كان حاضراً وما كان ليغفل ذكر ذلك لو انه حدث . هذا وقد اثبتت الدراسات الحديثة ان يوسف بن تاشفين كان يحمل اللقب قبل جوازه الاول إلى الأندلس بنحو اثني عشر عاما ، ويُحتمل أن يكون ذلك منذ سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٤ م بعد استيلائه على فاس<sup>(٢١)</sup> .

وما كاد ابن تاشفين يعود إلى المغرب بعد حصار حصن لبيط (٤٨١هـ / ١٠٨٨ م) في جوازه الثاني ، حتى بادر ادفونش بمطالبة الأمير عبد الله بأن يدفع له ما تأخر من ضريبة عن السنوات السابقة . ويقول الأمير إنه لم يكن في وسعه مقاومة هذا الطلب لعجزه العسكري أولاً ، ولأن المرابطين لم يتركوا جيشاً في الأندلس<sup>(٢٢)</sup> . ولعل ثورة رعاياه من يهود أليسانة Lucena في هذه الآونة كانت نتيجة للضرائب الإضافية التي فرضها عليهم الأمير عبد الله لمواجهة التزاماته المالية الجديدة تجاه ادفونش<sup>(٢٣)</sup> .

ويؤكد الأمير عبد الله أكثر من مرة في كتابه بان تشويه سمعته لدى يوسف بن تاشفين كان من عمل الفقيه الغرناطي ابن القليعي وغيره من الفقهاء ، الذين تخلّوا عنه وانحازوا إلى جانب المرابطين ، حيث اتهموه بالتواطؤ مع الرومي ضد المرابطين<sup>(٢٤)</sup> .

(١٨) الحلل الموشية ٥٣ . روض القرطاس ٩٤ . الإكتفاء ٢٣ في مجموعة دوزي عن بني عباد ، مجلد ٢ .

(١٩) التبيان ١٠٧ .

(٢٠) روض القرطاس ٩٦ . اعمال الأعلام ٣/ ٣٥١ .

(٢١) الحلل الموشية ١٧ وما بعدها . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٤/ ٥٥ .

(٢٢) التبيان ١٢٢ .

(٢٣) نفسه ١٣٠ وما بعدها .

(٢٤) نفسه ١٢٧ .

ولم يكن للجواز الثالث (١٠٩٠/٨٤٨٣ م) ليوسف بن تاشفين من غرض سوى خلق صاحب غرناطة الذي يدو انه كان باديء الأمر قد وطد العزم على المقاومة ، إلا انه لم يلبث ان قرر التسليم حينما رأى معاقله تستسلم للمرابطين تباعاً ودون مقاومة ، وكذلك حينما رأى انحياز جنده من صنهاجة إلى جانب المرابطين بسبب القرابة<sup>(٢٥)</sup> ، وبعد ان لاحظ بنفسه ان جميع فئات السكان في غرناطة كانت تعطف على المرابطين «طمعاً في الحرية ، وانها لا يلزمها غير الزكاة والعشر»<sup>(٢٦)</sup> .

وبعد ان أعطي الأمان واستسلم ، نُفي الأمير الزيري إلى بلدة أغات جنوبي مدينة مراكش في المغرب الأقصى ، وجاء بعده دور بقية ملوك الطوائف في اشيلية والمرية وبطليوس الذين ألحقت ممالكهم جميعاً بدولة المرابطين ، وأصبحت الاندلس ولاية مغربية .

ويُنهى الأمير عبد الله كتابه بالإشارة بإيجاز إلى الجهود التي بذلها المرابطون لتخليص بلنسية من يد القنيطور/القمبيطور (El Campeador) الذي كان قد استقل بها في سنة ١٠٩٤/٨٤٨٧ م .

### ترجمة المؤلف :

باستثناء ما يذكره صاحب (التيان) عن نفسه ، فان ما وصلنا عن حياته ضئيل ، وهو مستمد من كتابي (الإحاطة في أخبار غرناطة) و(أعمال الأعلام) للسان الدين بن الخطيب الذي استقى معلوماته من مؤرخين قبله كابن الصيرفي والغافقي — اللذين لم تصلنا مؤلفاتهما — فضلاً عن قطعة صغيرة في (البيان المغرب) لابن عذراي المراكشي .

ولد المظفر أبو محمد عبد الله بن بلقين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري في سنة ١٠٤٧/٨٤٤٧ — ١٠٥٦ م . وكان باديس بعد وفاة ابنه وولي عهده بلقين (١٠٦٤/٨٤٥٦ م) قد سُمي حفيده عبد الله ولياً لعهد مفضلاً إياه على ابنه ماكسن ابن باديس ، وعلى تميم شقيق عبد الله الأكبر .

(٢٥) نفسه ١٥٠ .

(٢٦) نفسه ١٥٠ .

وسبب يياضٍ في المخطوط يغطي السنوات الخمس الأخيرة من حكم باديس ، فان رواية المؤلف عن الظروف السائدة حينما خلف جده إثر وفاته في شوال ٤٦٥هـ/يونيو ١٠٧٣ م لم تصلنا . إلا أن ابن الخطيب الذي اطلع على النص الكامل من كتاب (التيان) عند زيارته لأغاث (١٠٧٦هـ/١٣٦٠ م) والذي كان لديه كتاب (الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية) للمؤرخ الغرناطي ابن الصيرفي (ت ١١٧٤هـ/١١٧٤ م) ، يقول إن شيوخ صنهاجة آثروا عبد الله على عمه ماكسن نظراً لقسوة ماكسن وسوء سيرته (٢٧) .

وكان من حسن حظ عبد الله — الذي لم يكن قد تجاوزَ الثامنة عشرة من عمره عندما آل الملكُ إليه — أن أحدَ شيوخ صنهاجة الوزير المحنك ساجّة كان يدير الأمور ، وإليه يعود الفضلُ إلى حدٍ كبيرٍ في الاحتفاظ بسلامة أراضي غرناطة في تلك الظروف الصعبة (٢٨) .

وبعد ان سوى عبد الله خلافه مع المعتمد بن عباد وأبرم اتفاقيةً معه ومع ادفونش ، وجهَ اهتمامه لإعادة تنظيم مملكته داخليا . ولكي يتفرد بالسلطة ، بادر إلى عزل سماجة وبطائنه ، وقاد بنفسه حملاتٍ مظفرةً ضد أخيه نعيم صاحب مالقة ، وضد المعتمد ابن صُباح صاحب ألمرية . ويذكر المؤلف نفسه ان الفترة من سنوات حكمه التي سبقت سقوط طليطلة في يد ادفونش (٤٧٨هـ/١٠٨٥ م) كانت فترةً سعيدةً لا يكدرها سوى تهديد ادفونش للأندلس عامة (٢٩) .

وقد شارك عبد الله المعتمد في الاستغاثة بالمرابطين ، وشارك فيما بعد في وقعة الزلاقة وفي حصار حصن لييط . إلا انه بعد حملة لييط الفاشلة (٤٨١هـ/١٠٨٨ م) ساورته الشكوك واستبدت به المخاوف بسبب سعي الفقيه ابن القليعي ضده لدى أمير المسلمين ، فأخذ في تعزيز تحصيناته ومعاقله تحوطا ، ولعله اخذَ عبرةً من صمود حصن لييط في وجه المرابطين ، فحسبَ ان المعقل تؤمّنه .

وحاول عبد الله أثناء هذه الفترة ان يتقرب إلى أفراد قبيلة صنهاجة في غرناطة بزيادة عدد ابنائها في جيشه — بعد ان كانت زناتة صاحبة الحظوة — ولعله فعل ذلك في هذه

(٢٧) احوال الأعلام ٢٣٣ وما بعدها .

(٢٨) احوال الأعلام ٢٣٤ .

(٢٩) التيان ٨٢ .

الآونة بالذات أملاً في التقرب إلى المرابطين الذين يتشبهون إلى صنهاجة<sup>(٢٠)</sup> .

ويلاحظ القاريء لكتاب (التبيان) تعلق الأمير بوالدته طيلة حياته : فقد أفرد لها دون غيرها بمصاحبتها عند خروجه من غرناطة لتسلم نفسه للمرابطين<sup>(٢١)</sup> ، كما انه عندما أوقف العمليات الحربية ضد اخيه تميم انما فعل ذلك مرضاة لها<sup>(٢٢)</sup> .

وفي أثناء وجوده في المنى رزق الأمير عبد الله بولدين وابنة . وقد أعرب عن امتنانه وهو في منفاه في أغاث ليوسف بن تاشفين لما لقيه على يديه من حسن المعاملة .

وبعدئنا ابن الخطيب نقلا عن ابن الصيرفي بأن عبد الله « حُلَّ اعتقاله ونُقل إلى مراکش ، ولما كان قد احسن اداء الطاعة مع لين الكلمة ، قُضيت مآربه وأجري مرتب له » . ولا يُعلم تاريخ وفاة عبد الله ، إلا أنه لما توفي ترك لأولاده مالا جماً<sup>(٢٣)</sup> .

ويصف ابن الصيرفي الأمير عبد الله بأنه « كان جباناً . يخلد إلى الراحة ويستوزر الأغمار »<sup>(٢٤)</sup> أما الأمير نفسه فيقر بأن « الجزع والسوداء متمكنة من نفسي وأجدها في طياعي »<sup>(٢٥)</sup> ومع ذلك ، فليس في سيرة عبد الله ما يدل على ان الجبن صفة من صفاته . فقد حارب النصارى وظهر عليهم في موقعة النيل (Nivar) صَدَرَ عام ١٠٨٥/٥٤٧٨ م ، في وقت كان فيه غيره من ملوك الطوائف يتحاشون ذلك<sup>(٢٦)</sup> . وفي بداية حكمه صمد بثبات في وجه الهجمات التي شنها على أراضي المعتمد وحلفاؤه القشتاليون ، كما شارك شخصياً في وقعة الزلاقة وفي حصار حصن ليط . كذلك فكر عبد الله جاداً في وقت ما في ان يقاوم المرابطين ، ولم يبدل رأيه إلا بعد ان تخلى عنه جنوده ورعاياه . وكل ما كان يرغب فيه دون شك — شأنه في ذلك شأن بقية ملوك الطوائف — ان يترك في امان في مملكته .

(٢٠) نفسه ١٣٣ وما بعدها .

(٢١) نفسه ١٥٦ .

(٢٢) نفسه ٩٤ وما بعدها ، ١٥٥ .

(٢٣) الإحاطة — قطعة ملحقة بالتبيان ٢١٠ .

(٢٤) نفسه ٢٠٨ وما بعدها .

(٢٥) التبيان ١١٤ .

(٢٦) نفسه ١٢٩ . الإحاطة — قطعة ملحقة بالتبيان ٢١١ .

وَيُنْكَرُ عَبْدُ اللَّهِ بِشِدَّةٍ أَنَّهُ كَانَ مُنْغَمَّسًا فِي اللَّذَاتِ . وَالْحَقُّ أَنَّهُ ، بِخِلَافِ غَيْرِهِ مِنْ مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ ، لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا بِجَبِّهِ لِلْبَذَخِ وَالِاتِّغَاسِ فِي اللَّذَاتِ ، أَوْ بِأَنَّهُ كَانَ يَجْمَعُ فِي بِلَاطِهِ رَهْطًا مِنْ شِعْرَاءِ الْبِلَاطِ وَالْمَادِحِينَ <sup>(٣٧)</sup> . وَالْأَمِيرُ يَنْبَغِي بِشِدَّةٍ تَعَاطِيهِ الْخَمْرَ «الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا» <sup>(٣٨)</sup> . وَفِي الْبَابِ الْأَخِيرِ مِنَ (التَّيْبَانِ) يَدْحُضُ بِشِدَّةٍ أَتَاهُمَ بِالْإِهْمَالِ ، وَيُعْرَبُ عَنْ اعْتِزَارِهِ بِأَنَّهُ طِيلَةَ سِنَوَاتٍ حَكَمَهُ تَعَفُّفٌ «عَنِ الدَّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرْمِ» <sup>(٣٩)</sup> .

أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلزُّرَّاءِ ، فَانْ عَبْدَ اللَّهِ يَقُولُ إِنَّهُ بَعْدَ أَنْ تَخَلَّصَ مِنَ الْوَزِيرِ سِمَاجَةَ ، لَمْ يَعْينْ خَلْفًا لَهُ . فَبَيْنَ مَنْاسِبَتَيْنِ يَقُولُ : «وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ سِمَاجَةَ نَسْتَعْمَلُ لَذَلِكَ أَحَدًا» <sup>(٤٠)</sup> ، وَ«أَنْ لَا وَزِيرَ لِدَوْلَتِي غَيْرُ نَفْسِي» <sup>(٤١)</sup> .

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَبْذُلَ الْمُؤَلِّفُ كُلَّ مَا فِي وَسْعِهِ لِدَحْضِ التَّهْمِ الْمَوْجُوهَةِ إِلَيْهِ بِالتَّوَاتُؤِ مَعَ النَّصَارَى ، فَهُوَ يَقُولُ : «وَلَوْ أَنِّي أَرِيدُ ذَلِكَ وَالْأَنْحِيَاشَ لِلنَّصَارِيِّ كَالَّذِي قِيلَ ، لَمْ يَصِلِ الْمُرَابِطُونَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَّا وَمَدِينَةُ غَرْنَاطَةَ مَمْلُوءَةٌ مِنْهُمْ ، وَكُنْتُ اسْتَطِيعُ ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمُدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ» <sup>(٤٢)</sup> . وَيُضِيفُ بَأَنَ مِنْ غَيْرِ الْمَقُولِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالرُّومِ ضِدَّ الْمُسْلِمِينَ ، إِذْ لَوْ التَّقَتِ الْفَتَّانَ — الرُّومَ وَالْمُرَابِطُونَ — وَهَزَمَ الرُّومِيُّ فَانْ ابْنُ تَاشَفِينَ «لَمْ يَقْدَمْ عَلَى قَتْلِنَا شَيْئًا بِالْحِجَّةِ إِنَّا أَجْلَبْنَاهُ ، وَلَوْ أَنَّ الرُّومِيَّ يَغْلِبُ ، فَسَنَبَقُ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمُلْكِ مَا شَاءَ اللَّهُ ، لَمْ يَطْبُ لَنَا مُلْكٌ ، وَلَا سَتَحِينَا مِنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بِيَوَارِ الْمُسْلِمِينَ وَهَلَكَ هُمْ» <sup>(٤٣)</sup> .

## تَفَافُحُهُ :

بَعْدَ مَوْتِ وَالِدِ الْأَمِيرِ ، نَقَلَهُ جَدُّهُ بَادِيسُ مِنَ الْمَكْتَبِ بِحِجَّةٍ أَنَّهُ تَلَقَّى مَا يَكْفِي مِنَ الْمَعْرِفَةِ

(٣٧) التَّيْبَانِ ٢٠٢ .

(٣٨) نَفْسُهُ ٢٠٢ .

(٣٩) نَفْسُهُ ٢٠٢ .

(٤٠) نَفْسُهُ ٨٦ .

(٤١) نَفْسُهُ ١٤١ .

(٤٢) نَفْسُهُ ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٤٣) نَفْسُهُ ١٥٣ .



في الكتابة وتلاوة القرآن<sup>(٤٤)</sup> . ومما يشير دهشة القاريء بل اعجابه انه رغما عن كون عبد الله قد انقطع عن الدراسة المنتظمة في سن مبكرة ، إلا ان كتابه يدل على اتساع معلوماته وتمكنه من اللغة العربية وآدابها ، كما يلاحظ بأن الكتاب ذو اسلوب مرسل سلس ، مع انه تتخلله أحيانا بعض العبارات الدارجة في لهجة أهل غرناطة . وهو يبدو ، بخلاف بقية أفراد أسرته ، ذا موهبة ادبية وشعرية ، وله اطلاع حسن على شتى العلوم الإسلامية ، يشهد بذلك كثرة استشهاده بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة ، واقتباساته من الأشعار والأمثال والحكم في مختلف الموضوعات والمناسبات . ولعل الأمير يشير إلى نفسه حينما يقول : « قيل لرجل : من أين لك هذا العلم ؟ فقال : قلباً عقولاً ولساناً سؤلاً » .<sup>(٤٥)</sup>

ومع ان المؤلف لا يذكر بالاسم غير (كتاب الحيوان) للجاحظ و(كتاب كليلة ودمنة) لابن المقفع ، إلا ان العدد الوافر من الأشعار والأمثال والحكم التي يوردها مقتبسة من المؤلفات الأدبية الرئيسية في زمنه ، والتي لا بد انه كان ملماً بها ، وبعضها كان قد وصل إلى الأندلس من المشرق قبل زمنه بوقت غير طويل<sup>(٤٦)</sup> . كالأغاني وعيون الأخبار وبتيمة الدهر ورسائل إخوان الصفا ، فضلاً عن دواوين كبار الشعراء كالنابغة الذبياني والمتنبي ، ولا بد ان الأمير كان يحفظ الكثير من الأشعار والأمثال عن ظهر قلب ، إذ من المستبعد جداً ان يكون قد اصطحب معه إلى منفاه في أغات كتباً أو دواوين شعرية . وهو يقول صراحة في الباب الأخير من الكتاب أنه سيضيف «لُمعاً من آدابٍ وسيرٍ تحضرني ، مما يختلج في الحاطر ويجريها الإنسانُ بصحبة الزمان وتنقله في الحالات»<sup>(٤٧)</sup> .

ويندُ الأميرُ في الباب الأخير من كتابه بان يوردَ بعضاً من أشعاره ، إلا أن المخطوط الذي بين ايدينا لا يشتمل لسوء الحظ على أي من هذه الأشعار . غير ان ابن الخطيب الذي كان قد زار أغات عام ٥٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م يقول إن الخطيب فيها «أوقفني على تاريخ صدر عنه [الأمير عبد الله] أيام اعتقاله يشرح الحادثة على ملكه في اسلوب بليغ ، ختمه بمقطوعات من شعره تشهد بفضله»<sup>(٤٨)</sup> . لكن الأمير مع ذلك يتحدث عن معاناته في

(٤٤) نفسه ١٢ .

(٤٥) نفسه ١٧٨ .

(٤٦) ابن القرضي ، تاريخ علماء الأندلس ٦١/١ .

(٤٧) التبيان ١٧٨ .

(٤٨) نفاضة الجواب ٥٦ .

نظم الشعر إذ يقول : « فرما صنعتُ في البيت أو البيتَين اياماً احضر لها ذهني وأحدُ فكري ، فتصدع بعد كد ، وما اكاد ، كالشيء المستغرب من غير معدنه » (٤٩)

ويذكر الغافقي ان الأمير عبد الله كان « حسنَ الخط ، كانت بفرناطة رُبْعَة مصحف بخطه في نهاية الصنعة والأتقان » — وكان حُسْنُ الخط من علامات التفوق ومدعاة للاحترام .

ويتخذ الأمير عبد الله موقفَ فقهاء المسلمين في دفاعه عن الديانات السماوية عامة والدين الإسلامي خاصة ، ويعمل على دحض مزاعم المُلحدّين ، وهو في دفاعه لا يقلُّ قوةً وحاساً عن معاصريه ابن حزم وأبي الوليد الباجي وغيرهما من أعلام الفقهاء في الأندلس في ردّهم على المُلحدّين وأتباع الديانات الأخرى . ومع ذلك ، ورغماً عن سيادة المرابطين على المغرب والأندلس ، فإن الأمير لا يتردد في طرّقِ مواضيع حساسة كالتنجيم وتعاطي الخمر ، مما يدل على شيء من التسامح في تناول هذه الموضوعات من جانب آسريه المرابطين ، وذلك خلافاً لما يُنسب إليهم من التزمّت . ففي الكتاب كثيراً ما يقتبسُ أقوالَ المنجّمين عن مصيره ومصير غيره من ملوك الطوائف (٥٠) . أما احتساء الخمر فقد كان متشراً في الأندلس ، خصوصاً في عهد ملوك الطوائف (٥١) . وكثيراً ما يتحدث المؤلف صراحةً عن تعاطي والده وجده للشراب (٥٢) ، وعند حديثه عن الشراب ، يروي حكاياتٍ وأمثالاً ويقتبس بعضَ اشعار أبي نواس حول الموضوع (٥٣) ، ولكنه يبادر إلى القول بأنه « لا خيرَ فيما لا تبيحه الشريعة » . وقد تاب الله علينا منها [الخمر] (٥٤) .

ويلاحظ قاريء (التيان) أن الأمير بعد خلعه ونفيه كثيراً ما يُعرب عن مشاعر الزهد

(٤٩) (التيان ١٧٨ .

(٥٠) نفسه ١٥ ، ٧٨ ، ١٧٩ .

(٥١) نفع الطب ٤ / ١٩٩ .

(٥٢) (التيان ٤٠ ، ٥٣ .

(٥٣) نفسه ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٥٤) نفسه ١٨٥ ، ٢٠٢ .

والاستسلام بعد كل ما ناله من ثروة وجاه ، ويخلص إلى ان ذلك كله زائلٌ يوماً ما ، ولذلك فان العاقل هو من يصرف حياته في عمل الصالحات ، ويقتنع بالحد الأدنى لما يحتاجه وأسرته من قوتٍ وكساء ومأوى<sup>(٥٥)</sup> .

## أسلوب (التيان) :

أسلوب (التيان) أسلوب سهل سلس ، وهو من النثر المرسل على غرار أسلوب الجاحظ ، دون ان يحاول مؤلفه اللجوء إلى الزخرف اللفظي والسجع ، وهو في ذلك يختلف تماماً عما كُتب في الأندلس بعد عصر الكاتب مباشرة ، حيث يلاحظ الإغراق في التكلف والسجع واستعمال المحسنات اللفظية ، كما يظهر من كتابي الفتح بن خاقان (قلائد العقيان) و(مطمح النفس) ، وإلى حد أقل في كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لابن بسام الشنبري . ويذكر الأمير عبد الله في الباب الأول من كتابه بأن (مؤلف الكتاب ان كان غرضه نظم الكلام وسجع اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى<sup>(٥٦)</sup> . لذلك نرى الأمير عبد الله في كتابه يتبع الأسلوب القصصي ، ويتجنب مسجوع الكلام .

ومما له وقع لدى القارئ للكاتب ، العدد الوافر الذي يشتمل عليه من الايات الكريمة والأحاديث الشريفة والشعر والأمثال والحكم والآثار الأدبية ، مما يشهد بسعة اطلاع المؤلف وتنوع قراءاته . ومع ان (التيان) يشتمل على عدد غير قليل من العبارات والكلمات شبه الدارجة — والتي مازال بعضها مستعملاً في لغة التخاطب في بلاد المغرب — إلا ان الغافقي وابن الخطيب يصفان أسلوبه بالسلاسة والبلاغة<sup>(٥٧)</sup> .

ويلاحظ ان بعض الأمثال التي يستشهد بها المؤلف من النوع التصويري كقوله : ومن

(٥٥) نفسه ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٥٦) نفسه ٣ .

(٥٧) قطعة من الإحاطة ملحقه بالتيان ٢٠٨ . أعمال الأعلام ٢٣٥ .

ثورحي لا يُلبس هراكيس<sup>(٥٨)</sup> ، فلا الحمارُ سقط ولا الزق انخرق<sup>(٥٩)</sup> ، والخباء لا يقف دون أوتاد<sup>(٦٠)</sup> . .

والناسخ سواء أكان هو المؤلف أو غيره ، ككثير من أصحاب المصنّفات في القرون الوسطى ، يسقط الهمزة — ورائنا ، توخذ ، بدلا من ورائنا وتوخذ — أو يستبدلها بالياء — خايف ، قابل بدلا من خائف وقائل — أو يستبدلها في أول الكلمة بالواو — وخر ، ودب بدلا من آخر وأدب . ثم يلاحظ انه يستبدل الظاء بالضاد في بعض الكلمات مثل : حصاً بدلا من حظاً . وأثر العامية واضح في استعماله لبعض المجموع مثل : المطاحين والخواتيم ، بدلا من المطاحن والخواتم .

ويبدو ان المؤلف متأثر من اللهجة الدارجة في غرناطة يستعمل تراكيب مخالفة لقواعد الصرف ، فزاه — كما هو الحال في بعض اللهجات العربية الدارجة اليوم — يقول : (أعرض عليهم) بدلا من (عليها) عند الإشارة إلى المثني ، و(قل لهم) بدلا من (لهن) عند الإشارة إلى جمع المؤنث السالم .

وثمة كلمات في (التيان) مازالت مستعملة في المغرب بمدلول خاص مثل : الضيعة (بمعنى المزرعة) ، ونعاس (بمعنى النوم) ، وكانون (بمعنى أسرة) ، وتقلع (بمعنى انصرف) ، والرقاصة (وتعني في المغرب حاليا سعاة البريد) ، ونشبة (بمعنى ورطة) .

ومن الطريف ان نلاحظ اشتقاق المؤلف للفعل (تبرمك) نسبة للبرامكة ، وزراء هارون الرشيد ، حيث يقول إن الوزير اليهودي لجده تبرمك<sup>(٦١)</sup> ، أي لعب دور البرامكة بالاستبداد والاستئثار بالسلطة .

وخلاصة القول إن قاريء (التيان) لابد وانه سيخرج بانطباع حسن عن اسلوب

---

(٥٨) التيان ٥٦١ (هركاس) و(اركاس) — وجمعها (هراكس) و(هراكيس) — مازالت مستعملة بين أهل القبائل في جبال الأطلس في المغرب الأقصى والجزائر بمعنى (سباط قديم) . وفي المغرب مثل ما زال مستعملا هو : هرّكس بالهركاس حتي يأتيك ربي بالسباط . (انظر دوزي : ملحق القواميس العربية ٧٦٣/٢) .

(٥٩) التيان ١٢٠ .

(٦٠) نفسه ١٤٨ .

(٦١) نفسه ٣٨ .

الكتاب السكس ، وعن اتساع معلومات مؤلفه ، وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الأمير عبد الله لم يكن كاتباً محترفاً ، وأنه ألف كتابه على عجلٍ وفي ظروف صعبةٍ في المنفى .

## تاريخ تأليف (التبيان) :

لا بد ان الأمير عبد الله قد فرغ من كتابة (التبيان) بعد نحو أربع سنوات من خلعه ، أي ما بين منتصف سنة ١٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م ونهاية سنة ١٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م . فهو يختم القسم التاريخي من الكتاب بالكلام عن خلع ابن الأفطس صاحب بطيوس (أوائل سنة ١٤٨٧هـ / أو اخر سنة ١٠٩٤ م) <sup>(٦٢)</sup> وبالإشارة إلى الجهود المبذولة من قبل المرابطين لإنقاذ بلنسية ، التي كان قد استولى عليها السيد القمبيطور / القنيبيطور (Mio Cid El Campeador) في ٣٠ جمادى الأولى ٤٨٧هـ / ١٧ يونيو ١٠٩٤ م <sup>(٦٣)</sup> ، إذ يقول : « ثم نشأ بعد ذلك من امر بلنسية ما لم ينبلج بها ما يوصف . . . ولو اتنا ندعُ هذا التأليفَ إلى مدةٍ يتم فيها خبرُ بلنسية ، لأننا به بعد ان يكون الظَّهرُ للمسلمين ، وتركَ هذا الديوانُ مخروماً انتظاراً لما يكون فيه أملٌ بعيد . » <sup>(٦٤)</sup> ، والمعروف ان المرابطين استردوا بلنسية سنة ١٤٩٥هـ / ١١٠٢ م . ولو ان الأمير فرغ من كتابه بعد عام ١٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م ، فن المستبعد جدا ان يُغفل ذكرُ وفاة أخيه تميم ، ووفاء المعتمد ابن عباد ، أو حتى حرق القنيبيطور لابن جحّاف قاضي بلنسية ، وكلها وقعت خلال ذلك العام . ولذلك يمكننا القول واثقين إلى حدٍ كبير بأن (التبيان) فرغ من كتابته ما بين جمادى الأولى ٤٨٧هـ / يونيو ١٠٩٤ م ونهاية العام التالي (١٤٨٨هـ / ١٠٩٥ م) .

(٦٣) الحلة السراء ١٠٣/٢

(٦٣) نفسه ١٢٦/٢ . بيدال (Pidal) ٤٨٤/١ وما بعدها .

(٦٤) التبيان ١٧٥ .

## المصادر والمراجع

- ( ١ ) أعمال الأعلام ، ابن الخطيب ، بيروت ١٩٥٦ .
- ( ٣ ) أعمال الأعلام (القسم الثالث) ابن الخطيب ، الدار البيضاء ١٩٦٤ .
- ( ٣ ) الإحاطة في أخبار غرناطة ، ابن الخطيب ، القاهرة ١٩٥٥ (قطعة من مخطوط الاسكوريال ملحقة بكتاب «البيان» ) .
- ( ٤ ) الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، ابن الكردبوس التوزري ، لندن ١٨٥٢ (قطعة في مجموعة دوزي عن تاريخ بني عباد ، المجلد الثاني) .
- ( ٥ ) تاريخ علماء الأندلس ، ابن الفرضي ، مدريد ١٨٩٠ .
- ( ٦ ) البيان (مذكرات الأمير عبد الله) ، عبد الله بن بلقين ، القاهرة ١٩٥٥ .
- ( ٧ ) الحلل الموشية ، مؤلف مجهول الاسم ، الرباط ١٩٣٦ .
- ( ٨ ) الحلة السراء (الجزء الثاني) ، ابن الأبار ، القاهرة ١٩٦٣ .
- ( ٩ ) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنترني ، القاهرة ١٩٤٥ (القسم الرابع — المجلد الأول) .
- ( ١٠ ) روض القرطاس (الأنيس المطرب برووض القرطاس . .) ، ابن أبي زرع الفاسي ، أبسالة ١٨٤٦ .
- ( ١١ ) الروض المطار ، ابن عبد المنعم الحميري ، القاهرة ١٩٣٧ م .
- ( ١٢ ) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، عبد الواحد المراكشي ، القاهرة ١٩٤٩ .
- ( ١٣ ) نفاضة الجواب . . . ، ابن الخطيب ، القاهرة ، بدون تاريخ .
- ( ١٤ ) نفع الطيب ، (الجزء الرابع) المقرئ ، القاهرة ، ١٩٤٩ .
- ( ١٥ ) ملحق القواميس العربية (الجزء الثاني) لندن ١٨٨١ .
- ( ١٦ ) Dozy, R., *Supplement Aux Dictionnaires Arabes* (II).  
Pidal, R. Menéndez, *La España del Cid*.  
مدريد ١٩٦٩ .

## مدينة الأشبونة « لشبونة » الإسلامية

### من الفتح العربي حتى سقوطها في أيدي الصليبيين

كان الفينيقيون ، ومن بعدهم القرطاجنيون ، قد استقروا في قادس قبل القرن السادس ق . م . وأغلقوا مضيق هرقل ( مضيق جبل طارق ) في وجه منافسيهم اليونان ، وتوسعوا على ساحل شبه جزيرة إيبيرية الغربي ( غرب الأندلس ) ووصلوا في تجارتهم البحرية حتى الجزر البريطانية . وقد انتقلت أسبانيا إلى أيدي الرومان بعد هزيمتهم للقرطاجنيين في موقعة زاما سنة ٢٠٢ ق . م . ، وشكّل الرومان ولاية جديدة عُرِفَتْ باسم هسبانيا كانت تشمل لوزيتانيا ( البرتغال ) التي يتسمى سكانها إلى الجنس الكلتي . وقد قاوم اللوزيتانيون الرومان مقاومةً شديدة ، إلى أن تغلب هؤلاء عليهم سنة ١٣٧ ق . م . واحتلوا أليسيو/أليسيونيا (Olissipo/Olissiponia) — لشبونة الحالية — واتخذوها باديء الأمر مقراً إدارياً .

وبعد انقسام الامبراطورية الرومانية إلى امبراطورية شرقية وأخرى غربية في القرن الرابع الميلادي وقدم جماعات البرابرة الجرمان ، استقر القوط الغربيون من هؤلاء في شبه جزيرة إيبيرية متبعدين الوندال الذين عبروا البحر إلى الشمال الإفريقي في أوائل القرن الخامس الميلادي .

بدأ افتتاح العرب لشبه جزيرة إيبيرية من أيدي القوط سنة ٧١١/٨٩٢ م وشمل كل شبه الجزيرة تقريباً ، بما فيها غرب الأندلس/الغر الجوفي<sup>(١)</sup> . وكانت الأشبونة باديء الأمر جزءاً من كورة باجة ، ثم أصبحت كورة مستقلة تتبعها في قاصية الغرب شترين وشنرة

---

(١) الجوفي بمعنى الشمالي في اصطلاح الاندلسيين ، ويقابله القبلي .

والمعدن، وبلالة وقصر أبي دانس، وإلى الشمال منها كانت كورة قلمرية (Coimbra) حتى نهر دويرو (Duero)، أي أن كل أراضي البرتغال الحالية كانت تشكل جزءاً من الأندلس الإسلامية في أيام الدولة الأموية بقرطبة. وقد تردّد ذكر الأشبونة/أشبونة حينما بدأ الجوس (الأردمانيون) من أهل الشمال (اسكندناوة) غاراتهم الحافظة المدمرة على سواحل الأندلس في منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فأنشئت فيها على الأثر دار صناعة لبناء القطع البحرية، وغدت الأشبونة قاعدة بحرية لدرء مثل هذه الغارات في المستقبل، وقد تكرّرت فعلاً طوال قرن ونيف من الزمن. كما اقترن اسم الأشبونة في القرن ذاته بقصة «الفتية المغربيين» الذين شرعوا في رحلة جريئة في البحر المحيط «ليعرفوا ما فيه من العجائب وليقفوا على نهايته»<sup>(٢)</sup>، وهي رحلة سبقت حركة الكشف الجغرافية البرتغالية بستة قرون. وقد أفاض الجغرافيون المسلمون في الحديث عن خيرات الأشبونة وكورتها، وكانت المدينة سوقاً تجارية لما يجلب من الجزر البريطانية آنذاك من عبيد وفراء وقصدير. كما لعبت الأشبونة وموانيء غرب الأندلس دوراً بارزاً في الحملة البرية البحرية الكبيرة التي قادها المنصور محمد بن أبي عامر عام ٣٨٧هـ/٩٩٧م وانتهى فيها مظفراً إلى مشهد شانت ياقب (Santiago de Compostella) في أقصى الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة.

وبعد انتهاء الخلافة في قرطبة (٤٢٢هـ/١٠٣١م)، كان غرب الأندلس مسرحاً للحروب بين اثنين من أمراء الطوائف، هما ابن الأفطس صاحب بطليوس وابن عباد صاحب اشيلية، مما انتهك كليهما في وقت توحدت فيه قشتالة وليون وأخذ ملكها الصليبي التزعة، فرديناند الأول، يتوسع جنوباً في غرب الأندلس مهدداً قواعد المسلمين فيه.

ولما قدّم المرابطون في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، خشي المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس وغرب الأندلس على ملكه، فدخل الفونس السادس ملك قشتالة وليون أملاً في الحصول على مساعدته ضد المرابطين، وتنازل له في

مقابل ذلك عن الأشبونة وشترين وشنتر (٤٨٦هـ/١٠٩٣م)، إلا أن المرابطين سرعان ما استردوا هذه المدن بعد إطاحتهم بابن الأفطس.

(٢) الحميري: الروض المطار ١٧.



وفي هذه الأثناء استصرخ الفونس السادس النصارى من وراء جبال البُرت (البيرايز) لنجدته لمواجهة خطر المرابطين عليه ، فاستجاب ألوف الفرسان من جنوب فرنسا على الخصوص . وكان من بينهم أحد نبلاء مقاطعة برجندي (Burgundy) واسمه هنري (Henriques) ، الذي زوّجه الفونس من ابنته تيريزا (Teresa) وقَدَّم لها مهرًا مقاطعة برتقال (أبورتو) وقُلُمريّة . وفي أوائل القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي تمكّن ابنها أفونسو هنريش (Afonso Henriques) — الذي تسمّى المصادر العربية ابن الريق ، أي ابن هنريق — من الاستقلال الذاتي أولاً حاملاً لقبَ صاحب قلمرية ، ثم لم يلبث أن استقل تماماً بعد عام ١١٣٩ م لما احرز بعض الانتصارات المحلية على المسلمين ، منتهزاً حالة الضعف والفوضى التي سادت الأندلس في أواخر أيام المرابطين الذين شغلوا عن الجهاد في الأندلس بما دهاهم من قيام الموحدين عليهم في المغرب .

وعلى اثر استرداد نور الدين زنكي مدينة الرها (Edessa) في بلاد الشام من أيدي الصليبيين، دعا البابا إلى حملة صليبية أوروبية كبيرة لاستردادها، واغتنم ابن الريق فرصة مرور جماعات صليبية من الإنجليز والألمان بساحل بلاده وناشدهم مساعدته للاستيلاء على الأشبونة . فكانت تلك الحملة الصليبية على المدينة التي صمدت منفردة في وجهها بكل بسالة سبعة عشر اسبوعاً دون أن تتلقّى أية استجابة لاستصراخها امراء المسلمين المجاورين ، مما أدى الى سقوطها في أيدي النصارى يوم ٢٧ جمادي الأولى ٥٤٢/٢٣ أكتوبر ١١٤٧ م بعد أن ظلّت مدينةً إسلاميةً نحواً من أربعة قرون ونصف القرن .

### الأشبونة من الفتح العربي حتى نهاية خلافة قرطبة (٥٤٢٢/١٠٣١ م) :

تمّ فتحُ العرب لغرب الأندلس بما في ذلك الأشبونة على يد موسى ابن نُصَيْر وابنه عبد العزيز (٩٣ — ٥٩٧/٧١٢ — ٧١٦ م) ، ولو أن ما يلي نهر دويره شمالاً خرج من أيدي المسلمين في فترة مبكرة . إن ما حدث من ارتباطك في الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية في دمشق (١٣٢/٧٥٠ م) أتاح الفرصة لبدء ما يسميه النصارى بحرب الاسترداد (Reconquista) على يد صاحب أشطوريش الفونس الأول للسيطرة على شمالي

البرتغال الحالية . ويقول ابن الخطيب إن أحد أبناء الفونس واسمه أريليو (Aurelio) (حكم من سنة ٧٦٨ إلى ٧٧٤ م) استولى على أرض غليسية وأرض برتقال<sup>(٣)</sup> . كما انتهر الفونس الثاني فرصة انشغال الأمير الحكم بن هشام بقمع الثورات الداخلية فاستولى على الأشبونة عام ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م ، وأرسل كتاباً بذلك إلى شارلمان في عاصمته اكس لاشابل<sup>(٤)</sup> . إلا أن هذا الاستيلاء — إن صح — كان مؤقتاً ، إذ لم يلبث المسلمون أن استردوا الأشبونة عام ١٩٣ هـ / ٨٠٨ — ٨٠٩ م . وانتزى في الأشبونة في العام نفسه مغامر اسمه طُمْلُس (Tumulus) ولكنه هُزم في نفس العام على يد هشام أحد أبناء الأمير الحكم وأُعدم في قرطبة ، وتمت تدهئة المنطقة كلها ما بين الأشبونة وقلمرية<sup>(٥)</sup> . على أن نهر دويره لم يصبح حداً فعلياً للنصارى قبل عهد الفونس الثالث الذي استولى على مدينة برتقال (أبورتو) عند مصب النهر عام ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م<sup>(٦)</sup> .

وفي منتصف القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي تعرضت سواحل الأندلس الغربية لغارات الموحدين (الأردمانيين) الوثنيين من أهل الشمال الذين شتوا من الدانمارك غارات خاضعة للنهب والسلب على سواحل بريطانيا وفرنسا ، ثم تحولت جماعة منهم جنوباً نحو ساحل غرب الأندلس . ويذكر العُدري أنه في أول ذي الحجة ٢٢٩ هـ / ٢٠ أغسطس ٨٤٤ م ورد كتابٌ وهب الله بن حزم عامل الأشبونة يذكر أنه حلّ بالساحل قبّله أربعة وخمسون مركباً للموحدين ومعها أربعة وخمسون قارباً ، فكتب إليه الأمير عبد الرحمن وإلى عمال السواحل بالاحتراس والتحفّظ<sup>(٧)</sup> . ويضيف العُدري بأن الموحدين أقاموا بالأشبونة ثلاثة عشر يوماً يسلبون ويسفكون الدماء ، وكانت بينهم وبين المسلمين ملاحمٌ ثم تحولوا إلى سواحل الأندلس الجنوبية ، واحتلوا اشبيلية لمدة سبعة أيام وعاثوا بمنطقتهما اثنتين وأربعين يوماً إلى أن تمت هزيمتهم وإجلاؤهم ، فتوجهوا شمالاً مارين بالأشبونة وانقطع

(٣) ابن الخطيب : أفعال ٣٢٣ .

(٤) لتي بروتقال : تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ١ / ١٧٤ .

(٥) المصدر السابق ١ / ١٦٠ .

(٦) إن اسم البرتغال مشتق من (برتقال = بورتوكالي Portucalis) التي تعني بوابة كالي / غليسية ، إذ هي معبر غليسية من الجنوب .

(٧) العُدري : ترصيع الأخبار ٩٨ . ابن عذاري : البيان المغرب ٢ / ١٢٩ .

وكان من نتيجة غارات الجوس أن عُني امراء قرطبة ببناء اسطول بحري تمركز في الأريّة واشيلية والأشبونة لدرء خطر الجوس ، الذين ظلوا يهددون سواحل الأندلس لأكثر من قرن من الزمن . وفي عهد الحكم المستنصر ، في ١ رجب سنة ٣٥٥هـ / ٢٣ يونيو ٩٦٦ م ، ورد كتاب من غرب الأندلس على الخليفة في قرطبة يذكر ظهور أسطول الجوس ببحر الغرب «وصلوا إلى بسط أشبونة ، فخرج اليهم المسلمون ودارت بينهم حرب استشهد فيها من المسلمين وقتل من الكافرين» (٩) .

ويرد بالمناسبة اسم قائد بحري اندلسي هو خشخاش بن سعيد بن أسود من بجانة (قرب المرية) ، ويدعوه العذري خشخاش البحري ويشيد ببلاته في التصدي لمراكب الجوس قرب ساحل الأندلس الشرقي «حتى استشهد وقوم من المسلمين معه» (١٠) .

وكانت أحوال الأشبونة قد تعرضت لغارة من قبل أردونو الثالث ملك ليون في عامي ٣٤٢ و ٣٤٤هـ / ٩٥٣ و ٩٥٥ م ، إلا أن المسلمين أوقفوا بجيشه هزيمة كبيرة في الثغر الأعلى سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥ م ، مما جعله يوفد سفيراً إلى قرطبة ملتمساً عقد هدنة ، ولم يمانع الخليفة الناصر في إبرام هدنة كانت لصالح الخليفة (١١) .

وقد فقد المسلمون قلمرية «قاصية الثغر الجوفي» سنة ٢٦٤هـ / ٨٧٨ م ، إلا أن المنصور محمد بن أبي عامر استردها في إحدى غزواته سنة ٣٧١هـ / ٩٨٥ م . وقد لعبت الأشبونة وقصر أبي دانس (١٢) على ساحل غرب الأندلس دوراً مهماً في الغزاة الثامنة والأربعين

(٨) ترويض الأخبار ٩٨ . البيان المغرب ٢ / ١٣٠ .

(٩) ابن عذاري : البيان المغرب ٢ / ٣٥٦ .

(١٠) العذري : ترويض الأخبار ١١٨ ، ١١٩ .

(١١) لحي بروفسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ٦٨ / ٢ .

(١٢) يقول ابن حزم إن بني دانس بن عوسجة من المصامدة كانوا أصحاب قلعة . . . وإلى جدهم

ينسب قصر أبي دانس بالجوف . . . جمهرة أنساب العرب ص ٥٠١ .

أورد ابن حيان القرطبي اسم القصر على أنه «قصر ابن أدانس» نسبة إلى عمر بن أدانس . (إبن

حيان : المقتبس ، الجزء الخامس ، مدريد ١٩٧٩ ، ص ٢٥٤ ، ٤٩٠) .

التي قادها المنصور مستهدفاً شانت ياقب أعظم مشهد للنصارى في الركن الشمالي الغربي من شبه الجزيرة ، إذ كانت الغزاة عن طريق غرب الأندلس . وفيها تم نقلُ المشاة من الجند في قطع الأسطول ، وقابلها المنصور في برتقال عند مصب نهر دويره حيث عبر النهر فوق المراكب قاصداً شانت ياقب «فتركت كأن لم تفر بالأمس ، وأمر بصون القبر [قبر القديس يعقوب] ودفع الأذى عنه» (١٣) .

وقد ظلت الأشبونة حتى آخر أيام الخلافة الأموية بقرطبة تشكل جزءاً من أرض الخلافة كما يستدل من قول الحميدي عند كلامه على ولاية محمد بن هشام المهدي الذي هُزم على يد ابن أخيه سليمان وفر إلى طليطلة «وكانت الثغور كلها من طرطوشة إلى الأشبونة باقية على طاعته ودعوته [المهدي]» (١٤) .

وكان غرب الأندلس في عهد الدولة المروانية يضم عدة كور (مديريات) ، وهي من الجنوب إلى الشمال : كورة أكشونة وقاعدتها شلب ، ثم كورة أشبونة وهي متصلة بكورة أكشونة (١٥) وتشمل شترين وشنرة والقبذاق ، وكورة باجة . ولما كانت قلعية خاضعة للمسلمين قبل عام ٢٦٤هـ / ٨٧٨ م فلعلها كانت قاعدة لكورة أيضاً (١٦) .

### الأشبونة في المصنفات الجغرافية العربية :

أفاض المصنفون الجغرافيون المسلمون في الحديث عن ثروة الأشبونة البرية والبحرية والمعدنية . فأحمد الرازي (القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي) يتحدث عن وفرة اسمائها وصيدها البري ، كما يتحدث عن جودة عسلها وعن جمع التبر من الساحل المقابل لها ، وعن جودة عنبها الذي يلفظه البحر عند ساحلها (١٧) . ولما كان النص العربي لكتاب

(١٣) ابن عذاري : البيان المغرب ٢/ ٤٤٠ — ٤٤١ . ابن الخطيب : أعال ٦٧ .

(١٤) الحميدي : جذوة المقتبس ١٨ .

(١٥) المقرئ : نفع الطبيب ١/ ١٧٢ .

(١٦) لثي بروفسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ٣/ ٥١ ، اسبانيا الإسلامية في القرن العاشر (بالفرنسية) ص ١١٧ .

(١٧) لثي بروفسال : صفة الأندلس لأحمد الرازي ، مجلة الأندلس ، عدد ١٨ (١٩٥٣) ، ص ٩٠ .

لرازي لم يصل إلينا مباشرة بل عن طريق ترجمة برتغالية له ، فإن النص الوارد في كتاب (فرحة الأنفس) لابن غالب ، الذي عثر عليه في السنوات الأخيرة ، بالغ الأهمية ، إذ إن ابن غالب احتفظ لنا بالنص العربي الكامل للرازي فهو يقول : «وتتصل (الأشبونة) بأحواز مدينة شنترين ، ولها خصلة بانث في طيب الثرات وامكان ضروب الصيد من بر وبحر ، وبزائنها احسن البزاة ، وفي جبالها شجرة العسل وهو الأبيض الخالص يشبه السكر في المذاق . ولها معدن من التبر الخالص غزير المادة . . . ويلقى بريف الأشبونة العنبر الفائق المتناهي كثيراً وهو يفوق كل عنبر ولا يشبهه إلا الهندي» (١٨) . ويذكر البكري وجود حجر البجادي بناحية الأشبونة «في جبل هناك يتلأأ فيه ليلاً كالسرج» (١٩) .

ويتحدث الإدريسي عن تبر الأشبونة وحنطتها فيقول : «وعلى ضفة النهر [تاجه] من جنوبه قبالة مدينة لشبونة حصن المعدن» (٢٠) [Almada] وسُمي بذلك لأنه عند هيجان البحر يقذف هناك بالذهب والتبر ، فإذا كان زمن الشتاء قصد إلى هذا الحصن أهل تلك البلاد فيخدمون المعدن الذي به إلى انقضاء الشتاء ، وهو من عجائب الأرض ، وقد رأيناه عياناً» (٢١) . ويذكر أهل لشبونة أن الحنطة تُزرع بفحص بلاطة — ما بين شنترين ولشبونة — فتقيم في الأرض أربعين يوماً فتحصّد ، وإن الكيل الواحد منها يعطي مائة كيل وربما زاد ونقص (٢٢) .

وتكثر بساتين الفاكهة في إقليم الأشبونة المشهور بنخشب التربة ووفرة المياه . فشجرة على مقربة من الأشبونة «أكثر البلاد تفاعاً ، ويجلّ عندهم حتى يبلغ دورها أربعة أشبار ، وكذلك الكمثرى . ويجل شجرة ينبت البنفسج بطبعه ، ويخرج من شجرة عنبر جيد» (٢٣) .

وكانت الأشبونة تقوم على ربوة عالية ويحيط بها سور ذو خمسة أبواب : «وبابها الغربي

(١٨) ابن غالب : فرحة الأنفس ٢٩١ .

(١٩) البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا ، قطعة من كتاب المسالك والممالك ص ١٢٧ — ١٢٨ .

(٢٠) «المعدن» بالاصطلاح الأندلسي والمغربي بمعنى «المنجم» .

(٢١) الإدريسي : صفة المغرب . . . والأندلس ، مأخوذة من كتاب نزعة المشتاق ص ١٨٤ .

(٢٢) المصدر السابق : ١٨٦ . الحميري : الروض المطار ٤٦ .

(٢٣) الحميري : الروض المطار ١١٣ .

قد عُقدتْ عليه حنايا فوق حنايا على عُمْدٍ من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها . ولها باب غربي أيضاً يُعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقّه جدولا ماء يصبان في البحر . ولها باب قبلي يسمّى باب البحر . . . . . وباب شرقي يعرف بباب الحُمَّة [ما زال الجانب الشرقي من لشبونة يحمل اسم الحُمَّة Alfama] ، والحُمَّة على مقربة منه ومن البحر دِيَّاس<sup>(٢٤)</sup> ماء حار وماء بارد ، فإذا مدَّ البحر واراها . وباب شرقي أيضاً يُعرف بباب المقبرة<sup>(٢٥)</sup> .

كما اشتهرت الأشبونة ، وكذلك قصر أبي دانس إلى الجنوب منها ، كمركزين تجاريّين هامين على ساحل البحر المحيط . فكان ثمة طريق تجاري بحري عبر خليج بسكاي يصل ساحل غرب الأندلس ببلاد برطانية ، أي بريطانيا وبلاد الكلت . وكان يجلب بحراً من برطانية إلى الأشبونة وقصر أبي دانس العبيد والفراء والقصدير والسيوف<sup>(٢٦)</sup> .

### قصة الفتية المغربيّين (؟) :

أبدي المسلمون من أهل ساحل غرب الأندلس نشاطاً بحرياً منذ وقت مبكر ، ولعلّ غاراتِ الجوس على مدن الساحل حفزت بعضهم إلى محاولة استجلاء ما في البحر المحيط وما وراءه ، سابقين بذلك عصرَ الكشوف الجغرافية الأوروبية بعدة قرون ؛ لا بل إن رواد البرتغاليين في ميدان الكشف الجغرافي ، كهزري الملاح وفاسجو ديجاما وكريستوفر كولبس ، لا بد أنهم أفادوا مما حقّقه من سبقهم من المسلمين ومما خلّفوه من خرائط عن رحلاتهم في البحر المحيط .

وقد استحوذت الأشبونة على إهتمام الجغرافيين المسلمين لأن من مينائها أبحر الفتية المغرّرون (المغرّبون)<sup>(٢٧)</sup> لاكتشاف ما في البحر المحيط ومعركة نهايته . وأقدم مصدر عربي

(٢٤) ديماس : حمام ، حمام ماء معدني . أنظر دوزي : ملحق القواميس العربية ١/ ٤٦٠ .

(٢٥) الحميري : الروض المطّار ١٦ .

(٢٦) لومبارد (Lombard) : عصر الإسلام الذهبي (بالإنجليزية) ص ٢٣٣ .

(٢٧) لعله وقع تصحيف على أيدي الناسخين في كتابة كلمة المغرّرين ، ولا يُستبعد أن تكون الكلمة في الأصل المغربيّين إذ إن الفتية أقلعوا من الأشبونة غرباً في البحر المحيط .

يحدثنا عن هؤلاء الفتية هو الإدريسي الذي يقول ما موجزه : إن « من مدينة لشبونة كان خروج المغررين في ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه وإلى أين انتهاؤه . . . ولهم بمدينة لشبونة ، بموضع قرب الحمة ، درب منسوب إليهم يُعرف بدرب المغررين . . . وذلك أنهم اجتمعوا ثمانية رجال كلهم أبناء عم فأنشأوا مركباً حملاً وأدخلوا فيه من الماء والزاد ما يكفيهم لأشهر ، ثم دخلوا البحر في أول طاروس [هبوب] الريح الشرقية فجرّوا بها نحواً من أحد عشر يوماً فوصلوا إلى بحر غليظ الموج كدر الروائح كثير التروش [الصخور] قليل الضوء [لعله ساحل ارلندا الجنوبي] فأيقنوا بالتلّف ، فردّوا قلاعهم في اليد الأخرى وجروا في البحر ناحية الجنوب اثني عشر يوماً فخرجوا إلى جزيرة الغنم [لعلها إحدى جزر أزور] . . . وساروا مع الجنوب اثني عشر يوماً إلى أن لاحت لهم جزيرة [لعلها إحدى جزر الخالدات/كناري] . وفي هذه الجزيرة الأخيرة نُقلوا إلى مدينة على ضفة البحر حيث اعتقلوا مدة ثلاثة أيام ، ثم مثلوا أمام الملك فطمأنهم . ويبدو أن الملك قرر إبعادهم ، إذ حُمِلوا في مركب مبعصوبي الأعين وأُنزلوا بعد رحلة استغرقت ثلاثة أيام على ساحل المغرب عند بلدة أسني ، وهناك علموا من بعض الأهالي أن بينهم وبين بلدهم الأشبونة مسيرة شهرين (٢٨) .

وهكذا فإن الرجال أمضوا ثمانية وثلاثين يوماً في مياه البحر المحيط ، قطعوا فيها حوالي ٣٨٠٠ كيلو متر وهي «أطول مسافة قطعت فيه إلى ذلك الحين ، وذلك في ذاته عمل عظيم سبق به العرب غيرهم» (٢٩) .

وكان خشخاش البحري قد خاطر هو الآخر بنفسه في جاعة من أحداث قرطبة «فركبوا مراكب استعدّوها ودخلوا البحرَ وغابوا فيه مدة ، ثم أتوا بغنائم واسعة وأخبار مشهورة» (٣٠) .

كانت الأشبونة ميناءً عربياً كبيراً ومركزاً نشيطاً للتجارة والملاحة ، ويرى باحث برتغالي حديث في محاولة المغررين الخطوة الأولى لحركة الكشف البحرية البرتغالية منذ أن كانت

(٢٨) الإدريسي : صفة المغرب . . . والأندلس ١٨٤ ، ١٨٥ ، الحميري : الروض المطاوع ١٦ - ١٨ .

(٢٩) حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ٢٧٨ .

(٣٠) الحميري : الروض المطاوع ٢٨ ، ٢٩ .

المدينة تحت السيادة العربية<sup>(٣١)</sup> . كما انه تسنى للبرتغاليين إحراز ما اكتشفوه في القرنين الخامس عشر والسادس عشر بفضل اقتباسهم طريقة بناء مراكب العرب التقليدية في غرب الأندلس ؛ فعلى أساسها استطاع هنري الملّاح بناء القوارب السريعة المسماة (Caravels) ، وهي قوارب شراعية فائقة السرعة<sup>(٣٢)</sup> . ومن المعروف أن الأمير هنري الملّاح استعان بأحد رسامي الخرائط اليهود واسمه كريسك (Cresques) من جزيرة ميورقة واستدعاه إلى الأشبونة لهذا الغرض ، ولا شك في أن هذا اليهودي كان على اطلاع على الخرائط العربية الأندلسية<sup>(٣٣)</sup> .

### مدينة الأشبونة في فترة ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) :

كان سابور ، أحد عبيد الحكم المستنصر ، والياً على الأشبونة وغرب الأندلس ، حتى إذا ما تفرقت الجماعة في مستهل القرن الخامس الهجري ، انتزى سابور في ناحيته كما فعل غيره من المتوثبين في تلك الفترة ، واستعان بعبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفطس لتدبير أمره . وبعد وفاة سابور قام ابن الأفطس بأمر ولدّي سابور ثم استأثر بالسلطان في بطليوس دونها . وارتحل الأخوان إلى مدينة الأشبونة حيث انتزى فيها أحدهما واسمه عبد العزيز ، ثم خلفه أخوه عبد الملك وكان عاجزاً . فاتصل أهل الأشبونة سرّاً بابن الأفطس ليعث إليهم بوال من عنده ، فوجه إليهم ابنه محمداً . ولم يشعر عبد الملك إلا بالبلد قد امتلأ بالعسكر ، فاستسلم وخرج من الأشبونة واستقر بقرطبة<sup>(٣٤)</sup> .

وقامت حروب بين صاحب اشيلية القاضي محمد بن عباد وعبد الله بن الأفطس صاحب بطليوس للسيطرة على غرب الأندلس . ويذكر ابن بسام الشنتريني ان القاضي ابن

(٣١) فلوزو : « قضية أثر العرب والمسلمين في الحضارة البرتغالية » ، بحث (بالإنجليزية) في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية ، العدد ١٤ (١٩٦٦) ص ٥٢ .

(٣٢) فلوزو (Velozo) : المصدر السابق ص ٥٥ .

(٣٣) لفرمور (Livermore) : تاريخ جديد للبرتغال (بالإنجليزية) ص ١٢٦ . . .

(٣٤) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ (القسم الخاص بملوك الطوائف) ص ٢٣٧ . ابن الخطيب أعمال الأعلام ١٨٣ .



عباد وجه ابنه اسماعيل سنة ١٠٣٤/٥٤٢٥ م للإغارة على أرض غليسية ، فرصده ابن الأفتس في طريق عودته « ونجا أسمايل بدمائه [أي روحه] إلى مدينة أشبونة آخر عمله من ساحل البحر المحيط » (٣٥) . ويبدو من هذه العبارة أن الأشبونة كانت آنذاك ضمن ممتلكات بني عباد ، وكذلك باجة التي ولد فيها المعتمد بن عباد حفيد القاضي سنة ١٠٤٢/٥٤٣١ م . ومما يؤيد نشاط بني عباد لتوسيع رقعة أراضيهم في غرب الأندلس في تلك الفترة ما ذكره المرواني عن المعتمد ابن عباد إذ يقول : « واستفحل أمر المعتضد ، وكان لا يملك إلا جفن أشيلية وبعض كور بغرب الأندلس . وغزا بيرتقال حصني الأخوين (Alafoens) فظفر بالروم الذين كانوا فيها ، وكانوا معاهدين بعهد موسى بن نصير لآبائهم . . » (٣٦) .

وفي منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي توحدت قشتالة وليون برعامة فرديناند الأول الذي انتزع من ابن الأفتس عدداً من المعاقل والمدن في غرب الأندلس ومن بينها فيزو وليجو سنة ١٠٥٧/٥٤٤٩ م ، كما استولى على قلورية سنة ١٠٦٤/٥٤٥٦ م ، وكانت أول مدينة إسلامية مهمة تسقط في أيدي النصارى منذ أيام الفتح العامرية . وكاد فرديناند الأول أن يستولى على شنترين ، مفتاح الأشبونة ، لولا مبادرة ابن الأفتس بدفع ضريبة سنوية له (٣٧) .

وهكذا فإن الحكم الإسلامي في غرب الأندلس ضعف في عهد ملوك الطوائف لأن الإماراتين اللتين قامتا هناك ، وهما بطليوس وأشبيلية ، صرفتا جهدهما في التحارب بدلاً من جمع الكلمة لمواجهة العدو المشترك ، مما أدى إلى تقدم الروم جنوباً نحو وادي تاجه وتهديدهم شنترين والأشبونة . ولولا قدوم المرابطين المجاهدين إلى الأندلس وتصديهم للروم لضاع غرب الأندلس منذ عهد الطوائف (٣٨) .

بعد وفاة المظفر بن الأفتس ولي ابنه يحيى بطليوس ، وولي ابنه الآخر عمر يابرة وما إليها

(٣٥) ابن بسام : الذخيرة ١/٢ ص ٢٢ .

(٣٦) دوزي : تاريخ بني عباد ٦/٢ - ٧ .

(٣٧) ابن عذاري : البيان المغرب ٣ (القسم الخاص بملوك الطوائف) ص ٣٨ . ابن الخطيب : أحوال الأعلام ١٨٤ .

(٣٨) حسين مؤنس : رحلة الأندلس ٣٩٤ .

من الثغر الجوفي ، بما في ذلك الأشبونة ، ودبَّ بينها النزاع مما مكَّن الروم مما ارادوه من بلاد المسلمين . وعلى اثر وفاة يحيى انفرد عمر المتوكل بالحكم إلى أن خلعه المرابطون سنة ٤٧٨هـ / ١٠٩٤ م . ويذكر ابن بسام الشنترني انه لجأ إلى المتوكل عبد الله بن هود ، الذي ينتمي إلى بني هود اصحاب سرقسطة ، فولَّاه مدينة الأشبونة « ثم صرفه عنها ، وصدر محمود السيرة منها » (٣٩) .

## الأشبونة في كتب الأدب والتراجم :

يذكر لسان الدين بن الخطيب في مقدمة «الإحاطة في أخبار غرناطة» أنه في تأليفه عن تاريخ بلده غرناطة وأعلامها انما يحتذي حذو الكثيرين ممن سبقوه في التأليف عن اوطانهم ، ويذكر من بين من أفرد لوطنه تاريخاً أبا بكر بن محمد بن إدريس القرابي العالوسي الذي ألف عن مسقط رأسه الأشبونة كتاب «الدرة المكنونة في أخبار أُسبونة» (٤٠) . ويُفرد صاحب «المغرب في حلى المغرب» فصلاً في كتابه بعنوان : كتاب الرياض المصونة في حلى مملكة أُسبونة ، وفيه يصفها بأنها «مملكة جليلة على البحر المحيط في غرب إشبيلية وشمالها» (٤١) . ويورد تحت هذا الفصل كتاب الغرّة الميعونة في حلى مدينة أُسبونة ، ويذكر أن ولاية شنترين كانت تتردد عليها من أُسبونة (٤٢) .

وقد أنجبت الأشبونة عدداً من الشعراء والأدباء والفقهاء من أشهرهم أبو زيد عبد الرحمن بن مَقَنَا الأشبوني الذي يقول عنه ابن بسام الشنترني إنه كان «من شعراء غربنا المشاهير ، وله شعريّ عرب عن أدب غزير» (٤٣) . وكان ابن مَقَنَا قد جال اقطار الأندلس في شبابه مادحاً رؤساءها ، ومن اشهر قصائده تلك التي أنشدها في مدح إدريس بن يحيى ابن حمود ومطلعها :

أَلْبِرْقِ لائِحٍ من أندرين      ذرَفَتْ عيناك بالماء المعين

(٣٩) ابن بسام : الدخيرة ٢/٢ ص ٨٠٣ . إن الأبار : الحلة السراء ١٦٥/٢ .

(٤٠) ابن الخطيب : الإحاطة ٩١/١ .

(٤١) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١/٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٤٢) المصدر السابق : ١/٤١١ ، ٤١٧ .

(٤٣) ابن بسام : الدخيرة ٢/٢ ص ٧٨٦ .

ومن أدباء الأشبونة كذلك الشيخ أبو الحسن علي بن اسماعيل القرشي الفهري الأشبوني الذي «كان يُعرف عندنا باللطيطل ، ممن نظم الدرّ المفصّل لا سيما في الزهد» (٤٤) .

ويبدو أن الأشبونة كانت مقصد الأدباء في غرب الأندلس ، فابن بسام يذكر أكثر من مرة أنه قصد الأشبونة لملاقاة أدباؤها والوافدين عليها . فعند الحديث عن الأديب أبي جعفر بن الدودين البلنسي يقول ابن بسام : « هو أحد من لقينته وشافهته ، وأملى عليّ نظمه ونثره بالأشبونة سنة سبع وسبعين وأربعمائة [١٠٨٤ م] » (٤٥) . ويتحدث ابن بسام عن الأديب أبي عامر بن الأصيلي من سرقطة فيقول : « وهبط إلى الأشبونة [أيام كوني بها] . . . . وزرته ونزلت عليه في منزله أول التقائي به في لمة من أهل الأدب » (٤٦) .

ويبدو أن نزاعاً عائلياً قد حدث في مدينة الأشبونة في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بين أسرتين كبيرتين فيها ، وهما آل أخطل وأسرة الفقيه ابن إبراهيم الفهري ذهب ضحيته الوزير الفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الذي كثيراً ما يُثني عليه ابن بسام ويتفجع لمقتله . « وكان الوزير الفقيه . . . سويداء قلب ذلك الإقليم ، ومجلسه بالأشبونة مرمى جمار المنشور والمنظوم ، هو المقتول هنالك المظلوم — رفع الله درجته وقتل قتلته — ولما كُشف ذلك النير المشرق . . . انطلقت أيدي الدهماء ، إذ عدموا من كان يفيض عليهم أنوار الآراء . . . ويستنزل بها ما امتنع بآراء سديدة الأنحاء . . . وسياسات لطيفة من شدة ولين ، وحركة وسكون . وكنتُ علقْتُ به في ذلك الغرب بالحبل المتين . . . » (٤٧) .

ولأبي عامر الأصيلي من سرقطة في الوزير الفقيه ابن إبراهيم قصيدة مخمسة يقول فيها :

تَجَنَّبْتُ فِي أَشْبُونَةِ آلِ أَخْطَلِ  
وَأَمَلْتُ رَكْنِي فِي الْخُطُوبِ وَمَعْقِلِي

(٤٤) المصدر السابق : ٢/٢ ص ٧٩٧ . ابن دحية : المطرّب ١٨٤ .

(٤٥) المصدر السابق : ٢/٣ ص ٧٠٣ .

(٤٦) المصدر السابق : ٢/٣ ص ٨٦٢ .

(٤٧) المصدر السابق : ٢/٣ ص ٨٦٥ ، ٨٦٦ .

الـيـك ابـن إـبراهيم أـدّى بـنـا الـهـوى  
ومن عرف الأطوادَ حاد عن الصوى<sup>(٤٨)</sup>

ومن قصيدة للأصلي في تأبين ابن إبراهيم :

تولّي ابنُ إبراهيم فالغرب بعده  
لكل غريب الدار حلقةٌ جُلجل .

\* \* \*

أما إنه والحقُ أبلغُ واضح  
لقد جئتمُ بالعار يا آلَ اخطل

\* \* \*

غدرتُم فكان الغدرُ منكم سجيةً  
في العلم والمجدِ التليدِ المؤثِّل<sup>(٤٩)</sup>

ويذكر ابن بشكوال أبا عبد الله محمد بن يحيى بن مزاحم الأنصاري الذي سكن  
طليطلة ورحل إلى المشرق وأصله من الأشبونة ، ويصفه بأنه كان نهاية في علم العربية ،  
وتوفي سنة ٥٥٢هـ<sup>(٥٠)</sup> .

ومن مشاهير شعراء الأشبونة محمد بن سوار الأشبوني الذي يقول عنه ابن بسام أنه «في  
وقتنا واحد عصره ، وله عدة قصائد في ملوك قطره قالها تحبباً لا تكسباً»<sup>(٥١)</sup> . وقد أسره  
النصارى وجرت عليه مِحَنٌ وفدّاه منهم ابنُ عشرة كريمُ سلا ، وله فيه أمداح كثيرة<sup>(٥٢)</sup> .

ومن فقهاء الأشبونة عبد الرحمن بن عبيد الله ، وكان يروي عن الإمام مالك ابن  
انس<sup>(٥٣)</sup> .

---

(٤٨) المصدر السابق : ٢/٣ ص ٨٦٣ ، ٨٦٥ .

(٤٩) المصدر السابق : ٢/٣ ص ٨٦٧ .

(٥٠) ابن بشكوال : الصلة ٥٣٢/١ .

(٥١) ابن بسام : اللخيرة ٢/٢ ص ٨١١ .

(٥٢) ابن سعيد : المغرب في حُلَى المغرب ٤١١/١ ، ٤١٢ .

(٥٣) الحميدي : جلدوة المقتبس ٢٥٧ .

## قدوم المرابطين إلى الأندلس :

لما تفاقم خطرُ الروم على ملوك الطوائف، استصرخ هؤلاء سلطانَ المرابطين يوسفَ ابن تاشفين، الذي هبَّ لتجديدهم وأحرز انتصار الزلافة الشهير (٤٧٩هـ/١٠٨٦ م). وما إن عاد ابن تاشفين إلى المغرب حتى تجدد تهديدُ الروم ورجع ملوك الطوائف إلى سيرتهم الأولى. فقرر يوسف بن تاشفين، بعد استشارة الفقهاء وبالحاج من أهل الأندلس، أن يخلعَ ملوكَ الطوائف وأن يتفرغَ للجهاد في الأندلس. وقد بدأ يخلع صاحب غرناطة عبد الله ابن بلقين (٤٨٣هـ/١٠٩٠ م) وثنى بالمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية والمعتصم بن صُباح صاحب المرية (٤٨٤هـ/١٠٩٠ م). أما المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس وغرب الأندلس فكان «يخاطب الأمير [يوسف بن تاشفين] بإظهار الطاعة والمشاركة في أمر الرومي [الفونس السادس] ويخاطب الفونس ليستعين به على مُلَمةٍ إن دهنه من المرابطين»<sup>(٥٤)</sup>. فقرر الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني والي إشبيلية خلعه. وكان ابنُ الأفطس قبل خلعه قد داخل الفونس وتخلَّى له عن الأشبونة وشنترين وشنترية في مقابل تعهد الرومي بمساعدته ضد المرابطين إلا أن الفونس عجز عن حماية بطليوس التي استسلمت للمرابطين بعد شهر من احتلال الفونس للأشبونة في ٦ ربيع ثاني ٤٨٦هـ/٦ مايو ١٠٩٣ م. وقُبض على المتوكل وقُتل في صدر سنة ٤٨٧هـ/١٠٩٤ م لأن الأمير سير «نقمَ عليه ما كان من عمله مع النصراني والمعاقل التي اعطاهم»<sup>(٥٥)</sup>. ولم يلبث المرابطون أن اوقعوا بالنصارى هزيمةً كبيرة في ظاهر الأشبونة بعد بضعة شهور من استيلائهم على بطليوس واستردت الأشبونة وشنترية بعد أن بقيتا في أيدي الروم نحو عام ونصف العام<sup>(٥٦)</sup>. ويعقب عبد الله بن بلقين على أخذ المرابطين لبطليوس وخلع أميرها بقوله «وطاع جميع ذلك الثغر [الجوفي] للمرابطين كأن لم يكن قطُ لغيرهم»<sup>(٥٧)</sup>. وقد ظل الأمير سير بن أبي بكر والياً على اشبيلية وغرب الأندلس حتى وفاته سنة ٥٠٧هـ/١١١٣ م. وتمكَّن قبل وفاته من استرداد شنترين أيضاً (٥٠٤هـ/١١١١ م). ويُجمل صاحبُ «روض القرطاس» فتوحاتِ الأمير سير في غرب

(٥٤) عبد الله بن بلقين : التبيان ١٧٢.

(٥٥) المصدر السابق : ١٧٤. محمد المراكشي : الذيل والتكلة ٢/٥ ص ٤٦٧.

(٥٦) مندث بيدال (Menendez Pidal) : اسبانيا في عهد السيد (القنيطور) (بالإسبانية)

٧٩٦، ٧٩٥/٢.

(٥٧) عبد الله بن بلقين : التبيان ١٧٤.

الأندلس بعبارة واحدة إذ يقول «وفي سنة أربع وخمسمائة فتح الأمير سير بن أبي بكر شترين وبطليوس وبرتقال ويابورة والأشبونة وجميع بلاد الغرب ، وذلك في شهر ذي القعدة منها» (٥٨) .

والحق يقال إن المرابطين أبلّوا بلاءاً حسناً في الجهاد ضد الروم ، وقدّموا تضحياتٍ جسيمةً للزيادة عن الإسلام في الأندلس ، ولولاهم لضاعت من أيدي المسلمين منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي (٥٩) . وفي مطلع القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أحرز علي بن تاشفين عدة انتصارات على الروم ، أهمها انتصاره في وقعة أڤليش (١١٠٨/٥٠٢ م) ، وهي على حد قول المؤرخ الموحيدي ابن القطان ، «من غرّ الوقائع وجليها». كما توغّلوا في غرب الأندلس، وفي سنة ١١١٧/٥١٠ م حاصر السلطان المرابطي قلمرية ذاتها لمدة عشرين يوماً وعاث بأحوازها (٦٠) . وأحرز تاشفين بن علي هو الآخر في الفترة ٥٢٦—٥٣٢/١١٣٢—١١٣٧ م انتصاراتٍ باهرةً في غرب الأندلس (٦١) . ومع ذلك ، فإن وضع المسلمين في الأندلس ساء كثيراً في العقدين الأخيرين من عمر دولة المرابطين لثلاثة أسباب رئيسية : أهمها قيامُ الموحيدين بزعامة المهدي بن تومرت (٥١٤/١١٢٠ م على المرابطين في المغرب مما اضطر المرابطين إلى سحب قواتهم من الأندلس لمواجهة خطر الموحيدين في المغرب . والسبب الثاني ، وقد نتج عن السبب الأول ، هو قيام العديد من المتوطينين في سائر أنحاء الأندلس بعد أن شعروا بضعف المرابطين العسكري وطمعاً في السلطان . أما السبب الثالث ، فهو أن الممالك النصرانية في شمال شبه الجزيرة توحّدت كلمتها وانتهزت الفرصة السانحةً للتوسع جنوباً على حساب المسلمين .

أما الموحدون فقد استدعى قيامهم بالمغرب «ان وُجّه عن كثير من حماة الأندلس إلى

(٥٨) ابن أبي زرع : روض القرطاس ١٠٥ .

(٥٩) حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحيدين ص ٩٨ — ١٠٠ .

(٦٠) ابن القطان : نظم الجمان ٦ . لفرمور (Livermore) : تاريخ جديد للبرتغال (بالانجليزية) ٤٧ .

(٦١) عن هذه الانتصارات أنظر ابن القطان : نظم الجمان ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ومؤلفاً مجهول الاسم : الحلال الموشية ١٠٠ ، ١٠١ ، وابن أبي زرع : روض القرطاس ١٠٧ .

العدوة . . . فكان ذلك من أعظم فساد حال الأندلس . . . وألح النصارى بالضرب على  
 جهات بلاد الأندلس حين علموا عجز الإمارة بالمغرب عن الدفاع، لَمَّا هُم فِيهِ مِنَ الْفِتَنِ  
 حَتَّى تَغْلِبُوا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ بِلَادِهِا<sup>(٦٢)</sup>. ويؤكد المراكشي هذه النقطة إذ يقول، وكان  
 أيضاً من أسباب اختلال دولة المرابطين على عهد علي بن يوسف «قيامُ ابن تومرت بسوس  
 واشتغال علي بن يوسف عن مراعاة أهل الجزيرة»<sup>(٦٣)</sup>. ويقول ابن زرع الفاسي:  
 «وفي سنة ٥١٩هـ [١١٢٥م] ضعف اللمتونيون [المرابطون] واشتغلوا بحرب المهدي  
 والموحدين وعجزوا عن نصره بلاد الأندلس واشتغلوا بأنفسهم عنها»<sup>(٦٤)</sup>. ويقول ابن  
 الخطيب: «استقل الأمير تاشفين أمر الأندلس بعد موت أبيه بما دهمه من حروب المهدي  
 واستيلائه على المغرب، فلم يُلْقِ إلى الأندلس رأساً»<sup>(٦٥)</sup>.

وتعدّد الثوار والمتزوّج في أعقاب دولة المرابطين في الأندلس، وكان معظمهم من  
 الفقهاء وتسموا بالأمير القاضي، وعلى رأسهم ابن حمدين في قرطبة، وابن قسي  
 وأصحابه المريدون في غرب الأندلس، وابن أضحى في غرناطة، وابن طاهر في مرسية،  
 وابن عبد العزيز ثم ابن مردنيش في بلنسية، وبدأت فترة ثانية من الطوائف كالتّي أعقبت  
 سقوط خلافة قرطبة. وقد كان هؤلاء المتزوّج نفعاً من الطامعين في السلطان انتهزوا فرصة  
 انشغال المرابطين بمحاربة الموحدين في المغرب، خصوصاً بعد مقتل تاشفين بن علي.  
 ويسمّي ابن الأبار السنة التي كثر فيها المتوّبون في الأندلس، وهي سنة ٥٣٩هـ/  
 ١١٤٤ — ١١٤٥ م، بالسنة «القارضة مُلْكَ اللمتونين بمقتل تاشفين أميرهم في رمضان  
 منها [٢٧ رمضان ٥٣٩هـ/٢٣ مارس ١١٤٥م]»<sup>(٦٦)</sup>.

إزاء هذه الأخطار المحدقة بالأندلس من الداخل والخارج، نجد عبد المؤمن بن علي  
 زعيم الموحدين منشغلاً بالاستيلاء على مدن المغرب التي ظلّت على ولائها للمرابطين.  
 فقد سقطت وهران وتلمسان في أيدي الموحدين في رمضان سنة ٥٣٩هـ/مارس ١١٤٥ م،

(٦٢) مؤلف مجهول الاسم: الحلل المشوية ٩٨.

(٦٣) المراكشي: للعجب ٢٠٨.

(٦٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس ١١٠.

(٦٥) ابن الخطيب: أعمال ٢٤٧.

(٦٦) ابن الأبار: الحلة السراء ١٩٨/٢.

وفاس سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٦ م ، وسقطت مدينة مراكش في أيديهم سنة ٥٤١هـ / ١١٤٧ م ، ومكناسة سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨ م بعد حصار دام سبعة أعوام ، مما يدل على مدى تعلق أهل مدن المغرب بالمرابطين<sup>(٦٧)</sup> . وعلى ذلك ، فإن قوات الموحدين لم تصل إلى الأندلس إلا في شعبان سنة ٥٤١هـ / أوائل ١١٤٦ م بعد أن تفاقم خطر النصارى<sup>(٦٨)</sup> . وتقدم الموحدون في غرب الأندلس واستسلمت لهم شريش ولبلة وميرتلة وشلب وبطليوس واستولوا على إشبيلية من أيدي المرابطين في شعبان ٥٤١هـ / يناير ١١٤٧ م .

إن هذا الوضع غير المستقر في الأندلس أثناء محاولة الموحدين إخضاع المرابطين ورؤساء الطوائف، الجدد، أتاح للملك النصارى فرصة ممتازة لإحراز مكاسب أقليمية كبيرة على حساب المسلمين . وشارك في الهجوم على أراضي المسلمين ابن الريق (Afonso Henriques) صاحب قلّمية ، والفونس السابع ملك قشتالة وليون ، ورامون بيرنجوير الرابع صاحب برشلونة .

### رواية مسيحية معاصرة عن الهجوم الصليبي على مدينة الأشبونة (٥٤٢هـ / ١١٤٧ م) :

كان الفونس السادس ملك قشتالة وليون قد قدم مقاطعة برتقال (أبورتو Portucalis)<sup>(٦٩)</sup> الواقعة ما بين نهر دويره ونهر مينه (Minho) سنة ١٠٩٧م مهراً لابنته غير الشرعية تيريزا (Teresa) وزوجها البرجندى كونت هنري/هنري (Henriques) ، وورث المقاطعة من بعدهما ابنها أفونسو (Afonso) الذي تشير إليه المصادر العربية باسم ابن الريق (أى ابن هنري) . وقد استغل ابن الريق صاحب برتقال المنازعات الداخلية في قشتالة بين الملك والنبلاء للمناداة باستقلاله في مقاطعته ، فكان ذلك بداية استقلال البرتغال .

(٦٧) ابن أبي زرع : روض القرطاس ١٢٣ .

(٦٨) ابن الخطيب : أعمال ٢٦٥ .

(٦٩) «برتقال» تعني بوابة غليسية إذ إنها معبرها من الجنوب .



يُروّج البرتغاليون بدايةً استقلال بلادهم بسنة ١١٣٩ م ، وفيها أحرز ابن الريق — كما تقول الروايات — انتصاراً محلياً على قوة مرابطية في أوريك (Oric) بالقرب من شنترين ، وعلى الأثر بادر بالمناداة بنفسه ملكاً ، واتخذ قلمرية مقراً له . وكانت البلاد التي تولّى مُلكُها تمتد آنذاك من نهر مينه (Minho) الى نهر منديق (Mondego) . وإلى الجنوب من قلمرية كانت الأشبونة وشنترين تشكلان جزءاً من الأندلس الإسلامية .

وفي سنة ٥٣٥ — ٥٣٦/١١٤٠ م (أو ١١٤٢ م) سنحت لابن الريق أولُ فرصة لمهاجمة الأشبونة عند مرور اسطول يحمل صليبيين في طريقهم الى فلسطين ، وقبل هُؤلاء الصليبيون معاوتته في مهاجمة الأشبونة فنهت أرباضُ المدينة ، ولكن المدينة صمدت في وجههم .

وفي أواخر سنة ٥٤١هـ/ربيع سنة ١١٤٧ م ، انتهر ابنُ الريق فرصة انشغال الموحدين في الاستيلاء على إشبيلية من أيدي المرابطين ومحاولتهم بعد ذلك انقاذُ المرية من هجمات النصارى ، فهاجم شنترين التي تحكم في الطريق المؤدية الى الأشبونة واستولى عليها غدرًا في ١٠ شوال سنة ٥٤١هـ/١٥ مارس ١١٤٧ م ، بمساعدة فرسان الداوية (Templars) (٧٠) . وفي نفس الشهر استولى الموحدون على مدينة مراكش فأتَمَوْا بذلك الإجهازَ على دولة المرابطين في المغرب . وكانت شنترين مركزاً نشطاً لغارات المسلمين على منطقة قلمرية . وفتح الاستيلاء على شنترين الطريقَ الى الأشبونة الميناء الأهل الذي كان ينعم بالرخاء . ومما حفز ابنَ الريق للتأهب لمهاجمة الأشبونة ثانية وصولُ أنباء باقتراب اسطول صليبي آخر من ساحل بلاده . وكان هُؤلاء الصليبيون في طريقهم الى فلسطين ، استجابةً لنداء البابا الذي دعا مسيحي أوروبا للتوجه لمحاربة المسلمين في المشرق ، بعد أن استرد نور الدين زنكي مدينة الرها (Edessa) وكانت عاصمة أولى الإمارات الصليبية في الشرق . وكان الأسطول الصليبي القادم في مواجهة ساحل أراضي ابن الريق يتكوّن من ١٦٤ مركباً تحمل نحو ١٣٠٠٠ رجل أبحروا من ميناء دارتموث على ساحل انجلترا الجنوبي في ذي الحجة سنة ٥٤١هـ/مايو ١١٤٧ م . وكان هُؤلاء الصليبيون ثلاثَ جماعات : انجليز

(٧٠) لفرمور (Livermore): تاريخ جديد للبرتغال (بالإنجليزية) ص ٥٦ .

وَألمان وفلمنك ( من شمال بلجيكا حالياً ) . وقد ترك لنا وصفاً وافياً للحملة راهبٌ انجليزي من المشاركين فيها ، وذلك في خطابٍ بعثَ به الى مواطن انجليزي اسمه أزيبرت (Osbert) من بلدة بودسي (Bawdsey) بمقاطعة سنوك بالانجلترا ( المخطوط محفوظ في كلية كوربوس كريستي بجامعة كامبريدج بالانجلترا )<sup>(٧١)</sup> . فضلاً عن كون الخطاب المصدر الرئيسي لمعلوماتنا عن تفاصيل الحملة ، فانه كذلك وثيقة هامة لما يشتمل عليه من وصف مفصّل لحصار مدينة في القرون الوسطى دفاعاً وهجوماً ، بما في ذلك استعمال المقاليع والمجانيق والعرّادات وحتى الألغام .

عند مرور الصليبيين بميناء برتقال (أبورتو) للتزود بالمؤن ، رحّب بهم أسقف المدينة ودعاهم لمساعدة ابن الريق في مهاجمة الأشبونة وانتزاعها من أيدي المسلمين ، على أن يكون من نصيبهم الغنائم والرهائن . ولما اجتمع ابن الريق بزملاء الصليبيين للاتفاق على الشروط ذكر لهم ضيق ذات يده بحجة كثرة حروبه مع المسلمين ، وحاول استدراّر عاطفتهم الدينية دون جدوى . وأخيراً تم الاتفاق على أن تؤوّل كل الغنائم في المدينة للصليبيين وحدهم وكذلك المدينة الداخلية وفدية الأسرى . كما عرض ابن الريق أراضي على من يرغب من الصليبيين في الاستقرار في الأراضي المفتوحة<sup>(٧٢)</sup> .

وقبل أن يبدأ الهجوم ، أوفد ابن الريق اثنين من كبار رجال الدين للطلب الى والي الأشبونة وقاضيا تسليم المدينة . وقد جرى بينهم الحوار الطريف التالي : خاطب رئيس أساقفة براجة قاضي الأشبونة ، وكان ورجاله فوق السور ، طالباً منه الرحيل والتخلّي عن البلاد لأهلها ، زاعماً بأن العرب كانوا قد استولوا على المدينة عن طريق الخداع . فأجابه القاضي قائلاً : كم من مرة جئتم الى هنا مع حجاجكم وأعلاجكم لإخراجنا ؟ هل انتم غير قانعين بما لديكم ، أو هل ثمة مشكلات في دياركم تدفعكم الى التحرك المستمر ؟ . . أحسب أن هذه المدينة كانت في وقت من الأوقات ملكاً لكم ، ولكنها الآن ملكنا ، وقد تؤوّل اليكم في وقتٍ ما في مستقبل الأيام ، إلا أن ذلك رهناً بمشيئة الله . فبمشيئته تعالى احتفظنا بالمدينة ، ولن تخرج من أيدينا إلا بمشيئته تعالى فقط . انصرفوا ، فلن تدخلوا المدينة إلا بحد السيف . . . اصنعوا ما تشاؤون ، أما نحن فنسعمل ما

(٧١) المصدر السابق ص ٥٧ والهامشية رقم ٢ .

(٧٢) المصدر السابق ص ٥٨ .

بدأت العمليات الحربية في اليوم التالي وتمكّن الصليبيون الإنجليز ، باستعمالهم المقاليع ، من إبعاد المسلمين عن الرض الغربي إلى داخل المدينة المسورة حيث صمد المدافعون لهم ، وخيّم المهاجمون في مقبرة المدينة . وفي اليوم التالي ، قام المسلمون بهجوم مضاد لمحاولة استرداد الرض الغربي دون جدوى . وأبدت المدينة مقاومةً طويلة ، ونصبت المجانيق ولكنها أحرقت كما أحرق المدافعون برجاً خشبياً أقامه الإنجليز . وشرع الألمان في حفر خمسة أنفاق لكنهم طردوا منها . وبعد مضي ستة أسابيع اخذت عزيمة المهاجمين في القنور ، وأخذ المدافعون يسخرون بهم من فوق أسوار المدينة ويعيروهم « بالعديد من الأطفال الذين سيولدون لنا في أوطاننا أثناء غيابنا كما سخروا من ديانتنا»<sup>(٧٤)</sup> . وفي إحدى الليالي شوهد زورق صغير في البحر متوجهاً إلى بلعانة ، فهوجم وفر من فيه وعثر في الزورق على رسائل تستصرخ ابن وزير المنتري في يابرة . وبعد بضعة أيام ، قيل إن رسولا من يابرة وقع في الأسر ، وكان يحمل رسالة من ابن وزير يعتذر فيها عن تقديم المساعدة ، بحجة انه كان في هدنة مع ابن الريق !

وفي هذه الأثناء أخفقت كل محاولات الصليبيين لنقب السور بالمجانيق والعرادات ، كما ساءت أحوال المسلمين لنقص المؤن . وحاول الألمان والفلمنك وضع لغمٍ طويل تحت السور وأشعلت فيه النار في ١٦ أكتوبر ، الا ان المدافعين احتلوا النقب الذي أحدثه الانفجار . وبعد ذلك بثلاثة أيام ، اتمّ الإنجليز بناء برج خشبي ارتفاعه ثمانون قدماً وأدنته من السور المٌطل على ضفة النهر ، ونشب حوله قتال عنيف وحاول المسلمون إضرام النار فيه دون جدوى . وبعد ثلاثة أيام من القتال بالأيدي ، أدنى البرج من السور وأُنزلت من اعلاه قنطرة متحركة فوق حافة السور ، وعندئذ طلب المسلمون الهدنة . فتم الاتفاق على وقف الهجوم واعطاء اهل المدينة مهلة ليلة واحدة للتداول فيما اذا كانوا يريدون الاستسلام ، وسلموا رهائن لابن الريق . الا ان ذلك لم يرق للصليبيين ، فهموا بالفتك

(٧٣) ريد (Read) : العرب في اسبانيا والبرتغال (بالإنجليزية) ص ١٥٩ .

(٧٤) لفرمور (Livermore) : تاريخ جديد للبرتغال (بالإنجليزية) ص ٥٩ .

بالرهائن<sup>(٧٥)</sup> غير ان المسلمين رفضوا التفاوضَ الا مع ابن الريق . واتفق الصليبيون على طريقة دخول المدينة بعد تسليمها ، الا انهم لم يعملوا بما اتفقوا عليه ، وبادر الألمان والفلمنك بالدخول من النقب الذي كان قد أُحدث في السور . وكان دخول النصارى للمدينة في يوم ٢٧ جمادى الأولى سنة ٥٤٢هـ / ٢٤ أكتوبر ١١٤٧ م ، بعد حصار دام سبعة عشر اسبوعاً . ومع انه سُمح للمسلمين بمغادرة المدينة ، الا انها نهبتُ وقتل الكثيرُ من اهلها ، بمن فيهم أسقف النصارى المستعربين<sup>(٧٦)</sup> .

هذا هو مجملُ روايةِ احد الصليبيين الذين شاركوا في الهجوم على مدينة الأشبونة الإسلامية ، وهى رواية فريدة إذ إن المصادر العربية — أو ما وصلنا منها على الأقل — لم تترك لنا شيئاً عن هذا الهجوم ، وعن صمود اهلها الباسل منفردين في وجه هذه الجموع الصليبية . وكلُّ ما لدينا إشارتان مقتضبَتان أولاهما عبارة واحدة لابن غالب يقول فيها « وكانوا [ النصارى ] ثلاثة عشرَ الفَ رجل ، وفي الكلِّ [ السكان ] في القتال ، ولم يبقَ إلا اليسير »<sup>(٧٧)</sup> . أما الإشارة الثانية ، فقد اوردها ابنُ دحية حيث يقول « وقد أخذ الآن هذه البلاد ابنُ الريق اللعين . . . لما خاف اهلها من القتل ورأوا ان الأسرَ دونهُ لكثرة من جاءهم في البر والبحر وقعود المسلمين عن الحماية لهم والنصر ، حتى ملكَ الكفارُ معاقلهم المنية ، وحصونهم المرتفعة »<sup>(٧٨)</sup> .

واحتل الصليبيون كذلك معقلَ شنترة المجاورَ للأشبونة من جهة الغرب ، وحصنَ بلالة جنوبي نهر تاجه ، واصبح خطُّ دفاع المسلمين يمتد جنوبي النهر من ثغر قصر أبي دانس إلى يابرة . واصبحت الأشبونة معقلاً نصرانياً على الحدود مثُلها في ذلك مثَلُ طليطلة . ولعل الاستيلاء على الأشبونة كان أعظمَ ما حققه ابن الريق<sup>(٧٩)</sup> . وقد بادر ابنُ الريق بعد ثلاث سنوات من استحواذه على الأشبونة إلى تحويل مسجدها الجامع إلى كنيسة ، هى

(٧٥) قارن ذلك بما يلاحظه أسامة بن منقذ عن تعصب الوافدين الجدد من الصليبيين على بلاد الشام ، حيث يقول : « فكل من هو قريب العهد بالبلاد الإفرنجية أجنى أخلاقاً من الذين قد تبلدوا وعاشروا المسلمين » ، كتاب الاعتبار ١٣٤ .

(٧٦) لفرمور (Livermore) : ٥٩ — ٦١ . أو كالاهاان (O'Callaghan) : ٢٣١ .

(٧٧) ابن غالب : فرحة الأنفس ٢٩١ .

(٧٨) ابن دحية : المطرب ٢٤ .

(٧٩) ريد (Read) : ١٦١ .

كان سقوطُ الأَشبونة في أيدي النصارى من حيث الأهمية كسقوط طليطلة عام ١٠٨٥/٥٤٧٨ م ، وسقوط سرقسطة عام ١١١٨/٥١٢ م . وانهال سيلٌ من المستوطنين النصارى على الأَشبونة وشترتين بعد جلاء معظم سكانها المسلمين عنها ، وَنُصِبَ اِحدُ الصليبيين واسمه جِلْبَرْت (Gilbert) من مدينة هاستنجز بإنجلترا أسقفاً للأَشبونة (٨١) .

وفي الوقت الذي كان فيه ابنُ الريق يُحرز اعظمَ نصر له ، كان الفونس السابع ملك قشتالة وليون ورامون بيرنجوير الرابع صاحب برشلونة يحاصران قاعدةً اسلامية اخرى ، هي مدينة ألمرية ميناء الأندلس الرئيسي ، والقاعدة البحرية الهامة على ساحل الأندلس الجنوبي الشرقي ، وكان غزاةُ البحر المسلمون يتخذونها قاعدةً لعملياتهم البحرية . وقد حرص الجنويون والبيزيون على التخلص من هذا الخطر على تجارتهم البحرية النامية في غربي البحر المتوسط ، وهم الذين اشاروا على الفونس السابع بفتحها وشاركوا في مهاجمتها بحراً . وبدأت الحملة على ألمرية برا وبحراً في ٢ ربيع ثاني سنة ٥٤٢/١ اغسطس ١١٤٧ م واستسلمت المدينة الباسلة بعد صمودها شهرين ونصف الشهر في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢/١٧ اكتوبر ١١٤٧ م ، أي قبل اسبوع واحد من سقوط الأَشبونة (٨٢) .

وفي هذه الأثناء كان الموحدون قد وطّدوا أقدامهم في المغرب ، وأخذوا في توسيع رقعة سلطانهم في الأندلس ، ونجحوا في استرداد ألمرية بعد عشر سنوات من الحكم المسيحي لها . وفيما عدا ألمرية ، فان الموحدين لم يتمكنوا من استرداد القواعد الأخرى كالأشبونة وطرطوشة التي استولى عليها النصارى في سنة ٥٣٢/١١٤٧ - ١١٤٨ م (٨٣) .

وقد اتخذ المسلمون قصر أبي دانس قاعدة للإغارة بحراً على منطقة مدينة الأَشبونة

(٨٠) كما فعل جدّه لأنه ألفونس السادس بعد استيلائه على طليطلة ، فقد أمر بتغيير مسجدها الجامع في ربيع أول سنة ٤٩٨/ديسمبر ١١٠٤ م (ابن بسام : الذخيرة ٤/١ ص ١٣٢) .

(٨١) لفرمور (Livermore) : ٦٩ . أو كالاها (O'Callaghan) : ٢٣١ .

(٨٢) أو كالاها (O'Callaghan) : ٢٣١ .

(٨٢) المصدر السابق : ٢٣٢ .

بعد سقوطها في أيدي النصارى. وفي الغزاة الكبرى التي قادها السلطان الموحي يوسف ابن عبد المؤمن لاسترداد شنترين سنة ١١٨٤/٥٨٠م، غزا كذلك الأشبونة وأحوازا بالأساطيل، فقد «برز اسطوله على الأشبونة وحاصرها عشرين يوماً» (٨٤).

وجديرٌ بالذكر الدور الذي قامت به النظمُ الديرية العسكرية في شبه جزيرة ايبيرة في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ضد المسلمين، كما حدث في المشرق على أيدي نظامي الداوية (Templars) والأستارية (Hospitallars). وكان قيام هذه النظم نتيجة مباشرة لتدخل المرابطين والموحدين في الأندلس. وقد شكّلت في منطقة الحدود خط الدفاع والمهجوم، وظفرت بالتالي بأراضٍ شاسعة مما فقده المسلمون. ولما كانت هذه النظم في أساسها أجهزة صليبية، فإنها غدت في مناطق الحدود روحَ العداء وعدم التسامح نحو المسلمين، وهي الروح التي كانت طابعاً لحرب «الاسترداد». وأهم هذه النظم في شبه جزيرة ايبيرة نظام سانتياجو (Santiago) الذي تأسس في بلدة قاصرش Caceres على غرار نظام الداوية، ونظام قلعة رباح (Calatrava)، ونظام القنطرة، وكلها قامت في منطقة الحدود المتاخمة لأراضي المسلمين (٨٥).

ان هذه الروح الصليبية كانت قد انبعثت في اسبانيا منذ منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، اذ كان البابا، بإلحاح من رهبان دير كلوني، وكانوا غلاة في تعصبهم للكاتوليكية وعدائهم للمسلمين، قد سمى شبه جزيرة ايبيرة سنة ١٤٥٦/ ١٠٦٣ م منطقة حرب صليبية ضد المسلمين، وبالتالي فإن حرب «الاسترداد» الإسبانية أصبحت منذ ذلك التاريخ أمراً يهم كل مسيحي أوروبي (٨٦).

وقد افاد النصارى حضارياً من استيلائهم على قواعد اسلامية كبرى في الأندلس كطليطلة ومرسقطة والأشبونة. اما بالنسبة للأشبونة، فقد كان لما وأفادوه أثره الفعّال في حركة الأكتشافات البرتغالية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ويقول باحث برتغالي

(٨٤) الحميري: الروى المطار ١١٤.

(٨٥) مكندريك (Mekendrick): مجمل لتاريخ اسبانيا (بالإنجليزية) ص ٦٧، ٦٨. ماكي

(Mackay): اسبانيا في العصور الوسطى (بالإنجليزية) ص ٣٢، ٣٣.

(٨٦) مكندريك (Mekendrick): ص ٦٢.

حدث إن القانون الجنائي البرتغالي في العصر الوسيط يكاد يكون كله عربياً في محتواه ومناصبه ، ويضيف قائلاً إن ذلك ليس بالأمر الغريب بعد أن حكم العرب البلاد نحو خمسة قرون . كما يرجع ذلك الأثر العربي إلى حد ما لكون ملك البرتغال اتخذ عاصمة له مركزاً عربياً هاماً ، ألا وهو الأشبونة<sup>(٨٧)</sup> . وكانت الأشبونة قد حلت محل قلعة كمقر رئيسي للملك والإدارة في عهد أفونسو الثالث (حكم ١٢٤٦ - ١٢٧٩ م) .

وما زال الحي الشرقي من لشبونة يحمل اسمه العربي (Alfama) ، وهذه التسمية البرتغالية محرفة عن اسمه العربي (الحمة) . ويقوم هذا الحي القديم على ربوة عالية ، وهو يشبه القصبات في المدن المغربية بشوارع الصغيرة الصاعدة الهابطة ، وبيوته ذات الرجبات . وعلى قمة الربوة أطلال الحصن الأندلسي الذي كان يقوم وسط القصبية ، وهو يكشف البحر إلى مسافة بعيدة . وكان السور العربي ينحدر من هذا الحصن إلى ساحل البحر<sup>(٨٨)</sup> .

ويعرف الحصن العربي اليوم باسم حصن القديس جورج : (Castelo de Sao Jorge)، ولعل هذه التسمية تمجيد من جانب البرتغاليين للدور الذي قام به المحاربون الصليبيون الانجليز في الاستيلاء على مدينة لشبونة من أيدي المسلمين ، إذ إن القديس جورج كان - وما يزال - القديس الراعي (Patron Saint) لانجلترا .

مكتبة المجمع العلمي بدمشق - دار الكتب والوثائق القومية بدمشق

(٨٧) ثيلوزو (Velozo) : « قضية أثر العرب والمسلمين في الحضارة البرتغالية » ، بحث (بالإنجليزية) في مجلة الجمعية التاريخية الباكستانية ، العدد ١٤ (١٩٦٦) ص ٥٣ .

(٨٨) حسين مؤنس : رحلة الأندلس ٤٠٢ .

## « ثبت بالمصادر والمراجع »

### أ — مصادر عربية :

ابن الأثير ، محمد بن عبد الله : **الحلة السيرة** ، الجزء الثاني ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .  
ابن بسم الشنتريني ، علي : **الدخيرة في محاسن اهل الجزيرة** ، القسم الثاني والثالث ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ١٩٧٨ . القسم الرابع — المجلد الأول ، القاهرة ١٩٤٥ .  
ابن بشكوال ، خلف : **كتاب الصلة** ، الجزء الأول ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، القاهرة ١٩٥٥ .  
ابن بلقين ، عبد الله : **التيان (مذكرات الأمير عبد الله)** ، تحقيق إ. ليثي بروفسال ، القاهرة ١٩٥٥ .  
ابن حزم ، علي : **جمهرة أنساب العرب** ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٢ .  
ابن الخطيب ، لسان الدين : **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، الجزء الأول ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥ .

**أعمال الأعلام** ، تحقيق إ. ليثي بروفسال ، بيروت ١٩٥٦ .  
ابن دحية ، عمر : **المطرب من اشعار اهل المغرب** ، تحقيق ابراهيم الأياري وحامد عبد المجيد واحمد احمد بدوي ، القاهرة ١٩٥٤ .  
ابن ابي زرع القاسمي ، احمد : **الأنيس المطرب بروض القرواس** ، تحقيق تورنبرج ، أسالة ١٨٤٦ .  
ابن سعيد : **المغرب في حلى المغرب** ، الجزء الأول ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٥ .  
ابن عذارى المراكشي ، ابو العباس ، **البيان المغرب** ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩٥٠ .  
البيان المغرب ، الجزء الثالث / خاص بملوك الطوائف ، تحقيق ليثي بروفسال ، باريس ١٩٣٠ .  
ابن غالب ، محمد : **تعليق منتقى من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس** ، تحقيق لطفي عبد البديع ، نشر بمجلة معهد المخطوطات العربية ، مجلد ١ ، جزء ٢ ، ص ٢٨١ — ٣١٠ ، القاهرة ١٩٥٥ .

ابن القطان : **جزء من كتاب نظم الحمان** ، تحقيق محمود علي مكى ، تطوان ١٩٦٥ .  
ابن منقذ ، أسامة : **كتاب الاعتبار** ، تحقيق فليب حتى ، جامعة برينستون بالولايات المتحدة الأمريكية ١٩٣٠ .

الإدريسي ، أبو عبد الله محمد : **صفة المغرب واراض السودان ومصر والأندلس** ، مأخوذة من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، تحقيق دوزي ودي خويه ، لندن ١٨٦٦ .  
البكري ، أبو عبيد عبد الله : **جغرافية الأندلس وأوروبا** ، قطعة من كتاب **المسالك والممالك** ، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ، بيروت ١٩٦٨ .

الحميدى ، محمد : **جدوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس** ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥٢ .



الحميري، محمد بن عبد المنعم : *صفة جزيرة الأندلس* ، متخبة من كتاب *الروض المطار* ، تحقيق ليثي بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ .

القُدري ، احمد بن عمر (المعروف بابن الدلائي) : *توضيح الأخبار* ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مدريد ١٩٦٥ .

المراكشي ، عبد الواحد : *المُعْجَب في تلخيص أخبار المغرب* ، تحقيق محمد سعيد الريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ .

المراكشي ، محمد : *الذيل والتكملة* ، *السفر الخامس* ، القسم الثاني ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٥ .

المُقَرِّي ، احمد : *نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب* ، الجزء الأول ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٥٢ .

مؤنس ، حسين : *تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس* ، مدريد ١٩٦٧ .

*رحلة الأندلس* ، القاهرة ١٩٦٣ .

نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، نشرت في *صحيفة معهد الدراسات الإسلامية* ، مجلد ٣ (١) ، مدريد ١٩٥٥ .

## ب — مصادر غير عربية :

Dozy, R., *Historia Abbadidarum*, Vol. I, Leiden 1846;

*Supplément aux dictionnaires arabes*, I, Leiden 1881.

Levi-Provençal, E., "La Description de l'Espagne de Ahmad al-Razi", *Al-Andalus* (Madrid-Granada), Vol. XVIII, 1953,

*L'Espagne musulmane aux Xème siècle*, Paris 1946;

*Histoire de l'Espagne musulmane*, 3 vols., Paris-Leiden, 1950, 1967.

*EI*, IV, Leiden-London 1934, s.v. Lisbon, pp. 28-29.

Livernmore, H. V., *A New History of Portugal*, London 1976.

Lomax, D. W., *The Reconquest of Spain*, New York 1978.

Lombard, M., *The Golden Age of Islam*, Netherlands 1975.

Mackay, A., *Spain in the Middle Ages (from Frontier to Empire)*, London 1977.

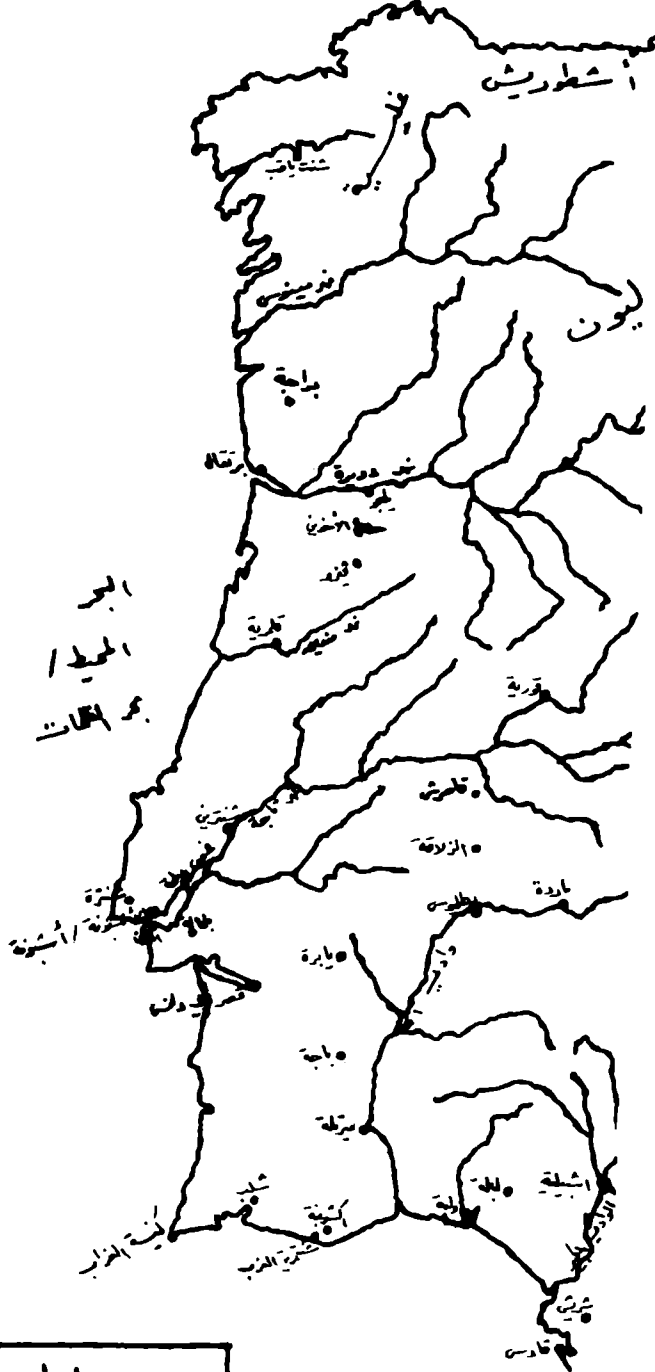
Mekendrick, M., *A Concise History of Spain*, London 1972.

Menendez Pidal, R., *La España del Cid*, Vol. I, Madrid 1969.

O'Callaghan, J. F., *A History of Medieval Spain*, London 1975.

Read, J., *The Moors in Spain and Portugal*, London 1974.

Veloze, F. J., "The Problem of Arabic-Islamic Influence in Portuguese Civilization," in *Journal of Pakistan Historical Society*, Vol. XIV, 1966, pp. 42-56.



غرب الأندلس  
(الغرب الجوفي)



## كتاب

# الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة

لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني

(ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)

### لمحة عن الكتاب وتاريخ تأليفه

ان كتاب ( الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ) لأبي الحسن علي بن بسام التغلبي الشنتريني مصدرٌ على جانب كبير من الأهمية للباحث في تاريخ الأندلس وأدبها في فترة ملوك الطوائف التي أعقبت نهاية خلافة قرطبة الأموية ( القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ) . اما أهمية الكتاب التاريخية ، فترجع بصورة رئيسية الى احتفاظه بفقرات مطولة من كتاب ( المتين ) لشيخ مؤرخي الأندلس ابي مروان بن حيان ، وهو التاريخ الذي لم يصلنا ، وفيه تناول ابن حيان بأسلوبه البليغ وصدقه وصراحته المعهودين تاريخ الأندلس على عهد ملوك الطوائف . وأما من الناحية الأدبية ، فان ابن بسام يعرض لنا بأسلوب بديع مرسل دون اغراق في السجع نماذج من شعر ونثر اعلام الأدباء في تلك الفترة التي شهد جانباً منها ، او استقى أخبارها من مصادر قريبة العهد بها .

ان مادفع ابن بسام الى تصنيف كتابه هو الرغبة في التعريف بأهل الأدب الأندلسيين ، إذ إنه رأى الناس يغمطون قدرهم ، وغيّرت على نتاج اهل وطنه من شعر ونثر ، ورغبته بالتالي في جمع هذا النتاج ، خصوصاً وأنه لاحظ تعلق اهل الأندلس بكل ما هو مشرقى

في هذا الباب<sup>(١)</sup>. «حتى لو نعت بتلك الآفاق غراب، أو طن بأقصى الشام والعراق ذياب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكما. وأخبارهم [أهل الأندلس] الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصبة ومناخ الرذية . . . ففاظني منهم ذلك، وانفت مما هنالك، واخذت نفسي يجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهله، وتصبح بحارته ثماداً مضمحلة، مع كثرة أدبائه ووفور علمائه»<sup>(٢)</sup>.

وقد اقتصر ابن بسام في كتابه على أعلام القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد دون من سبقهم من أعلام الدولتين المروانية والعامرية، إذ إن هؤلاء سبق أن تناولهم ابن فرج الجياني في «كتاب الحدائق». فهو يقول: «فأضربت عما ألف، ولم اعرض لشيء مما صنف. ولا تلميت أهل عصري، ممن شاهدته بعصري أو لحقه بعض أهل دهري، إذ كل مردّد ثقيل، وكل متكرر مملول»<sup>(٣)</sup>.

وابن بسام شديد الإعجاب بانتاج بني بلده، بالرغم من «كونهم بهذا الإقليم، ومصاقيبتهم لطوائف الروم، وعلى أن بلادهم آخر الفتح الإسلامية، وأقص خطى المآثر العربية، ليس وراءهم وأمامهم إلا البحر المحيط، والروم والقوط»<sup>(٤)</sup>.

وقد عانى ابن بسام كثيراً في جمع مادته إذ «إن عامة من ذكرته في هذا الديوان لم أجد له أخباراً موضوعة، ولا أشعاراً مجموعة، تفصح لي في طريق الاختيار منها»<sup>(٥)</sup>.

---

(١) كثيراً ما ترد هذه الشكوى على ألسنة أعلام الأندلس. من ذلك مثلاً قول علي بن حزم: انا الشمس في جو العلوم منيرة ولو انني من جانب الشرق طالع (ابن سعيد: المغرب ١/٣٥٦).

انظر كذلك ما يقوله في هذا الصدد ابن دحية في كتابه المطرب من اشعار أهل المغرب ص ١٤٥.

(٢) ابن بسام: الدخيرة ١/١ ص ١٢.

(٣) نفس المصدر ١/١ ص ١٣.

(٤) نفس المصدر ١/١ ص ١٤.

(٥) نفس المصدر ١/١ ص ١٦.

ثم انه تولى المهمة في ظروف شخصية صعبة إثر نزوحه عن مسقط رأسه شترين ، قبل استيلاء الروم عليها سنة ٤٨٦/١٠٩٣ م ، وقد تقدمت به السن ، كما ان جمع المادة تطلب منه الرجوع إلى مصادر متفرقة كان يعوزها الوضوح والبيان والدقة ، فهو يقول «فانما جمعت بين صعب قد ذل ، وغرب قد قل ، ونشاط قد قل ، وشباب ودع فاستقل ، من تفاريق كالقرون الحالية ، وتعاليق كالأطلال البالية ، بخط جهال كخطوط الراح ، او مدارج النمل بين مهاب الرياح ، فضبطهم تصحيف ، ووضعهم تبديل وتحريف ، أبأس الناس منها طالها ، واشدهم استرابة بها كاتبها ، ففتحت انا أقالها ، وفضضت قيودها واغلاها ، فاصبحت غايات تبين وبيان ، ووضحت آيات حسن واحسان» (٦) .

ويمضي ابن بسام في مقدمة (الذخيرة) فيقول : «واعتمدت المائة الخامسة من الهجرة ، فشرحت بعض محنها ، وجلوت وجه فتحها . . . وأحصيت علل استيلاء طوائف الروم على هذا الإقليم ، والممت بالأسباب التي دعت ملوكها إلى خلعهم ، واجتثاث اصلهم وفرعهم . . . وعولت في معظم ذلك على تاريخ أبي مروان بن حيان» (٧) .

وقد قسم ابن بسام كتاب (الذخيرة) اربعة اقسام : اولها لأهل قرطبة وما يصاقبها من بلاد موسطة الأندلس ، والثاني لاهل اشبيلية والجانب الغربي من الأندلس ، والثالث لاهل الجانب الشرقي من الأندلس . اما القسم الرابع والأخير ، فقد افرد له طراً على جزيرة الأندلس في القرن الخامس للهجرة من اديب وشاعر ، وكذلك لمشاهير الكتاب آنذاك بأفريقية والشام والعراق . ويحذو ابن بسام في (الذخيرة) حذو أبي منصور الثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر) .

اما المنهج الذي انتهجه ابن بسام في كتابه فهو ايراد توطئة تاريخية يتبعها بمن يترجم لهم من الرؤساء والكتاب والوزراء والشعراء على هذا الترتيب . وهو يبدأ عادة بترجمة العلم

(٦) نفس المصدر ١/١ ص ١٥ — ١٦ .

(٧) نفس المصدر ١/١ ص ١٧ — ١٨ . وعن ابن حيان المتوفى سنة ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م يقول ابن بشكوال انه «صاحب لواء التاريخ بالأندلس» (المجلة ١/١٥٠) ، ويسميه ابن الأبار «جهينة اخبار المروانية» (المجلة ١/٢١٠) . اما المستشرق الهولندي المعروف دوزي فيقول «لا نجد بين مؤرخي العرب الا القليلين ممن نستطيع ان نقارنهم بابن حيان ، ولن نجد من تقدمه عليه» (انظر بانتيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢١١) .

المراد في تزيديع مسجوع ، ثم يذكر مؤلفاته ، ويورد مقتطفات من شعره اونثره ، وفي كل ذلك تظهر سعة اطلاعه ، وهو يُكثر من المقارنة بين شعر معاصريه وبين شعر القدامى ، ويشير الى المواضع التي قلّدوا القدامى فيها<sup>(٨)</sup> .

ويقتبس ابنُ سعيد عن الحجاري صاحب (المُسهب) قوله في ابن بسام : « العجب انه لم يكن في حساب الآداب الأندلسية انه سيُبعث من شتَرتين قاصية الغرب ، ومحَل الطعن والضرب ، من ينظمها قلائد في جيد الدهر ، ويطلعها ضرائر للأُنجم الزهر . ولم ينشأ بحضرة قرطبة ولا بحضرة اشبيلية ولا غيرها من الخواضر العظام من يمتعض امتعاضه لأعلام عصره ، ويحمد في جمع حسنات نظمه ونثره . وسل الذخيرة فانها تعنون عن محاسنه الغزيرة . . . ومن نثره في كتاب الذخيرة ما يدل على علو طبقة . . . »<sup>(٩)</sup> .

ومما يلفت النظر، ان أديباً صقلياً معاصراً لابن بسام، أصله ايضا من شنترين، هو علي بن جعفر بن علي الشنتريني السعدي الصقلي ، المعروف بابن القطاع ، صنف هو الآخر ديوانا أسماه (كتاب الدرة الخطيرة من شعراء الجزيرة)<sup>(١٠)</sup> في وقت قريب من وقت تأليف (الذخيرة) جمع فيه أشعارَ اهل جزيرة صقلية في فترة مضطربة شبيهة بفترة ملوك الطوائف بالأندلس . وقد رحل ابن القطاع عن صقلية سنة ١٠٦١/٨٤٥٤ م عند بداية الغزو النورماني للجزيرة ، واستقر فترةً في الأندلس ، ثم توجه إلى مصر حيث كان في مطلع القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، وتوفي في القاهرة سنة ١١٢١/٨٥١٥ م . وقد وصلتنا مقتطفات من كتابه عن شعراء جزيرة صقلية، احتفظ بها العباد الإصفهاني في (خريدة القصر وجريدة العصر). وقد وقف هذا الأديب نفسه، كما فعل ابن بسام، للتنويه بمجد صقلية العربية، وضمّن كتابه مختارات من اشعار مائة وسبعين شاعرا صقلياً، لم يبق لنا منها الا ما استخرجه منها عماد الدين الإصفهاني في (الخريدة). فهل تأثر ابن باسم

(٨) انظر بالتبسيط : تاريخ الفكر الأندلسي ٢٩٥ — ٢٩٦ .

(٩) ابن سعيد : المغرب ٤١٧/٢ — ٤١٨ .

(١٠) هكذا اورد عنوان كتاب ابن القطاع المستشرق ريتشيانو (دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الثانية باللغة الإنجليزية ، مجلد ٣ ، ص ٨١٩ تحت مادة ابن القطاع) . اما العباد الإصفهاني فيذكر العنوان كالأتي الدرة الخطيرة والمختار من شعراء/شعر الجزيرة . انظر (الخريدة) ، قسم شعراء المغرب ، ص ٥١ . انظر كذلك مورينو : المسلمون في صقلية ص ٣٩ .

## تاريخ تصنيف ( الذخيرة )

بعد أن استقرَّ الرأي على خلع ملوك الطوائف ، بدأ المرابطون بصاحب غرناطة عبد الله ابن بلقين ( ٤٨٣هـ / ١٠٩٠ م ) ، وتوثقوا بالمتعمد بن عباد صاحب اشيلية وقرطبة ، وابن صمادح صاحب الرية ( ٤٨٤هـ / ١٠٩١ م ) ، واذ ذاك شعر بالخطر صاحب بطليوس وغرب الأندلس المتوكل على الله عمر بن الأفطس ، فأخذ في مداراة المرابطين من جهة ، وفي الاتصال سراً من جهة أخرى بإذفونش ملك قشتالة وليون للاستعانة به ، إذا اقتضى الأمر ، في درء خطر المرابطين على ملكه ، وتنازل للأخير في مقابل ذلك عن عدد من المدن والمعاقل من بينها شنترين والأشبونة وشنتر في أقصى الغرب ( البرتغال حالياً ) . يقول ابن الخطيب : « راسل المتوكل إذفونش ملك قشتالة وأطمعه — زعموا — في المدينة [ بطليوس ] وخرج له عن مدينة شنترين ، فحصنها العدو وضبطها . . . وعندما مكَّن العدو من شنترين ، انحرفت عنه [ المتوكل ] الرعية . . . وضاعت الصدور ، وراسل أهل بطليوس المرابطين ، فوصلها الجيوش وفتح الناس الأبواب ، فدخل القوم عتوة » (١١) . ويؤكد ذلك الأمير عبد الله بن بلقين ، وكان معاصراً للأحداث ، اذ يقول إن المرابطين « نعموا عليه [ المتوكل ] ما كان من عمله مع النصراني ، والمعاقل التي أعطاهم » (١٢) . وتحدد المصادر المسيحية المعاصرة تاريخ دخول الروم مدينة شنترين بيوم ٣٠ ابريل سنة ١٠٩٣ م ، الموافق ليوم ٣٠ ربيع الأول سنة ٤٨٦هـ (١٣) . وقد تخلى إذفونش السادس عن المدن الثلاث لصهره الكونت هنري البرجندي . وعلى الأثر ، استولى الأمير المرابطي سير ابن ابي بكر على مدينة بطليوس ( ٤٨٧هـ / ١٩٠٤ م ) ، ولم يُجدِ المتوكلَ استصراخه الروم ، ثم لم يلبث ان استرد الأمير سير الأشبونة وشنتر ، دون شنترين ، بعد ان اوقع

(١١) ابن الخطيب : أعمال ١٨٥—١٨٦ . انظر كذلك ابن الأبار : الحلة ١٠١/٢ وما بعدها .

المراكشي : الدليل والتكلمة ٢/٥ ص ٤٦٦ وما بعدها .

(١٢) عبد الله بن بلقين : التبيان ١٧٤ .

(١٣) بيدال (Pidal) : Espana del Cid ص ٥٠٢ .



ولا شك في ان ابن بسام نزع عن مسقط رأسه شترين قبيل استيلاء الروم عليها في ٣٠ ربيع الأول ٤٨٦هـ / ٣٠ ابريل ١٠٩٣ ولجأ الى قرطبة بادية الأمر ، وعلى ذلك فلا يمكن قبول ما يذكره بالثيا من ان ابن بسام « وفد على قرطبة للمرة الأولى سنة ٤٩٤هـ / ١١٠٠م »<sup>(١٤)</sup> . وتؤكد عبارة ابن بسام في مقدمة (الذخيرة) نزوحه عن بلده عند دخول الروم اليها ، اذ يقول : « وعلم الله تعالى ان هذا الكتاب لم يصدر الا عن صدر مكلم الأحناء ، وفكر خامد الذكاء . . . لانتباضي كان من شترين ، قاصية الغرب ، مفلول الغرب ، مروع السرب ، بعد ان استنفد الطريف والتلاد ، وأتى على الظاهر والباطن النفاذ ، بتواتر طوائف الروم ، علينا في عقر ذلك الأقليم . وقد كنا غنينا هنالك بكرم الانتساب ، عن سوء الاكساب ، واجتزأنا بمذخور العناد ، عن التقلب في البلاد ، الى ان نثر علينا الروم ذلك النظام ، ولو ترك القطا ليلا لنام . . . فوصلت حمص [ اشبيلية ] بنفس قد تقطعت شعاعا ، وذهب اكثرها التياعا . . . فتغربت بها سنوات أتبوا منها ظل الغمامة . . . ولا أنس الا الانفراد ، ولا تبلغ إلا بفضل الزاد . . . »<sup>(١٥)</sup> (

ويبدو ان ابن بسام اخذ في التنقل بين حواضر الأندلس ، وبخاصة قرطبة واشبيلية ، قبل ان يستقر ويشرع في تصنيف ديوانه ، وفي اثناء التصنيف . فهو يصرح بانه ابتداء التصنيف في قرطبة سنة ثلاث وتسعين واربعمائة ( ١١٠٠ م )<sup>(١٦)</sup> . وقد استغرقت عملية الجمع سنوات ، كما يستدل من الأحداث التي يتناولها ويشير اليها في تضاعيف الكتاب ، فهو مثلا يشير الى استرداد الأمير والقائد المرابطي ابي محمد مزدي بلنسية من أيدي الروم في رمضان سنة ٤٩٥هـ / ١٩ يونيو — ١٨ يوليو ١١٠٢ م<sup>(١٧)</sup> بعد ان تملكها رذريق (السيد الكنبطور (Mio Cid El Campeador) سبع سنوات<sup>(١٨)</sup> ، ويقتبس من رقعة في فتح

(١٤) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ٢٢٨ .

(١٥) ابن بسام : الذخيرة ١/١ ص ١٩ — ٢٠ .

(١٦) نفس المصدر ٢/٣ ص ٦٥٤ .

(١٧) نفس المصدر ١/٣ ص ١٠١ .

(١٨) نفس المصدر ١/٣ ص ٩٨ . ابن الخطيب : أعمال ٢٠٣ — ٢٠٤ .

بلنسية للأديب أبي الفضل جعفر ابن شرف القيرواني<sup>(١٩)</sup>.

وعند ذكر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، يذكر ابن بسام اسمَ الأمير متبوعاً بعبارة (رحمه الله)<sup>(٢٠)</sup> ، ولما كانت وفاة يوسف بن تاشفين في عام ٥٠٠هـ / ١١٠٦م<sup>(٢١)</sup> . فان ذلك يدل على ان ابن بسام كان ما زال عاكفاً على تأليف (الذخيرة) آنذاك. كما يورد ابنُ بسام النص الكاملَ لأرجوزة الأديب أبي طالب عبد الجبار التاريخية ، وأخبريت فيها يشير إلى ولاية علي بن يوسف الأمر بعد وفاة أبيه . والبيت هو .

ثم ولي علي بن يوسف مهتدياً حكمَ أبيه يقتني<sup>(٢٢)</sup> .

وعند ذكر الكاتب أبي عبد الله بن أبي الخصال ، من كبار كتاب شرق الأندلس ، يقول ابن بسام : «كنتُ قد انفردت لتحرير هذه النسخة من هذا المجموع في شهر سنة ثلاث وخمسمائة [ اواخر سنة ١١٠٩ او اوائل سنة ١١١٠ م ] » ، فخاطبه راجياً تزويده بنأذج من نثره اثناء اجتياز ابن أبي الخصال بإشبيلية<sup>(٢٣)</sup> .

وهكذا فان ابن بسام بدأ في تصنيف (الذخيرة) سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠ م ، وكاد ان يفرغَ من التأليف في شهر سنة ٥٠٣هـ / اواخر ١١٠٩ او اوائل ١١١٠ م . وفي مقدمة (الذخيرة) ، يعبر ابن بسام عن تطلعه وأمله الكبير في تحرير مسقط رأسه شنرين ، اذ يقول — ولعله كان يستشعرُ قربَ تحرير بلده على يد القائد المرابطي الكبير الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني ، الوالي على اشبيلية وغرب الأندلس (ولعلَّ التأليفَ كان باسمه) — «ولما سمعتُ صوت المهيب . وتسمت ريح الفرج القريب ، ووجدت لسبيل التأميل مدرجا ، وجعل الله لي من ربة الخمول مخرجا ، طالعتُ حضرته المقدسة بهذا الكتاب على حكمه ،

(١٩) ابن بسام : الذخيرة ٢/٣ ص ٨٦٨ .

(٢٠) نفس المصدر ١/٣ ص ٩٣ .

(٢١) مؤلف مجهول الاسم : الحلل ٦٧ . ابن عداري : البيان المغرب ٤/٤٥ . ابن أبي زرع : روض القوطاس ١٠١ .

(٢٢) ابن بسام : الذخيرة ٢/١ ص ٩٤٤ .

(٢٣) نفس المصدر ٢/٣ ص ٧٨٧ — ٧٨٨ .

مطرزا بسمته واسمه ، مستدلا بمجده ، متوسلا اليه بكرم عهده . . . (٢٤) .

يقول صاحبُ ( روض القرطاس ) إن فتح شنترين قد تم على يد الأمير سيرين أبي بكر في شهر ذي القعدة سنة ٥٠٤هـ / منتصف مايو ١١١١ م (٢٥) . وتؤيد ذلك وقائع الحولية المسماة (El Cronicon Lusitano y el Conimbricense) فهي تفيد بأن استيلاء الأمير سير على شنترين قد تم في شهر مايو من عام ١١١١ م (٢٦) .

ولا شك في أن ابن بسام قد فرغ من تأليف ( الذخيرة ) قبل أن يسترد المرابطون مدينة شنترين بسنة ونيف ، إذ لو أنه فرغ من تصنيف الكتاب عقب استردادها ، لكان أشار حتماً إلى تحرير بلده وعودته إليها ، وهو ما كان يترقبه ويصبو اليه بفارغ الصبر ، ولكننا لا نجد أية إشارة إلى ذلك في (الذخيرة) .

(٢٤) نفس المصدر ١/ ص ٢١ . الأمير سيرين أبي بكر بن تاشفين هو ابنُ أخي أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين (المعجب ١٤١) أو ابن عمه (الحلل ٥٩) وزوج ابنة أخي أمير المسلمين ، واسمها حواء . وقد كان الأمير سير من كبار القادة للمتوطين ، وقام بدور بارز في المعارك التي خاضها المرابطون في المغرب والأندلس ، وقد أشيد بدوره في إحراز المسلمين انتصارهم الكبير في وقعة الزلاقة (٤٧٩هـ / ١٠٨٦ م) . وإلى الأمير سيرين أبي بكر عهدَ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خلع العثمند بن عباد صاحب اشيلية (٤٨٤هـ / ١٠٩١ م) ، ومن بعده المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس (٤٨٧هـ / ١٠٩٤ م) . وقد عُيِّن والياً على اشيلية في شهر رجب سنة ٤٨٤هـ / سبتمبر ١٠٩١ م ، واحتفظ بهذا المنصب اثنين وعشرين عاماً إلى أن وافته المنية على مقربة من اشيلية في شهر جمادى الأولى سنة ٥٠٧هـ / أكتوبر - نوفمبر ١١١٣ م . وفضلاً عن اشيلية ، كانت ولاية الأمير سير تشمل قيادة قوات المرابطين في كافة غرب الأندلس ، واليه يعود الفضل إلى حد كبير في الحيلولة دون تقدم الروم في هذا الجانب من الأندلس . ويوجز ابن أبي زرع الفتوحات التي تحققت في غرب الأندلس على يد الأمير سير في جملة واحدة ، إذ يقول : «وفي سنة ٥٠٤ فتح الأمير سير بن أبي بكر شنترين ، وبطليوس ، وبرتقال ، ويابورة ، والأشبونة وجميع بلاد الغرب ، وذلك في شهري القعدة منها» . (عن الأمير سير بن أبي بكر ، انظر عبد الله بن بلقين: البيان ١٧٠ ، ١٧٣ وما بعدها . المراكشي: المعجب ١٤١ . ابن عذارى: البيان المغرب ٥٦/٤ وما بعدها . مؤلف مجهول الاسم : الحلل الموشية ٥٩ . ابن أبي زرع : روض القرطاس ١٠٠ وما بعدها ، ١٠٥ وما بعدها) .

(٢٥) ابن أبي زرع : روض القرطاس ١٠٥ .

(٢٦) بيدال España del Cid: (Pidat) ٧٩٥ .

وعلى ذلك ، فانه يمكننا القولُ إن ابن بسام استغرق في تصنيف ( الذخيرة ) قرابة عشر سنوات ، اذ شرع في التأليف سنة ٤٩٣هـ / ١١٠٠ م و فرغ منه سنة ٥٠٣هـ / ١١١٠ م ، وتم تحريرُ شترين من قبضة الروم في أواخر سنة ٥٠٤هـ / منتصف ١١١١ م ، بعد ان فرغ ابنُ بسام من تصنيف كتابه بسنة ونيف على اكثر تقدير .

ان كتبَ التراجم لا تذكر تاريخَ مولد ابن بسام ، ولكنه عند الحديث عن الأديب ابي جعفر احمد بن الدودين البلنسي يقول : « هو احد من لقيته وشافهته ، وأملى عليّ نظمته ونثره بالأشبونة سنة سبع وسبعين [٤٧٧هـ / ١٠٨٤م] »<sup>(٢٧)</sup> . ولعلَّ ابنُ بسام كان آنذاك في نحو العشرين من عمره ، وعلى ذلك فانه كان يناهز الأربعين حينما شرع في تأليف (الذخيرة) ، وكان يناهز الخمسين عند فراغه من التأليف . ومما يؤيد ذلك قولُ ابن بسام نفسه في مقدمة (الذخيرة) : « فإنما جمعتُه بين صعبٍ قد ذل ، وغرب قد فل ، ونشاط قد قل ، وشباب ودّع فاستقل »<sup>(٢٨)</sup> .

لقد ظَلَّتْ مدينةُ شترين في ايدي الروم ثمانيةَ عشرَ عاما (٤٨٦ — ٥٠٤هـ / ١٠٩٣ — ١١١١ م) . ولعلَّ تأخرَ استرداد المسلمين للمدينة من ايدي النصارى يرجع الى عاملين أولهما مناعة المدينة ، لوقوعها ، كما يقول الحميري ، « على جبلٍ عالٍ كثيرِ العلو جدا ، ولها من جهة القبلة حافة عظيمة ولا سور لها »<sup>(٢٩)</sup> . اما العامل الثاني والأهم ، فهو انشغال المرابطين في الفترة التي سبقت استردادَ شترين بجهاد الروم في شرق الأندلس ، حيث كان قد ظهر السيد الكنبطور (El Campeador) واستحوذ على بلنسية زهاء سبع سنوات ، الى ان استولى عليها بعد وفاته القائدُ المرابطيُّ الأمير ابو محمد مزدلي بن سلنكان . ثم استولى المرابطون على سرقسطة من يد صاحبها عبد الملك ابن هود بسبب تواطئه مع النصارى ، وانكار اهل المدينة ذلك واستدعائهم المرابطين (٥٠٣هـ / ١١١٠ م)<sup>(٣٠)</sup> . ثم واصل المرابطون جهادهم ، فأحرزوا انتصارا كبيرا على القشتاليين في وقعة أقليمس سنة ٥٠١هـ /

(٢٧) ابن بسام : الذخيرة ٢/٣ ص ٧٠٣ .

(٢٨) نفس المصدر ١/١ ص ١٥ .

(٢٩) الحميري : الروض المطار ٣٤٦ (مادة شترين) .

(٣٠) ابن الخطيب : أفعال ١٧٥ :

١٠٨ م ، « وهي من غر الوقائع وجليها »<sup>(٣١)</sup> . واسترد المرابطون بعد ذلك مجريط ووادي الحجارة ، وحاصروا مدينة طليطلة ذاتها . وبعد هذه الغزوات المظفرة ، أرسل امير المسلمين علي بن يوسف قائده سير بن ابي بكر إلى غرب الأندلس ، فاسترد في جملة ما استرد من الروم مدينة شنترين<sup>(٣٢)</sup> .

ويُستبعد جدا ان لا يكون ابن بسام قد بادر بالعودة فرحا الى مسقط رأسه شنترين بعد تحريرها ، بعد ان فرغ من تصنيف (الذخيرة) . وكانت وفاة ابن بسام في حوالي سنة ٥٤١-٥٤٢ م / ١١٤٧-١١٤٨ م ، وهي السنة التي قدّر فيها لشنترين ان تسقط ثانية في ايدي النصارى حينما شغل المرابطون عن الأندلس بقيام الموحدين عليهم في المغرب ، فلم تجد شنترين لنفسها نصيرا . فهل كانت وفاة ابن بسام في مسقط رأسه ؟ وهل كان ذلك قبل استيلاء النصارى عليها ؟<sup>(٣٣)</sup> .

- 
- (٣١) ابن القطان : نظم الجمان ٦ . ابن ابي زرع : روض القرطاس ١٠٣ .  
(٣٢) حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، مجلد ٣ (١) لسنة ١٩٥٥ ، مدريد ص ١٠٨ .  
(٣٣) في أواخر سنة ٥٤١ م / ربيع سنة ١١٤٧ م ، انتهى صاحب برتقال أفونسو الأول ، الذي يعرف في المصادر العربية باسم ابن الريق (ابن هنريق Henriques) ، فرصة انشغال الموحدين في الاستيلاء على اشيلية من ايدي المرابطين ومحاولتهم بعد ذلك انقاذ المرية من هجمات النصارى ، فهاجم شنترين واستولى عليها غدرا في ١٠ شوال سنة ٥٤١ م / ١٥ مارس ١١٤٧ م بمساعدة فرسان الداوية (The Templars) وفي نفس الشهر ، استولى الموحدون على مدينة مراكش بعد حصار دام تسعة شهور ، واتموا بذلك القضاء على اميراطورية المرابطين . (انظر ليفرمور (Livermore) : تاريخ جديد لبرتغال (A New History of Portugal) ، ص ٥٦ - ٥٧) .

## ثبت بالمصادر والمراجع

### أ — مصادر ومراجع عربية :

- ابن الأبار : الحلة السواء جزءان ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣ .  
ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، تحقيق تورنبرج ، أبالة ١٨٤٦ .  
ابن بسام الشنتريني : اللخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، اربعة اقسام (ثمانية مجلدات) ، تحقيق احسان عباس ، الدار العربية للكتاب ليبيا — تونس ١٣٩٥/٥ ١٩٧٥ م .  
ابن بشكوال : الصلة ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٥ .  
ابن بلقين ، عبد الله : التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) ، تحقيق إ. ليثي — بروكسفال ، القاهرة ١٩٥٥ .  
ابن الخطيب ، لسان الدين : اعال الاعلام ، تحقيق إ. ليثي — بروكسفال ، بيروت ١٩٥٦ .  
ابن دحية : المطرب من اشعار اهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الأبياري وزميله . ١٩٥٤ .  
ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، جزءان ، تحقيق شوقي ضيف ، القاهرة ٥٣ — ١٩٥٥ .  
ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، الجزء الرابع ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٧ .  
ابن القطان : نظم الجمان ، تحقيق محمود علي مكّي ، تطوان ١٩٦٥ .  
بالتيا ، أنخل جنتال : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .  
الحميري ، ابن عبد النعم : الروض المغطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٧٥ .  
العقاد الإصفهاني : حميدة القصر وحميدة العصر ، قسم شعراء المغرب (١) ، تحقيق محمد المرزوقي وزميله ، تونس ١٩٦٦ .  
المراكشي ، عبد الواحد : المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد الريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ .  
المراكشي ، محمد : الدليل والتكلمة ، السفر الخامس ، القسم الثاني ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ١٩٦٥ .  
مورينو ، مارتينو ماريو : المسلمون في صقلية ، بيروت ١٩٦٨ .  
مؤلف مجهول الاسم : الحلل الموشية ، تحقيق أ. س. علوش ، الرباط ١٩٣٦ .  
مؤنس ، حسين : نصوص ساسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، المجلد الثالث (سنة ١٩٥٥) من صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمجريد .

Cattenoz, H. G., *Tables de Concordance des Eres Chrétienne et Hégirienne*, Rabat 1954.

*Encyclopaedia of Islam* (New Edition), Vol. III, Leiden-London 1971.

Livermore, H. V., *A New History of Portugal*, Cambridge University Press 1976.

Pidal, R. Menendez, *La España del Cid*, Madrid 1969.



# الشيخ أبو مروان عبد الملك اليحانسي

(ت ٦٦٧ هـ / ١٢٦٩ م)

صوفي أندلسي : سيرته وكراماته من خلال كتاب

(تحفة المغرب ببلاد المغرب)

لتلميذه ورفيقه الفقيه أبي العباس أحمد القشتالي

نُشر في مدريد عام ١٩٧٤ مخطوط كتاب (تحفة المغرب ببلاد المغرب ، لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان) ، وهو من تأليف أحمد بن ابراهيم القشتالي ، وفيه يستعرض سيرة وكرامات شيخه وقربيه الصوفي الأندلسي ، أبي مروان عبد الملك اليحانسي ، المتوفى سنة ٦٦٧/٨ - ١٢٦٩ بمدينة سبتة . وستناول في هذا البحث محتويات هذا الكتاب ، الذي يعطي فكرة عن هذا الشيخ الأندلسي صوفياً ومجاهداً في سبيل الإسلام . ولعل من المناسب أن نتهّد للبحث بلمحة عن حركة التصوف في الأندلس إلى عهد الشيخ أبي مروان ، ثم بكلمة عن الأوضاع السائدة في الأندلس في القرن السابع / الثالث عشر للميلاد .

## الحركة الصوفية في الأندلس إلى نهاية القرن السابع / الثالث عشر الميلادي :

من المعلوم أن المذهب السني المالكي كان المذهب السائد في الأندلس على عهد أمراء بني أمية ، الذين حرصوا على ترسيخه وعدم السماح بتعدد المذاهب في البلاد ، لأسباب عديدة ، لعل السياسة ومعاداة الخلفاء العباسيين كانت إحداها . فالملقدي ، الذي ألف كتابه (أحسن التقاسيم) في أواخر القرن الرابع / العاشر الميلادي ، يروي عن أهل الأندلس



قولهم «لا نعرفُ إلا كتابَ الله وموطأَ مالك ، فإنْ ظهروا على حنفيٍّ أو شافعيٍّ نفوه ، وإنْ عثروا على معتزليٍّ أو شيوعيٍّ ونحوهما ربما قتلوه»<sup>(١)</sup> . كما ينفي المقدسي وجودَ خانات (زوايا) في المغرب والأندلس إلى زمنه ، إذ يقول : «وَقُرأتُ في كتابٍ صُفِّه بعضُ مشائخ الكراميةِ بنيسابور أن بالمغرب سبعمائة خانقاة لهم ، فقلتُ : لا والله ، ولا واحدة»<sup>(٢)</sup> .

إن أولَ أندلسيٍّ اشتهر بالزهد والتصوف كان محمد بن عبد الله بن مسرة (ت . ٣١٩/٩٣١ م) ، على عهد خليفة قرطبة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله . ويذكر مؤرخو الأندلس أن ابن مسرة معروفٌ بمذهب الاعتزال ، يقول بالاستطاعة [القدر] ، وانفاذ الوعد والوعد ، وضعف أحاديث الشفاعة ، ويحرف التأويل في كثير من القرآن ، كما يذكر ابنُ حبان القرطبي أن ابن مسرة وأتباعه قالوا بخلق القرآن ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وقالوا بالاعتزال عن العامة<sup>(٣)</sup> . ويقول ابن حبان — نقلاً عن الرازي (وهو من مؤرخي البلاط ، وعلى ذلك ينبغي أن يُنظر إلى روايته بتحفظ) — إن ابن مسرة وأتباعه «اختدعوا العوام بما أظهروه من التقشف في الزي ، والتشطف في المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلهم عصابة ضلَّت بضلالتهم . . . وإن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عنه وعلمَ صحته فتعاضمه . . . فأوعز إلى وزيره متولي أحكام مدينته بتتبع هذه الطائفة ، والتحري لها ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عُثر عليها منها»<sup>(٤)</sup> . ونتيجة لما تعرَّض له ابن مسرة من اضطهاد ، انتبذ عن الناس ، واستوطن ضيعته ببعض قرى قرطبة ، فظل دعائه وأصحابه يتتابونه بمكانه ، ويتكثرون عليه يأخذون عنه<sup>(٥)</sup> . وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرية والإخافة لهم وتخويفُ الناس من فتنهم بقية أيام الناصر لدين الله<sup>(٦)</sup> .

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٣٦ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٨ .

(٣) ابن حبان : المقتبس ٥/ ٢١ ، ٢٧ — ٢٧ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٥ .

(٥) المصدر السابق ص ٢٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٣٠ .

ومع أن حركة التصوف ازدهرت فترة قصيرة على يد ابن مسرة وتلاميذه ، إلا أن الصوفية لم تتمكن من الظهور علناً بسبب معاداة السلطة القائمة في قرطبة . ومع ذلك ، كان لبعض تلاميذ ابن مسرة مراكز في بجانة وفي العاصمة قرطبة في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس / القرن العاشر ، وأوائل القرن الحادي عشر الميلاديين .

وفي أواخر القرن الخامس / الحادي عشر الميلادي ، ظهرت في المرية على عهد المرابطين حركة صوفية على رأسها أبو العباس أحمد بن العريف الصنهاجي (ت ٥٣٧ / ١١٤١ م) الذي كان له أتباع في إشبيلية وغرناطة وفي إقليم الغرب (جنوب البرتغال حالياً) . ويدون أن ولاية المرابطين ارتابوا في ما قد تطوي عليه الحركة من آثار سياسية ، فاستدعي ابن العريف ومؤيده في إشبيلية أبو الحكم بن برجان إلى العاصمة مراكش وتوفيا فيها . واستطاع أحد تلاميذ ابن العريف ، وهو ابن قسي ، أن يتزى على رأس مريديه في رباطه بشلب بغرب الأندلس في أواخر أيام المرابطين ، منتهراً فرصة انشغالهم بقيام الموحدين عليهم ، وأن يصبح زعيماً مستقلاً نحواً من عشر سنوات .

وفي أيام الموحدين ، قويت حركة التصوف ، ويلاحظ أن كبار صوفي المغرب عاشوا كلهم تقريباً في عهد الموحدين<sup>(٧)</sup> . ففي عهدهم ازدهرت الحركة بتأثير زاهد بجاية الكبير أبي مدين شبيب بن الحسين سيدي بو مدين الذي توفي سنة ٥٩٤ / ١١٩٨ م في تلمسان (وفي قرية العباد بقرها يقع ضريحه) . وكان شيخ الصوفية دون منازع في القرن السادس / الثاني عشر الميلادي . وقد بقيت طريقة أبي مدين بفضل تلميذه عبد السلام بن مشيش (ت ٦٢٥ / ١٢٢٨ م) ؛ وأبرز تلاميذ ابن مشيش أبو الحسن علي الشاذلي صاحب الطريقة الشاذلية . وقد ذكر المستشرق الإسباني المعروف آسبن بلاثيوس أن الشيخ أبا مروان البُحانسي كان ، كإبن مشيش ، شيخاً لأبي الحسن الشاذلي في مقتبل عمره<sup>(٨)</sup> . ويلاحظ أن الأندلسيين ساهموا مساهمة كبيرة في قيام الطريقة الشاذلية : فابو مدين ، الذي يعتبر أحياناً مؤسساً ، مع أبي الحسن الشاذلي ، لهذه الطريقة ، من أصل أندلسي ، وكذلك كان

( ٧ ) Julien, p. 134.

( ٨ ) مقدمة المحقق لكتاب (تحفة المغرب) ص ٨ .

من أصل أندلسي تلميذ الشاذلي أبو العباس أحمد المرسى (ت ٦٨٦/١٢٨٧ م) الذي أنشئ باسمه رباط ومسجد في الإسكندرية<sup>(٩)</sup>.

ومن كبار شيوخ الصوفية الأندلسيين الذين قصدوا المشرق واستقروا فيه ، محيي الدين ابن العربي (المتوفى في دمشق سنة ٦٣٨/١٢٤٠ م) ، والذي يُشار إليه أحيانا — خطأً — بابن عربي<sup>(١٠)</sup> ، المعروف بالشيخ الأكبر ، وهو يعد من أعظم الصوفيين في الاسلام ، وقد تأثر بأفكار ابن مسرة<sup>(١١)</sup> . وفي دمشق ، ألف ابن العربي كتابَ (الفتوحات المكيّة) الذي يعدّ من أعظم مؤلفاته . وعندما نستعرض من عرفهم ابن العربي من شيوخ روحيين أو أصحاب في الطرق الصوفية ، نتبيّن بوضوح الأوج الذي وصل إليه التصوف في الأندلس . ويذكر ابن العربي نفسه في (رسالة القدس) تراجمَ خمسة وخمسين شيخاً من شيوخه الروحيين ، والكثير من هؤلاء أندلسيون من شتى الطبقات . وهذه التراجم في مجموعها تعطينا صورة للحياة الأندلسية تناقض المناقضة كلّها ما تعرضه علينا أزجالُ ابن قزمان من فحش وتهكّم<sup>(١٢)</sup> . إلا أن أستاذ ابن العربي الحقيقي كان الاعتكاف ، فكان ينزل بنفسه اياماً طويلة بين القبور ، يناجي أرواح الأموات<sup>(١٣)</sup> .

ومن تلاميذ ابن العربي عبد الحق بن سبعين ، وهو معاصر لشيخنا أبي مروان اليحانسي . وابن سبعين ، كابن العربي ، من أبناء مُرسية بشرق الأندلس ، ودرس مثله علوم القرآن والحديث في اشبيلية ، ثم انتقل إلى سبتة — لعلّ ذلك حَدَثَ بعد سقوط حواضر المسلمين الكبرى في الأندلس في أيدي النصارى — وفي سبتة رأس جماعة معظمها من الفقراء أصحاب العبادات ، كانوا يجوبون البلاد ويُعرفون باسم (السبعينية) . وقد ثارت حفيظة الفقهاء على ابن سبعين ومُريديه (تلاميذه وأتباعه) بسبب ملابسهم ، وطريقة معيشتهم ، ومذهبهم<sup>(١٤)</sup> . وقد خرج ابن سبعين إلى الحج وجاور في مكة ، وفيها

(٩) Trimingham, p. 49. Watt, p. 144.

(١٠) EI<sup>2</sup>, III, p. 707.

(١١) بالتبني : تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٤٣ .

(١٢) المصدر السابق ص ٣٨٥ .

(١٣) المصدر السابق ص ٣٧٢ .

(١٤) المصدر السابق ص ٣٨٧ .

توفي سنة ١٢٦٩/٦٦٩ م . وعلى ابن سبعين تتلمذ أبو الحسن الشُّشُري الوادي آشي (توفي قرب دمياط سنة ١٢٦٩/٦٦٨ م) الذي ألف مؤشحاتٍ ظَلَّتْ واسعة الإنتشار في حضرات الشاذلية ، إلى يومنا هذا <sup>(١٥)</sup> .

## الوضع في الأندلس في القرن السابع / الثالث عشر الميلادي :

لقد كانت الهزيمة الساحقة التي لحقتُ بالموحدين في الأندلس على أيدي النصارى في وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة ١٢١٢/٦٠٩ م ايذاناً ببداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس . وبانسحاب الموحدين من الساحة ، لم يلبث أن ظهر امراء أندلسيون مستقلون هنا وهناك ، أهمهم ابنُ هود الذي تمكَّن في وقتٍ ما من السيطرة على معظم شرق الأندلس وجنوبها وكما يقول صاحبُ (روض القرطاس) ضمنَ أحداث سنة ١٢٣١/٦٢٨ «ملك ابنُ هود جبلَ الفتح [جبل طارق] والجزيرة الخضراء ، ولم يبقَ للموحدين بالأندلس أمرٌ ولا نهْي» <sup>(١٦)</sup> . وكان على الأندلسيين الآن أن يواجهوا النصارى بمفردهم . وقد أعلن ابن هود ولاءه للخليفة العباسي في بغداد لكي يُضفي الشرعية على سلطانه ، إلا أن قوته الحقيقية كانت تكمنُ في حقد الأندلسيين الدفين على الموحدين ومقتهم لهم .

وفي هذه الأثناء ، اتحدت قشتالة وليون بزعامة فرناندو الثالث (١٢٣٠ م) ، فازداد النصارى بذلك قوةً وأوقعوا بابن هود أكثرَ من هزيمة . وقد ركَّز فرناندو الثالث هجَّاتِه على مَوسِطَة الأندلس مستغلاً المنازعات بين ابن هود ومنافسه على السلطان محمد بن يوسف ابن نصر الملقَّب بالأحمر . وكان الأحمر قد نصَّب نفسه ملكاً على جيَّان وقرطبة (٢ — ١٢٣٣ م) واستولى على اشبيلية ، إلا أن أهل قرطبة وإشبيلية كانوا بمقتونه ، فطردوه واستدعوا ابنَ هود . وتماذى الصراعُ بين هذين الأميرين الأندلسيين إلى سنة ١٢٣٨ م ، حينما اغتيل ابنُ هود . وكان ابنُ نصر قد استولى على غرناطة واتخذها عاصمةً له سنة ١٢٣٥ م ، وهو مؤسسُ أسرتها الحاكمة المعروفة ببني الأحمر أو بني نصر . وكان

(١٥) Trimingham, p. 47.

(١٦) ابن أبي زرع القاسي : روض القرطاس ص ٢٧٥ .

ابن نصر هذا مضطراً إلى مداراة فرناندو الثالث للاحتفاظ بمملكته ، لا بل ونصت المعاهدة المعقودة بينهما على أن يدفع ابن نصر لصاحب قشتالة ضريبة سنوية ، وأن يهب لمساعدته عند الطلب في حروبه حتى ضد المسلمين — كما فعل أثناء حصار النصارى لقرطبة وإشبيلية (١٧) .

في هذه الفترة العصبية من تاريخ الأندلس ، تهاوت قواعد المسلمين وحواضرهم الكبرى ربيعاً في أيدي النصارى : قرطبة (١٢٣٦/٦٣٣ م) ، بلنسية (١٢٣٨/٦٣٦ م) ، جيّان (١٢٤٦/٦٤٣ م) ، وإشبيلية (١٢٤٨/٦٤٦ م) . وفي هذه الفترة المؤسفة ، عاش شيخنا أبو مروان اليحانسي — نسبةً إلى قرية يُحانس (Ohanes) الواقعة على السفوح الشرقية لجبال سيرانيفاده (التي يسميها العرب جبل شكير أو جبل الثلج) ، وكانت تتبع مدينة المرية ، أي أنها كانت ضمن مملكة غرناطة . ولا شك في أن سقوط قواعد الإسلام الكبرى في الأندلس في أيدي النصارى كان ذا أثر فعال على انتهاج الشيخ أبي مروان — وهو بعد في مرحلة الصبا — طريق التصوف ، إذ يلاحظ الباحث في التاريخ الأندلسي أن حركات الزهد والنسك والتصوف أكثر ما كانت تظهر في الفترات التي كانت تعجز فيها السلطة الحاكمة عن الدفاع عن أرض الإسلام أمام الأخطار الخارجية ، أو في الفترات التي كانت تسوّف فيها الأحوال الاجتماعية ويتشرف فيها الفساد ، أو في الفترات التي كان يعاني فيها الناس من ظلم الولاة والساطين وجورهم . وكما سبى بالنسبة للشيخ أبي مروان ، فإن صوفيته لم تكن صوفية سلبية انطوائية قائمة على الزهد والتنسك فحسب ، بل اتخذت في آن واحد طابعاً زهدياً وكذلك طابعاً جهادياً ضد الأخطار المحدقة بدار الإسلام وبالمسلمين في الأندلس على وجه الخصوص .

### كتاب (تحفة المغرب ببلاد المغرب) :

نشر كتاب (تحفة المغرب ببلاد المغرب) لأول مرة في مدريد عام ١٩٧٤ عن مخطوطة فريدة في المكتبة الوطنية بباريس ، وقد حققه وقدم له فرناندو دي لاجرانجا (Fernando de la Granja) ؛ والكتاب من تأليف الفقيه أبي العباس

أحمد بن إبراهيم القشتالي ، الذي كان تلميذاً وقرياً للشيخ أبي مروان ، ورفيقاً له في أسفاره . ويدور الكتابُ حول كرامات الشيخ أبي مروان عبد الملك اليحانسي ، نسبةً إلى بلدة يُحانِس Ohanes بولاية المُريّة حالياً ، شرقيّ غرناطة .

وقد وردتُ إشاراتٌ إلى الكتاب وإلى الشيخ أبي مروان اليحانسي في أربعة مصادر ، هي حسب ترتيبها الزمني :

١ — كتاب (المقصد الشريف في ذكر صلحاء الريف) لعبد الحق البادسي (أوائل القرن الثامن/الرابع عشر الميلادي) ، وفيه ترجمة للشيخ أبي مروان ، وهو الأندلسي الوحيد الذي يذكره المؤلف بين صلحاء الريف ، ولعلّ ذلك يرجع إلى استقرار أبي مروان في سبتة في السنوات الأخيرة من حياته ووفاته فيها .

٢ — كتاب (اختصار الأخبار) تأليف محمد بن القاسم بن عبد الملك الأنصاري الذي يؤرخ فيه لمدينة سبتة الإسلامية في القرن التاسع/الخامس عشر الميلادي . يقول الأنصاري : «وأشهر من بمقبرة أحجار السودان ، المقبرة الأولى ، قبر الوليِّ الشهير صاحب الكرامات والمكاشفات أبي مروان عبد الملك اليحانسي ، ضريح مشهور ويصعدُ منه النور» (١٨) .

٣ — ويذكر ابن أبي زرع الفاسي أنه «في سنة سبع وستين [وستائة] توفي الشيخُ الصالح أبو مروان الوجانسي [هكذا يرسم اسمه] بمدينة سبتة» (١٩) .

٤ — وأخيراً فإن المقرئ ذكر في (نفح الطيب) في معرض كلامه عن الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق الشيخُ أبا مروان «نسبةً إلى بجانس [هكذا يرسم اسم القرية] ، قرية من قرى وادي آش . . . وكان — رحمه الله تعالى — في أواسط المائة السابعة . وقد ذكره الفقيه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن يحيى الأزدي القشتالي في تأليفه . . . وقال فيه : راضوا أنفسهم لتنقاد للمولى سراً وعلناً ، وزهدوا في الدنيا ، فلم يقولوا معنا ولا لنا ، وانتدبوا لقول الله تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» (٢٠) .

(١٨) الأنصاري : كتاب اختصار الأخبار ص ١٥١ .

(١٩) ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ص ٣٥٣ .

(٢٠) المقرئ : نفح الطيب ٤٤٣/٣ .

يبدأ الكتابُ بفصلٍ ، هو أطول فصول الكتاب ، يروي فيه المؤلفُ ما كان قد حدث به الشيخُ أبو مروان عن توبته إلى الله في حادثة سنه ، وشروعه في حياة الزهد والتقشف بدون وساطة أي شيخ ، ثم يسرد المؤلفُ سلسلةً طويلة من أعمال الشيخ أبي مروان التي شهدها المؤلفُ بنفسه ، أو سمعها منه ، أو نقلها عن أصدقائه وأقربائه . وتُظهر هذه الأعمالُ كلها فضائله ، وزهده وتوكله على الله ، وتغلبه على شهوات نفسه ، وقدراته على صنع المعجزات . كما يحدّثنا المؤلفُ في الكتاب عن مشاركة أبي مروان الفعّالة في الجهاد عن ثغور غرناطة ، وعن مشاركته في الدفاع عن قرطبة وأشبيلية أثناء حصار الروم لها ، ثم عن توجهه إلى مدينة مراكش لإستنفار القبائل للغزو والجهاد في بلاد الأندلس (٢١) .

إن كتابَ (تحفة المغرب ببلاد المغرب) يتركز حول شخصية أبي مروان ، فهو بمثابة ترجمةٍ لسيرة إنسان غير عادي ، بالإضافة إلى أنه يفيدنا في التعرف على الظاهرة الدينية ومدى إحساس الأندلسيين بها في فترة عصيبة من تاريخهم . لقد عاش أبو مروان في فترة حاسمةٍ حرجية ، هي فترة زوال دولة الموحدين ، وظهور ابن هود في شرق الأندلس ، وقيام مملكة بني الأحمر في غرناطة ، وكانت مملكة غرناطة كل ما بقي بأيدي المسلمين من بلاد الأندلس في حياة أبي مروان في منتصف القرن السابع / الثالث عشر (٢٢) .

وكان أبو مروان قد جابَ قبل ذلك أنحاء العالم الإسلامي : فأدى فريضة الحج مرتين ، وأقام في مصر والشام والعراق ، وشهد قبل عام ١٢٤٢/٦٤٠ م مجلساً للخليفة العباسي أبي جعفر المستنصر ، برسم حضور السماع مع الفقهاء والمشايخ . وأخيراً اختار الشيخُ أبو مروان الاستقرارَ في مدينة سبتة حيث وافته المنية (٨/٦٦٧ — ١٢٦٩ م) . وكانت سبتة — فرضة المجاز — مقصدَ النازحين الأندلسيين الأول بعدوة المغرب ، بعد تهاوي قواعد الأندلس الكبرى كقرطبة وأشبيلية .

## اليحانسي صوفياً زاهداً :

يتحدث ابن خلدون في (المقدمة) حديث الفقيه العارف عن علم التصوف فيقول :

(٢١) مقدمة المحقق لكتاب (تحفة المغرب) ص ٩ — ١٠ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٢ .

« هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، واصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية ، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينها ، والزهد فيما يُقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة . وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف . فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختصّ المقبولون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » (٢٣) .

إن هذا هو ما حدث تماماً للشيخ أبي مروان البُحانسي كما يتبين من كتاب (تحفة المغرب) الذي يحتوي على مائة وأحدى عشرة كرامة من كرامات هذا الصوفي الأندلسي . وقد لخصنا ستاً منها تُظهر الجوانب الصوفية البارزة للشيخ أبي مروان ، واحتفظنا بنص عباراته في معظمها .

انتبه المؤلفُ فرصة انفراده ذات يوم بالشيخ أبي مروان سنة ١٢٤٧/٦٤٧ — ١٢٥٠ م فسأله عن بدايته . فكان مما قاله الشيخ أبو مروان إنه كان بطبعه كثير المداعبة والبسط ، فبلغت سنهُ أربعة عشر عاماً . وقد عاد يوماً إلى المنزل ، فطلبت إليه زوجة والده أن يأخذ الغداء لأخيه محمد بحيث هو يزرع — وكان أخاه لأمه وابن عمه — ففعل . وفي الحقل قال له أخوه : إن عمي أمرني اليوم بالحراث ، وأظن أنه لم يعلم أن اليوم يوم الجمعة ، واستحييتُ أن أردّ عليه ، وحسرتي أن تفوتني صلاة الجمعة ، ولم تفتني منذ ثلاثين سنة . فعرض عليه أبو مروان أن يحرث عنه بعض الوقت ، خلال ما يصلي ويرجع . فسر الأخ بذلك ، وأخذ في الجري خوف فوات الصلاة . لقد كان لتلك الحادثة أكبر الأثر على أبي مروان ، الذي أكبَّ على الصلاة بعدها . وفي المساء ، توجه إلى المسجد ، وظلَّ يصلي فيه دون انقطاع ، ولم يستطع والده اقتاعه بالعودة إلى المنزل . وجاء أصحابه وأترابه يقولون له : ما أصابك ، ما طرأ في عقلك ؟ وأخذوا يعيرونه بالعبادة في حال الصغر ، ولكنه لم يلتفت إليهم .

وكان ذلك العام عام جماعة ، فأخذ في تفريق أمواله وزرعه ، مما ورثه عن أمه ، على الضعفاء من أهل القرية . ثم اعتكف في إحدى غرف المنزل ، مواظباً على الصلاة



والعبادة ، وهو إذ ذاك لم يبلغ الحلم . ويقول الشيخ إنه إذ ذاك لم يكن قد قرأ إلا اليسير من القرآن . وبعد أيام ، وقد لاح له البحرُ من بعيد ، قرر التوجه إلى الحج ، وليس لديه سوى اثني عشر ديناراً كان بقي له من ميراث أمه . فعبر البحرَ ومُرَّ بعدد من بلدان الشمال الإفريقي ومصر ، ووصل إلى مكة المكرمة برسم المجاورة ، ولكنه انزل عن بقية المجاورين ، إذ لم تُرقه طريقة حياتهم الرغدة نسيباً . وقد أمضى أبو مروان نحو أربعة أعوام مجاوراً في مكة ، فيكون على ذلك قد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وقد عود نفسه على شظف العيش ، وعلى التزr اليسير من الطعام والنوم .

ويعلق المؤلفُ على ذلك بقوله : راضوا نفوسهم لتنقاد للمولى سراً وعلماناً ، وزهدوا في الدنيا ، فلم يقولوا معنا ولا لنا ، وانتدبوا لقول الله تعالى «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا» .

ثم سأل المؤلفُ الشيخَ أبا مروان : يا سيدي ، أنت لم تكن قرأتَ ولا لازمتَ المشايخ قبل سفركَ للمشرق ، ولا سافرتَ مع عالمٍ ، فيمن كنتَ تقتدي في هذا الطريق ؟ فقال أبو مروان : « أقام الله لي من باطني شيخاً . قلت له : كيف ؟ قال : كنتُ إذا عرض لي أمرٌ نظرت في خاطري ، فيخطر لي خاطران في ذلك ، أحدهما مذموم ، والآخر محمود . فكنت أجتنبُ المذموم وأرتكبُ المحمود ، فإذا وصلتُ إلى أقرب بلد ، سألتُ عمن فيه من المشايخ أو العلماء ، فأسأله عن ذلك ، فكان يذكر لي المحمودَ محموداً ، والمذمومَ مذموماً ، فأحمد الله أن وفقني ، ومع تتابع ذلك واتصاله دون مخالفة ، لم أعتد على ما يقع بخاطري من الأمور الشرعية إلى الآن حتى أسألَ عنه مَنْ حضر من العلماء » (٢٤) .

إن هذا يذكرنا بأحد شيوخ ابن العربي الروحيين ، أبي جعفر العرياني ، الذي كان « بدوياً أميناً لا يكتب ولا يحسب ، وكان إذا تكلم في علم التوحيد ، فحسبك أن تسمع ، كان يقيدُ الخواطرَ بهيمته ، ويصدقُ الوجودُ بكلمته » (٢٥) .

وسُئل الشيخ أبو مروان مرةً عن قول الصوفية بوجود الكرامات ، وعن أنه لو كان الأمرُ كذلك لكان الصحابةُ ، رضي الله عنهم ، بذلك أولى . فأجاب : « قد دَوَّن الناسُ في

(٢٤) القشتالي : تحفة المغرب ص ١٩ — ٢٥ .

(٢٥) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٨٥ .

كرامات الصحابة وجمعوا . . . وهل الكرامات إلا من دلائل المعجزات . . . فنكر الكرامات على الأولياء كمنكر المعجزات على الأنبياء . . . » (٢٦) . وما يُذكر أن ابن خلدون يؤيده في ذلك إذ يقول « وأما الكلام في كرامات القوم وإخبارهم بالمغيّبات وتصرفهم في الكائنات فأمرٌ صحيح غير مُنكر ، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها ، فليس ذلك من الحق » (٢٧) .

ويتحدث المؤلف أكثر من مرة عن تجنب أبي مروان لولائم السلطان وأمواله ، لأنها حرام . كما يروي أخباراً وحكايات عن تكليف أبي مروان له بالكتابة عنه للرؤساء والأمراء في رفع المظالم وقضاء حوائج الفقراء (٢٨) .

وبحدثنا المؤلف عن الأفواج من الخلق التي كانت تردّ على أبي مروان ، عند مجيئه من المشرق ، يرحل قوم ويردّ آخرون ، وأبو مروان قائمٌ بخدمة الكل ، ومؤنهم من مال أبيه . وكان لأبيه موضعٌ يحنس يُعرف بالقرس كثير الفواكه والأرزاق ، وكان مباحاً للواردين ، يتصرفون فيه كيف شاءوا لخمسين رجلاً في كل يوم ، وأكثر وأقل . وكان أبو مروان يستعد لمولد النبي عليه السلام ما يكفي الواردين من الطعام مع كثرة الترافد والازدحام « وإن كان أولئك الوراد يزيدون على عشرة آلاف بأعداد ، فكان يذبح لهم ما يكفيهم من البقر والغنم ، فيأكل المحتقر والمحترم ، والفقراء يقتربون إليه من البلدان فيردّون على أخصب ما كان من بشاشة وبر وإمكان ، فيقضى الإطعام والساع في كل ناحية ثمانية أيام متوالية . . . كل ذلك من مال الشيخ على انفراد » (٢٩) . كذلك كان أيضاً أبو الحجاج يوسف الشيرازي ، أحد شيوخ ابن العربي ، فكان لا يدخل عليه أحد قط وعنده ما يؤكل إلا ويجعله أمام الداخلين — كثروا أو قلوا ، كثّر الطعام أو قل — لا يترك شيئاً له البتة (٣٠) .

ومن كرامات أبي مروان إحتراق المستحقين به . ورد الشيخ أول وروده من الشرق على

(٢٦) القشتالي : تحفة المغرب ص ٢٧ .

(٢٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٤٧٤ .

(٢٨) القشتالي : تحفة المغرب ص ٢٩ ، ٣٧ .

(٢٩) المصدر السابق ص ١٠٥ ، ١٠٨ .

(٣٠) بالثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٨٥ .

سبته ، وكان عامَ غلاءٍ ومجاعة . فرُّ على ممرٍّ من ممرات سبته ذات يوم ، وهو مع جماعة من الفقراء ، فقام جماعة من الخبازين كانوا في كوشة هناك ، فصاحوا بالشيخ وأصحابه الفقراء : أنتم أصلُ الغلاء ، ما أغلظَ رقابكم . . . وكان في جملة الخبازين عليجٌ أسير ، فقال لهم « ما هجن دينكم . هكذا تصنعون مع العباد ؟ نحن خير منكم ، الذين نظم رهباننا والقسيسين الذين لنا » . فلما كان الليلُ وقعت النارُ في الكوشة واحترق الخبازون ، إلا العليج الذي أسلم وحسن إسلامه . وجميٌّ بالمحروقين ستُّ جنازير للجامع ابن عبد الصمد ، حيث كان الشيخ رتبٌ هو والفقراء ليصلِّي عليهم . فصلَّى عليهم وترحمَ (٣١) .

ومن كرامات الشيخ أبي مروان تغييره المنكر على الأمراء . قال صاحبُ (تحفة المغرب) : « حدثني — رحمه الله — قال : كنتُ في أول وصولي من المشرق حامياً من رابطة المتتجباب خارج غرناطة ، إذ مررتُ على المصلَّى فرأيتُ جمعاً كبيراً هناك حلقة . فقلتُ لمن كان معي : أولئك إنما هم على منكر ، وأنا أغيرُهُ عليهم ، فهل فيكم موافق ؟ قالوا : ولعلهم على غير منكر . فقلتُ : لا بد لي أن أغيرَ ذلك . فأخذتُ من يد واحد منهم عصاً وطلعتُ اليهم ، وفرَّ أصحابي للبلد . فلما رأيَ السَّوَّاسُ الذين يحبسون خيلَ أولئك الفرسان ، ضربوا الكفَّ عليَّ ، فطلعتُ اليهم بالدرج . وكان الرئيسُ أبو الحسن بنُ هود ، صاحبُ غرناطة ، قد ميَّز جيشه في ذلك اليوم ، وصرفَ عامته ، وأقام هناك مع خاصته على شرب الخمر مع جماعة كبيرة . قال الشيخ : فلما وقفتُ على الحلقة رأيتُ زجاجاً مملوءاً خمراً . فصحتُ : الصلاةُ عليك يا محمد ! وضربتُ بالعصا ذلك الزجاجَ حتى تكسر ، وهم في خلال ذلك يصيحون : خذوا هذا الفاعلَ ابنَ الفاعل ! ولا في القوم من يُعينه الله عليَّ فيأخذني . ثم اسرعتُ لدخول البلد ، ولا من أعانهُ الله على لحاقِي ، وهم يُجرون خيلهم خلقي . فلما قعدتُ بالجامع ، جاء قاضي غرناطة أبو يحيى عتبة بن الجراوي وقال لي : حلفتُ ذلك الجاهلُ أن يقتلَ كلَّ مريدٍ بالأندلس إن لم تُحملَ أنتُ إليه ، فرددته عن غرضه الفاسد ، وقلتُ له في ذلك ما يجب أن يقالَ حتى سكن خاطره . . . » (٣٢) .

ويختتم المؤلف كتابه الحافلَ بأخبار الشيخ أبي مروان وكراماته قائلاً « هذا ما حضرني من كرامات الشيخ أبي مروان . . . ولو ذكرتُ ما له من الأخلاق الرضيَّة والأفعال السنيَّة ،

(٣١) القشتالي : تحفة المغرب ص ١١٣ .

(٣٢) المصدر السابق ص ١٢٦ — ١٢٧ .

وكثرة الملاطفة والإيثار والأخذ في ذلك بصحيح الآثار ، وملازمة الاحتمال عن السفهاء والجُهَّال ، والتواضع للفقراء والزهدي فيما في أيدي الأمراء ، وعذوبة لفظه وجميل بسطه ، وإعطائه لكل إنسان من ذلك بميزانه وقسطه ، وبذله لجأه عند الحكَّام . . . لأنيتُ في ذلك الأُمدة والأقلام ، (٣٣) .

### اليحانسي صوفياً مجاهداً :

لم يكن أبو مروان صوفياً زاهداً منقطعاً إلى العبادة فحسب ، بل شارك مشاركة فعالة في الرباط والجهاد ضد الروم ، ذوداً عن أرض الإسلام ، وكانت الأندلس إذ ذاك — بعد انسحاب الموحدين — تعاني فترة عصيبة جداً من تاريخها ، إذ كَلَبَ عليها الرومُ واستولوا على حواضرها الرئيسية ، مستغلين ضعف المسلمين والمنازعات القائمة في الأندلس ذاتها بين ابن هود والأحمر بن نصر . وفيما يلي أمثلة من الكتاب تدلُّ على جهاده .

أثناء حصار الروم لمدينة قرطبة ، قُبِلَ استيلائهم عليها في ٢٢ شوال ٦٣٣/ ٢٩ يونيو ١٢٣٦ م ، نرى أبا مروان يقصد قرطبة «برسم الرباط بها ولكنه لم يمكنه ذلك من شدة الحصر» . فتوجَّه إلى إشبيلية حيث انترى فتي أرعن يُعرف بابن منظور . فلما دخل عليه أبو مروان قال له ابن منظور : «انتَ يعرفك أهلُ بلاد الأندلس ، وأنا رأيتُ أن صلاح هذه الأمة إنما يكون على يدي . فبايعني يُبايعك أهلُ الأندلس نائباً عني في ذلك» . قال أبو مروان : فلما رأيتُ منه ما رأيت ، قلتُ له هازئاً به : أمددُ يمينك . فهدَّ يمينه ، فجعلتُ فيه قُبْطالي ، وهو مجمع المِرْفَق مع الذراع ، وذلك مما تشاءم به اليهود . فقال لطلبيته : خذوا هذا الفاعل الصانع ! وكان على يمينه واحد منهم كأنه وزيره . فهمَّ الشباب الذين كانوا معه بأخذي فررتُ فيهم ، فلم يَقُمْ منهم أحد . فلما خرجتُ للمَحَجَّة [وسط الطريق] ، أخرج رأسه وسبَّني ، وقال : والله إذا تَمَّ الله هذا الأمر ، لا بدأتُ بشيء قبل ضرب عنقك ! وتوجَّه أبو مروان من إشبيلية إلى الجزيرة الخضراء ، ومنها جاز في زورق إلى سبتة . فما إن وصل سبتة حتى بلغ خبرَ قتلِ ابن منظور وصلبه (٣٤) .

(٣٣) المصدر السابق ص ١٨١ .

(٣٤) المصدر السابق ص ١٧٥ .

ان توجه أي مروان للرباط في قرطبة ثم في إشبيلية من التقاليد الإسلامية الحميدة للدفاع عن ثغور المسلمين . والمراقبة تعني أحياناً الجهاد إطلاقاً ، فابن حيان القرطبي عند حديثه عن الفزاة الكبرى التي قام بها الخليفة الناصر ضد صاحب جليقية سنة ٩٣٩/٣٢٧ م يقول « ودخل مصافه مرابطو أهل العدو » (٣٥) . ويرى بعض كبار المؤرخين الإسبان المحدثين أن النظم الديرية العسكرية (Military Orders) التي برزت إلى حيز الوجود في شبه جزيرة أيبيرية ابتداءً من منتصف القرن السادس/ الثاني عشر للميلاد — كنظم قلعة رباح (Calatrava) وسانتياجو (Santiago) والقنطرة (Alcántara) — إن هي إلا تقليد للرباطات الإسلامية في مناطق الثغور الأندلسية ، حيث كان المرابطون فيها يجمعون بين العبادة والجهاد في سبيل الله والدفاع عن أرض الإسلام . يقول أحد هؤلاء المؤرخين إنه « قبل ظهور النظم الديرية العسكرية لدى النصارى بقرون ، كان لدى المسلمين الرباطات التي كان يعتكف فيها الزهاد للعبادة والدفاع عن الحدود . وهكذا ، فإننا نجد اليوم في كل من إسبانيا والبرتغال أماكن كثيرة تحمل اسم (Rábida, Rápita) ، وما احتفاظ الإسبان والبرتغاليين بأسماء هذه الأماكن سوى دليل على وجود رباطات إسلامية كانت تحمل هذا الاسم من قبل » (٣٦) .

وفي سنة ١٢٥٥/٦٥٣ م ، وفد سلطان غرناطة ابن نصر على وادي آش مستغيثاً بالشيخ أي مروان من أمر تلقاه السلطان من ملك قشتالة ، يطلب فيه من السلطان مهاجمة أراضي صاحب برجلونة ، خصم ملك قشتالة . وكان سلطان غرناطة مكزماً بموجب معاهدته مع ملك قشتالة بأن يهب لنصرته متى طلب منه ذلك . وعند اجتماع سلطان غرناطة بالشيخ أي مروان راجياً تخليصه من المازق الذي هو فيه قال للشيخ : « عسى أن أكون في بالك ، فما لي بما أقابل هذه الوجهة إلا بدعائك ، ودعاء أمثالك . . . وهذا هو جيش المسلمين أجمع ، إن طرأ عليه أمر في خلفه لا يطمع » . ثم بكى السلطان ، فدعا له الشيخ ووعدته بالنجاة مما يتوقى ، وأمره أن يقيم في آخر بلاده ، وأنه من هناك يرجع دون أن يتعب أو يتشقى . فعمل السلطان بنصيحة الشيخ أي مروان . وكان السلطان قد كتب للنصراني عند خروجه أنه قد توجه إلي حيث أمره . فوجه النصراني للبرجلوني الكتاب يغلظ

(٣٥) ابن حيان : المقنيس ٤٣٣/٥ .

(٣٦) Castro, pp. 203, 204.

Legacy of Islam, p. 91.

به عليه . فكان سبب إصطلاحه توجه الكتاب إليه . فوجه النصراني للسلطان بأن يرجع إلى بلده ، فرجع سالماً في جمعه وعدده . وكانت هذه الكرامة سبباً بينها للمؤالفة ، وترك التنكر والموافقة في حوائج المسلمين ، وإسقاط المخالفة (٣٧) .

ويشير القشتالي إلى زيارتين قام بهما الشيخ أبو مروان إلى مدينة مراكش للاجتماع بالسلطان المريني أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق «برسم استنفار القبائل للغزو ببلاد الأندلس» ، الأولى بعد أن توغل ملك الروم في أراضي غرناطة ، وحاصرت سفنه مرسى الجزيرة الخضراء ، ومنعت الجواز بالزقاق (٣٨) . وكانت الزيارة الثانية للسلطان المريني أثناء محاصرته لمدينة مراكش أيام المرتضى الموحدي ، وكانت هذه الزيارة أيضاً (رجب ٦٦٠/مايو ١٢٦٢ م) لاستنفار القبائل المغربية في شأن الغزو لبر الأندلس . وحاول الشيخ أبو مروان أن يشي السلطان المريني عن مواصلة الحرب ضد السلطان الموحدي المحاصر في مدينة مراكش قائلاً له «هذا شهر من الأشهر الحرم . ألق من هنا ، وارفع الفتنة ، واحقق دماء المسلمين ، يكن لك في ذلك خير ، وإلا أخاف عليك تلحقك الندامة» . وجرّ الشيخ يده على لحيته . فاعتذر له أبو يوسف ، وسافر الشيخ ثاني يوم ، فلم يصل الشيخ لسلامة إلا وعبد الله ابن الأمير أبي يوسف قد لحق ميتاً ليدفن بسلا ، قتل على مراكش ثاني يوم من انفصال الشيخ . فحينئذ تفتن أبو يوسف وقال : «لذلك جرّ الشيخ يده على لحيته وقال : إن لم ترحل وإلا تندم» (٣٩) .

وحدث أن توجه أهل وادي آش مع رئيسهم أبي الحسن لمهاجمة حصن في أيدي الروم حوالي سنة ٦٦٣/١٢٦٥ م ، وهبط الشيخ أبو مروان ومن حضر من الفقهاء . فقتل الحصن نحو يومين ولبتين إلى أن فتحه الله . وكان الرئيس أبو الحسن قد يش من أخذ الحصن ، وهم بالإقلاع . فلما هم الرئيس بذلك ، تحرك للزول من جانب الحصن إلى المحلة (المعسكر) ، فقال له الشيخ أبو مروان : إلى أين ؟ قال : أهبط للوضوء . قال له الشيخ : يساق لك الماء ، وتوضأ هنا . والله ما نهبط من هنا حتى يفتح الله الحصن بحول الله . فلما ملك المسلمون الحصن عند المغرب ، جاء الرئيس أبو الحسن وقبّل رجل الشيخ

(٣٧) القشتالي : نخبة المغرب ص ٦٨ — ٦٩ .

(٣٨) نفس المصدر ص ٧٠ .

(٣٩) نفس المصدر ص ١٥٨ .

بعد أن نزل عن فرسه ، وقال له : « يا سيدي ، قد كنتُ عزمتُ على الهروب لولا أنت .  
والله ، ما فتح الله هذا الحصنَ إلا ببركتك ، والحمد لله » (٤٠) .

كما حدث أن قام أهلُ حصن قَنْجَايِر (Canjáyar) من وادي المَرِيَّة على  
المتري بغرناطة ابن الرميي ، وقاموا بدعوة السلطان محمد بن يوسف بن نصر في أول  
مدته . وكان ابنُ الرميي مصالِحاً للروم إذ ذاك على المرية وجهاتها ، فوجه ابنه عبد الله  
بأربعمائة فارسٍ من المسلمين وعددها من الروم للاستيلاء على الحصن . وكان الشيخُ أبو  
مروان في الحصن في جملةِ أقاربه وأهل بلده . فاستدعاه عبد الله بنُ الرميي ليتكلمَ مع  
أهل الحصن لأن يرجعوا لطاعته ويتصرفَ عنهم ، فوافق أهلُ الحصن على أن يتركَ ابنُ  
الرميي واليه ومُشرِفَه ويُقلَعَ عنهم . فأبى إلا أن يدخلَ الحصن . وقال أحدُ رجاله للشيخ  
أبي مروان : « يا سيدي ، هذا المنجنيق على الخلاص ، والله ما يبقى لهم بقيةٌ من سورهم  
في أسرع وقت . فقال له الشيخ : في قدرة الله أن يحرقَ ذلك المنجنيق بزيوتٍ الذي  
يعمله » . وكان ابنُ الرميي قد أطلعَ الشيخَ على كتاب والده ، وهو يأمره فيه أن يعطيَ  
السلبَ والسبيَ الروم ، ويهدمَ هو الحصن . قال الشيخ : فاجتمعتُ مع قائد فرسان  
المسلمين وقلتُ له : « لولا أنتم واختلاطكم مع الروم ، لخرجَ أهلُ الحصن على الروم  
وأفسدوهم ، فلو انفصلتم عنهم وانحرفتم لجانب عنهم ، لنفّسوا عن أنفسهم » . فوعده  
بالانفصال عنهم لناحية . ثم كلمَ الشيخُ أبو مروان أهلَ الحصن بما دبره مع قائد فرسان  
المسلمين . فخرجَ القومُ عليهم وقتلوا منهم ، وأحرقوا المنجنيق كما قال ، وحرقَ معه الرومُ  
الذين عملوه كما قال ، وانتهبوا ما في الأخبية ، ورجع ابنُ الرميي خاسراً (٤١) .

مَكْتَبَةُ الرُّسُلَةِ الْمَدِينَةِ الْمَقَامِيَّةِ

(٤٠) المصدر السابق ص ٧١ .

(٤١) المصدر السابق ص ٧٤ — ٧٥ .

## المصادر والمراجع العربية

- ابن أبي زرع القاسمي ، أبو العباس أحمد : الأنبس المطرب بروض القرطاس ، تحقيق سي . ج . تورنبرج ، أيسالة ١٨٤٣ .
- ابن حيّان ، أبو مروان حيّان بن خلف : المقتبس ، الجزء الخامس ، نشره ب . شالميتا ، مدريد ١٩٧٩ .
- ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقفمة ، القاهرة ( بدون تاريخ ) .
- ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦ .
- الأنصاري ، محمد بن القاسم بن عبد الملك : كتاب اختصار الأخبار ، نشره ليثي بروفسال ، مجلة هسبريس ، المجلد ١٢ ، الرباط ١٩٣١ .
- بالنشيا ، أنخل جُثالث : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٥ .
- القتتالي ، أحمد بن ابراهيم : تحفة المغرب ببلاد المغرب ، لمن له من الإخوان في كرامات الشيخ أبي مروان ، تحقيق فرناندو دي لاجرانغا ، مدريد ١٩٧٤ .
- المقدسي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .
- المقرئ ، أحمد بن محمد : نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزء الثالث ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ .

## المراجع الأجنبية

- Castro, Américo. *The Structure of Spanish History*, tr. E. L. King Princeton U. P., Princeton, New Jersey 1954.
- El = *Encyclopaedia Of Islam*, Vol. III, Leiden-London 1971, s.v. Ibn al-'Arabi. p. 707.
- Julien, Charles-André, *History of North Africa from the Arab Conquest to 1830*, London 1970.
- Legacy of Islam* (2nd edition), ed. J. Schacht & C. E. Bosworth, Oxford 1974.
- Lomax, D. W., *The Reconquest of Spain*, London 1978.
- Trimingham, J. S., *Sufi Orders of Islam*, Oxford 1971.
- Watt, W. M., *A History of Islamic Spain*, Edinburgh 1965.



## جبل طارق (جبل الفتح)

معقل إسلامي عبر القرون الوسطى

٩٢ - ٨٦٦ هـ / ٧١١ - ١٤٦٢ م

عرض تاريخي

منذ أن نزل المسلمون في جبل طارق عام ٩٢ هـ / ٧١١ م إلى أن احتله الاسبان النصارى عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦٢ م اتخذت الدول الإسلامية المتعاقبة في الأندلس والمغرب الجبل قاعدة عسكرية ومعقلاً مهماً باعتباره مفتاحاً لشبه جزيرة ايبيرية من الجنوب ونقطة تتحكم في حركة الملاحة عبر مضيق جبل طارق أو بحر الزقاق ، سواء أكان العبور من عدوة المغرب إلى الأندلس أو بالعكس. وكان الجبل أول بقعة اسبانية نزها الفاتح الشهير طارق ابن زياد ، ومن الجبل بدأ الفتح العربي المظفر للأندلس . كما أن الموحدين فيما بعد (القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) اتخذوه قاعدة عسكرية لتثبيت سلطانهم في الأندلس ، والعمل على استرداد ما فقدته المسلمون من أراض هناك . وعلى حافة الجبل الغربية ، أمر أول سلاطين الموحدين عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة الفتح ، وقام بتحصينها ، كما أعاد تسمية الجبل فسماه جبل الفتح تيمناً بما كان يُرمع القيام به من جهاد واسع النطاق في الأندلس . وقد ازدادت أهمية الجبل الحربية في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أيام بني مرين سلاطين المغرب ، وبني الأحمر ملوك غرناطة ، حينما تقلصت ممتلكات المسلمين في الأندلس ، واحتل ملك قشتالة مينائي طريف والجزيرة

الخضراء على بحر الزقاق — وهما مفتاحا الأندلس من العدو<sup>(١)</sup> ، مهدداً بذلك مواصلات المسلمين البحرية ، فأصبحت لجبل طارق بالتالي أهميةً دفاعيةً وبخاصةً لتأمين الاتصال بين المغرب ومملكة غرناطة . ولذلك فإن السلطان المريني أبا الحسن وابنه أبا عنان حرصا على تعزيز تحصينات الجبل ، فأحيط الجبل برُمته بسور «إحاطة الهالة بالهلال» على حد قول ابن مرزوق<sup>(٢)</sup> .

وفي هذا العرض التاريخي ستناول ، اعتماداً على المصادر العربية الأصلية في المقام الأول ، تاريخَ جبل طارق (جبل الفتح) طوال الفترة التي كان فيها هذا المعقل تحت سيادة المسلمين ، والتي دامت سبعة قرونٍ وثيقاً .

جبل طارق شبه جزيرة<sup>(٣)</sup> في أقصى الطرف الجنوبي من اسبانيا . ويبلغ طولُ شبه الجزيرة هذه نحو أربعة كيلومترات ونصف الكيلومتر ، وعرضُها نحو كيلومتر ونصف الكيلومتر ، وتبلغ مساحتها حوالي خمسة كيلومترات مربعة ، ويبلغ ارتفاع أعلى نقطة في الجبل ٤٢٥ متراً عن سطح البحر .

وفي الخليج الواقع غربي جبل طارق ، المعروف بخليج جبل طارق أو خليج الجزيرة الخضراء ، كان يقوم قديماً عمود هرقل (Pillar of Hercules) في الجانب الأوربي من المضيق ، ويقابله في الجانب الإفريقي عمودٌ آخر حيث تقع مدينة سبتة . وكان يُطلق على الجبل قبل الفتح الإسلامي الاسم الفينيقيُّ الأصل جبل كاليبى (Mons Calpe) ومعناه تجويف ، وذلك لوجود كهفٍ معروفٍ في سفح الجبل<sup>(٤)</sup> .

ويسيطر جبلُ طارق من ناحية الشمال الشرقي على المضيق الذي يفصل أوروبا عن أفريقيا ، والبحر المتوسط عن المحيط الأطلسي ، وكان يُعرف هذا المضيق في التاريخ القديم

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ٣٠٧/٢ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب ١٤١/٦ . السلاوي : الاستقصا ١٢٣/٣ .

(٣) يدعو المقدسي جزيرة طارق . كما درج العرب على تسمية شبه جزيرة العرب بجزيرة العرب ، وعلى تسمية شبه جزيرة ايبيرية بجزيرة الأندلس (المقدسي : أحسن التقاسيم ٢٢٣) .

(٤) الإدريسي : صفة جزيرة الأندلس . . ص ١٧٧ . الحميري : الروهي المعطار ١٢١ . انظر كذلك التعليق رقم ٥ ص ٢٣٤ . نقاضة الجواب . للمحقق أحمد مختار العبادي .

باسم مضيق قادس أو مضيق هرقل . أما في العهود الإسلامية ، فقد عُرف المضيق باسم الزقاق أو بحر الزقاق ، كما عُرف أيضاً باسم المجاز ، لكونه المعبر أو طريقَ الجواز إلى الأندلس من المغرب (العدوة) <sup>(٥)</sup> . ونظراً إلى قلة عرض المضيق — حوالي ١٥ كم — فإن بحر الزقاق لم يُعَقَّ يوماً الاتصالَ بين اسبانيا وأفريقيا ، وكثيراً ما كان معبراً سهلاً للفاطحيين من العدوتين . وكان القدامى يعتبرون مضيق جبل طارق نهاية العالم من ناحية الغرب ، وقد جرى على ذلك الجغرافيون المسلمون فسمّوا المحيطَ الأطلسي ببحر الظلمة <sup>(٦)</sup> أو الظلمات أو البحر المحيط .

## من الفتح العربي حتى قيام دولة الموحدين

من المعروف أن الاسمَ الحديثَ لجبل طارق (Gibraltar) أو مختصراً (Gib) مشتق ، بشيء من التحريف ، من اسم الفاتح طارق بن زياد ، مولى موسى بن نصير ، الوالي الأموي على أفريقية ، كما درج المصنفون العرب على الإشارة إلى الجبل أحياناً باسم الصخرة ، وحذا الأوروبيون حذوهم في ذلك ، فالجبل يُعرف بالانجليزية باسم (The Rock) . وكان نزول طارق عند حافة الجبل في رمضان (رجب) سنة ٩٢هـ / أبريل — يوليو ٧١١ م ، على رأس قوة تُقدَّر بسبعة آلاف رجل <sup>(٧)</sup> . ويحدِّثنا صاحبُ (أخبار مجموعة) عن هذا النزول فيقول : «وضمَّهم طارق إلى جبل على شط البحر منبع فتزله ، والمراكبُ تختلف حتى توافي جميعُ أصحابه» <sup>(٨)</sup> . ويذكر الإدريسي أن المسلمين تحصَّنوا بالجبل ، وعمد طارق إلى إحراق المراكب التي جاز البحرَ فيها لكي يعزز ثقة جنده به ويدفعهم على الاستماتة في الجهاد <sup>(٩)</sup> . ويقول ابن عذاري إن المسلمين حاولوا الطلوعَ في الجبل ، وهو حجارة حُرش ، فوطأوا للدواب بالبراذع وطمعوا عليها ، فلما

(٥) الإدريسي : صفة جزيرة الأندلس . . ص ١٧٦ . المراكشي : المعجب ٩ .

(٦) الإدريسي : صفة جزيرة الأندلس . . . ص ١٧٦ .

(٧) ابن القوطية : تاريخ الفتح الأندلس ٣٣ . مؤلف مجهول الاسم : أخبار مجموعة ٦ . ابن

عذاري : البيان المغرب ٨/٢ . ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢٢/٤ .

(٨) مؤلف مجهول الاسم : أخبار مجموعة ٧ .

(٩) الإدريسي : صفة جزيرة الأندلس . . . ص ١٧٧ .

حصلوا في الجبل ، بنوا سوراً على أنفسهم يُسمى سور العرب ، وقيل إنهم فتحوا حصن قرطاجنة . وكان في سفح هذا الجبل من نظر الجزيرة الخضراء <sup>(١٠)</sup> . ويقول ابن الأثير إن طارقاً نزل من الجبل إلى الصحراء <sup>(١١)</sup> وافتتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذي في الجبل <sup>(١٢)</sup> . ويبدو أن المسلمين نزلوا على سفح الجبل ، واتخذوا لأنفسهم مَرَصِداً أو نقطة مراقبة في أعلاه. حيث يتسنى للمرء الرؤية لمسافات بعيدة براً وبحراً، وذلك تحوطاً من هجوم مباغت قد يشنه القوط. أما قرطاجنة التي يذكرها ابن عذارى فهي تحريف لاسم قارطية (Carteya) ، المستوطنة الفينيقيّة القديمة ، والتي يشير إليها الحميري باسم قرطاجنة الجزيرة (تميزاً لها عن قرطاجنة الحلفاء على الساحل بشرق الأندلس) ويقول إنها تقع «عند جبل طارق» وهي مدينة للأول غير مسكونة . . . وتُعرف بقرطاجنة الجزيرة <sup>(١٣)</sup> ويتحدث الإدريسي عن جبل طارق فيقول إنه «جبل منقطع عن الجبال مستدير ، في أسفله من ناحية البحر كهوف وفيها مياه قاطرة جارية» <sup>(١٤)</sup> . ويُضيف الحميري بأن «جبل طارق مرسى يُكنى من كل ربح» <sup>(١٥)</sup> .

عند نزول طارق بن زياد في الجبل الذي عُرف باسمه وخلّده منذ نزوله ، كان ملكُ القوط رودريك يقود حملةً في شمال اسبانيا ضد قبائل الباسك (البُشْكُنْس) فتوجّه جنوباً فور سماعه بنزول المسلمين . وفي ٢٨ رمضان سنة ٩٢/١٩ يوليو سنة ٧١١ م تم اللقاء بجيش طارق على ضفة وادي لكّة/بكتّة (Guadalete) ما بين شريش ومدينة شذونة <sup>(١٦)</sup> وأحرز المسلمون نصراً حاسماً ، وقُتل رودريك في ساحة القتال أو اختفى ولم يُعثر له على أثر . وتقدّم طارق بعد ذلك نحو قرطبة وحاصرها ، وأوقع بالنصارى هزيمة عند

(١٠) ابن عذارى ، ١٣/٢ .

(١١) البادية في اصطلاح المغاربة والأندلسيين بمعنى الريف ، وليس الصحراء إطلاقاً .

(١٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ١٢٢/٤ .

(١٣) الحميري : الروض المظمار ١٥١ .

(١٤) الإدريسي : صفة جزيرة الأندلس . . . ص ١٧٧ .

(١٥) الحميري : الروض المظمار ١٢١ .

(١٦) يرى المستشرق ليثي بروثنسال أن المعركة دارت رحاها على ضفاف نهر (Barbate) وبحيرة

(La Janda) قرب الساحل . انظر ليثي — بروثنسال : تاريخ اسبانيا الإسلامية (بالفرنسية)

١٩/١ وما بعدها .

استنجة، ثم قصد طليطلة عاصمة القوط واستولى عليها ، وواصل زحفه شمالا في اتجاه مرسطة ثم عاد لتخضية الشتاء في طليطلة . وحسبنا أن نذكر هنا أنه بعد الانتصارات الباهرة السريعة التي أحرزها طارق بن زياد سرعان ما توطدت أقدام المسلمين في شبه الجزيرة ، ولم تنقضي أكثر من خمس سنوات على نزول طارق في الجبل الذي يحمل اسمه (٩٢ - ٩٦ هـ / ٧١١ - ٧١٦ م) حتى أصبحت كل شبه جزيرة ايبيرية تقريباً تحت سيطرة المسلمين<sup>(١٧)</sup> .

تعتبر الفترة بين نزول طارق بن زياد في جبل طارق عام ٩٢ هـ / ٧١١ م وتشييد مدينة الفتح بأمر من الخليفة الموحيدي عبد المؤمن بن علي ، من أكثر الفترات غموضاً في تاريخ جبل طارق : فهل استوطن المسلمون الجبل في هذه الفترة التي امتدت أربعة قرون ونصف القرن<sup>(١٨)</sup>؟ كما أن المكان الذي نزل فيه طارق غير معروف تماماً على وجه التحديد ، إذ إن ما ذكره المؤرخون والجغرافيون العرب لأبعين على تحديده . وهم متفقون على أية حال على أن طارقاً تحصن في الجبل بعد نزوله ، ثم أرسل قوة للاستيلاء على مدينة قرطاجنة الجزيرة (قارطية Carteya) . ولا شك في أن جبل طارق لعب طوال الفترة الإسلامية دوراً هاماً كحصن منيع ، ومرسى أمين للمراكب ، بينما نمت مدينة الجزيرة الخضراء (Algeciras) ، وأصبحت قاعدة كورة في الطرف الجنوبي من الأندلس ، يتبعها جبل طارق .

وفي فترة ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي) — أي بعد ثلاثة قرون من الفتح العربي للأندلس — يرد ذكر جبل طارق وقت ان كان يشكل جزءاً من مملكة بني عباد ، وكان ملحقاً بكورة الجزيرة الخضراء .

والمعروف ان صاحب اشبيلية المعتضد بن عباد (حكّم في الفترة ٤٣٣ - ٤٦١ هـ / ١٠٤٢ - ١٠٦٨ م) كان دائماً يخشي على ملكه من أعداء قادمين من المغرب ، فلما وصله كتاب سقوت البرغواطي ، صاحب طنجة وسبتة ، يذكر فيه ان

(١٧) واط Watt) *A History of Islamic Spain* ، ص ١٤ .

(١٨) نوريس Norris) *The Early Islamic Settlement in Gibraltar* .

مجلة Journal of the Royal Arnthropological Institute

مجلد ٩١ (جزء ١) لعام ١٩٦١ ، ص ٣٩ .

المرابطين قد بلغوا موضع مراکش ، قال المعتضد لوزيره الذي أخذ بهون أمرهم ويُشير إلى بعدهم « هو والله الذي أتوقعه وأخشاه . . . اكتب إلى فلان — يعني عامله على الجزيرة الخضراء » — بحفظ جبل طارق حتى يأتيه أمري »<sup>(١٩)</sup> . وهذه الرواية انما تدل على أهمية جبل طارق استراتيجياً لغاز محتمل للأندلس من الجنوب ، كما تدل على أن الوالي على الجزيرة الخضراء كانت تشمل ولايته حصن جبل طارق .

ولما استفحل خطر ملك قشتالة الفونس السادس على ممالك الطوائف بالأندلس ، استصرخ ملوكها السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين . وكان في جملة الوفد الأندلسي الذي توجه للاجتماع بابن تاشفين وزير المعتد بن عباد (حكّم في الفترة من ٤٦١ — ٤٨٤هـ / ١٠٦٨ — ١٠٩١ م) أبو بكر بن زيدون ، نجل الشاعر أبي الوليد ابن زيدون . وقد بحث الوفد مع السلطان المرابطي المكان الذي تنزله عساكر المرابطين « فأشار ابن زيدون بجبل طارق ، وسئل الجزيرة الخضراء »<sup>(٢٠)</sup> ، إلا أن ابن تاشفين لم يقبل بهذا العرض . ويذكر الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وكان معاصراً للأحداث مشاركاً فيها ، أن المرابطين سرعان ما نزلوا في الجزيرة الخضراء واحتلوها « فأرسل المعتد لابنه الراضي [وكان والياً عليها] في إخلائها لهم » . . . وأراد [المعتد] أن يضع ابنه الراضي بمروية عوضاً عن الجزيرة »<sup>(٢١)</sup> .

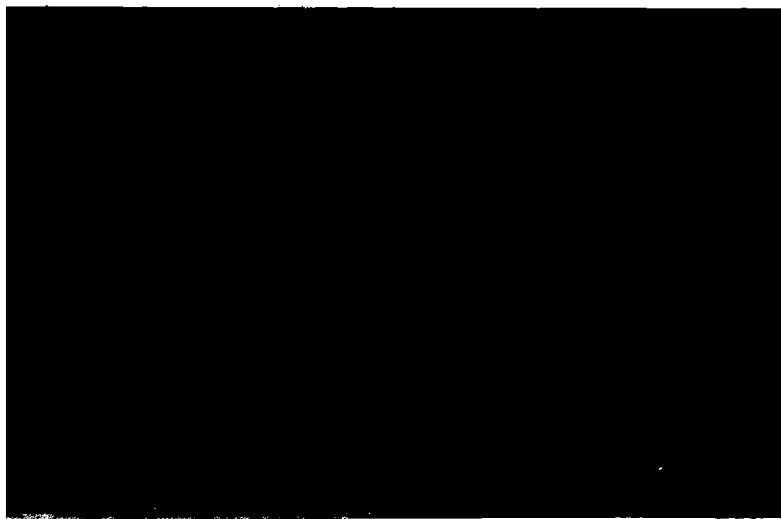
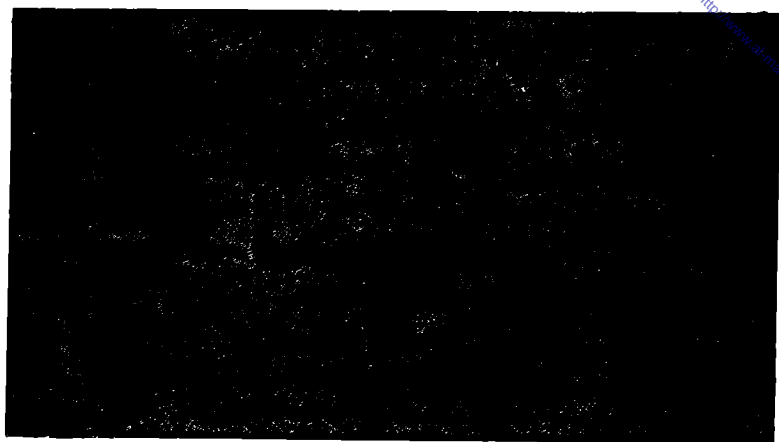
## بناء الموحدين لمدينة الفتح في جبل الفتح

كان الموحدون أول من أدرك الأهمية الحربية لجبل طارق ، فبادر أول خلفائهم عبد المؤمن بن علي ببناء مدينة حصينة عند سفح الجبل (حيث تقوم حالياً مدينة جبل طارق) سماها مدينة الفتح ، كما سُمي جبل طارق جبل الفتح ، مدلاً بذلك على نيته في إعادة فتح ما فقدته المسلمون من قواعد وأراضٍ في الأندلس . ومنذ ذلك الحين (٥٥٥هـ / ١١٦٠ م) أصبحت المدينة ومينائها وتحصيناتها معقلاً وقاعدة حيوية للمسلمين على بحر الزقاق .

(١٩) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/٢ ص ٤٠ ابن الأبار : الحلة السواء ٥١/٢ .

(٢٠) نفس المصدر ٩٩/٢ .

(٢١) عبد الله بن بلقين : التبيان (مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين) ١٠٣ ، ١٠٨ .



في طريق عودته إلى المغرب من حملته المظفرة في افريقية حيث خلّص المهديّة وساحل افريقية من احتلال نورمان صقلية (٥٥٥ هـ المعروفة بسنة الأنحاس) بعث الخليفة الموحي عبد المؤمن من مدينة قسنطينة بأوامره إلى ولديه — وكانا والييّ اشبيلية وغرناطة — بالشروع فوراً في بناء مدينة جديدة في جبل طارق ، تكون قاعدة للقوات التي كان يُرْمَع إرسالها للجهاد في الأندلس ضد النصارى الذين ما انفكوا يُغيرون على أراضي قرطبة واشبيلية وغرناطة . ولدعّ عبد الملك بن صاحب الصلاة ، وهو من مؤرخي دولة الموحدين ، وكان معاصراً للأحداث التي يرويها ، يسرّد علينا قصّة بناء هذه المدينة الجديدة — مدينة الفتح — فهو يقول : « ووصل الأمر العزيزُ بيناء مدينة كبرى . . . بالجبل الميمون القديم البركة على جزيرة الأندلس ، السامق الشاهق جبل طارق . . . تكون هذه المدينة منزلاً للأمر عند اجازة العساكر المنصورة ، ومَحَلّاً ريثما تتقدّم الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم . وكان في الكتاب أمرٌ جزمٌ إلى السيد الأجل أبي سعيد عثمان ابن الخليفة أمير المؤمنين بالمشي من غرناطة [وكان والياً عليها] بنفسه وأصحابه وجملة عسكره إلى جبل طارق . . . [ومشاورة عدد من الأشخاص ذُكرتُ أسماءُهم لتحديد موقع البناء] . . . وأمره في الكتاب الكريم وكذلك للسيد الأجل أبي يعقوب [وكان والياً على اشبيلية وخلف أباه في الملك] . . . أن يستنفروا جميع الفعلة من البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء [أي المهندسين المعاريين] من جميع بلاد الأندلس التي تحت نظر الموحدين . . . ويستعجلوا بالوصول إلى الجبل لامثال الأمر الكريم . . .

وتقدّم السيد الأجل أبو سعيد على ما أمر به من موضعه بغرناطة إليه ، ومشى من اشبيلية العريف أحمد بن باس<sup>(٢٢)</sup> بجميع البنائين . . . ونزلوا فيه وابتدأوا البناء . . . بسيف البحر مما يلاصقه ويكيه . وزادت آمالُ أهل الأندلس . . . وتحققوا اليُمن والسعد والفتح في بِنان هذا الجبل . . . وأحكم البناؤون فيه بناءً من القصور المشيدة والديار ، في أسسها طيقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض . . .

(٢٢) كان أحمد بن باس<sup>هـ</sup> شيخ العرفاء بإشبيلية ، وهو الذي نوّلّى تشييد جامع اشبيلية الأعظم وصومعته الشهيرة المعروفة باسم (الدوّارة Giralda). انظر تعليق المحقق رقم ٣ ص ١٣٩ ، وتعليقه رقم ٣ ص ٤٧٤ ، كتاب المن بالامامة ، وكذلك متن الكتاب ص ٢٠٦ ، ٤٦٧ ، ٤٧٤ .



وكان الحاج يعيش المهندس<sup>(٢٣)</sup> [من مالقة] مدة اقامته للبناء . . . قد صنع في أعلى الجبل رحى تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور ، فلما رجع إلى مراکش عند إكمال ما أمر به فسدت الرحى لعدم الاهتبال بها . واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ببناء السور والباب المسمى باب الفتوح في الفرجة التي كان يدخل منها إلى الجبل بين البحر المحدث به من كلا جانبيه ، فجاء فرداً في المعازل التي لا يتمكن لطامع فيها طمع . . . (٢٤) .

ويذكر الحميري بأنه حُفرت «في سفح الجبل مواضع نبع فيها الماء ، وجمع بعضها إلى بعض حتى سال منها جدول عم المدينة . . . من أعذب الماء وأطيبه ، يصب في صحن عظيم أتخذ له ، وأجري إلى الجنات المغترسة بها من أمره ، فلحين ما جاءت مدينة تفوق المدن حسناً وحصانة ، لا يدخل إليها إلا من موضع واحد [باب الفتوح الذي ذكره ابن صاحب الصلاة] قد حصن بسور متين من البنيان الرفيع ، وسُميت بمدينة الفتح»<sup>(٢٥)</sup> .

وكان ابتداء بناء مدينة الفتح في ٩ ربيع أول من سنة ٥٥٥هـ / ١٩ مارس ١١٦٠ م ، وتم البناء في ذي القعدة من نفس العام / نوفمبر ١١٦٠ م<sup>(٢٦)</sup> . أي أن بناء المدينة استغرق نحو ثمانية شهور . ولما تم بناء المدينة أو كاد ، عبر عبد المؤمن المجاز من سبتة ونزل في مرفأ جبل طارق ، وذلك في شهر ذي القعدة عام ٥٥٥هـ / نوفمبر ١١٦٠ م لينظر كيف يكون غزو الروم<sup>(٢٧)</sup> . ويذكر عبد الواحد المراكشي أن عبد المؤمن هو الذي سَمَّى الجبل جبل الفتح «وبنى هناك مدينة هي باقية إلى اليوم [أملى المراكشي كتاب (المعجب) سنة ١٢٢٤هـ / ١٢٢٤ م] . . . ووفد عليه وجوه الأندلس للبيعة . . . وكان له بالجبل يوم

(٢٣) الحاج يعيش المالقي من أشهر المهندسين في عهد الموحدين ، وهو الذي صنع بمدينة مراكش مقصورة في المسجد الجامع وضعت على حركات هندسية تُرفع بها عند خروج الخليفة وتخفّض لدخوله ، كما قام في سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢ م بتسريب الماء لسقي البحيرة الملكية . وتوصيله إلى داخل اشبيلية . وبني كذلك خزناً للماء لتزويد احياء مدينة إشبيلية به . انظر الحلل الموشية ص ١١٩ — ١٢٠ والن بالامامة ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .

(٢٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ١٣٨ — ١٤٠ — ١٤٣ .

(٢٥) الحميري : الروض المطار ١٢١ .

(٢٦) ابن أبي زرع : روض القوطاس ١٩٩ . السلاوي : الاستقصا ١٤٠/٢ .

(٢٧) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ١٤٨ . ابن الخطيب : أعمال الاعلام ٢٦٥ .

عظيم . . . واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداءً ، ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك ، إنما كانوا يُستأذنون فيؤذن لهم ، (٢٨) .

وقد أشار الشعراء في قصائدهم إلى جبل الفتح ، وما يرجونه من جهادٍ مظفرٍ للخليفة عبد المؤمن في الأندلس . فن قصيدة القرشي المعروف بالطلق المرواني :

حدثت عن الروم في أقطار اندلس  
والبحر قد ملأ العبرين بالعرب  
وطود طارق قد حلّ الإمام به  
كالطور كان لموسى أيمن الرتب  
منه يُعاوَدُ هذا الفتحُ ثانيةً  
أضعافَ ما حدثوا في سالف الحقب (٢٩) .

وما أنشده عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي :

إلى جبلٍ قد كان للفتح منزلاً  
ولاذ به بالفتح موسى وطارق (٣٠) .

وما أنشده محمد بن غالب البلنسي المعروف بالرُصافي :

لله ما جبلُ الفتحين من جبلٍ  
معظمِ القدر في الأجيال مذكورٍ  
من شامخ الأنف في سحنائه طلسٌ  
له من الغيم جيبٌ غيرُ مزورٍ  
أخِلقُ به وجبالُ الأرض واجفةً  
أن يطمئن غداً من كل محذور (٣١) .

---

(٢٨) المراكشي : المعجب ٢١٣ .

(٢٩) ابن صاحب الصلاة : المن بالامامة ١٦٠ — ١٦١ .

(٣٠) نفس المصدر ص ١٦٥ .

(٣١) المراكشي : المعجب ٢١٩ — ٢٢٠ . ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٢٦٧ .

وَأُنْشِدَ أَبُو جَعْفَرٍ بْنُ سَعِيدٍ الْعَنْسِيُّ (من آل بني سعيد أصحاب القلعة المعروفة باسمهم  
قرب غرناطة) قصيدة منها :

أَطْلُ عَلَى أَهْلِ الْجَزِيرَةِ سَعْدُهَا  
وَجَدُّ فِيهَا ذَلِكَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ  
فَا طَارِقُ إِلَّا لِذَلِكَ مَطَرِقُ  
وَلابن نُصَيْرٍ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ النُّصَرُ  
هَما مَهْدَاهَا كَي تَحُلَّ بِأَفْقِهَا  
كَمَا حُلَّ عِنْدَ التَّمِّ بِأَهَالَةِ الْبَدْرِ (٣٢) .

وقد كان عبد المؤمن حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة ،  
فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد بني حماد (شرق الجزائر) وهم قبائل من هلال  
ابن عامر ، وقد استجاب له من قبائل العرب جمع ضخم وزعمهم في نواحي قرطبة واشيلية  
وشريش (فهم بها باقون إلى وقتنا هذا — وهو سنة ٦٢١ هـ [١٢٢٤ م] — وقد انتشر من  
نسلهم بتلك المواضع خلق كثير . . . فبالجزيرة اليوم من زغبة ورياح وجشم بن بكر  
وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجال) (٣٣) .

وبعد هذا كان انصراف أمير المؤمنين عبد المؤمن إلى المغرب ، في أول عام  
٥٥٦ هـ / أوائل يناير ١١٦١ م ، أي بعد أن أمضى نحو شهرين في مدينة الفتح (٣٤) .

### جبل طارق في عهد بني مرين وبني الأحمر

انتهى حكمُ الموحدين في الأندلس عملياً سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م ، وظهر أمراء  
مستقلون هنا وهناك ، أهمهم ابنُ هود الذي تمكّن في وقتٍ ما من السيطرة على معظم شرق  
الأندلس وجنوبها . وفي شهر رجب سنة ٦٢٨ هـ / مايو ١٢٣١ م «ملك ابنُ هود جبلَ الفتح

(٣٢) ابن الخطيب : الاطاحة ١/ ٢٢٤ . مؤلف مجهول الإسم : الحلل الموشية ١٣٠ .

(٣٣) المراكشي : المعجب : ٢٢٤ ، ٢٢٦ .

(٣٤) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ١٧٢ .

والجزيرة الخضراء ، ولم يبقَ للموحدين بالأندلس أمر ولا نهي ، (٣٥) . وفي هذه الأثناء اتحدت مملكتا قشتالة وليون ، فازداد النصرارى قوة ، وفي عهد ملكهم فيرناندو/فرديناند الثالث ، سقطت في ايديهم حواضر الأندلس وقواعدها الكبرى ، كقرطبة واشبيلية وجيان ، كما سقطت بلنسية في يد ملك أراجون جيمس الأول ، وفي هذه الفترة المؤسية في تاريخ الأندلس ، استقل في جيان بادئي الأمر محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالأحمر ، ثم استولى على غرناطة واتخذها سنة ١٢٣٥ م عاصمة له ، وهو مؤسس أسرتها الحاكمة المعروفة ببني الأحمر أو بني نصر . وكان ابن نصر هذا مضطراً لمدارة فرديناند الثالث للاحتفاظ بمملكته ، لا بل وكان يدفع له ضريبة سنوية ويساعده في حروبه حتى ضد المسلمين . وظلت سياسة ملوك بني الأحمر — كملوك الطوائف من قبلهم — تقوم على إبقاء التوازن بين القوى المتصارعة في الأندلس للاحتفاظ بمملكته . فهم تارة يستعينون بسلاطين المغرب ضد النصرارى إذا ازداد خطر هؤلاء عليهم ، وتارة يستعينون بالنصرارى ضد سلاطين المغرب إذا قوي هؤلاء وسيطروا على جزء من الأندلس .

ولما ازداد خطر النصرارى على غرناطة اضطر سلطانها محمد الفقيه (حكّم ٦٧١ — ١٢٧٣/٥٧٠١ — ١٣٠٢ م) ، وبضغط من النازحين المسلمين من قشتالة ، إلى استدعاء السلطان المريني أبي يوسف يعقوب (حكّم ٦٥٦ — ٦٨٥/٥٨ — ١٢٨٦ م) . فعبر أبو يوسف بحر الزقاق أربع مرات ، وكان جوازه الأول في شوال ٦٧٣ هـ/أبريل ١٢٧٥ م ، واستولى على الجزيرة الخضراء ثم أحرز انتصاراً كبيراً على القشتاليين قرب استجة في ١٥ ربيع أول ٦٧٤ هـ/٨ سبتمبر ١٢٧٥ م . وعلى الأثر تبدل موقف سلطان غرناطة من السلطان المريني بعد أن احتفظ هذا بشفطريف لاتخاذ قاعة لتزول قواته ، فتحالف مع النصرارى ومع امير تلمسان يغمراسن الزياني ، ليعمل هذا على إشغال المرينيين والحيلولة دون تدخلهم في شؤون الأندلس (٣٦) .

ومما يُذكر أن المسلمين اتخذوا جبل طارق أثناء عملياتهم الحربية ضد النصرارى محطة للحمام الزاجل لنقل الأخبار على وجه السرعة . « وكان أهل الجزيرة . . . يحيط بهم العدو براً وبحراً . . . وانقطعت عنهم المواد وعميت عليهم الأنباء إلا ما ياتيهم به الحمام من جبل

(٣٥) ابن أبي زرع : روض القوطاس ٢٧٥ .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلامية (EI) — الطبعة الأولى ، المجلد الأول ص ٤٦٤ .

طارق... يحمل اليهم الكتابَ ويرد عليهم الجواب» (٣٧).

خلف أبا يوسف ابنه ابو يعقوب يوسف (حَكَم ٦٨٥ - ٧٠٦/١٢٨٦ - ١٣٠٦ م)، وفي عهده ساءت من جديد العلاقاتُ بينه وبين السلطان محمد الفقيه الذي تحالف مع ملك قشتالة دون شانجة (Don Sancho) وحاصر معه طريف التي اضطرت إلى الاستسلام بعد حصار دام أربعة شهور (رمضان ٦٩٠هـ/١٢٩١ م) واحتفظ بها ملك قشتالة ولم يُعدها لسلطان غرناطة كما كان قد وعده. فعاد سلطان غرناطة إلى سياسته المتذبذبة، وتحالف مع أبي يعقوب، ولكنها لم ينجحوا في استرداد طريف لانشغال السلطان المريني بحاربة امير تلمسان.

وإثر هجومٍ مباغتٍ استولى ملك قشتالة فرديناند الرابع على جبل طارق (٧٠٩هـ/١٣٠٩ م)، مع أنه اضطُرَّ إلى رفع الحصار الذي كان يضربه على الجزيرة الخضراء. يقول ابن خلدون: «وكان الطاغية قد أخذ جبل الفتح سنة تسع وسبعائة [١٣٠٩ م] وجاورت النصرانية به ثغور القُرْصَة، وصار شجى في صدرها، وأهمُّ المسلمين شأنه» (٣٨). وكان من نتيجة استيلاء النصارى على جبل طارق بعد استيلائهم على طريف قبل ذلك بعشرين عاماً ان أبرم سلطان غرناطة نصر أبو الجيوش (حَكَم ٧٠٨ - ٧١٣هـ/١٣٠٩ - ١٣١٤ م) معاهدة مع السلطان المريني أبي الربيع سليمان (حَكَم ٧٠٨ - ٧١٠هـ/١٣٠٨ - ١٣١٠ م) تخلى له بموجبها عن الجزيرة الخضراء، في مقابل الحصول على تعزيزات مغربية. وفي عامي ١٣٢٧ م و ١٣٣٠ م، استولى الفونس الحادي عشر على عده معاقل غربي غرناطة، ففزع سلطان غرناطة لذلك، وتوجّه بنفسه إلى فاس للاستغاثة بأبي الحسن المريني، الذي هبَّ لنجدته (٣٩)، وعن ذلك يحدّثنا ابن خلدون فيقول: «فبادر السلطان محمد بن اسماعيل [الرابع] بن الأحمر بزيارة السلطان أبي الحسن في فاس سنة ٧٣٢ (١٣٣٢ م) للمفاوضة في أمر الجهاد... وشكى إليه حال الجبل واعترضه شجى في صدور الثغور» (٤٠). فعقد أبو الحسن لابنه أبي مالك على خمسة

(٣٧) السلاوي: الاستقصا ٥١/٣. ابن أبي زرع: روض القرطاس ٣٣٠.

(٣٨) ابن خلدون: العبر: ٥٣٠/٧.

(٣٩) أوكالاها (O'Callaghan): تاريخ اسبانيا في العصر الوسيط (بالإنجليزية) ص ٤٠٣، ٤٠٩.

(٤٠) ابن خلدون: العبر: ٥٣٠/٧. السلاوي: الاستقصا ١٢١/٣.

آلاف من أنجاد بني مرين ، وأنفذهم مع ابن الأحمر لمنازلة جبل الفتح ، «فتزل المسلمون بالجزيرة الخضراء ، وزحفوا جميعاً إلى الجبل وأحاطوا به ونازلوه ، إلى أن فتحوه [عَنوة] سنة ٥٧٣٣هـ [١٣٣٣ م] وشرع المسلمون في شحنه بالأقوات . . . ووصل الطاغية بعد ثلاث [ليالٍ] من فتحه ، فأناخ عليه وحاصره ، وبرز أبو مالك بعساكره من الجزيرة فتزل بإزائه ، وزحف ابنُ الأحمر فتزل بإزائه أيضاً . ثم خاف ابنُ الأحمر عادية العدو ، لقرب العهد بارتجاع الجبل ، وخفَع مَنْ به من الحامية والسلاح ، فبادر إلى لقاء الطاغية . . . [فأجابه] إلى ما سأل من الإفراج عن هذا المقل . . . وارتحل من فورهِ ، وشرع أبو مالك في تحصين ذلك الثغر»<sup>(٤١)</sup> .

وكان استرجاعُ أبي الحسن المريني لجبل طارق من أيدي الروم بعد تملكهم له عشرين سنةً ونيفاً (٧٠٩ — ١٣٠٩/٥٧٣٣ م) . وكان فتحُه بعد حصارسته أشهر<sup>(٤٢)</sup> . وكان على حد قول ابن خلدون «فتحاً طَوَّقَ دولة السلطان أبي الحسن قلادة الفخر آخر الأيام»<sup>(٤٣)</sup> .

لم تَرَضْ بعضُ العناصر المتنفذة في غرناطة عن عودة بني مرين واستيلائهم على جبل طارق ، ونقمت تلك العناصر لذلك على السلطان محمد الرابع لاستدعائه بني مرين إلى الأندلس ، فاغتيل السلطان ونُصِب أخوه يوسف الأول مكانه .

وقد أكدت دروسُ الماضي أهميةَ غلق مضيق جبل طارق نهائياً ، خصوصاً وان المرينيين سيطروا الآن على جبل طارق والجزيرة الخضراء معاً ، وأتموا في الوقت ذاته السيطرة على سجلماسة وتلمسان ، وأصبحوا يتأهبون لمعاودة الجهاد في الأندلس .

وفي خريف عام ١٣٣٩ م ، هُزم ابنُ السلطان المريني وقُتل في ساحة القتال ، إلا أن اسطولاً مغربياً نجح في العام التالي في تدمير اسطول قشتالي أرجوني مشترك في مضيق جبل طارق ، وتمكن السلطان من نقل جيش لأيستهان به من العدو إلى الأندلس ، وشرع — بمعاونة سلطان غرناطة يوسف الأول — في محاصرة ثغر المجاز الثالث طريف في

(٤١) السلاوي : الاستقصا ١٢١/٣ — ١٢٢ . ابن الخطيب : اللوحة البدرية ٧٩ .

(٤٢) ابن بطوطة : الرحلة ٦٥١ .

(٤٣) ابن خلدون : العبر ٥٣٠/٧ .

شهر ذي الحجة ٥٧٤٠هـ/يونيو ١٣٤٠ م . وفي هذه الأثناء ، كان ملك قشتالة الفونس الحادي عشر يستغيث بالبابا لإعلان حملة صليبية ضد المسلمين ، وتقديم العون المالي له ، فاستجاب للدعوة فرسان كثيرون من نافارة (نبرة) وأرجون وفرنسا وبلدان شمال أوروبا . كان ذلك بعيداً انتصار الأتراك العثمانيين في عدد من المواقع على الروم البيزنطيين وتهديدهم للقسطنطينية واستغاثة امبراطورها كذلك بالبابا ودول غرب أوروبا المسيحية ضد الأتراك .

ولما تقدّمت قوات النصارى للملاقاة المسلمين المحاصرين لطريف ، فكّ هؤلاء الحصارَ ولاحقوا العدو على ضفاف نهر سلاдо (Salado) في ٢٧ ربيع الثاني ٥٧٤٠هـ/٣٠ أكتوبر ١٣٤٠ م ، وأحرز النصارى في وقعة طريف هذه نصراً حاسماً اعتبروه مضاهياً للنصر الكبير الذي كانوا قد أحرزوه قبل قرن ونيف ضد الموحدين في وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة ١٢١٢/٥٦٠٩ م . وبعد هذه الهزيمة التي مني بها المرينيون ، لم يحاولوا القيام بحملة كبيرة في الأندلس . وينظر المؤرخون الإسبان إلى وقعة طريف على أنها تمثل نقطة تحوّل هامة في تاريخ ما يسمونه بحرب الاسترداد (Reconquista) ، إذ إنها أنقذت إسبانياً من خطر هجوم مغربي جديد<sup>(٤٤)</sup> . أما من وجهة نظر المسلمين ، فإن احتفاظهم بجبل طارق أصبح بعد وقعة طريف أمراً حيوياً ، بعد فقدانهم للجزيرة الخضراء وطريف ، لتأمين مواصلاتهم بين المغرب والأندلس .

وعاود ملك قشتالة الفونس الحادي عشر حصارَ جبل طارق حصاراً شديداً وكاد أن يستولي عليه ، لولا هلاكُه بالطاعون ، وهو الوباء المعروف في التاريخ باسم (الموت الأسود) والذي اجتاح في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي منطقة حوض البحر المتوسط وغرب أوروبا محدثاً خسائر جسيمة في الأرواح ، ومخلفاً آثاراً اقتصادية سيئة . ويذكر الفقيه الغرناطي ابن الحسن النباهي «هلاكَ ملك النصارى المسمّى بالفُشش . . . وهو بظاهر جبل الفتح حاصراً له ، وذلك في عام المحرم من عام خمسين وسبعمائة [ ٣١ مارس ١٣٤٩ م ]»<sup>(٤٥)</sup> .

(٤٤) أوكالاها (O'callaghan) : تاريخ إسبانيا في العصر الوسيط ٤١٢ — ٤١٣ .

(٤٥) ابن الحسن النباهي : المرقبة العليا (تاريخ قضاة الأندلس) ص ١٥٦ .

وقد بعث الوزير والأديبُ الغرناطي لسانَ الدين بن الخطيب برسالة باسم سلطانه (يوسف الأول) إلى سلطان فاس أبي عنان فارس ، ينقل إليه الخبر السارَ ومنها «نكثَ طاغيةُ قشتالة العهدَ الذي عقده . . . وأمل أن يستوليَ على جبل الفتح . . . فضيقه حصاراً . . . ونزل الفرجُ القريب . . . وطرق للطاغيةَ جندٌ من جنود الله توكلَى أخذه أخذةً رابية . . . فهلك على الجبل حتفَ أنفه . . . ففرقت جموعه وأحزابه . . . وراينا ان هذه البشارة انتم أولى مَنْ تُتحفه بطيب ربابها» (٤٦) .

وكان السلطان أبو الحسن قد حصَّن سفحَ الجبل ، بعد استرداد المسلمين له سنة ١٧٣٣/١٣٣٣ م ، «بسور محيط من جميع جهاته ، حتى لا يطعمَ عدو في منازلته . . . فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال» (٤٧) .

وفي عام ١٣٤٩/١٧٥٠ م ، زار جيلَ طارق الرحالة المعروف ابن بطوطة ، وترك لنا في (الرحلة ) وصفاً شيقاً لما كان عليه الجبل آنذاك في عهد بني مرين . يقول ابن بطوطة : «وأول بلدٍ شاهدته من البلاد الأندلسية جبلُ الفتح . . . وتطوّفت [صحبة قاضيه] على الجبل ، فرأيتُ عجائبَ ما يبني به مولانا أبو الحسن . . . وأعدُّ فيه من العدد . . . وما زاد على ذلك مولانا [أبو عنان] . . . ووددتُ أن كنتُ ممن رابط به إلى نهاية العمر» (٤٨) . ويتحدث ابن بطوطة عن تحصينات الجبل مما أحدثه السلطان أبو الحسن علي وابنه السلطان أبو عنان فارس فيقول : «وبقايا السور الذي بناه [طارق] ومن معه باقية إلى الآن تُسمى بسور العرب ، شاهدتها أيام اقامتي به . . . ولم يكن حينئذ على ما هو الآن عليه ، فبنى به مولانا أبو الحسن رحمة الله عليه الماثرة العظمى بأعلى الحصن ، وكانت قبل ذلك برجاً صغيراً تهدم بأحجار المجانيق ، فبنى في مكانه ، وبنى دار الصناعة [أي صناعة السفن] ولم يكن به دارُ صنعة ، وبنى السورَ الأعظم المحيطَ بالتربة الحمراء [المعروفة اليوم بنفس الاسم Red Sands] . . . ثم جدّد [ابنه] أبو عنان تحصينه وتحسينه ، وزاد

(٤٦) المقرئ : فتح الطيب ١٧٨/٦ .

(٤٧) نفس المصدر ١٤٠/٦ — ١٤١ نقلا عن (المسند) لابن مرزوق . السلاوي : الاستقصا ١٢٣/٣ .

(٤٨) ابن بطوطة : الرحلة ٦٥١ .



بناء السور بطرف الفتح<sup>(٤٩)</sup> ، [المعروف اليوم باسم Europa Point] ، وهو أعظم أسواره غناءً . . . وبعث إليه العدد الوفرة والأقوات والمراقق العامة<sup>(٥٠)</sup> .

وبلغ من اهتمام السلطان أبي عنان فارس (حَكَم ٧٤٩-١٣٤٨/١٣٥٩ م) بأمور الجبل «أن أمر . . . ببناء شكل [نمُوذَج] يُشبه شكل الجبل المذكور ، فُتِل فيه أشكال أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ومساجده ومخازن عدده وأهرية [مخازن] زرعه وصورة الجبل وما اتصل به من التربة الحمراء فصنع ذلك . . . فكان شكلاً عجباً أتقنه الصناع إتقاناً يعرف قدره من شاهد الجبل وشاهد هذا المثال<sup>(٥١)</sup> .

ولما فرَّ الوزيرُ ابن الخطيب من غرناطة لاجئاً من مكائد خصومه إلى المغرب عام ١٣٧١/٧٧٣ م ، كان جبل طارق ما يزال في أيدي سلاطين بني مرين ، إذ يقول : «وتيسرُّ للحاقِّ بيلاده [سلطان المغرب] والحصولُ بجبل الفتح من إبالته ، والجواز إلى سبتة غرة جمادي الأخير من سنة ثلاثة وسبعين وسبعائة [١٠ ديسمبر ١٣٧١ م] في أسطوله<sup>(٥٢)</sup> .

وبعد فرار ابن الخطيب بعامين<sup>٥٣</sup> ، انتهر سلطانُ غرناطة محمد الغني بالله (محمد الخامس) نشوبَ خلافات داخلية حول وراثة العرش في المغرب ، للتدخل في شؤون المغرب ولاجلاء الحامية المغربية عن جبل طارق . وفي عام ١٤١٣/١٤١٠ م قامت ثورة بالجليل لصالح بني مرين ، إلا أن سلطان غرناطة أبا الحجاج يوسف (يوسف الثالث) تمكَّن من استرداده .

وفي سنة ١٤١٥ م استولى البرتغاليون على سبتة ، فأصبحت لهم أول قاعدة في إفريقيا وأصبح بإمكانهم التوغُّل في القارة أو شنُّ هجوم على جبل طارق عبر بحر الزقاق .

وقد ظل جبل طارق مع ذلك في أيدي سلاطين غرناطة نحو خمسين عاماً . إلا أن

(٤٩) يقول المراكشي إن لجبل الفتح طرفاً خارجاً «في البحر يسمى طرف الفتح ، وعنده يلتقي البحرين (البحر الشامي وبحر الزقاق) بجزيرة الأندلس» . (المعجب ص ٣٦٨) .

(٥٠) ابن بطوطة : الرحلة ٦٥١ - ٦٥٢ .

(٥١) نفس المصدر ص ٦٥٢ - ٦٥٣ .

(٥٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ٣١٨ .

الوضع في غرناطة منذ عام ١٤٣٩ م ازداد سوءاً بسبب المنازعات المستمرة بين أفراد البيت المالِك ، فقرر ملك قشتالة هنري — إنريق الرابع التدخل ، وبدأ منذ ربيع عام ١٤٥٥ م في شن غارات مدمرة على أراضي مملكة غرناطة ، مؤملاً بذلك أن ينهار اقتصاد المملكة ، ثم انسحب وعهد لقادة مناطق الحدود بمواصلة الغارات . وكان أهم ما حققه قادة الحدود هؤلاء الاستيلاء على جبل طارق ، وكان ذلك في ٢٤ ذي القعدة سنة ٨٦٦هـ / ٢٠ أغسطس ١٤٦٢ م ، على يد الدوق جوزمان (Duke Guzman) صاحب مدينة شذونة<sup>(٥٣)</sup> . وباستيلاء النصارى على جبل طارق ، تمت لهم السيطرة على ثغور بحر الزقاق الثلاثة (طريف والجزيرة الخضراء وجبل طارق) فحال ذلك دون وصول أية قوات من المغرب لنجدة مملكة غرناطة ، مما عجّل في سقوطها في أيدي النصارى وفي انتهاء الوجود الإسلامي في الأندلس سنة ٨٩٧هـ / ١٤٩٢ م . كما ان سيطرة الإسبان على مضيق جبل طارق أدت إلى نمو التجارة بين مواتها على ساحلي البحر المتوسط والمحيط الأطلسي ، ولعب اسطول جنوة دوراً هاماً في هذه المرحلة في معاونة قشتالة في المجالين الحربي والتجاري ، خصوصاً في استثمار الإسبان لجزر الخالدات (كناري) والأزور وما ديرا ، التي أصبحت محطات لجلب الذهب من السنغال وساحل إفريقيا الغربي ، بعد أن كان الذهب يصل منها قبلاً إلى غرناطة الإسلامية عن طريق تلمسان<sup>(٥٤)</sup> .

وفي عام ٩٤٧هـ / ١٥٤٠ م شنّ غزاة البحر المسلمون العاملون تحت إمرة أمير البحر خير الدين بربروسا غارة على جبل طارق ، وكادوا يستولون عليه ، ودمروا تحصيناته واستحوذوا على غنائم وفيرة ، فعمد الإسبان بعد هذه الغارة ، إلى تعزيز تحصينات الجبل تحوطاً<sup>(٥٥)</sup> .

وفي عام ١٠١٩هـ / ١٦١٠ م نقلَ الأميرال دون خوان دي مندوزا (Don Juan de Mendoza) من ميناء جبل طارق المدجّنين المسلمين الذين أُجلوا نهائياً عن أوطانهم في الأندلس إلى ساحل المغرب<sup>(٥٦)</sup> .

(٥٣) دائرة المعارف الإسلامية El — الطبعة الثانية (بالإنجليزية) . المجلد الثاني ص ٣٥٣ .

(٥٤) هايفيلد (Highfield): اسبانيا في القرن الخامس عشر (بالإنجليزية) ص ٢٠ ، ٤٨ — ٤٩ .

(٥٥) دائرة المعارف الإسلامية (El) — الطبعة الثانية (بالإنجليزية) ، المجلد الثاني ص ٣٥٣ .

(٥٦) نفس المصدر والصفحة .

وجبل طارق في الوقت الحاضر إحدى مستعمرات التاج البريطاني منذ أن استولى البريطانيون عليه عام ١٧٠٤ م أثناء حرب الوراثة الإسبانية ، وتم تنازل إسبانيا عنه لبريطانيا في معاهدة أترخت عام ١٧١٣ . وكما هو معلوم ، فإن إسبانيا ما انفكت تُلح بالمطالبة باسترداد جبل طارق ، على أنه جزء من الأراضي الإسبانية .

## آثار عربية قائمة في جبل طارق :

توجد في جبل طارق حالياً بعض الآثار الإسلامية ، منها بقايا الحصن العربي (The Moorish Castle) ، وهو حصن قائم على السطح الشمالي الغربي من الجبل . ويعتقد الأثريون بأن الحصن يعود إلى أيام الموحدين (القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي) أو حتى إلى أيام بني مرين (القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي) .

وثمة الحمامات العربية تحت مبنى متحف جبل طارق وهي عبارة عن صفين من العقود العربية يتكوّن كلٌّ منها من ثلاثة عقود ، وتجمعها قبة منخفضة<sup>(٥٧)</sup> . ويرى الأثري الإسباني المعروف توريس بالباس أنها من طراز غرناطي شبيه بطراز حمامات قصر الحمراء<sup>(٥٨)</sup> .

أما ما تبقى من «سور العرب» فوق أعلى الصخرة ، فيبلغ طوله نحو ١٧٥٠ قدماً ، ويشتمل على مالا يقل عن ٦٠٠٠ ياردة مكعبة من الحجارة المقطعة من الجبل<sup>(٥٩)</sup> .

---

(٥٧) عنان : الآثار الأندلسية الباقية ... ص ٢٩٢ .

(٥٨) يقول توريس بالباس (Torres Balbas) : «بقي من الآثار الإسلامية في جبل طارق بعض الأسوار وحمام ، وأهم من ذلك برج القصبة الكبير المعروف باسم قلعة Calahorra) الذي شيده السلطان المريني أبو الحسن ما بين عامي ١٣٤٢ و ١٣٤٤ م .  
ينظر كتابه (المدن الأندلسية) ، ٦٧/١ .

(٥٩) نوريس (Norris) : (الاستيطان الإسلامي المبكر في جبل طارق) ، مقالة نشرت في مجلة المعهد الأنثروبولوجي الملكي . مجلد ٩١ (جزء ١) لعام ١٩٦١ ، ص ٤٣ .

وفي بحث وافٍ<sup>(٦٠)</sup> نشره ه. ت. نوريس (H. T. Norris) بعنوان (الاستيطان الإسلامي المبكر في جبل طارق) (The Early Islamic Settlement in Gibraltar)، يعتقد الكاتب بأن طارق بن زياد لم يقيم سوى نقطة رصد أو مراقبة صغيرة على إحدى قمم الجبل، ثم لم يلبث أن انتقل بعد نحو شهرين من نزوله للملاقة جيش القوط، ولذلك فإن ما تبقى من آثار الحصن والسور يعود إلى عهود إسلامية تالية، ويستند نوريس في اعتقاده هذا إلى عدة نقاط نوجزها فيما يلي: قصر المدة التي أمضاها طارق في الجبل، وعدم حاجته لتحصين الجبل بعد انتصاره، وقلة عدد جنوده، وكان في حاجة ماسة لهم جميعاً في القتال. ثم إن ابن الأثير يقول صراحة «نزل طارق من الجبل إلى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل»<sup>(٦١)</sup>. وإذا أخذنا في الحسبان انحدر سطح أرض الجبل، وما يحتاج إليه من مواد بناء وعمال ومهندسين، وكذلك التشابه بين مواد بناء السور وبين مواد البناء بسور تازا الموحدى، فإن كل ذلك يدل على أن الحصن والسور في جبل طارق يعودان إلى عهد الموحدين الذين شيّدوا مدينة الفتح في مدة ثمانية شهور، وكان يتوفر لديهم الوقت والمهندسون والعمال<sup>(٦٢)</sup>.

وقد قام سلاطين بني مرين بعد استردادهم للجبل من أيدي الإسبان عام ٧٣٣هـ/١٣٣٣ م بإعادة بناء تحصيناته وتقويتها. ولعل ابن بطوطة حينما زار الجبل وشاهد تحصيناته قرب القمة قبل له إنها قديمة، وتسميتها بسور العرب إنما كانت لجرد التمييز بينها وبين بقية التحصينات المرينية المستحدثة<sup>(٦٣)</sup>.

ويخلص نوريس إلى أن كلّ البيانات تشير إلى أن جبل طارق لم يستوطن قبل عام ٥٥٥هـ/١١٦٠ م، وإنما اقتصر استعماله كقاعدة حربية ومرسى ونقطة لإنزال الجنود<sup>(٦٤)</sup>. ومما يؤيد ذلك، ما أمر به المعتضد بن عباد واليه على الجزيرة الخضراء من تحصين الجبل تحوطاً من خطر نزول قوات المرابطين فيه، وكذلك ما عرضه المعتمد بن عباد على المرابطين

(٦٠) نفس المصدر.

(٦١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٢٢/٤.

(٦٢) نوريس: (الاستيطان الإسلامي المبكر في جبل طارق) ص ٤٣.

(٦٣) نفس المصدر ٤٤.

(٦٤) نفس المصدر ٥٠.

## نقشان عربيّان من جبل طارق :

يذكر توماس جيمس (Thomas James) في كتابه (تاريخ المضيق الهرقلي (The History of the Herculean Straits) المنشور عام ١٧٧١ م ، أنه عثر آنذاك على نقشين كُتبتا عربيّين : أحدهما فوق الباب الجنوبي للحصن ، والثاني في جدار مسجدٍ أو رباطٍ قرب برج قلهرة . وقد استعان جيمس بأحد المغاربة من طنجة لقراءة الكتابة العربية في النقشين ، وأورد ترجمةً إنجليزيةً لها . ويبدو أن العبارة الأولى في النقش الأول هي : « النصر والتميز من الله تعالى لمولانا أبي عبد الله أمير المسلمين ابن أبي الحجاج يوسف أمير المسلمين ابن مولانا أبي الوليد أبقاه الله » ، أما بقية عبارة النقش فكتابتها غير مقروءة<sup>(٦٥)</sup> . ويرى الأثريّ الإسبانيّ المعروف توريس بالباس أن السلطان المشار إليه هو دون شكل سلطان غرناطة يوسف الأول أبو الحجاج بن أبي الوليد بن أبي سعيد فرج (حكّم ٧٣٣ - ١٧٥٥هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤) (٦٦) .

وتدل أسماء سلاطين بني الأحمر الواردة في النقش الأول على مدى أثر غرناطة في عهد بني الأحمر على المنشآت العسكرية والمدنية في جبل طارق منذ أن استرده المسلمون من الأسبان سنة ١٧٣٣هـ / ١٣٣٣ م<sup>(٦٧)</sup> .

أما النقش الثاني ، وهو أقدم من الأول بكثير ، كما يُستدل من كتابة حروفه ، فيشتمل على عبارة دينية تتعذر قراءتها . وقد أورد جيمس في كتابه ترجمةً إنجليزيةً لجزء منها ، وفي آخرها تردّ عبارةٌ لعلّها : والله العاقبة الباقية<sup>(٦٨)</sup> .

والنقش الثاني أقدم نقش عربي يُعثر عليه حتى الآن في جبل طارق . ويُحتمل أن يكون المسجد أو الرباط الذي وجد النقش في جداره من بناء عبد المؤمن بن علي أيضا .

(٦٥) نفس المصدر ٤٤ .

(٦٦) نفس المصدر ٤٦ .

(٦٧) نفس المصدر ٤٦ .

(٦٨) نفس المصدر ٤٦ .

ولعلَّ السلطانَ المرينيَّ الذي أحدثَ تغييراتٍ كبيرةً على تحصينات جبل طارق في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي احتفظ بالمسجد أو الرباط دون مساسٍ صوفاً لحرمته (٦٩).



(٦٩) نفس المصدر ٤٨ .

## أ — مصادر عربية

- ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، الرباط ١٩٧٣ .  
 ابن الأبار : الحلقة السراء ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٦٣ .  
 ابن الأنير : الكامل في التاريخ ، المجلدان الرابع والتاسع ، بيروت ١٩٦٣ ، ١٩٦٧ .  
 ابن بسم الشنتريني : اللخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثاني ، المجلد الأول ، الدار العربية للكتاب ليبيا — تونس ١٩٧٨ .  
 ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة تحفة النظار في غرائب الأمصار ، بيروت ١٩٦٨ .  
 ابن بلقين : عبد الله : التبيان (مذكرات الأمير عبد الله) ، القاهرة ١٩٥٥ .  
 ابن الخطيب ، لسان الدين : أعمال الأعلام (تاريخ اسبانيا الإسلامية) ، بيروت ١٩٥٦ . نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، القاهرة ١٩٥٥ . اللحمة البدوية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .  
 ابن خلدون ، عبد الرحمن : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، المجلد السابع ، بيروت ١٩٥٩ .  
 ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالإمامة ، بيروت ١٩٦٤ .  
 ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩٥٠ .  
 البيان المغرب ، الجزء الثالث (تاريخ الموحدين) ، تطوان ١٩٦٠ .  
 ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٥٧ .  
 الإدريسي : صفة إفريقيا والأندلس (مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) ، ليدن ١٨٦٦ .  
 الحميري ، ابن عبد المنعم : صفة جزيرة الأندلس (متخبة من كتاب الروض المطار في خير الأقطار) ، القاهرة ١٩٣٧ .  
 السلاوي ، أحمد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزءان الثالث والرابع ، الدار البيضاء ٥٤ — ١٩٥٦ .  
 عنان ، محمد عبد الله : الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال ، القاهرة ١٩٦١ .  
 المراكشي ، عبد الواحد : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٤٩ .  
 المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ .  
 المقرئ : فلاح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، الجزءان الأول والسادس ، القاهرة ١٩٤٩ .  
 مؤلف مجهول الإسم : أخبار مجموعة ، مدريد ١٨٦٧ .  
 مؤلف مجهول الإسم : الحلل الموشيه ، تحقيق علوش ، الرباط ١٩٣٦ .  
 النباهي ، ابن الحسن : كتاب المراقبة العليا (تاريخ قضاة الأندلس) ، بيروت (بدون تاريخ) .

- Balbas, L. Torres, *Al Andalus*, Madrid-Granada(1942), Vol, VII, pp. 168-216. *Ciudades Hispano—Musulmanas*, Tomo I, Madrid.
- Cattenoz, H. G., *Tables de Conocordance des Eres Chretienne et Hegrienne*, Rabat 1954.
- El = *The Encyclopaedia of Islam* (First Edition—English), Leiden 1913-34, Vol. III, pp. 464-66 s.v. Merinids.
- El<sup>2</sup> = *The Encyclopaedia of Islam* (New Edition—English). Leiden—London 1965. Vol. II pp. 352-3 s.v. Djabal, Tārik.
- Highfield, R, *Spain in the Fifteenth Century*, Bristol 1972.
- Julien, Charles—Andrè, *History of North Africa*, London 1970.
- Lane—Poole, S., *The Mohammedan Dynasties*, Paris 1925.
- Lévi—Provençal, E., *Histoire de l'espagne musulmane*, Vol. I Paris—Leiden 1950.
- Norris, H. T., "The Early Islamic Settlement in Gibraltar, *Journal of the Royal Anthropological Institute*, Vol. 91 (Part 1), London 1961, pp. 39—51.
- O'Callaghan, J. F., *A History of Medieval Spain*, Cornell University Press, London 1975.





# الحضارة العربية الإسلامية

وأثرها الإيجابي في السودان الغربي

في القرون الوسطى

ممالك غانة ومالي وسنغاي

تمهيد :

يتناول هذا العرضُ التاريخيُّ تأثيرَ الحضارة العربية الإسلامية في رقعةٍ تقع عند التخوم الجنوبية من الدولة العربية ألا وهي السودان الغربي — حوضا نهري السنغال والنيجر المعروفان باسم الساحل والحوض — التي تعاقبت فيها حتى نهاية القرن السادس عشر ثلاثُ ممالكٍ عريقة هي على التوالي غانة ومالي وسنغاي . وقد شهدت هذه المنطقةُ بدايةَ تأثيرات الحضارة العربية الإسلامية منذ أن توطَّد الحكم العربي في الشمال الإفريقي أي منذ مطلع القرن الثامن للميلاد ، وظلَّت هذه التأثيراتُ في ازدياد بفضل نشاط التجار المغاربة عبر الصحراء الكبرى ، حيث كان لنشاطهم واستقرارهم أكبرُ الأثر في انتشار الإسلام بين قبائل الصحراء الكبرى (صنهاجة الصحراء) وفي الجهات التي ارتادوها من إقليم السودان الغربي . وما يجدر التنويهُ به أن المصادرَ العربية — كتب الجغرافيا والرحلات وكتب الطبقات والتراجم — هي المصادر المكتوبة الوحيدة المتوفرة عن تاريخ السودان الغربي في القرون الوسطى ، وذلك لأن قبائلَ السودان الغربي لم تكن تعرف الكتابةَ آنذاك . وهذه

المصادر هي في حد ذاتها مساهمةٌ عربيةٌ كبيرةٌ في ميدان الحضارة . إن أهمَّ هذه المصادر هو ما صَنَفَهُ ابنُ حوقل (القرن العاشر الميلادي) ، وأبو عبيد البكري (القرن الحادي عشر) ، والشريف الإدريسي (القرن الثاني عشر) ، وابن سعيد المغربي (القرن الثالث عشر) ، وابن بطوطة والعمرى وابن خلدون (القرن الرابع عشر) ، والقلقشندي (القرن الخامس عشر) ، والحسن الوزان — المعروف بليو الإفريقي — (القرن السادس عشر) . ومن أهل السودان ذاته عبد الرحمن السعدي صاحبُ (تاريخ السودان) ، ومحمود كمت صاحب (تاريخ الفتاش) ، وقد عاشا في أوائل القرن السابع عشر ، والفقية المعروف أحمد بابا التنبكتي الذي عاش في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، ومن أشهر مؤلفاته كتابُ (نيل الابتهاج بتطريز الديباج) . هذا فضلا عما تتضمنه كتبُ الطبقات والتراجم ، والتي يبرع فيها أهلُ المغرب ، من تنفِ قِيَمَةٍ عن اتصال فقهاء المسلمين وتجارهم ببلاد السودان .

ومما ينبغي تأكيده أن انتشارَ الإسلام في السودان الغربي لم يتمَّ عن طريق افتتاح العرب لذلك الإقليم ، بل تمَّ سَلَمِيّاً عن طريق التجار المسلمين ، من المغرب خاصة ، الذين كانوا يتوافدون على أطراف السودان الغربي بقصد التجارة ، حيث أقاموا محطاتٍ وأسواقاً يتبادلون فيها السلع مع أهل السودان . وكان الإسلام ينتشر على أيديهم ، لا عن طريق التبشير ، بل عن طريق الاحتكاك والمثل خاصة بين الملوك ورجال ممالكهم من الوثنيين . كما أن قيامَ دولة المرابطين في غربي الصحراء الكبرى في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي — وهي دولة قائمة على الجهاد ونشر الإسلام — كان ذا أثر هام في انتشار الإسلام في منطقة الصحراء الكبرى الغربية ، وبين السودان في حوض السنغال وأعلى النيجر . وأخيرا ، فإن السودان ، وقد أسلم ملوكهم والكثيرون من رعيته ، اضطلموا هم أنفسهم بنشر الإسلام في أوطانهم بعد المرحلة الأولى من انتشاره في السودان الغربي .

ثم إن انتشارَ الإسلام في السودان الغربي كان عاملا من عوامل الوحدة بين قبائله ، كما أن الفوارقَ العنصرية والقبلية في هذه المنطقة الشاسعة أضعف من حدتها انتشارُ الإسلام واللغة العربية كلفة التعليم والثقافة في معاهد المدن السودانية كسمبكتو وجنّي ، ولغةِ التأليف

في المواضيع الفقهية والتاريخية<sup>(١)</sup> . كما وطد السلاطين المسلمون سلطانهم التقليدي وأتاح  
الذينُ الجديدُ للسلطان المسلم الطموح «عقيدةً ورايةً وسلاحاً وتبريراً» في بعض  
الأحيان ، لافتتاح الممالك الوثنية المجاورة لأراضيه<sup>(٢)</sup> .

وكان لانتشار الإسلام والثقافة الإسلامية فضلٌ في حل مشكلة داخلية كبرى طالما  
واجهت دولَ السودان الغربي ، ألا وهي مشكلة القبيلة والولاء القبلي ، فعمد السلاطينُ  
المسلمون إلى إقامة إدارة مركزية لا تقوم على صلة القرابة أو القبيلة ، ومع ازدياد عدد  
المدارس الإسلامية ظهرت إلى حيز الوجود فئة من المثقفين المسلمين اعتمد عليها السلطانُ في  
تنظيم حكومته<sup>(٣)</sup> .

### التجارة وطرق القوافل عبر الصحراء :

كانت ثمة أربعُ طرقٍ رئيسيةٍ للقوافل من بلاد المغرب عبر الصحراء الكبرى ، إحداها  
تخاذي ساحل المحيط وتنتهي في السنغال (تكرور وسلي) ، والثانية من سلجاسة في جنوب  
المغرب الأقصى مارةً بتغازه وتنتهي في أودغست عند الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى ،  
وطريق ثالثة كانت تبدأ من تاهرت عاصمة الرستميين وتنتهي إما في تغازه وأودغست وإما  
في تادمكة (المعروفة اليوم بالسوق) ومنها إلى كوكو/جاو (Gao) في سنغاي عند منحني  
نهر النيجر . وأما الطريق الرابعة فكانت تبدأ من افريقية (القيروان أو طرابلس الغرب)  
وتمر بفدامس وتادمكة وتنتهي عند نهر النيجر أو في كانم (منطقة بحيرة تشاد) مارةً  
بفزان<sup>(٤)</sup> .

وبواسطة هذه الطرق كان ذهبُ السودان يصل إلى المغرب ، ومنه إلى بقية أنحاء العالم  
الإسلامي . وكان هذا الذهب مصدرَ رخاء وازدهار لكثير من الدول الإسلامية التي قامت  
في حواضر المغرب كسجلماسة وتاهرت والقيروان ومراكش ، وكذلك في الأندلس .

(١) *Legacy of Islam*, (Second Edition), Oxford 1974, p. 107.

(٢) المصدر السابق ص ١١٠ .

(٣) Oliver, R. and Fage, J. D., *A Short History of Africa*, London 1973, p. 90

(٤) Lombard, M., *The Golden Age of Islam*, Amsterdam 1975, pp. 223-4.

وكانت السلع الرئيسية التي تنقلها القوافل إلى السودان الغربي تشمل الحبوب والتورم والأقمشة والمصنوعات المعدنية والجلدية وصنوفاً من النظم من الزجاج والأصداق ، والخواتم والقطران والأخشاب والعمود والملح الذي كان السودان في أمس الحاجة إليه إذ لم يستطيعوا إنتاجه. ويذكر الإدريسي ، وهو من أبناء سبتة ، أن بمدينة سبتة سوقاً «لتفصيل [المرجان] وحكّه وصنعه خرزاً ونقبه وتنظيمه . . وأكثر ما يُحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان لأنة في تلك البلاد يستعمل كثيراً»<sup>(٥)</sup> . وكان التجار يستبدلون هذه السلع بغلات السودان ، وهي الذهب والعاج والأبنوس ، إلا أن السلعة الرئيسية كانت تبر الذهب من مناجمه في ونقارة في حوض نهر السنغال .

وكانت التجارة بين المغرب والسودان الغربي قائمة على نطاق واسع حتى إن نظام الصكوك استُحدث تيسيراً للعمليات التجارية . يقول ابن حوقل : «ولقد رأيت بأودغست صكا في ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من سجماسة باثنين وأربعين ألف دينار . وما رأيت ولا سمعتُ بالمشرق لهذه الحكاية شبيها ولا نظيرا ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت»<sup>(٦)</sup> .

وتلقى كتب الطبقات والسير ضوءاً على موضوع تجارة القوافل واتصال أهل المغرب ببلاد السودان منذ وقت مبكر . ففي كتاب (المعيار العربي) للونشريسي مثلاً فتويان للفقير القيرواني البارز القابسي / ابن القابسي (ت . ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م) فيها دلالة ثابتة على قيام تبادل تجاري منذ أواخر القرن العاشر الميلادي بين إفريقية وبلاد السودان ، التي كان ما يزال معظم سكانها من الوثنيين . وتتناول الفتوى الأولى موضوع عقد قراض تم في القيروان مع شخص توجه إلى تادمكة ومنها توجه إلى غانة وأودغست حيث تزوج ورزق أطفالاً وغاب عن موطنه إحدى عشرة سنة ، وكان عليه دين في بلده ، وبعد وفاته باع القاضي ممتلكاته ، فتقدم صاحب القراض يطالب بحقه كدائن . وتدور الفتوى الثانية حول

(٥) الإدريسي ، أبو عبد الله محمد (الشريف) : وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية ، قطعة مستخرجة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الجزائر ، ص ١٠٨ .

(٦) ابن حوقل أبو القاسم محمد بن علي : صورة الأرض ، بيروت (بدون تاريخ) ، ص ٩٦ .

نزاع بشأن ميراث لتاجر من أفريقية توفي في بلاد السودان دون أن يترك وصية<sup>(٧)</sup> .

ومما يُذكر أن ابا يزيد مَخلد بن كيداد الثائر على العبيدين في افريقية في منتصف القرن العاشر الميلادي كان يُشار إليه بالحبشي الأسود ، إذ ولد لتاجر من منطقة الجريد بافريقية من جارية سودانية في تادمكة . كما أن مؤسس دولة بني مدرار بسجلماسة كان من أصل سوداني<sup>(٨)</sup> . إن كل ذلك يدل على اتصال المغاربة ببلاد السودان منذ وقت مبكر وتواجهم مع أهلها .

### الإسلام في غانة وتكرور :

إن مملكة غانة القديمة كانت تشغل المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبي من الصحراء الكبرى إلى الشمال مباشرة من أعالي نهر السنغال والنيجر ، فهي تبعد نحو خمسمائة ميل إلى الشمال الغربي من أقرب نقطة عند حدود دولة غانة الحديثة ، التي اتخذت اسمها منها ، بوصفها أعرق ممالك السودان .

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن مملكة غانة القديمة ، التي بلغت أوجها في القرن العاشر الميلادي ، مستمدة مما كتبه الجغرافيون العرب وخصوصا ابن حوقل والبكري . وكان الاسم غانة يُطلق على الملوك وكذلك على البلاد وعاصمتها . وقد اندثرت مدينة غانة ، إلا أن الحفريات الأخيرة اهتمت إلى موقع الحي الإسلامي منها في كمبي — صالح (جنوبي موريتانيا) ، وعُثر فيه على حجارة عليها كتابات عربية تتضمن آيات من القرآن الكريم<sup>(٨)</sup> .

( ٧ ) بريت (Brett) ، ما يكل : «فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تناولان التجارة عبر الصحراء» بحث قدم في الندوة الخاصة بتجارة القوافل عبر الصحراء التي نظمها مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي بمدينة طرابلس الغرب في شهر أكتوبر ١٩٧٩ ، ص ١ — ٢ .

( ٧ ) أ — ابن حجاد ، أبو عبد الله محمد بن علي : اخبار ملوك بني عييند وسيرتهم ، تحقيق م . فوندرهايدن ، الجزائر ، ١٩٢٧ ، ص ١٨ .

ب — البكري ، أبو عبيد عبد الله : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق دي سلان ، باريس ١٩٦٥ ، ص ١٤٩ .

( ٨ ) Cambridge History of Africa, Vol. II, Cambridge University Press 1978, p. 674.

كان رخاء مملكة غانة يقوم بالدرجة الأولى على سيطرتها على تجارة الذهب ، ولذلك عُرفت ببلاد الذهب . يقول ابن حوقل : « وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديهم من الأموال المدخرة من التبر المثار . . . وحاجتهم إلى ملوك أودغست ماسةً من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسلام ، فانه لا قوام لهم إلا به . . . »<sup>(٩)</sup> .

إن أوفى المعلومات عن مملكة غانة في القرن الحادي عشر هي تلك التي أوردها أبو عُبيد البكري الذي فرغ من تأليف كتابه (المسالك والممالك) سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٨ م ، وهو وإن لم يبرح موطنه الأندلس ، إلا أنه استمد معلوماته عن حاضرة غانة من التجار المغاربة الذين عرفوا المدينة جيداً بحكم ترددهم عليها . يقول البكري : « ومدينة غانة مدينتان سهيلتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون ، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجتمعون فيه ، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحكمة علم . . . ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة . . . وفي مدينة الملك مسجد يصلّي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك . وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرّتهم ، وهم الذين يقيمون دينهم ، وفيها ذكاكيرهم [أي أصنامهم] وقبور ملوكهم . . . وتراجمة الملك من المسلمين ، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه . . . »<sup>(١٠)</sup> .

من هذا يتبين أن الملك وأغلبية رعيته كانوا وثنيين ، وأن الملك كان متسامحاً مع المسلمين بحيث أذن لهم ببناء مدينة خاصة بهم وفيها مساجدهم ، كما أنه اعتمد على المسلمين في إدارة مملكته ، وهذا يذكرنا بملوك النورمان في جزيرة صقلية الذين ظلوا قرناً من الزمن ، بعد استيلائهم على الجزيرة من أيدي المسلمين ، يعتمدون كل الاعتماد على المسلمين في بلاطهم وتصريف شؤونهم الإدارية والمالية<sup>(١١)</sup> .

ويتحدث البكري عن مثول الرعية أمام الملك في غانة فيقول : « فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم ، فتلك تحييتهم له ، وأما المسلمون فإنما

(٩) ابن حوقل . ص ٩٨ .

(١٠) البكري . ص ١٧٥ .

(١١) ابن جبير ، أبو الحسين محمد : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٧ — ٢٦٨ .

وإلى الغرب من مدينة غانة كانت مدينةُ تَكُرُور ، التي كانت تقع عند المجرى الأدنى لنهر السنغال غيرَ بعيدٍ عن ساحل المحيط . وكان أهلُ تَكُرُور وثنين إلى أن أسلم ملكهم وارجاني ابن رابيس المتوفى سنة ٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م . ويقول البكري إن «أهل تَكُرُور اليوم [أي سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م] مسلمون» (١٣) . إن التكاير كانوا أولَ من اعتنق الإسلام من أهل السودان الغربي وعملوا بنشاط على نشره بين القبائل المجاورة لهم ، وأصبحت التسمية (تَكُرُور) مرادفةً للسودان الغربي عند المؤرخين العرب بعد القرن الرابع عشر . وعن أثر احتكاك التكاير بالمغاربة يقول ابن سعيد «ومنْ خالط البيض [أي المغاربة] وتخصّر اتخذ لباسه من الصوف والقطن وذلك مجلوب له . . . وباديتهم عراة ، المسلمون منهم يسترون فروجهم بعظام أو جلود ، والكفار لا يسترون» (١٤) .

## المرابطون والسودان الغربي :

حتى ظهورِ المرابطين على المسرح في غرب إفريقيا في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، كان الإسلامُ ينتشر سلمياً وباضطراد في غرب إفريقيا جنوبي الصحراء على أيدي التجار المغاربة . وكانت توجد جاليات إسلامية في كثير من المراكز والأسواق على طرق القوافل عبر الصحراء من المغرب إلى بلاد غانة .

قامت دولةُ المرابطين أساساً في الطرف الغربي من الصحراء الكبرى مما يلي المغرب الأقصى جنوباً بفضل جهود الفقيه المالكي المصلح عبد الله بن ياسين ، وكانت قوامها قبائلُ صنهاجة الصحراء الثلاث لمتونة وجدالة ومسوفة . وكان طابعُ هذه الدولة منذ نشأتها ، كما يُستدل من اسمها ، الجهاد في سبيل الإسلام ونشره والقضاء على البدع وعبادة

(١٢) البكري . ص ١٧٦ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٧٢ .

(١٤) ابن سعيد ، أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي : كتاب الجغرافيا ، تحقيق اسماعيل العربي ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٩١ .

الأوثان . يقول ابن أبي زرع الفاسي إن عبد الله بن ياسين لما رأى باديء الأمر إعراضَ صنهاجة عنه «أراد الرحيل عنهم إلى بلاد السودان الذين دخلوا في الإسلام ، إذ كان الإسلام بها قد ظهر»<sup>(١٥)</sup> . وبعد أن هذَّن الأمير المرابطيُّ أبو بكر بن عمر قبائلَ صنهاجة وأقرَّ الوثام بينها «جمعَ جيوشاً كثيرةً وخرج إلى غزو بلاد السودان ، فجاهدهم حتى فتح بلادهم مسيرة ثلاثة شهور»<sup>(١٦)</sup> . ولما استقلَّ ابنُ عمه يوسف بن تاشفين في المغرب الأقصى انصرف أبو بكر «إلى الصحراء فأقام بها مدةً يحاهد الكفرةَ من السودان إلى أن استشهد رحمه الله في بعض غزواته ، رُمي بسهم مسموم فأت رحمة الله ، وذلك في شهر شعبان المكرم سنة ثمانين وأربعمائة [١٠٨٧ م] بعد أن استقام له أمرُ بلاد الصحراء إلى جبال الذهب من بلاد السودان»<sup>(١٧)</sup> .

إن جهادَ المرابطين في الجنوب أدى إلى استيلائهم على اودغست سنة ١٠٥٤ م من ملك غانة ، كما أدى إلى استيلائهم على عاصمته غانة ذاتها سنة ١٠٧٦ م والقضاء نهائياً على مملكته الوثنية . وقد أسلم أهلُها المعروفون بالسوننكي وانتشروا في المناطق المجاورة يزاولون التجارة ، وإليهم يعود الفضلُ في نشر الإسلام في مناطق كثيرة من السودان الغربي .

ومع أن السيادةَ المرابطيةَ على إقليم غانة كانت قصيرةَ الأمد ، لانشغال المرابطين بشؤون المغرب الأقصى والأندلس ، إلا أن الإشاراتِ في المصادر العربية تدل على وجود علاقات مستمرة بين المرابطين في المغرب الأقصى وبعض حكام السودان . إن الوحدةَ التي أقامها المرابطون في المغرب الإسلامي ، من الأندلس إلى بلاد السودان ، تتبيَّن من اكتشاف عددٍ من شواهد قبور إسلامية يرجع تاريخُها إلى العقد الأول من القرن الثاني عشر (١١٠٠ — ١١١٠ م) ، ويُرجَّح أن تكون قد نُحِتَتْ ونُقِشتْ كتابتها في الأندلس ، ثم نُقلت عبر الصحراء لتقام على أضرحة ملكين وملكة في مدينة كوكو/ جاو (Gao) وكانوا قد أسلموا حديثاً<sup>(١٨)</sup> .

(١٥) ابن أبي زرع الفاسي ، أبو العباس أحمد : الأنيس المطرب بروض القرطاس ، تحقيق سي . ج تورنبرغ ، أبسالة ١٨٤٣ ، ص ٧٨ .

(١٦) المصدر السابق ص ٨٦ .

(١٧) المصدر السابق ص ٨٧ .

(١٨) Cambridge History of Africa, Vol. III, Cambridge University Press 1978, p. 331.



لقد انتشر الإسلام بين قبائل غانة بعد مقدّم المرابطين ، يؤكد ذلك ما يذكره الإدريسي — بعد قرنٍ من رواية البكري — إذ يقول إن غانة « يقصدها التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها من سائر بلاد المغرب الأقصى . وأهلها مسلمون »<sup>(١٩)</sup> . ويضيف ابن سعيد أن ملكَ غانة « كثير الجهاد للكفار ، وبذلك عُرف بيته »<sup>(٢٠)</sup> .

ومما يُذكر أن المثلقال/الدينار المرابطي كان واسع الانتشار بين النصارى في شمال أسبانيا ، وقد عُرف في القشتالية القديمة والبرتغالية باسم (metcal, metical, mitical) وكلها صيغٌ مشتقةٌ من (مثلقال) العربية . فالمرابطون ، وقد امتدت امبراطوريتهم من نهر إبرو إلى نهر السنغال وسيطروا على مواطن الذهب في غانة وعلى تجارة القوافل عبر الصحراء ، ضربوا في كلٍّ من الأندلس والمغرب الأقصى دنانيرَ من الذهب الخالص ، وكان عليها إقبال كبير خارج امبراطوريتهم . وقد قلّدها الفونسو الثامن ملك قشتالة وليون ، الذي ضرب دنانير على غرارها اعتباراً من سنة ١١٧٣ م وتُعرف باسم (Le morabeti alfonsi) كما أن الدنانير ظلت تُعرف باسم (maravedis) في ممالك اسبانيا المسيحية حتى أواخر القرون الوسطى<sup>(٢١)</sup> .

ولعلّ من الجدير بالذكر كذلك أن الرحالة ابن فاطمة ، الذي نقل عنه ابن سعيد وابن خلدون كثيراً من أخبار السودان وما وراءه من الأقاليم ، هو من أبناء السودان الغربي (السنغال أو غانة) وقد عاش في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، أي قبل ابن سعيد بقليل . ولم تصلنا من كتابه الذي ألفه باللغة العربية سوى النقول التي أوردها ابن سعيد وابن خلدون ، وهي تدل على دقة اطلاعه بأحوال السودان الغربي<sup>(٢٢)</sup> .

(١٩) الإدريسي ص ٧ .

(٢٠) ابن سعيد ص ٩٢ .

(٢١) Vicens Vives, Jaime, *An Economic History of Spain*, tr. F.M. Lopez— Morillas, Princeton University Press, 1969, p. 150.

*Cambridge History of Africa*, III, p. 336.

ومما يذكر أن موزمبيق اتخذت في منتصف شهر يونيو ١٩٨٠ عملةً جديدةً بدلا من عملة إيسكودو البرتغالية ، وتعرف العملة الجديدة باسم Metical ، وهو اسم محرف عن (مثلقال) ، وهو الدينار المرابطي الذي ذاع تداوله في شبه جزيرة إيبيرية حتى القرن السادس عشر الميلادي ، أي حين بدأ استعمار البرتغال لموزمبيق .

(٢٢) مؤنس، حسين: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد ١٩٦٧، ص ٥٠٧ .

## الإسلام في مالي (١٢٣٨ — ١٤٨٨ م) :

نظراً لتحول أنظار المرابطين نحو الشمال ، ونتيجة لما نشب من خلافات بين قبائل صنهاجة الصحراء ذاتها ، عادت غانة إلى الظهور ثانية ، ولكن على نطاق أضيق رقعة وأقل ثراء من قبل ، ولم تلبث أن تجزأت ، وآل تراث غانة القديمة آخر الأمر إلى زعيم إحدى قبائل ماندي القاطنة في وادي النيجر الأعلى .

إن امبراطورية مالي ، التي ازدهرت في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين كانت نواتها الأولى قبائل ماندينكا (Mandinka) القاطنة في الرقعة الواقعة إلى الجنوب من غانة ما بين أعالي نهري النيجر والسنغال . وكانت مالي معروفة في القرن الحادي عشر وسميها البكري ملئ ، ويحدثنا عن إسلام ملكها آنذاك فيقول : « وملكهم يُعرف بالمسلماني ، وإنما سُمِّي بذلك لأن بلاده أجذبت عاما بعد عام ، فاستسقوا بقرايينهم من البقر حتى كادوا يُفنونها ولا يزدادون إلا قحطاً وشقاء ، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة ، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك ، فقال له : أيها الملك ، لو أمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام ، وأقررت برسالته ، واعتقدت شرايع الإسلام كلها ، لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك ، وأن تعم الرحمة أهل بلدك ، وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك ، فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته ، وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه ، وعلمه من الفرائض والسُنن ما لا يسع جهله ، ثم استأنأ به إلى ليلة جمعة ، فأمره فتطهر فيها طهراً سابغاً وألبسه المسلم ثوب قطن كان عنده ، وبرزاً إلى ربوة من الأرض ، فقام المسلم يصلي والملك عن يمينه يأنم به ، فصلباً من الليل ما شاء الله ، والمسلم يدعو والملك يؤمن ، فأنفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسني . فأمر الملك بكسر الدكاكير [أي الأصنام] وإخراج السحرة من بلاده ، وصح إسلامه وأسلام عقبه وخاصيته . وأهل مملكته مشركون » (٢٣) .

يبدأ تاريخ مالي بالملك سنديانا (حكَّم ١٢٣٠ — ١٢٥٥ م) الذي اتخذ لنفسه عاصمةً جديدةً هي نياني ، وتلقَّب بمنسى أي سلطان . وكانت الامبراطورية الجديدة مترامية الأطراف : من العاصمة نياني على نهر النيجر الأعلى إلى المحيط غرباً ، وكانت تمتد شرقاً

بمحاذاة وادي النيجر إلى حدود بلاد الحوسا . وكانت تضم مصادر الثروة المعدنية الرئيسية كمناجم الملح في تغازه ، ومناجم النحاس في تكدا ، ومناجم الذهب في الجنوب ، كما اشتملت على المدن التجارية الهامة وهي ولانة وجنّي وكوكو .

ويبدو أن سندياتا كان وثناً في أول حكمه ، إلا أنه لم يلبث أن اعتنق الإسلام . وحتى نهاية الإمبراطورية في أواخر القرن الرابع عشر كان كل سلاطين مالي من المسلمين ، وأدى كثير منهم فريضة الحج .

إن أشهر سلاطين مالي منسى موسى (حكم ١٣٢١ — ١٣٣٧ م) الذي اشتهر بالورع والتقوى ، وفي عهده شهدت مالي أوج رخائها وازدهارها .

أدى منسى موسى فريضة الحج إلى مكة المكرمة عام ١٣٢٤ م ، فعزز ذلك من مكانة الإسلام في البلاد ، وأشاع أخبار ثرائها بالذهب في أرجاء العالم الإسلامي بل وفي أوروبا ، واجتذب إلى بلاده الكثيرين من التجار والعلماء المسلمين الذين ساهموا في تنمية البلاد اقتصادياً وثقافياً .

وفي الطريق إلى مكة ، مر منسى موسى وركب الغفير بأوجلة وسرت ثم توجه بالطريق الساحلي إلى القاهرة . وقيل إنه اصطحب معه مائة حمل ذهباً أنفقها في سفرته . وقد قدم للخزانة السلطانية في القاهرة حملاً من التبر ، ولم يترك أميراً ولا ربّ وظيفة إلا ونفحه بالذهب ، مما أدى إلى هبوط سعر الذهب في مصر<sup>(٢٤)</sup> .

واصطحب منسى موسى معه عند عودته من الحج عدداً من العلماء المسلمين ، وابتاع جملة من الكتب الدينية ليوفر لبلاده الثقافة الإسلامية ، وفي أثناء مقامه بمكة المكرمة اتصل بمنسى موسى الشاعر والمهندس الأندلسي الأصل أبو اسحاق ابراهيم الساحلي (توفي في تمبكتو وفيها ضريحه) واصطحبه السلطان معه إلى مالي وكلفه بتشييد عدد من المساجد والقصور في تمبكتو وكوكو وغيرها ، فشيدها بالآجر الذي لم يكن معروفاً من قبل في السودان ، وأدخل إلى السودان الغربي طراز البناء المغربي الأندلسي .

(٢٤) القلقشندي ، أبو العباس أحمد : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ، القاهرة (بدون تاريخ) ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

وقد عمل منسى موسى على توطيد علاقاته بالممالك الإسلامية في مصر وتونس والمغرب الأقصى وكان للتكرارة ، كما عُرف أهل مالي ، جالية كبيرة في مصر ، وخصّصن في الجامع الأزهر رواق للتكرارة عُرف باسمهم <sup>(٢٥)</sup> .

وقد نُشرت في جزيرة ميورقة في أواخر القرن الرابع عشر مجموعة من الخرائط لإفريقيا ظهرت فيها لأول مرة مواقع كتمبكتو وكوكو في مالي ، التي كان قد تناهى إلى مسامع الأوروبيين أنها أسواق غنية بالذهب ولكنها نائية ، ومن هنا جاء التعبير الإنجليزي (from here to Timbuktu) للدلالة على مكان بعيد جدا <sup>(٢٦)</sup> . وأهم هذه الخرائط الميورقية المصوّر القبطالاني (Catalan Atlas) لأبراهام كريسك (Abraham Cresque) الذي أذاع شهرة منسى موسى في أوروبا في وقتٍ تناقص فيه كثيرا احتياطي أوروبا من الذهب ، فاتجة تفكير الناس إلى إفريقيا باعتبارها مصدر الذهب الوارد إلى أوروبا عن طريق بلدان المغرب <sup>(٢٧)</sup> .

وبما يذكر أن التسمية ماندنج (Manding) تشمل اليوم عدداً من شعوب غرب إفريقيا تكلم لهجات مشتقة من نفس اللغة التي استعملت في كتابتها حروف عربية بشيء من التحوير . ويذكر القلقشندي أن كتابة أهل مالي بالخط العربي على طريقة المغاربة <sup>(٢٨)</sup> . ويقول الدكالي إن لباس أهل مالي عائم بجنك مثل المغرب ، ولباسهم شبيه بلباس أهل المغرب — جباب ودراربع بلا تفريج . ويركب أهل مالي الخيول بالسروج ، وهم في غالب أحوالهم في الركوب كأنهم العرب <sup>(٢٩)</sup> .

لدينا مادة وفيرة عن مالي في منتصف القرن الرابع عشر وعن سلطانها منسى سليمان شقيق منسى موسى . فبالإضافة إلى ما ذكره العسري ، لدينا معلومات من شاهد عيان هو

(٢٥) عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٢٣ .

(٢٦) Collins English Dictionary, London 1979, p. 1520.

(٢٧) Bovill. E. W., The Golden Trade of the Moors, Oxford University Press 1970, p. 109

(٢٨) القلقشندي ٢٩٨/٥ .

(٢٩) المصدر السابق ٢٩٩/٥ .

الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة الذي أمضى أكثر من تسعة شهور في زيارة مالي (٢٠ - ١٣٥٣ م) .

إن رواية ابن بطوطة تدل على أن الإسلام كان قد توطّد في مالي ، ومع ذلك فإن السلطان كان يراعي العادات والتقاليد المحلية المنتشرة بين الوثنيين من رعيته . وقد أُعجب ابن بطوطة باستتاب الأمن والعدالة في مالي ، كما أُعجب بتدين القوم وأداؤهم الصلوات وحفظهم للقرآن الكريم .

ومما يدل على عدم وجود أي تمييز عنصري عند المسلمين ما ذكره ابن بطوطة من أن ابن كبير جماعة البيضان (أي المغاربة) في عاصمة مالي — محمد ابن الفقيه الجزولي — كان متزوجاً من ابنة عم السلطان (٣٠) . ويلاحظ كذلك أن المساجد كانت حراماً بلجاً إليها المستجيريون من بطش الحاكم ، فابن بطوطة يذكر أن منسى سليمان غضب على زوجته الكبرى وابنة عمه قاسا إذ اتهمها بتدبير مؤامرة ضده «فخافت قاسا . . . واستجارت بدار الخطيب . وعادتهم أن يستجبروا هنالك بالمسجد ، وإن لم يتمكّن فبدار الخطيب» (٣١) وكان علماء المسلمين يبادرون إلى الإصلاح بين المتنازعين حقناً للدماء ، فابن بطوطة يذكر أنه أثناء إقامته بتكدّا توجه القاضي والخطيب والمدرس والشيخ بها إلى أميرها للإصلاح بينه وبين أمير آخر (٣٢) .

ويوجز ابن بطوطة محاسن السودان فيقول : «فن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم . . . ومنها شمول الأمن في بلادهم . . . ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ، ولو كان القناطير المقتنرة ، إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقّه . ومنها مواظبتهم للصلوات والتراحم لها في الجماعات ، وضربهم أولادهم عليها . وإذا كان يوم الجمعة ولم يكرّر الإنسان إلى المسجد ، لم يجد أين يصلّي لكثرة الزحام . ومن عادتهم أن يبعث كل انسان غلامه بسجاده فيسقطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد . . . ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة ولو لم يكن لأحدهم إلا قبيص»

(٣٠) ابن بطوطة ، أبو عبد الله محمد : رحلة ابن بطوطة ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ٦٦٥ .

(٣١) المصدر السابق ص ٦٧١ .

(٣٢) المصدر السابق ص ٦٧٩ .

خَلَقَ غَسْلَهُ وَنَظَّفَهُ وَشَهِدَ بِهِ الْجُمُعَةَ . وَمِنْهَا عَنَّا يَتُهُمْ بِحِفْظِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ ، وَهُمْ يَجْعَلُونَ لِلْأَوْلَادِ هُمْ الْقِيَوَدَ إِذَا ظَهَرَ فِي حَقِّهِمُ التَّقْصِيرُ فِي حِفْظِهِ ، فَلَا تَفُكُ عَنْهُمْ حَتَّى يَحْفَظُوهُ . . . . (٣٣) .

### الإسلام في امبراطورية سنغاي (١٤٦٨ — ١٥٩١ م) :

كان من نتيجة الضعف الذي أصاب امبراطورية مالي بعد وفاة منسى سليمان (ت ١٣٦٠ م) ، بسبب المنازعات بين افراد البيت المالك ، أن استقلَّ أحدُ اقاليمها وهو سنغاي ، وأخذت مملكةُ سنغاي في التوسع على حساب مالي في القرن الخامس عشر .

كان أولَ من أسلمَ من ملوك سنغاي القديمة كوساي ، كان ذلك سنة ١٤٠٠ هـ / ١٠١٠ م ، وسمي بلغة سنغاي مُسلم — دام ( Muslim - Dam ) ، ومنه يُفهم أنه اعتنق الإسلامَ مختاراً لا مكرهاً . ومن بعده كان ملوك سنغاي كلُّهم يحملون أسماء إسلامية (٣٤) .

ويمكن اعتبار سنِّي علي مؤسسَ امبراطورية سنغاي ، وهو الذي استولى على تمبكتو سنة ١٤٦٨ م من أيدي الطوارق ، وكان قاسياً في معاملته لسكانها وفقهاها مما جعل مؤرخي تمبكتو يحملون عليه ويشككون في إسلامه . وقد اتخذ سنِّي علي عاصمةً له مدينة كوكو (Gao) ، على منحنى نهر النيجر ، وهي تبعد نحو سبعمائة كيلو متر شرقاً من نيامي عاصمة مالي .

وفي سنة ١٤٩٣ م ، استولى على السلطة أحدُ القادة العسكريين هو محمد توري ، فأسس أسرةً حاكمةً عُرِفَتْ باسم اسرة أسكيا كما عُرِفَ هو باسم أسكيا محمد . وقد بلغت سنغاي ذروة قوتها وازدهارها في عهد أسكيا محمد (حكَّم ١٤٩٣ — ١٥٢٨ م) وزادت رقعتها على رقعة امبراطورية مالي ، وامتدت حدودها إلى المغرب الأقصى تقريبا وشملت مناجم الملح في تغازه ، وكانت أراضيها شرقاً تشمل بلادَ الحوسا وتتصل بأراضي سلطنة بورنو (٣٥) .

(٣٣) المصدر السابق ص ٢ — ٦٧٣ .

(٣٤) Arnold, Thomas, *Preaching of Islam*, London 1935, p. 318.

(٣٥) Oliver and Fage, *A Short History of Africa*, p. 91.

كان أسكيا محمد متحمساً للإسلام وعلمائه ، ومع ذلك فقد أبدى تسامحاً نحو الوثنيين من رعاياه ، ولم يحلِّهم على الإسلام . وتمثل الخدمة التي أسداها أسكيا محمد للإسلام في المقام الأول في تنمية تمبكتو كمركز للعلوم الإسلامية واتخاذ الإسلام ديناً رسمياً للامبراطورية . وتوافد طلبة العلم والفقهاء على تمبكتو بأعداد كبيرة نظراً لما لقوه من تشجيع ورعاية من جانب أسكيا محمد الذي كان كثيراً ما يزور العلماء المسلمين في تمبكتو ويستشيرهم (٣٦) .

وكما فعل منسى موسى من قبله ، قام أسكيا محمد بالحج إلى مكة المكرمة سنة ١٤٩٧ م . وأثناء مقامه بمكة المكرمة ، وهبَ مائة ألف دينار ذهباً على سبيل الصدقة ، وأوقف مثلها على بناء نزلٍ يقيم فيه الحجاجُ من بلاد السودان . وفي مكة المكرمة ، قلَّده شريفُ مكة العباس وخلافة بلاد تکرور ، أي السودان الغربي ، فكان ذلك مما عزَّز من مكانة أسكيا محمد في أعين العلماء ورجال الدين . وزاره الصقلي ، ابن أخ الشريف ، في تمبكتو سنة ١٥١٩ م حيث تزوج وعُرفت ذريته بالشرقاء عند السودان (٣٧) .

وكان الفقيهُ والمصلحُ التلمساني الشهير محمد بن عبد الكريم المغيلي على اتصال بأسكيا محمد الذي دعاه لزيارة كوكو سنة ١٥٠٢ م . ويُعدُّ الفقيه المغيلي من كبار علماء السودان الغربي في القرن السادس عشر ، وكان قد أمضى أيام شبابه في توات في وسط الصحراء حيث كان أكبر داعية للإسلام بين قبائل الطوارق ، ثم انتقل إلى بلاد الحوسا واستمر في دعوته . وقد وجَّه إليه أسكيا محمد بعضَ الأسئلة عن عدد من الأمور الدينية ، وخصوصاً حول من يستشير ، وكيف يقرر ما إذا كان شخصٌ ما كافراً ، وكيف يشرِّع للمسائل الاجتماعية بمقتضى الشريعة الإسلامية . وقد أعدَّ المغيلي إجاباتٍ مسهبةً استُسخِرت وذاعت شهرتها في أرجاء امبراطورية سنغاي وفي بلاد الحوسا . وكان لآراء المغيلي هذه أثر مباشر بعد ثلاثة قرون على الزعيم الفولاني عثمان دان فوديو ، الذي استند إليها في تبرير

Trimingham, J. Spencer, *A History of Islam in West Africa*, Oxford (٣٦) University Press 1970, pp. 97-98.

Ajayi, J. F. Ade. Espie, Ian (Editors), *A Thousand Years of West African History*, Ibadan University Press 1970, p. 123. (٣٧)

الجهاد الذي أعلنه في أوائل القرن التاسع عشر<sup>(٣٨)</sup>. وقد عُثر في كاتسينا بشمال نيجيريا في الثلاثينات من هذا القرن على نسخة من رسالة وضعها المغيلي لأمركانو عن الترامات السلاطين وواجباتهم. «إن احتجاج السلطان عن رعيته مصدر كل شر» عبارة كثيراً ما ترد في الرسالة، فالمغيلي يحث السلطان أو الأمير على ضرورة الاتصال المباشر والمستمر برعيته<sup>(٣٩)</sup>.

### مدينة تمبكتو حاضرة إسلامية زاهرة :

تأسست على نهر النيجر الأعلى مدينتان قُدِّرَ لهما في القرون التالية أن تؤثرا تأثيراً قوياً على انتشار الإسلام في السودان الغربي، إحداهما مدينة جَنِّي (Jenne) التي تأسست سنة ١٠٤٤ هـ / ٣ م ، والتي قُدِّرَ لها أن تصبح مركزاً تجارياً مهماً ، والمدينة الثانية هي تمبكتو ، المركز المهم لتجارة القوافل مع بلاد المغرب ، وقد تأسست حوالي سنة ١١٠٠ م على أيدي الطوارق. وقد كانت تمبكتو مدينة إسلامية منذ البداية ، وكما يقول السعدي ، لم تدنسها عبادة الأوثان ، ولم يُسَجَّدَ فيها لغير الرحمن قط . وأصبحت تمبكتو في القرن السادس عشر متناً للعلوم والثقافة الإسلامية في السودان الغربي ، وتوافد عليها الطلبة والفقهاء مدفوعين بما كانوا يلقونه فيها من تشجيع ورعاية<sup>(٤٠)</sup>. وقد بلغ عدد المدارس القرآنية في تمبكتو في أواخر القرن السادس عشر مائة وخمسين مدرسة<sup>(٤١)</sup>.

إن العلوم الإسلامية ظلت مزدهرة في تمبكتو إلى حين وقوع الحملة المراكشية سنة ١٥٩١ م ، وهي الحملة التي أدت إلى انهيار إمبراطورية سنغاي ، وخلقت وضعاً اقتصادياً واجتماعياً لا يشجع على متابعة التحصيل وطلب العلم<sup>(٤٢)</sup>. كانت تمبكتو يومئذ لانظير لها في البلدان من بلاد السودان إلى أقصى بلاد المغرب . . . [وكان أهلها من أكثر الناس

(٣٨) المصدر السابق ص ٣ — ١٢٤ .

عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الإسلامية السودانية . . . ص ١٤٠ .

(٣٩) Bovill, P. 141.

(٤٠) Arnold. PP. 318-9.

(٤١) Trimmingham P. 98, n.1.

(٤٢) Ajayi and Espie, P. 124.



تلفظاً بطلبة العلم وإعانتهم . . . كثر قراؤها وأدباؤها من كوكو إلى جنبي» (٤٣) .

لقد ظلت المراكز الحضارية بالسودان الغربي حتى القرن السادس عشر هي المدن التي كان يفد إليها ويقطنها كثير من تجار المغرب . وفي ذلك القرن بلغت تمبكتو أوجها الحضاري ، واصطبغت مبانيها بالطابع المعماري المغربي الأندلسي ، كما نقله إليها الأديب والمهندس الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم الساحلي (٤٤) . وتمبكتو « ما أتنها العمارة إلا من المغرب سواء في البيانات أو المعاملات » (٤٥) .

ضمت تمبكتو آنذاك ثلاثة مساجد كبيرة أشهرها مسجد سنكري الذي كان بمثابة جامعة للسودان الغربي كله . وتوارد على تمبكتو عدد من الأساتذة من بلدان المغرب من أبرزهم محمد بن عبد الكريم المغيلي ، وسيدي يحيى التادلسي . ويلاحظ الدكتور عبد القادر زبادية « أن عدداً من المؤلفات المغربية عُرفت في تمبكتو خلال تلك الفترة ولم تُعرف في المشرق مثل جامع المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي في المنطق ، فقد كانا من بين المصنفات التي كان يتناولها المدرسون بالشرح لطلابهم في مساجد تمبكتو » (٤٦) .

وقد زار تمبكتو في أوائل القرن السادس عشر الحسن بن محمد الوزان — المعروف لدى الأوروبيين باسم ليو الإفريقي (Leo Africanus) — وهو عربي غرناطي المولد مغربي النشأة ، وساهم في كتابه عن وصف إفريقيا في التعريف بالسودان الغربي الذي اشتهر عند الأوروبيين إذ ذاك بوفرة الذهب . يقول الوزان إن أفضل الخيول تأتي من المغرب ، وبمجرد ما يسمع صاحب تمبكتو عن وصول تجار مغاربة إلى المدينة ومعهم الخيول ، كان يأمر بإحضار عدد منها ، فيختار لنفسه أجود حصان منها ، ويدفع فيه ثمناً سخياً (٤٧) .

ويضيف الوزان أن في تمبكتو عدداً كبيراً من العلماء والفقهاء ، وهم يلقون كل رعاية

(٤٣) كمت ، محمود : تاريخ الفتاش ، باريس ١٩٦٤ ، ص ١٧٩ .

(٤٤) زبادية ، عبد القادر : « ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو » ، مجلة (الأصالة) ، العدد ٥٣ (١٩٧٨) ، الجزائر ، ص ١٠ ، الحاشيتان ٣ و ٤ .

(٤٥) السعدي ، عبد الرحمن : تاريخ السودان ، باريس ١٩٤٦ ، ص ٢١ .

(٤٦) زبادية : « ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو » ، ص ١٢ ، ١٤ الحاشية رقم ٢٦ ، ص ١٥ الحاشية رقم ٢٨ .

(٤٧) Bovill, PP. 147-8.

من السلطان . وتصل إلى المدينة من المغرب مخطوطات وكب متنوعة ، وتباع بأثمان تفوق أثمانَ غيرها من السلع<sup>(٤٨)</sup> .

ولعلَّ أوفى ما وصلنا من مصادرَ خاصة بإمبراطورية سنغاي في القرن السادس عشر كتابُ ( تاريخ السودان ) الذي صَنَّفه عبدُ الرَّحْمَنِ السَّعْدِي من أبناء تمبكتو ، وهو ينحدر من أسرة سودانية تمتُّ إلى أصول مغربية ، وقد ألف كتابَه باللغة العربية ، التي كانت لغةَ الثقافة آنذاك في السودان الغربي<sup>(٤٩)</sup> . ثم (كتابُ الفتاش) الذي ألفه محمود كعت التنبكتي . وما يزيد من قيمة هذين الكتابين «أنهما يتصدیان لحقائق وأحداثٍ شهدها العالمان ، وخبراتٍ عاشها، كما حرصا في نفس الوقت ، بطبيعة اشتغالها بالثقافة والعلم ، على تسجيل صور الحياة الدينية والعلمية ومراكز الثقافة التي كانت منتشرة في عهدهما»<sup>(٥٠)</sup> .

وختاما للبحث ، لا بدُّ من الإشارة إلى مؤرخ تمبكتو وعالمها الكبير أحمد بابا التنبكتي (ت ١٦٢٧ م) ، الذي عاش في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر . فقد وُلِدَ في تمبكتو ، وهو ينتمي لأسرة أقيمت من قبيلة جُدالة الصنهاجية . وكان أباه كَلِّهم أئمة وقضاة في تمبكتو في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وسرعان ما اشتهر فقيهاً في بلاده .

ولما تعرَّضت تمبكتو للغزوة المراكشية سنة ١٥٩١ م ، رفض أحمد بابا الاعترافَ بسلطة سلطان المغربي مولاي أحمد المنصور السعدي ، فاعتُقلَ بتهمة التحريض على الثورة ، ونُقلَ إلى مدينة مراكُش حيث أُجبر على الإقامة فيها . وفي مدينة مراكُش ، أخذ أحمد بابا في القاء دروس في الفقه والحديث وفي إصدار الفتاوى .

وفي سنة ١٦٠٧ م ، سُمح له بالعودة إلى مسقط رأسه ، فأدى فريضة الحج ، ثم عاد إلى تمبكتو ، وفيها توفي سنة ١٠٣٦ هـ/ ١٦٢٧ م .

وقد ألف أحمد بابا نحو خمسين مصنفًا في الفقه المالكي والنحو ومواضيعَ أخرى ،

(٤٨) المصدر السابق ص ١٤٨ .

(٤٩) جمال زكريا قاسم : الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٦٠ .

(٥٠) المصدر السابق ص ١٦٢ .



## النقود العربية إنتشارها وأثرها في أوروبا في القرون الوسطى

تمهيد :

إن قيام الدولة العربية المترامية الأطراف في رقعة شاسعة امتدت من الصحراء الكبرى وأقاليم السودان جنوباً إلى تخوم روسيا وأوروبا الجنوبية شمالاً ، ومن أواسط آسيا شرقاً إلى البحر المحيط غرباً كان حافزاً قوياً على النشاط التجاري وتبادل السلع بين شعوب هذه المناطق ، كما كان لازدياد الطلب في المدن الإسلامية على المواد الأولية أثر حافز لاقتصاد أوروبا ، مما أدى إلى تنشيط التجارة وتداول العملات ونشوء المدن <sup>(١)</sup> . إن الكميات الوفيرة من النقود العربية التي تم العثور عليها في أماكن نائية ، وبخاصة في اسكندناوه ومنطقة بحر البلطيق وأودية الأنهار في روسيا ، دليل ملموس على قيام تجارة واسعة بين العالم الإسلامي وهذه المناطق النائية . والنقود ، كالأثار ، تساعد المؤرخ على ضبط الأسماء والتواريخ ، وتعطي فكرة عن الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، ولذلك فإن هذه النقود العربية تُعتبر مصدراً مهماً لمؤرخي تلك الأقطار في أيامها الأولى .

لقد كان للدينار العربي أثر كبير على اقتصاد أوروبا ، ولعب دوراً رئيسياً في المبادلات التجارية الدولية ، وقُلِّدَ الأوروبيون في عملاتهم كالفلورين والدوقه الإيطاليتين ، كما قُلِّدَ الصليبيون في المشرق الدنانير الفاطمية . وانتشرت النقود العربية خارج نطاق العالم الإسلامي ، فأصبحت منافسة قوية للعملة البيزنطية في جنوب روسيا وغرب أوروبا <sup>(٢)</sup> . كان الغرب يفتقر إلى الذهب ، بينما توفرت مصادره في الدولة العربية وخاصة ذهب السودان الغربي ، الذي كان عاملاً مهماً في الرخاء والازدهار اللذين تمتعت بهما الدول التي

( ١ ) Lombard, p. 234.

( ٢ ) المصدر السابق ص ٢١٢ . EI<sup>2</sup>, II, p. 298.

تعاقبت في شمال افريقيا ، في سجلماسة وفاس وتيهرت والقروان ومراكش وتلمسان . وقد احتكر الفاطميون في القرن العاشر الميلادي ذهب السودان بعد سيطرتهم على بلاد المغرب ، وجمعوا ثروات طائلة ساعدتهم في فتح مصر<sup>(٣)</sup> . وفي عهدهم انتشر استعمال ربيع الدينار المعروف بالرباعي في صقلية ، وانتقل منها إلى مدن جنوب إيطاليا حيث عُرف باسم (Tari d'oro) ، وظل الرباعي متداولاً في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا حتى بعد انتهاء سيادة العرب على الجزيرة ، كما كانت الدنانير المرابطة والموحدة هي العملة المتداولة في ممالك اسبانيا المسيحية ، حتى بعد تقلص نفوذ المسلمين وأراضيهم في الأندلس .

وفي شمال شبه جزيرة إيبرية ، ظهرت عملة تعرف باسم (Mancus) (وهي من العربية منقوش) وهي تسمية شاعت في بعض الممالك المسيحية في اسبانيا للدينار العربي ، الذي أخذت هذه الممالك في محاكاته في فترة ملوك الطوائف<sup>(٤)</sup> .

أما الدينار أو الميثقال المرابطي ، فكان واسع الانتشار وعليه إقبال كبير في ممالك اسبانيا المسيحية ، وقد عُرف في القشتالية القديمة والبرتغالية باسم (Metcal, metical, mitical) وكلها صيغ مشتقة من (مثقال) العربية<sup>(٥)</sup> . فالمرابطون ، وقد امتدت رقعة إمبراطوريتهم من نهر إيرو شمالاً إلى نهر السنغال جنوباً ، وسيطروا على مواطن الذهب في غانة وعلى تجارة القوافل عبر الصحراء ، ضربوا دنانير من الذهب الخالص ، وكان عليها إقبال كبير في داخل إمبراطوريتهم وخارجها . وقد قلدها الفونس الثامن ، ملك قشتالة وليون ، ف ضرب دنانير على غرارها سنة ١١٧٣ م عُرفت باسمه (Le morabeti alfonsi)<sup>(٦)</sup> .

وكالدينار ، كان للدرهم العربي تأثير اقتصادي كبير على بيزنطة والغرب . والعملة البيزنطية الفضية المعروفة باسم (Miliaresia) التي بدىء بسكها في أوائل القرن الثامن الميلادي ، كانت بوحى من الدرهم الأموي . لا بل إن كثيراً من الدراهم البيزنطية في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ضربت على سكك ضرب الدراهم العربية ذاتها<sup>(٧)</sup> .

( ٣ ) Lombard, pp. 101, 115.

( ٤ ) *El<sup>2</sup>, II*, p. 298.

( ٥ ) Stern, "Tari", p. 200, n. 75.

( ٦ ) Vicens, *An Economic History of Spain*, p. 150.

( ٧ ) *El<sup>2</sup>, II*, p. 320.

وأصبح من المؤكد الآن ما كان للدرهم العربية من أهمية بالغة في التجارة بين أراضي الخلافة في المشرق من جهة ، وبين روسيا وشرق أوروبا وبلاد اسكندناوه من جهة أخرى ، بعد العثور على كميات كبيرة في هذه المناطق من دفائن الدراهم العربية ، وتراوح تواريخُ ضربها ما بين سنة ٨٠٠ م وسنة ١١٠٠ م . كما تم العثورُ في إنجلترا وفرنسا على عدد أقل من هذه الدراهم <sup>(٨)</sup> .

## اسكندناوة وشمال أوروبا :

تُعرف الفترة ما بين سنة ٨٠٠ م وسنة ١١٠٠ م في تاريخ اسكندناوه بعصر الفايكنج أو النورسمين ، وهم سكان اسكندناوه الذين نشطوا بحراً آنذاك فأغاروا على كثير من سواحل أوروبا الشمالية والغربية والجنوبية والجزر القريبة منها واستقروا في بعضها . كان هؤلاء الشماليون أو الفايكنج (Norsemen/Vikings) ، الذين أطلق عليهم أهل الأندلس اسم الجوس ، يقدرون الفضة ويسعون جاهدين لاقتنائها . فكانوا يخبئونها ، أو يترنون بها ، ويستعملونها لشراء السلع ، ويدفنونها في قبورهم . وقد عُثر خلال القرنين الماضيين على كميات هائلة من الدراهم الفضية العربية في دفائن (hoards) في أكثر من ألف موقعٍ معظمها في جزر بحر البلطيق وفي شرق بلاد السويد وقرب ضفاف الأنهار في روسيا ، إذ كان الفايكنج يتاجرون مع المسلمين عن طريق روسيا وأنهارها وخاصة نهر الفولجا . وكان التجار المسلمون يشتررون منهم الفراء والجلود والعنبر والعبيد الذين كان الفايكنج يحصلون عليهم عن طريق الإغارة .

كان المصدرُ الرئيسيُّ للدراهم الفضية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين العالم الإسلامي ، وتُعرف هذه الدراهمُ العربيةُ عند علماء النُميات بالنقود الكوفية (Cufic) لأن الكتابةَ عليها بالخط الكوفي . وما يزيد من أهمية هذه الدراهم العربية لدى الباحثين أنها تحمل سنواتِ الضرب بخلاف العملات الأوروبية التي كانت خلواً منها . وقد عُثر حتى الآن على حوالي ٦٢,٠٠٠ قطعة نقدية عربية في بلدان اسكندناوه ، وهي مضمومة في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين <sup>(٩)</sup> .

( ٨ ) المصدر السابق ص ٣٢٠ .

( ٩ ) Sawyer, *The Age of the Vikings*, p. 86.

ومع أن معظم هذه الدفاتن من الدراهم الفضية ، إلا أن العملة الذهبية العربية لم تكن غير معروفة . فقد عُثر على أكثر من أربعائة قطعة ذهبية في أجزاء كثيرة من اسكندناوه من أهمها عشرون قطعة تم العثور عليها سنة ١٨٣٤ م قرب أوصلو عاصمة النرويج ، ومن بينها دينار ضرب سنة ١٢٣٤ هـ / ٨ - ٨٤٩ م <sup>(١١)</sup> .

لقد عُثر على القليل من هذه الدراهم العربية في القبور ، ولكن معظمها كان في دفائن تحت الأرض . ومن الطريف ان دفينه تزن أربعة أرتال من الفضة عثر عليها في جوتلاند سنة ١٧٣٩ م كلب كان يحاول أن يدفن عظمة في التراب ! وعثر على دفينه سنة ١٩٣٦ م قبل صبيين كانا يلعبان في أحد المهاجر <sup>(١٢)</sup> .

وفي سنة ١٨٧٣ م عثر على ١١٧ قطعة نقدية في (Fittja) في مقاطعة (Uppland) بالسويد ، وهي من مختلف أنحاء العالم الإسلامي : تسع منها ضربت في دمشق وأصفهان ما بين سنتي ٧٠٥ و ٧٤٦ م ، وسبع وثمانون قطعة ضربت ما بين سنتي ٧٥١ و ٨٥٣ م من أيام العباسيين في مصر وإفريقية . ومن بينها كذلك قطعة ضربت في قرطبة في إمارة عبد الرحمن الداخل سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م <sup>(١٣)</sup> .

وتحمل أحدث القطع تاريخاً ، من دفينه عثر عليها في الدانمارك ، سنوات تتراوح ما بين ٩٤٢ - ٩٥٤ م ، و ٩٦١ - ٩٧٠ م <sup>(١٤)</sup> .

أما في السويد فأخراً عثر عليه من الدراهم ، مما يحمل كتابة كوفية ، قطعة تحمل سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ - ٩٧٠ م <sup>(١٥)</sup> . وأما في النرويج ، فأكثر ما عثر عليه من الدراهم يعود إلى الفترة ٩٢٥ - ٩٥٥ م .

وفي القرن العاشر الميلادي تسع رقعة الأماكن التي عثر فيها على دفائن من العملات العربية ، إلا أن معظمها ظل يتركز في شرق بحر البلطيق وشرق السويد . كما عثر على بعض الدراهم العربية في أطراف الجزر البريطانية ، أي في الأماكن التي تعرضت لغارات

(١٠) نفس المصدر ص ٨٩ .

(١١) نفس المصدر ص ٩٠ .

(١٢) نفس المصدر ص ٩٣ .

(١٣) نفس المصدر ص ١٠٤ .

(١٤) نفس المصدر والصفحة .

الفايكنجز<sup>(١٥)</sup> . وفي سنة ١٩٦٤ م ، عُثر على حطامٍ مطموٍ لإحدى سفن الفايكنجز في ( Vatusdalm ) بجزيرة أيسلنده ، وفيه درهم عليه كتابة بالخط الكوفي<sup>(١٦)</sup> .

ويلاحظُ أن معظم نقود القرن التاسع الميلادي صدر عن الخلفاء الأمويين والعباسيين . كما يلاحظُ أن ما عُثر عليه من عملات عربية في روسيا واسكندناوه في القرن العاشر الميلادي ضرب في الدولة السامانية التي كانت تستغل المناجم الغنية بالفضة في أراضيها آنذاك<sup>(١٧)</sup> .

إن آخر القطع النقدية العربية التي عُثر عليها في النرويج والدانمارك ضربت في الستين أو السبعينيات الثلاث الأولى من القرن الحادي عشر الميلادي . وأما في السويد فإنها تحمل السنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ - ١٠١١ م ، وتحمل في روسيا سنة ٤٠٣ هـ / ٢ - ١٠١٣ م . وقد تكون لأزمة الفضة في العالم الإسلامي الشرقي صلةً بنضوب ما كان ينال على شمال أوروبا من الدراهم العربية على مدى قرنين من الزمن<sup>(١٨)</sup> .

ومما يدل على اتساع حجم تجارة الفراء بين العالم الإسلامي وبين شمال أوروبا قبل القرن الحادي عشر الميلادي هذه الكميات الهائلة من النقود الإسلامية التي عُثر عليها في أجزاء مختلفة من شمال أوروبا وقرب سواحل بحر البلطيق . إن هذه النقود مصدرها التجار المسلمون الذين كانوا يدفعونها ثمناً لما يحصلون عليه من السلع الأولية وخاصة الفراء . ومن الصعب تحديد النقطة التي بلغها تجار المسلمين بحثاً عن الفراء ، إلا أن ملاحظة أحد الجغرافيين العرب بأنه في إحدى المحطات التجارية التي كان يشتري فيها تجار المسلمين الفراء كان الليل أقل من ساعة من الزمن تدل على أن بعض هؤلاء التجار لا بد وأنهم على الأقل قطعوا مسافات كبيرة إلى الشمال من أوطانهم<sup>(١٩)</sup> .

وقد وصلت بعض النقود العربية إلى المانيا في القرن العاشر الميلادي . فالرحالة الأندلسي إبراهيم بن يعقوب الطرطوشي رأى حوالي سنة ٩٧٣ م في السوق بمدينة مينز (Mainz) دراهم ضربت في سمرقند في سنتي ٣٠١-٣٠٢ هـ / ٩١٥-٩١٦ م<sup>(٢٠)</sup> .

(١٥) نفس المصدر ص ١١١ .

(١٦) Jones, A History of the Vikings, p. 277.

(١٧) Sawyer, The Age of the Vikings, p. 112.

(١٨) المصدر السابق ص ١١٦ .

(١٩) Newton, Travel and Travellers in the Middle Ages, pp. 94, 95.



لقد كان للنقود العربية تأثيرٌ على العملات المضروبة في الأراضي المتاخمة لدار الإسلام وحتى في البلاد النائية عنها . فدينار الملك أُوفا (Offa) ، ملك ميرسية (Mercia) في إنجلترا ، (حكَّم من ٧٥٧ إلى ٧٩٦ م) ، إن هو إلا تقليد للدينار العباسي المضروب عام ١٥٨هـ / ٧٧٤ م<sup>(٢١)</sup> .

### جزيرة كريت (إقريطش) والبر اليوناني :

قامت إمارة عربية أندلسية في جزيرة كريت (إقريطش) في الفترة ما بين السنوات ٢١٢ — ٨٣٥٠ / ٨٢٨ — ٩٦١ م ، أي أنها عاشت قرابة قرن ونصف القرن . وقد لعب عربُ جزيرة كريت دوراً بارزاً في ميداني التجارة والغزو البحري في منطقة بحر إيجه وشرقي البحر المتوسط .

وقد عُثِر في السنوات الأخيرة على إحدى عشرة قطعة نقدية عربية من عملة اقريطش في موضع السوق (agora) في مدينة أثينا وفي مدينة كورنث . ولعل لوجودها في أثينا صلة بالنقوش الكتابية المهمة من المسجد العربي بأثينا ، وهي النقوش التي عُثِر على قطع منها في مكان السوق وعلى مقربة منه ، مما يدل على وجود مستوطنة عربية في أثينا ، لعلها بقيت حتى أوائل القرن العاشر الميلادي . ومع أن تاريخ النقوش غير معروف على وجه التحديد ، إلا أن معظم النقود الأقریطشية التي عُثِر عليها في أثينا تعود إلى القرن التاسع الميلادي ، وفي ذلك دليل على احتمال وجود العرب في أثينا في ذلك القرن . وقد يكون هؤلاء العرب قدموا من جزيرة إقريطش غازين أو أسرى حرب أو تجاراً ، أو قد يكونون عبروا عبوراً . ومن الممكن أيضاً أن تكون القطع النقدية قد حملها من جزيرة اقريطش تجارٌ يونان أو أسرى حرب يونان بعد الإفراج عنهم<sup>(٢٢)</sup> .

(٢٠) Lombard, p. 219.

(٢١) *Legacy of Islam* (2nd Edition), p. 237 n. 1.

(٢٢) Miles, *The Coinage of the Arab Amirs of Crete*, pp. 11, 12.

Hitti, *History of the Arabs*, p. 451 n. 4.

أما بالنسبة لمدينة كورنث ، فإنه يكاد يكون من المؤكد أن بعض القطع النقدية التي عُثِرَ عليها في المدينة تعود إلى القرن التاسع الميلادي . وتشير المصادر الكتابية إلى قيام العرب بالاغارة على منطقة كورنث في سنة ٨٧٩ م ، ولعلهم احتلوا المدينة فترة من الزمن . ويعتقد عالم النُميات مايلز أن «عملات أمراء كورنث هي دليل على الأرجح على وجود صلة تجارية بين المدينة وبين جزيرة إقريطش العربية أكثر من كونها أثراً لنشاط حربي في المكان . وعلى ذلك ، فإننا نرى أن علينا إعادة النظر في الرأي التقليدي بشأن عرب جزيرة اقريطش ، وهو أنهم لم يكونوا سوى قراصنة برابرة ليس إلا ، وأن علينا أن نسلّم بأنه حتى في أثناء غزوهم لجزر بحر إيجه والبر اليوناني ، فإنهم قد يكونون على الأقل قاموا بدور وسطاء لتبادل السلع والثقافة» (٢٣) .

إن النقود العربية التي عُثِرَ عليها حتى سنة ١٩٧٠ م في جزيرة كريت وفي بلاد اليونان بلغت في مجموعها ٢٦٨ قطعة معظمها من الفلوس النحاسية . وما يُذكر أن من بينها درهماً يحمل ستة ضرب وهي «سنة خمسين وثلاثمائة» ، ومكان الضرب وهو مدينة الخندق ، حاضرة إمارة اقريطش العربية . وهذا الدرهم محفوظ في خزانة العملة الملكية بمدينة ستوكهولم ، إذ كان قد عُثِرَ عليه في السويد . ومن الغريب أنه لم يُعثر إلا على هذا الدرهم الفريد من عهد آخر أمراء جزيرة إقريطش وهو الأمير عبد العزيز بن شعيب . فكيف وصل إلى السويد ؟ يعتقد عالمُ النُميات مايلز أن من المستبعد أن يكون هذا الدرهم قد جاء عن طريق الشرق المعتادة إلى منطقة بحر البلطيق ، أما الأكثر احتمالاً فهو إمكانية وجود صلة ما بالنعمان (Anemas) ابن الأمير عبد العزيز الذي حارب في صفوف البيزنطيين ضد الأمير الروسي سفياتوسلاف (Sviatoslav) وقُتل في معركة سلسريا سنة ٩٧١ م . ولعلّ النعمان ، أو أحد رفاقه العرب الكريتيين ، كان يحمل الدرهم الصادر عن آخر أمرائهم ، فقده في ساحة القتال وعثر عليه أحد الجنود الفارانجيين من اسكندناوه ، فحمله بدوره معه عند عودته إلى بلاده السويد (٢٤) .

### صِقْلِيَّة وجنوب إيطاليا وسويسرا :

بدأ افتتاح العرب لجزيرة صقلية في عهد ثالث أمراء بني الأغلب زيادة الله الأول في

(٢٣) Miles, The Coinage of the Arabs Amirs of Crete, p. 13.

(٢٤) المصدر السابق ص ٨١ — ٨٤ .

سنة ٢٨٢ هـ / ٨٢٧ م ، وانتزعوها من أيدي الروم البيزنطيين واتخذوا بلرم عاصمة لهم . وقد ظلت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية أكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن (٢١٢ — ٤٨٤ هـ / ٨٢٧ — ١٠٩١ م) .

كانت صقلية في القرن التاسع الميلادي ولاية تابعة للأغالبة في القيروان ، ثم أصبحت تابعة للعبيدين الفاطميين في افريقية أولاً ثم في مصر . وفي عهدهم بلغت الجزيرة في القرن العاشر الميلادي أوجها الحضاري ، كما تميّزت بالازدهار الزراعي والنشاط التجاري ، وبخاصة مع افريقية ومصر ومدن جنوب إيطاليا . وكانت حاضرة الجزيرة بلرم تضاهي قرطبة الأموية عمراناً وازدهاراً .

ثم انتزع النورمان جزيرة صقلية من أيدي العرب ، وحكموها قرناً من الزمن (١٠٩١ — ١١٩٤ م) . ولما كان النورمان قلةً وحديثي عهد بالحضارة ، فإنهم اعتمدوا على العرب في الإدارة وفي الدواوين والبلاط الملكي وفي أعمال البناء والتشييد . وطوال فترة حكم النورمان لجزيرة صقلية ظلت عملاتهم تُضرب وعليها كتابة عربية بالخط الكوفي ، وبعضها يحمل التاريخ الهجريّ وعبرة (محمد رسول الله) (٢٥) .

إن عملة رجار الثاني كان عليها لقبه العربيّ تقليداً للفاطميين ، فضلاً عن لقبٍ مسيحيٍّ باللغة العربية (ناصر النصرانية) (٢٦) . وفي عهد ملوك النورمان الثلاثة الأوائل ظلّ الرُباعي — اي رُبُع الدينار — الفاطمي متداولاً ، وعلى منواله ضُربت عملة نورمانية تُعرف باسم (tari) وكانت هذه العملة كالرباعي شكلاً وقيمةً (٢٧) .

وفي بحثٍ مستفيضٍ للدكتور سامويل ستين ، يدلُّ على أن العملة المعروفة عند النصارى باسم (tari) مشتقة الاسم من الكلمة العربية (طري) ، بمعنى حديث الضرب ، وهي صفة استعملت للرباعي في لهجة صقلية العربية (٢٨) .

ويلاحظ أن الطري النورماني كان دائماً يُعرف باسم الرباعي . فالرحالة الأندلسيُّ ابنُ

(٢٥) Smith, *Medieval Sicily*, p. 17.

(٢٦) Ahmad, *A History of Islamic Sicily*, p. 63.

(٢٧) المصدر السابق ص ٦٦ .

(٢٨) Stern, "Tari", p. 180.

جبير ، الذي زار صقلية النورمانية عام ١٠٨١هـ / ٤ - ١١٨٥هـ في طريق عودته الى بلاده من تأدية فريضة الحج ، يقول إن الملك النورماني غليام [ وليام الثاني ] أمر لأصحاب الزوارق التي أغاثتهم بمئة ربايعي من سيكته (٢٩) .

وبعد النورمان ظل الطري متداولاً في عهد الملك فودريك الثاني (حكّم ١٢١٢ - ١٢٥٠هـ) ، وفي عهد شارل صاحب أنجو (حكّم صقلية ١٢٦٦ - ١٢٨٢هـ) . لا بل إن فرسان مالطة اتخذوا الطري من الفضة عملة رئيسية لهم منذ بداية حكمهم لجزيرة مالطة سنة ١٥٣٠ م ، وظلوا يستعملونه حتى استيلاء نابليون على مالطة سنة ١٧٩٨هـ .

وفي لهجة صقلية وجنوب إيطاليا ، طُلّت كلمة (tari) الى عهد قريب تعني عملة فضية قديمة . ومن إيطاليا انتقلت الكلمة الى جنوب فرنسا ، فهي في البروفنسالية في القرن الثالث عشر (tarin) ، وجمعها (taris) . ثم لما أصبحت جزيرة صقلية تابعة لأرجون ، منذ أواخر القرن الثالث عشر ، فإن من الطبيعي أن تظهر الكلمة في النصوص القطلانية حيث يرد ذكرها لأول مرة سنة ١٣٠٥هـ على صورة (tari) للمفرد و (tarins) للجمع ، وهي في القشتالية (tarin) . ثم أصبحت الكلمة تستعمل للدلالة على عملة اسبانية وفي الأمثال الدارجة (٣٠) .

وترد كلمة (طري) في عددٍ من الكتابات العربية على أوراق البردي المصرية . ففي عقد زواج مؤرخ في عام ١٢٥٩هـ / ٨٧٣هـ ترد العبارة التالية : أربعة دنانير مثاقيل طراء جِباد وازنة (٣١) .

كما ترد الصفة (طري) في أحد أرجال ابن قزمان كبير زجالي الأندلس في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ، حيث يقول في قطعة زجلية (٣٢) :

(٢٩) ابن جبير ص ٢٦٥ .

(٣٠) Stern, "Tari", pp. 189-191.

(٣١) المصدر السابق ص ١٩٧ .

(٣٢) المصدر السابق ص ١٩٩ .

في جنة نحنا بذا العينية  
مثقالا طري يسوى حبيبة  
لس نقي انا بلا شربة  
وفي سبتي قطاعة

ويوجز دكتور ستيرن بحثه القيم والمتع فيقول : « إن ( طري ) ، بمعنى نقود حديثة الضرب ، كثيراً ما كانت تستعمل لنعت العملات ، ولعلها في صقلية استعملت لنعت ربع الدينار أو الرباعي ، الذي كان العملة الرئيسية المتداولة في الجزيرة . ثم حلت الصفة ذاتها محل الموصوف ( الرباعي ) ، إما في لهجة صقلية العربية وإما حينما استعارها النصارى في جنوب إيطاليا . . . وبعد ذلك استعملت كلمة ( Tari ) في لغة التخاطب بين النصارى وفي وثائقهم اللاتينية ، بمعنى ربع دينار إسلامي . ولما بدأت مدن جنوب إيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي تضرب عملاتها تقليداً للرباعي ، عرفت هذه العملات باسم ( Tari ) . وقد قدر لهذه الكلمة أن يكون لها تاريخ حافل وطويل في فترة حكم النورمان والهوهنشتاوفن لجزيرة صقلية . كما أنها بمدلولات جديدة ظلت حية حتى القرن التاسع عشر ، لا بل وإلى يومنا هذا » (٣٣) .

وفي سويسرا عثر قرب قرية شتيكبون ( Steckbon ) على ثلاثين درهماً فضياً عربياً يحمل أقدمها سنة الضرب ١٦٩٩/٥ — ١٧٨٦ ، ويحمل أحدثها سنة ١٨٢٧/٨ — ٧٩٩ م . وكلها مضروبة في القيروان عاصمة إفريقية ، باستثناء درهم واحد ضرب في عهد مؤسس دولة الأدارسة في شمال المغرب الأقصى . ويرى بعض علماء التُميَّات أنها دخلت سويسرا عن طريق فرنسا على يد النورمان (٣٤) .

كما عثر على دفيئة أخرى من المسكوكات العربية في مودون بسويسرا ، من بينها قطعة ضربت في إفريقية سنة ١٧٠٠/٦ — ١٧٨٧ ، وقطعة ضربت في بغداد سنة ٣٦١/٨ — ٩٧٤ م . ويرى البعض أنها وصلت إلى سويسرا بطريقة سلمية ثمناً لبضائع ، بينما يرى

(٣٣) المصدر السابق ص ٢٠٧ .

(٣٤) أرسلان : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا . . . ص ٢٦٩ — ٢٧٠ .

الأمير شكيب أرسلان أن دفيئة مودون هي مما تركه العرب الذين غزوا سويسرا من جنوب فرنسا (٣٥) .

### شبه جزيرة ايبيرية

كانت العملة الوحيدة المضروبة في الأندلس منذ أواخر القرن الثامن الميلادي هي الدراهم الفضية ، إلى أن ضرب الأمير عبد الرحمن الثالث (الناصر) ، في الوقت الذي اتخذ فيه لقب الخلافة سنة ٩٢٩/٣١٦هـ أول دينار ذهبي . وكان الناصر قد بسط نفوذ خلافة قرطبة على المغرب الأقصى وسيطر بالتالي على موارد ذهب السودان فأخذ في ضرب دنانير في سجلماسة وفاس . (٣٦) . يقول ابن عذاري : « وفيها [سنة ٣١٦هـ] أمر الناصر بإقامة دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب الدنانير والدراهم . . . وأقام الضرب فيها من هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة . . . وكانت مثاقيله ودراهمه عياراً محضاً (٣٧) .

وفي عصر ملوك الطوائف (القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) بدأ صاحب برشلونة رامون برنجوير الأول سنة ١٠٣٥م في ضرب عملة باسم (mancusos) (منقوش) وهو الاسم الذي أطلقه النصاري على الدينار العادي، مقلداً بذلك عملات ملوك الطوائف في شرق الأندلس. وتفيد ملحمة السيد القنيطور (Poema del Cid) أن أمير كاريون بقشتالة ، لما طلق زوجته ، أرجعا سيوفا وبغالا من مهديهما ، إذ لم تكن عندهم نقود متداولة (٣٨) .

(٣٥) المصدر السابق ص ٢٧١ .

Lévi-Provençal, *Histoire de l'Espagne musulmane*, tome III, pp. 44, 251, (٣٦) 253.

(٣٧) ابن عذاري ٦/٢ - ٢٩٧ .

ويقول ابن حيان : « وفيها [سنة ٣١٦هـ] أمر الناصر لدين الله باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم . . . فقام الضرب فيها من لدن هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة . . . فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . » (المقتبس ، الجزء الخامس ، مدريد ١٩٧٩ ، ص ٢٤٣) .

Vicens Vives, *An Economic History of Spain*, p. 134. (٣٨)

ومن المعروف أن الدراهم كثيراً ما زُيِّفت وانقص عيارها زمن ملوك الطوائف وأصبحت تحتوي نسباً متفاوتة من النحاس مع الفضة ، إلا أن الوضع سرعان ما تبدل بعد مجيء المرابطين الذين حققوا للأندلس وحدة نقدية فضلاً عن الوحدة السياسية (٣٩) .

لقد عُثِر في السنوات الأخيرة في شلب بأقليم الغرب بجنوب البرتغال على دفينة من الدراهم تضم سبعين درهماً تتراوح تواريخ ضربها بين سنة ١٥٣هـ وسنة ٢٦١هـ (٧٧٠ — ٨٧٥م). وقد وجد أن اثني عشر درهماً منها قد نُقِبتْ بآلة حادة واضيفت إليها قطع صغيرة من الدراهم طويت عند حافتها، كما أن بعضها نُقِبَ إلا أن القطع المضافة إما أنها سقطت ، وإما أنها نُزعت منها . ويرى عالمُ النُميات مايلز أن صاحب الدفينة لعله أراد أن يحمل الدراهم الناقصة الوزن تصل إلى الوزن المطلوب ، وهو ٦٥ و ٢٠ جرام للدرهم ، وذلك بإضافة قطع صغيرة أخرى قليلة الوزن إليها (٤٠) .

وعُثِر في إنجلترا سنة ١٨٠٧ م على درهم أندلسي في أطلال دير بمقاطعة دورسيت ، وذكر الشخص الذي عثر عليه آنذاك أنه يبدو من حلقة السلك المثبتة بالدرهم أن صاحبه كان يستعمله حجاباً ، وأن من المرجح أنه دُفِنَ معه في قبره في أرض الدير . وقد تبين الآن أن الدرهم المذكور يحمل سنة الضرب وهي ٣٩٠هـ (٩٩٩ — ١٠٠٠ م) ، أي أنه ضرب في خلافة هشام الثاني (المؤيد). وهو درهم فريد ، إذ لا يتوفر مثله من تلك الفترة في مجموعات النقود ، كما أنه أكثر الدراهم التي عُثِرَ عليها في إنجلترا تأخراً زمنياً . ويستبعد الباحث دولي (Dolley) أن يكون الدرهم قد وصل إلى إنجلترا من الأندلس مباشرة ، ويرجح بأنه وصل أولاً إلى السويد ومنها جُلب عن طريق القايكنجز إلى إنجلترا (٤١) . إلا أننا لا نشاطر هذا الرأي بل نميل إلى الاعتقاد ، على ضوء ما عثر عليه من دراهم مخرومة في شلب ، بأن الدرهم المذكور لا يستبعد أن يكون قد وصل إلى إنجلترا مباشرة من غرب الأندلس ، إذ من المعلوم أنه منذ أوائل القرن التاسع الميلادي قامت علاقات تجارية عن طريق المحيط الأطلسي بين الجزر البريطانية وبين موانئ غرب الأندلس كـشَلْب ولشبونة وقصر أبي دانس/قصر الفتح (Alcacer do Sal) . وكان يؤتى

Miles, *Coins of the Spanish Muluk Al-Tawa'if*, p. VII. (٣٩)

Miles, "A Hoard of Arab Dirhems from Algarve", pp. 219-220, 223. (٤٠)

Dolley, "A Spanish Dirham Found in England", pp. 242-3. (٤١)

الى هذه الموانئ من الجزر البريطانية بالعبيد وبشُحُناتٍ من القصدير والفراء والسيوف<sup>(٤٢)</sup> .

تذكر الحوْلِيَّات القشتالية عدَّةَ عملاتٍ أُولاهَا العُملة المسماة (el maravedi de oro) (أي الدينار المرابطي من الذهب) ، نسبةً إلى المرابطين ، والعُملة الثانية هي المسماة (el dinero de plata) (أي الدينار من الفضة) وهو متوسط القيمة ، ويشار إليه أحياناً باسم (adarham) <sup>(٤٣)</sup> .

وقد قام الباحث ميسير بتحليل كياوي لعدد من النقود المرابطية بالنسبة للفترة من سنة ١٠٥٠ م إلى سنة ١٢٠٠ م ، للتدليل على صحة ما ذهب إليه المؤرخون الاقتصاديون من أن ذهب السودان الغربي لعب دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية لبلدان حوض البحر المتوسط في القرون الوسطى . وقد أثبتت هذه الدراسة الدور الكبير الذي قام به المرابطون في توزيع ذهب إفريقيا الغربية في منطقة البحر المتوسط ، حيث كان لتجارهم نشاط كبير ، كما حظيت عُملَتُهُم بسمعة كبيرة في الأوساط التجارية الدولية<sup>(٤٤)</sup> .

وقد استعمل الدينار المرابطي كوحدة نقدٍ في أوروبا المسيحية . ففي سنة ١١٦٢ م ، وعد كونت بروفانس أن يدفع للإمبراطور مبلغ ١٢٠٠٠ (marabotins) (أي دينار مرابطي) . لا بل إن الدنانير المرابطية ذاتها جرى تداولها في أوروبا الغربية . فقد عُثِرَ على دنانير مرابطية في دفائن في دير (del Camp) جنوبي مدينة طولوز ، وفي فيرنو (Vernoux) ، وفي سانت رومان<sup>(٤٥)</sup> .

وكان التجار المغاربة الوافدون على الإسكندرية يحرصون على أن يتقاضوا أثمانَ سِلَعِهِم بالعُملة المرابطية ، التي كانت بالتأكيد أكثر قيمة من غيرها من العملات المتداولة في مصر آنذاك . لا بل إن سمعة العملة المرابطية امتدت إلى أبعد من مصر شرقاً ، فثمة وثيقة صينية مؤرخة في سنة ١١٨٧ م تقول إن « (Mulapni) [وهي محرّفة عن كلمة مرابط العربية] هي

(٤٢) Lombard, pp. 201, 233.

(٤٣) Menéndez Pidal, *La España del Cid*, p. 788.

(٤٤) Messier, "The Almoravids: West African Gold...", p. 31.

(٤٥) المصدر السابق ص ٣٣ .



كانت العملة الفاطمية في مصر وشمال إفريقيا تحتل مكاناً الصدارة من حيث جودة العيار إلى أن قامت دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وأخذت تضرب دنانير ذهبية ذات عيار ممتاز في سجلماسة ، ثم في أغات وفاس ومراكش ونول لمطة وتلمسان . ولعلَّ السبب في ذلك أن الدنانير أو المثلثات المرابطية ضربت من ذهب كان يتمتع بشهرة عالمية آنذاك ، وهو ذهب غانة الذي اشتهر بكونه أجود أنواع الذهب وأنقاها . وكان المرابطون قد استولوا على أودغست سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٥ م ، ثم على سجلماسة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٦ م ، وهما المحطتان الرئيسيتان لاستقبال ذهب السودان الغربي . فلم يكن من قبيل الصدفة أن أخذ المرابطون بعد سنتين من استيلائهم على المدينتين في ضرب دنانيرهم في دور السكة في سجلماسة (٤٧) .

يذكر البكري أن دنانير أهل تادمكة « تُسمى الصلح لأنها ذهب محض غير مختومة » (٤٨) ، ولعل هذه « الدنانير الصلح » كانت تنقل شمالاً كما هي ، وتُطبع بالكتابات المرابطية ، إذ ليس ثمة ما يدل على تداولها في السودان الغربي ذاته . فالهالة التي كانت تحيط بسمعة ذهب غانة انتقلت بعد إلى الدنانير المرابطية (٤٩) . وكان على هذه الدنانير طلب كبير في كافة بلدان حوض البحر المتوسط . عليها اسم «دولار القرون الوسطى» .

وكان لقيام دولة الموحدين في أعقاب دولة المرابطين أثره كذلك على نظام العملة في الممالك النصرانية في شمال شبه جزيرة إيبيرية . فظهرت العملة المعروفة باسم (dobla)

(٤٦) المصدر السابق ص ٣٤ .

(٤٧) المصدر السابق ص ٤١ .

(٤٨) البكري ص ١٨١ .

(٤٩) Messier, "The Almoravids: West African Gold...", p. 37.

(٥٠) يقول ابن خلدون « ولما جاءت دولة الموحدين ، كان مما سَنَّ لهم المهدي اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل ، وإن يُرمَّ في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه » — المقدمة ص ٢٦٢ . ويقول علي بن يوسف الحكيم « وكانت الدراهم قبل ظهور الدولة الموحدية كلها مدورة ، فأمر المهدي بأن تكون دراهمة مركنة » . وكان الدينار الموحي ضعف الدينار العادي في الوزن ، ولهذا عرف باسم (Dobla) عند النصارى — الدوحة المشبكة ، ص ١١١ والحاشية رقم ١ بنفس الصفحة .

(ضعف الدينار) وحلّت محلّ الدينار المرابطي<sup>(٥٠)</sup>. وكانت نصف الدولة تُعرف باسم (mazmudina) وهي مشتقة من اسم قبائل المصامدة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين. وقد ظلّت هذه الدولات التي يتداولها النصارى تضرب في أراضي المسلمين إلى أن هُزم الموحّدون في وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة ١٢١٢/٥٦٠٩م فاضطرّ الفونس العاشر بعد ذلك إلى ضربها في مملكته. وقد ظلّت الدولة مع ذلك متداولة كوحدة للذهب في قشتالة حتى زمن فرديناند وإيزابيلا، أي إلى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. ومما يُذكر أنه بحلول الدولة محلّ الدينار المرابطي أصبحت التسمية (maravedi) تُطلق على العملة الفضية في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي<sup>(٥١)</sup>.

ولعلّ مما يجدر التنويه به ختاماً لهذا البحث وجود عددٍ من المفردات العربية الاقتصادية في اللغات الأوروبية، فهي دليل على أنه كان للتجارة والتقاليد العربية الإسلامية تأثير عميق على الحياة الاقتصادية وتطورها في البلدان الأوروبية. فالكلمة الإيطالية (zecca) مشتقة من (دار السكة)، وكلمة (cheque) مشتقة من كلمة (صك) العربية، وكانت الصكوك معروفة، في المغرب على الأقل، منذ وقت مبكر، فابن حوقل يقول «ولقد رأيتُ صكاً كُتبَ بدّين على محمد بن أبي سعدون بأودغست، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار» — كان ذلك في منتصف القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد<sup>(٥٢)</sup>. بل إن الكلمة (sterling) الإغريقية الأصل وصلت اللغة الإنجليزية عن طريق العربية. والمصطلح الجمركي (tariff) من العربية (تعريف)، ولعلّ كلمة (traffic) بمعنى التجارة هي أيضاً مشتقة من الكلمة العربية (تفريق)<sup>(٥٣)</sup>.

وفي اللغة الإسبانية العديد من التسميات لمناصب ذات صبغة ماليّة وتجارية، ما زال بعضها مستعملاً، وهي من أصول عربية، منها: (almojarife) من (المشرف) وكان في العهد الإسلامي مراقباً للخزانة والشؤون المالية، و (alcabala) (وفي الفرنسية gabelle) من كلمة (القبالة) العربية، وكانت ضريبة تُفرض على

(٥١) Vicens Vives, Ch. I in Spain in the 15th Century, p. 45.

(٥٢) ابن حوقل ص ٦٥.

(٥٣) Legacy of Islam (First Edition), p. 105.

المبيعات في الأسواق ، و (alfarda) من العربية (الفرضة) ، وكانت ضريبة  
فرضها المربطون على اليهود ، للمساعدة في تجهيز الحملات العسكرية لأغراض  
الجهاد (٥٤).



Lèvi-Provençal, *L'Espagne musulmane...*, p. 98 n. 2. (٥٤)

## ثبت بالمصادر والمراجع

### أ — مصادر ومراجع عربية

- ابن جبير ، أبو الحسين محمد : رحلة ابن جبير ، بيروت ١٩٦٨ .  
ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن علي : صورة الأرض ، بيروت (بدون تاريخ) .  
ابن خلدون ، عبد الرحمن : المقدمة ، القاهرة (بدون تاريخ) .  
ابن عذاري ، أبو العباس : البيان المغرب ، الجزء الثاني ، بيروت ١٩٥٠ .  
أرسلان ، شكيب : تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .  
البكري ، أبو عبيد عبد الله : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، قطعة مستخرجة من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق دي سلان ، باريس ١٩٦٥ .  
الحكيم ، علي بن يوسف : الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة ، تحقيق حسين مؤنس ، مدريد ١٩٦٠ .

### ب — مراجع أجنبية

- Ahmad, Aziz, *A History of Islamic Sicily*, Edinburgh 1975.  
Dolley, R. H. M., "A Spanish Dirham Found in England," *Numismatic Chronicle* 6th series, XVII, 1957.  
*EI*<sup>2</sup> = *The Encyclopaedia of Islam* (New Edition), Vol. II, Leiden-London 1965, s.v. *dīnār* and *dirham*.  
Hitti, P. K., *History of the Arabs*, London 1943.  
Jones, G., *A History of the Vikings*, Oxford University Press 1973.  
*Legacy of Islam* (First Edition), Oxford University Press 1931.  
*Legacy of Islam* (Second Edition), Oxford University Press 1974.  
Lévi-Provençal, E., *L'Espagne musulmane au Xème siècle*, Paris 1931;  
*Histoire de l'Espagne musulmane*, tome III, Paris 1967.  
Lombard, M., *The Golden Age of Islam*, Netherlands 1975.  
Menéndez Pidal, R., *La España del Cid*, Madrid 1969.  
Messier, R. A., "The Almoravids: West African Gold and the Gold Currency of the Mediterranean Basin," *Journal of the Economic and Social History of the Orient*, XVII, Part 1, 1974.  
Miles, G. C., *The Coinage of the Arab Amirs of Crete*, New York 1970;  
*Coins of the Spanish Mulūk al-Tawā'if*, New York 1954; "A Hoard of Arab Dirhems from Algarve," *American Numismatic Society Museum Notes*, 9, New York 1960.

Newton, A. P. (Editor), *Travel and Travellers in the Middle Ages*, London 1930.

Sawyer, P. H., *The Age of the Vikings*, London 1975.

Smith, D. M., *Medieval Sicily*, London 1969.

Stern, S. M., "Tari", *Studi Medievali*, 3d Serie, XI, Spoleto 1970.

Vicens Vives, J., *An Economic History of Spain*, tr. F. M. López-Morillas, Princeton University Press 1969; "The Economies of Catalonia and Castile," Chapter One in *Spain in the 15th Century* (ed. Roger Highfield), Bristol 1972.



## أغنام المرينو ذات أصل مغربي

إن شهرةَ أغنام المرينو (Merino) وأصوافها غنية عن التعريف ، فهذه الأغنام تُعتبر اليوم في مقدمة أغنام العالم من حيث جودةَ أصوافها ، وهي في القارات الأربع مصدرٌ عظيم للثروة ، ولعلها الثروة الأولى في القارة الخامسة أستراليا . ويفضل احتكار إسبانيا لهذا النوع من الأغنام ، فإنها سيطرتُ على السوق العالمي للصوف من منتصف القرن الخامس عشر الميلادي حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

إن تاريخَ أغنام المرينو في القرون الوسطى لم يكنُ معروفاً الى وقت قريب ، وقد دار جدلٌ كبيرٌ بين العلماء حول الموضوع . وعلى ذلك ، فإن العثور مؤخراً على وثيقةٍ جنوبيةٍ (في مدينة جنوا الإيطالية) مؤرخةٍ في سنة ١٣٠٧ م تحتوي على إشارة إلى صوف المرينو ومنشأ أغنام المرينو ، ذو أهمية كبيرة لإزالة ما كان يكتنف الموضوعَ من غموض .

لقد درج بعضُ علماء اللغة الإسبان على ربط الكلمة بالاسم (maiorinus/merino) ، وهو منصب قضائي إداري في مقاطعة قشتالة الإسبانية في القرون الوسطى ، ولكن هذا التفسير لم يُعَدَّ مقبولا ، إذ إنه لم تكن للمنصب المشار إليه أية صلة أو علاقة بتربية الأغنام ، كما أن كلمة (merino) بمعنى الأغنام والصوف من هذا النوع لا تظهر في المصادر الإسبانية قبل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ، في حين أن المنصب يرجع تاريخه إلى أوائل القرون الوسطى . ولأسباب مماثلة ، لا يمكن قبول النظرية التي تربط التسمية بكلمات إيبرية أو نافارية قديمة ، أو بالكلمة اللاتينية (mera) (١) .

وكانت ثمة نظرية ثالثة تربط التسمية بكلمة (mariana) ، وتقوم على افتراضٍ عشوائيٍ بأن ملكةً انجليزيةً المولد ، إليانور بلانتاجينيت أو كاثرين لانكستر ، استوردت الأغنام من وراء البحر (marina) ، ومن ثم جاءت تسمية الأغنام بهذا الاسم . ومع أن إنجلترا في القرون الوسطى كانت تُنتج أصوافاً رفيعة ، إلا أن مميزاتها كانت تختلف عن

---

(١) لوبيز (Lopez): بينظية والعالم المحيط بها — العلاقات في مجال الاقتصاد والنظم ، الفصل الثامن يتناول موضوع اغنام المرينو (بالإنجليزية) ، لندن ١٩٧٨ ، ص ١٦٢ .

مميزات أصواف أغنام المرينو . ولم تكن إسبانيا تستورد الأغنام أو الأصواف من إنجلترا ، بل كانت تصدر الأصواف إليها منذ القرن الثاني عشر الميلادي ، وكانت تصدر إليها الأغنام منذ القرن السادس عشر الميلادي (٢) .

وعلى ذلك ، فلم يبق سوى إمكانية وجود أصل مغربي للتسمية . فالافتراض الصحيح بالنسبة لعدد من العلماء هو أن أغنام المرينو أدخلت إلى إسبانيا من بلاد المغرب وسميت باسم بني مرين (٣) ، وهي قبيلة أو مجموعة قبائل مغربية قامت بدور بارز في الجهاد في إسبانيا في أواخر أيام دولة الموحدين ، ولعل دخول هذه الأغنام إلى إسبانيا تم في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي أو بعد ذلك بقليل . ولما قامت دولة بني مرين في فاس عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٩ م على أثر انهيار دولة الموحدين وشملت أراضيها الطرف الجنوبي من الأندلس ، قام المرينيون بادي الأمر بغارات عديدة في قلب قشتالة ، واتخذت غزواتهم طابع الجهاد ضد النصارى الإسبان . وبعد نحو ربع قرن من قيام دولة بني مرين ، تناقص خطرهم على إسبانيا النصرانية بعد الانتصار الذي أحرزه أسطول قشتالة عام ١٢٩١ م ، وبعد سقوط ميناء طريف في أيدي القشتاليين . ولم يلبث أن استؤنف القتال ثانية ، وقاد السلطان المريني أبو الحسن علي عدة غزوات مظفرة في أوائل القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، ثم خففت حدة القتال بعد أن استولى الفونس الحادي عشر صاحب قشتالة على الجزيرة الخضراء سنة ١٣٤٤ م . ولعل وصول أغنام المرينو إلى إسبانيا من المغرب تم خلال فترة الهدوء النسبي التي تلت ذلك .

(٢) المصدر السابق ص ١٦٢ .

(٢) كانت قبيلة أو مجموعة قبائل بني مرين الزناتية تجوب السهول العالية في منطقة وهران بالمغرب الأوسط في منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، ولما هُزمت من قبل السلطان الموحيدي عبد المؤمن بن علي لاذت بتخوم الصحراء في الجنوب بعيدة عن سيطرة الموحدين . وفي عام ٥٩١هـ / ١١٩٥ م ، ساهمت القبيلة في الجهاد الذي توج بالنصر الكبير الذي أحرزه المسلمون ضد النصارى الإسبان في وقعة الأرك . وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي نزل بنو مرين في شرقي المغرب الأقصى ، وكانوا رعاة جل اعتمادهم على تربية الماشية . وقد أتاحته هزيمة الموحدين في وقعة العقاب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢ م ، وما تلاها من صراع على السلطة ، الفرصة لبني مرين كي يوطدوا أقدامهم في شمالي المغرب ، وللقضاء آخر الأمر على دولة الموحدين سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩ م . (جولين (Julien) : تاريخ شمال إفريقيا (بالإنجليزية) ص ١٧٢ — ١٧٧) .

ويرى المؤرخ الفرنسي لومبارد أن الصنعية مريزو (merino) هي إما نسبة لقبيلة بني مريز المغربية ، وإما أن تكون الكلمة مشتقة من الكلمة العربية (مَرِن) للدلالة على نعومة الأصواف ودقتها ومرونتها . وتمازج هضبة تل الأطلس العالية في المغرب بأغنامها ذات الأصواف الجيدة ، التي تتميز بالكثافة والنعومة والجودة<sup>(٤)</sup> .

### وثيقة جنوية مؤرخة في عام ١٣٠٧ م<sup>(٥)</sup> .

ورد في أحد بنود هذه الوثيقة التجارية المؤرخة في عام ١٣٠٧ م ، والصادرة عن قنصل الجالية الجنوية في مدينة بيزا ، ما يلي : « أنا ، سيمون ستانكوني ، الموكل من قبل باسكال أوسوديماري ، أقر بأنني تسلّمتُ من تارتارينو دي نيجرو ٤٩ كيساً من الصوف المستمى مرينوس (merinus) ، بعث بها جابريل بن باسكال المذكور أعلاه من مدينة تونس أو الأراضي التابعة لها . . . وكان الصوف الذي تسلّمته محمّلاً في السفينة التي يمتلكها بيرينجوير روس المابورقي الراسية الآن في ميناء بورتوبيسانو (Portopisano) ، وصوف يشحن منها إلى جنوا<sup>(٦)</sup> . إن جميع الأشخاص المذكورة أسماءهم في الوثيقة ، باستثناء بيرينجوير روس ، ينتمون إلى الطبقة الأرستقراطية التجارية الثرية في مدينة جنوا الإيطالية .

ويُستدلُّ من هذه الوثيقة بأن صوف المرينو كان معروفاً بهذا الاسم ، وكان يُستورد إلى إيطاليا في السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي ، أي قبل نحو قرن ونصف القرن من ظهور الاسم في المصادر الإسبانية . كما أن العبارة الواردة في الوثيقة « الصوف المستمى مرينوس (merinus) » تدلُّ على أن الاسم لم يكن قد شاع بعد ، وأن استعماله كان حديثاً . ولما كانت أراضي تونس/الريفية تمتد غرباً في الشمال الأفريقي ، ولما كان نفوذ المربين قوياً في إفريقية آنذاك . فإنه يمكن القول بصورة أكيدة بأن أصواف وأغنام المرينو

(٤) لومبارد (Lombard) : العصر الذهبي للإسلام (بالإنجليزية) ص ١٧١ .

(٥) عثر الباحث الأمريكي لوبيز (Lopez) على الوثيقة في سجلات العقود في محفوظات (أرشيف) دولة جنوا ، وكان عثوره عليها من قبيل الصدفة ، أثناء قيامه ببحوث عن موضوع آخر .

(٦) لوبيز (Lopez) ص ١٦٣ — ١٦٤ .



مي من أصل مغربي ، وأن أصلها حقيق من اسم قبيلة بني مرين (٧) .

ولكن ما هو السبب الذي جعل بعض رجال الأعمال الجيوشين يصرفون اهتمامهم الى صوف المريتو في السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الميلادي ؟ وبني جُلبت هذه الأطنام المغربية الى إستابيا ؟ كان الجيوشون خلال القرن الثالث عشر يستوردون كميات كبيرة من الصوف من جميع بلدان حوض البحر المتوسط ، لا للتيبة احتياجااتهم للحسب ، بل أيضا ليع الصوف لمدن مقاطعتي لمبارديا وتساكنيا الإيطاليةين . وكان الصوف الإفريقي المستورد ، خصوصا من مواني تونس وجيجل وبجاية ، يحتل لفترة طويلة المرتبة الأولى من حيث الجودة إن لم يكن من حيث الكمية المستوردة أيضا . ومن الممكن أن بعض ذلك الصوف مصدره لطنان قبيلة بني مرين . وطالما بقي للصوحديين السيطرة على مناطق المغرب الأقصى الشمالي ، فإن بني مرين (لي غربي المغرب الأوسط) كانوا يجدون أن من المناسب لهم أن يتفروا بأصواف لطنانهم عن طريق القوافل إلى مواني تونس/إفريقية . وكانت هذه الأصواف تغطي بصحة ممتازة . وتبين العقود المبرمة في عام ١٢٥٣م أن التجار الجيوشين اشتركوا بأثمان عالية أصوافا صونسية تجزأة أو مخدومة (lana de rotamie de Tunexi) ، وهو ما لم يحدث إلا بالنسبة لأجود الأصواف المستوردة من إنجلترا . وفي عام ١٢٦٩م ، قام مكتب الحجارة بمجوا بوزن شحنات كبيرة من الصوف من إفريقية ابتاعها تجار من مدينة طونسة . وكان من جزاء الحملة الصليبية الأخيرة التي قام بها الملك الفرنسي لويس التاسع فتح تونس سنة ١٢٧٠م أن تورط خلفاء الملك الجيوشون في نزاع غير منتهى وغير مرغوب فيه بالنسبة لهم مع سلطان تونس الحفصي ، أبي عبد الله محمد المنتصر الأول ، وعلى أثر ذلك ظلت العلاقات التجارية بين جنوة وتونس متوترة لفترة طويلة من الزمن ، ومع ذلك فقد احتفظ الجيوشون بفتحهم (عبر بضائعهم) في مدينة تونس . وتفيد وثيقة رسمية بأنه بعد ذلك بضع سنوات ، بقي عدد قليل من الصناري في مياه بجاية وجيجل ، ويكاد كلهم يكونون من مدينة بيزا الإيطالية . وتضيف هذه الوثيقة أنه ولي جيجل يسيطر البيزيون على تجارة الصوف (٨) .

(٧) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٨) المصدر السابق ص ١٦٥ - ١٦٦ .

وفي الوقت ذاته ، ازدادت فرصُ شراء الصوف الإنجليزي ، وأخذ الجنويون يفقدون اهتمامهم بسوق الصوف المغربي . إلا أنه لم يكن من المناسب لهم شراء الصوف من إنجلترا التي لم يكن يتسنى لهم الوصول إليها بحراً بصورة مباشرة ، والتي لم تكن تشتري شيئاً في مقابل بيع أصوافها ، في حين أن افريقية كانت قريبة من جنوا بحراً ، وكانت مستهلكاً ممتازاً للسلع والخدمات الجنوبية . إلا أن الوضع تبدّل حينما سيطر رجالُ الأعمال الجنويون على أهم مصادر مادة الشبّ (alum) <sup>(٩)</sup> التي كان عليها طلب كبير في إنجلترا وبلاد فلاندرز (بلجيكا حالياً) . في الفترة ما بين عامي ١٢٧٥ م و ١٢٧٨ م ، أخذت السفنُ الجنوبية المشحونة بالشبّ تُبحر رأساً الى بحر الشمال ، وأصبح الصوف الإنجليزي السلعةَ المقابلة التي كانت تعود بها هذه السفن الكبيرة . ومما ساعد على تصدير الصوف الإنجليزي في هذه الفترة ، أن ملوك إنجلترا ، رغبةً منهم في الحصول على إيرادات من ضرائب الصادرات ، خففوا من القيود المفروضة على التجارة الخارجية ، كما أن تقدّم صناعة النسيج في إيطاليا أدى الى ازدياد الطلب على الأصواف الإنجليزية الرفيعة . ولعلّ صادرات الصوف من افريقية ظلت هي الأخرى تنمو كميةً وقيمةً إلا أنها آلت الى أيدي جماعات التجار الأقل ثراءً في مدن بيزا ومرسيليا وميسينا . فهذه المدن لم يكن فيها من كبار الرأسماليين ما كان في جنوا والبندقية ، كما أنها لم تمتلك سفناً كبيرة للإبحار إلى إنجلترا ، ولذلك فإن تجار هذه المدن احتفظوا بعلاقاتهم التجارية مع موانئ افريقية ، بالرغم من الأرباح المتواضعة التي كانوا يجنونها من ورائها . أما كبارُ التجار في جنوا ، فإنهم اختاروا شراء الصوف الإنجليزي في الدرجة الأولى .

والصفقة التجارية التي أبرمها باسكال أوسوديماري وابنه من جنوا في سنة ١٣٠٧ م إن هي إلا محاولة لإحياء أُنجار جنوا بالصوف الإفريقي ، وذلك بشراء أجود الأصناف . ومع ذلك ، فإن تعامل المدن الإيطالية بالأصواف الإنجليزية ظلّ في ازدياد في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي .

بيدّ أن الحال تبدّل بعد أن قام الأسبان بتحسين أصواف أغنام المرينو بتهجين هذه الأغنام مع أغنامهم الإسبانيّة . ثم إن «الكساد الكبير»

(٩) الشبّ/ الشبة ملح معدني أبيض اللون ، يُستعمل في الأغراض الطبية ، وفي صباغة المنسوجات وغير ذلك .

(The Great Depression) الذي أصاب التجارة في منتصف القرن الرابع عشر وأواخر هذا القرن ( بعد انتشار وبأ الطاعون المعروف بالموت الأسود في غرب أوروبا وما نتج عنه من خسائر جسيمة في الأرواح مما شلَّ الاقتصاد الأوروبي ) نتج عنه هبوط في إنتاج المنسوجات الصوفية في المدن الإيطالية ، ونقص في الصادرات الإنجليزية من الأصواف ، وكذلك في تربية الأغنام في إنجلترا. كلُّ ذلك حدا بتجار المدن الإيطالية الى البحث عن مصادر قريبة ورخيصة في منطقة البحر المتوسط. ولعلَّ تجار جنوا — وكانوا على علمٍ بمزايا أصواف المرينو المغربية — لفتوا انتباه حكَّام قشتالة ومربي الأغنام فيها الى مزايا أصواف قطعان أغنام المرينو المغربية . لا بل إن المبادرة قد تكون جاءت من طرف أصحاب القطعان الإسبان أنفسهم . كما أن مربي الأغنام في مقاطعة نورماندي الفرنسية أخذوا بدورهم في الاستفادة من مزايا الأغنام الإنجليزية والإسبانية ، وذلك باستيراد هذه الأغنام للتهجين في بلادهم . إلا أن الفرنسيين لم يصبوا النجاح الذي أصابه أصحاب قطعان الأغنام في اسبانيا ذاتها ، الذين استوردوا أغنام المرينو من المغرب ، وهي المعروفة بجودة أصوافها لدى تجار جنوا ، وهجَّئوها مع أغنامهم المحلية ، فأصبح لديهم أفضل أنواع الأغنام في العالم من حيث جودة أصوافها ، وهي الأغنام المعروفة بأغنام المرينو<sup>(١٠)</sup> .

(١٠) لوبيز (Lopez) ص ١٦٧ — ١٦٨ .

## مراجع البحث

- Julien, Charles-André, *History of North Africa from the Arab Conquest to 1830*, London 1970.
- Lombard, M., *The Golden Age of Islam*, The Netherlands 1975.
- Lopez, R. S., *Byzantium and the World Around It: Economic and Institutional Relations*, London 1978.

عدد الناشر : ٤٠٠ - ٦٨ - ٨٤



## الكتاب العربي الكبار

لقد توفي : شارع غوية الميمودي - ص. ب : 3185 طرابلس - الجمهورية العربية السورية الشعبية الاشتراكية

- الماتيف : 30384 - 47287 - نلكيس : 20003 الكتاب

المرجع الرئيسي : 4 ، نيج 7101 - الماتيف 2 ص. ب : 1104 القضاة الأصلية 1000 تونس - الجمهورية التونسية

- الماتيف : 236600 - 236025 - نلكيس : 14966 كتاب

التأمين : 3,000 د.ل. - 6,000 د.ل.